جبرا ابراهيم جبرا

البحث عن وليد مسعود

رواية

مكتبة الشرق الاوسط

جبرا ابراهيم جبرا

البحث عن وليد مسعود

رواية

مكتبة الشرق الاوسط

منشورات وتوزيع
مكتبة الشرق الاوسط
بغداد كمب سارة محلة الرياض
شارع خالد بن الوليد
هاتف ٧١٨٨٣٢٧

الطبعة الثالثة ١٩٨٥

هذه الرواية من خلق الخيال . وإذا وجد أي شبه بين أشخاصها أو اسمائهـــم وبين أناس حقيقيين أو أسمائهم ، فلن يكون ذلك إلا من محض الصدفة ، وخالياً من كل قصد .

إلى

تلك التي رأت من الحياة ما رأت

وبقيت عـــلى كبريائها ، تقاوم ..

آه لماذا

علينا أن نكون بشراً ، وإذ نراوغ القدر

نتوق الى القدر ؟

لا لأن السعادة حقاً

قائمة ، ذلك النبيّ المتعجّلُ بوشيك الخسارة ....

بل لان الكينونة هنا كبيرة ، ولأن كل هذا الذي

هو هنا ، وهو السريع زوالاً ، يبدو أن به حاجةً الينا ،

وما أغرب ما يهمّنا – نحن ، أسرع الكلّ زوالاً ...

مرةً فقط ، كلُّ شيء ، مرةً واحدةً فقط .

مرةً لا غير . ونحن أيضاً ، مرةً واحدة .

مرةً لا عَوْدَ لها أبداً . ولكنْ

هذه الكينونةُ مرةً ، ولو واحدةً فقط ،

هذه الكينونةُ مرةً على الأرض – هل يمكن أبداً أن تمّحي ؟

– ريلكه

« من المرثية التاسعة »

- ١ -

د. جواد حسني يتسلم تركة صعبة

« تمنيت لو أن للذاكرة اكسيراً يعيد اليها كل ما حدث في تسلسله الزمني ، واقعة واقعة ، ويجسّدها الفاظاً تنهال على الورق . »

لعل من حقي الآن أن ألجأ إلى عبارة وليد مسعود هذه التي كثيراً ما كررهـا في أشهره الاخيرة . نحن العوبـة ذكرياتنا ، مهما قاومنا . خلاصاتها ، وضحاياها معاً . تسيطر علينا ، تحلّي المرارة ، تراوغنا ، تُذهب أنفسنا حسرات ، عن حق أو غير حق . كيف نمسك بهـذه الاحلام المعكوسة ، هذه الاحلام التي تجمّد الماضي وتطلقه معاً ، هـذه الصور المتناثرة احياناً كالغيوم فوق سهوب الذهن ، المضغوطة أحيانـاً كالماسات الثمينة بين تلافيف النفس ؟

في الشباب نخجل من الاستغراق في الذكريات ، لأن الحاضر والمستقبل أهم واضخم . ولكننا مع تقدّم السنين ، يقلّ فينا الخجل من الانزلاق نحو الذكريات . لا لأن الحاضر والمستقبل يفقدان الأهمية والضخامـة – ولو أن ذلك ايضاً ممكن – بل لأننا لا نتحمل منها الكثير إلا بطلب من المدد من تجاربنا العتيقة – تلك التجارب ، سارّهـا وأليمها ، التي تشتد في الذهن بريقاً وتشتد ابهاماً ، في آن واحد . وهات يا صبر ، وهاتي يا مثابرة ، وهاتي يا كلمات ، لتبيانها بشيء مـن الوضوح ، لاقحامها في أسطر مفهومة .

أسطر مفهومة ؟ كل سطر بسنة ، أو بشهر ، أو على الأقل بيوم .

كيف يمكن لسطر كهذا أن يكون مفهومـــاً ، وكل كلمة فيه مشدودة إلى اوتار متباعدة في فيافي النفس الفسيحة ، الملأى بأوتاد خيام ضربت ورفعت بالمئات ؟

كانت معرفتي بوليد مسعود لا تنأى عمقاً في الزمن فحسب ، أو في المكان فحسب : كانت تنأى عمقاً في ذلك البعد الانساني المتفرع المتشابك بعشرات من حيوات الرجال والنساء . كان هو اشد عنفاً مني في ردود فعله تجاه هؤلاء الرجال والنساء : كانت علاقاته تحتدم وتبرد بتلقائية فطر عليها ، وأبقى انا أداري تلك العلاقات بما كان يسميه عبقريتي الخاصة في منع التناقضات من الاصطدام ، بل حتى في دمج التناقضات دون أذى لأحد ، أو على الأقل للآخرين . كثيراً ما اتهمني بأنني لا بدّ غير موال لأحد ، ان كنت أستطيع الحفاظ على ولائي لكل هؤلاء الأناس ، وهم الذين ينجذبون الى المرء ويندفعون عنه بقوى مغناطيسية متضاربة . وأبقى أنا في الوسط ، والشعرة بيني وبين كل منهم لا تنقطع .

من المحتمل ان ذلك وهم من أوهامي . من المحتمل انني كنت امسك بيدي بخيوط علاقات وصداقات أفلتت أطرافها البعيدة وتاهت ، رغم بقاء الاطراف القريبة بيدي . غير انني كنت اتصرف كأنما الخيوط متصلة ، وكأنما الولاءات متبادلة ، رغم كل شيء . لا انكر انني كنت أصدم بين حين وآخر ، اذ اجد الشخص الآخر يتصرف فجأة كأنه لم يعرفني قط ، كأننا لم نأكل خبزاً وملحاً معاً ، أو كأنني حملت له جفاء يصرّ على مقابلته بالجفاء . ولكن امثال هذا الشخص كانوا ، في تجربتي ، قلائل ، وعلى الارجح غير مهمّين . أما أن ارى ذلك في رجل أعزّه — فتلك كانت الخيبة المرّة والجرح العميق . ومثل ذلك حدث لي مرة أو مرتين مع وليد نفسه ، وحملت منه الخيبة والجرح صامتاً الى ان جاء اليّ ضاحكـــاً ، معانقاً ، مرة أخرى . كنت أغتفر له كل شيء ، حتى مقدرته على الجفوة

الفجائية . أجد له تبريرات قد لا تخطر بباله هو ، بل قد يرفضها . ففي السنوات الأخيرة كنت ارقبه ، واخشى عليه : أرى خطوطاً جديدة تتكاثر كل يوم حول عينيه ، حول فمه . عشرين سنة عرفته ، والتراب يتحول الى ذهب بين يديه . ورأيته وهو يرفض ذلك كله ، وشيء اشبه بالتصدّع يتبدّى في كيانه ، كأن تفاعلاً كيماوياً داخلياً جعل يكشف عن نفسه في صوته ، في كلماته ، في عينيه .

كان وليد يبحث دائماً عن ذلك التوازن الذي تحدّث عنه طوال حياته ، ولم يجده قط . كان يقول ان « التوازن » كلمة تقريبية ، ولكنها تفي بالغرض قبل ان يخوض المرء في التفاصيل . في عالم من الرعب ، والقتل ، والجوع ، والكراهية ، كيف تجد توازنك الذهني ، او النفسي او الجسدي ، او الاجتماعي – سمّه ما شئت – دون ان تشعر بانك تقف من الانسانية على طرف بعيد ؟ كيف تكون انسانياً ، وتتخطى المشاكل الانسانية ؟ التوازن بالطبع كان سراباً ، يغري ولكنه لا يخدع طويلاً . ومع ذلك ، لم ييأس وليد . أو أني رفضت الظن بأن اليأس يستطيع الأخذ منه . كان يمر بازمات عسيرة : يكفر ، يسدّ اذنيه ، يعلن سطوة الشر على الحياة ، ينال منه الغضب لأيام متوالية . ولو وقف عند ذلك الحد ، لما كان في أمره ما يستحق الذكر . يجلسون في المقاهي ويتكلمون كلاماً كهذا . يلتقون في البيوت ، وينتهون الى مثل هذه النتيجة . وذلك كله أمر عادي في هذه الأيام . المهم هو أن وليد لم تكن تطول به الأزمات الى حدّ تلك البلادة تجاه الحياة وتقلباتها التي ما هي الا وجه من وجوه اليأس المكتوم الذي يعيشه معظم الناس .

والتفاؤل ، بالطبع ، يمكن هو ايضاً أن يكون ضحلاً وتافهاً كالتشاؤم . « التفاؤل بماذا بالضبط ؟ »

الواقع أن تساؤلا كهذا لا يوقف وليد طويلا . للطلاب الجامعيين ان

يتشاءموا ويتفاءلوا ، أن يشتموا ويغضبوا ، ويتصوروا أن ثمة بديلاً رائعاً يستطيعون تحقيقه . هذا من حقهم . من واجبهم . أما وليد فقد مرّ بذلك منذ سنين بعيدة ، وانتهى منه .

ماذا اذن بقي له ؟ التوازن . كيف ؟ على أية نقطة من نقاط الخط المتعرّج الرجراج يقيمه ، وعالمه زَلِق ، مقلقل ، في صعود وهبوط مستمرين يتخطيان العقل والمنطق ؟ كان يقول احياناً انه لو عاش في عصر مضى ، لربما استطاع أن يتحدث عن امكانية ايجاد التوازن في الفن ، في الدين ، في التوحد بالجمال مثلاً — على طريقة بعض قدامي المتصوفين . التوحد بالجمال بعبادته : المبالغة في العبارة ، يقول ، تبدو مضحكة . أعبادة ، وهو لم يعرفها حتى في الدين ؟ أيحرق بخوراً ؟ أيكتب قصائد لا يقرأها لاحد ويتلوها ساعات الفجر كالأدعية ؟ أيعانق امرأة جميلة ، ويتحسسها ويتشهاها حتى لحظة القذف ، ويزعم أنه عبدها ؟ وبعد ذلك ؟ ومع ذلك ، بعد التحدي ، والعنف ، بعد الصراع والضرب والمغامرة بكل شيء ، فان الجمال ، في النهاية ، هو الاهم، كان يقول . التأمل فيه ، كتأمل الصوفي في ذات الله . في وسط الضجيج ، صوت قرير . في خضمّ المتناقضات ، تناغم خفيّ محسوس : وبين اطراف الجذب والدفع ، نقطة ساكنة عميقة : عين العاصفة ، النشوة التي يعجز عنها الكلام في عالم من الهذر والخوف المقنّع .

« عندما رأيت لأول مرة ، وكنت في اول الشباب ، جماعة من الناس يتحدثون ، ثم يلتفتون حولهم مذعورين ويسألون : هل سمعنا أحد ؟ أصابني الهلع . أهكذا نخاف أن يعرف الآخرون ماذا نقول ؟ ومع السنين تكرر التلفت المذعور ، والسؤال القلق ، إلى أن اصبح امراً عادياً . اصبح الرعب جزءاً من حياتنا ، نعايشه ، ونتحايل عليه ، كيفما اتفق ، وأصبح الجزء الأكبر من تفكيرنا تفكير المتآمر ، تفكير الخائف ، تفكير المتقي شرّ الناس . تحت تأثير هذا الضرب من التفكير ،

يطلبون اليك ان تبدع ، أن تلقي بلآلىء الأصالة لتبهر أعين الذين عشيت اعينهم منذ زمان . سأبحث عن عين العاصفة ، واخلص من هذا التفكير كله . »

هذا ما قاله في احدى الصحف جواباً على سؤال احد الصحفيين اللجوجين ، قبل اختفائه ببضعة أشهر . وعندما ألح عليه الصحفي بسؤال آخر أجاب :

« أرجوك ، لا تحدثني عن الشجاعة . الشجاعة امر شخصي بحت ، قائم بين المرء ونفسه . أصبح الجهر سخفاً لا يقنع احداً ، بل لا يسمعه أحد ، كمن يضرب طبلاً بين الطرشان . الشجاعة الوحيدة التي تستحق الممارسة هي مجابهة الموت بالعضل ، بالفعل العنيف ، حيث يكون في الموت نفسه غلبة على الموت . موت الفدائي مثلاً . أما انتم ، فاسمحوا لي أن اقول لكم : انكم جميعاً جبناء تضربون للحوت طبولكم وصفائحكم ، لعله يقذف من حلقه القمر . »

في الآونة الأخيرة كان عنفه في اشتداد ظاهر . لم اشك قط في شهوته ونهمه للحياة والمستقبل ، غير انني لحظت أنه غدا أميل إلى الصمت ازاء كلام الآخرين ، وجعلت أحس أن البلوغ اليه ، إلى جوهره وسريرته ، غدا أمراً عسيراً : لقد جعل يمترس نفسه وراء جدار من الأسمنت ، كأنه يتمتع هناك بمعاقرة شراب سري غامض يرفض أن يشاركه فيه أحد .

خابرني وليد صباح يوم اختفائه . كنت في فراشي عندما دعتني هالة إلى التلفون – حوالي السادسة صباحاً . « خير ؟ » قلت ، والنوم ما زال في عيني .

قال : « جواد ، انا مسافر اليوم بسيارتي . »

– « اليوم ؟ هكذا فجأة ؟ »

– « نعم . أريد أن اودعك ، آسف لأنني ايقظتك مبكراً ،

ولكن اردت أن اضمن وجودك في المنزل ، قبل خروجك إلى الكلية . »

— « ومتى تعود ؟ »

— « اعود ؟ لا ادري . كالعادة ارجوك أن تهتم بما يردني من بريد . أوصيت خادمي فرات بأن يسلمك رسائلي . قد أغيب طويلاً هذه المرة . »

لم اسأله عن وجهة سفره ، ولو انني خمنت أنه سيذهب على الأرجح إلى لبنان ، ومن ثم إلى ايطاليا . اكثر من مرة فعل ذلك في السابق ، حين كان يطيل الغياب . وهو كل سنة يجدّد وكالتي الخاصة عنه في عدد من شؤونه ، لخشيته من أن امراً قد يحدث له فيعيقه عن العودة إلى بغداد . اما هذه المرة فراح فعلاً ولم يعد . وكان لاختفائه تلك الضجة التي لم اتوقعها قط . قال البعض إنه هاجر إلى كندا ، أو استراليا . قيل انه قتل . قيل إنه عاد إلى فلسطين المحتلة سراً . المهم أنه اختفى . وفي الأشهر الستة الأخيرة اتعبتني شؤونه كثيراً . واضطررت إلى الأجابة على الكثير من رسائله الواردة اليه ، فضلاً عن مئات الاسئلة التي طرحت حول اختفائه . ترك سيارته على قارعة الطريق الصحراوي الذاهب إلى سوريا ، على بعد حوالي خمسين كيلومتراً غربيّ الرطبة ، ولم يترك كلمة تشير إلى ما حدث . ولكنه ، بحبّه للمواقف اللغزية ، ترك شريطاً داخل المسجّلة ، في سيارته ، قال فيه اشياء كثيرة ، ولم يقل الشيء الوحيد الذي تحرّق الجميع إلى معرفته : إلى اين ذهب ؟

عندما راجت الشائعات بعد ذلك باسابيع بأنه وجد مقتولاً في لبنان — وجدت على السفح من ظهر البيدر جثة مشوهة لم يستطع احد التعرف عليها ، ولكن البعض ذهب إلى انها جثة وليد مسعود — شعرت ، بحدس ربما كان صادقاً لطول ما عرفت وليد ، بأنه فعلاً قد مات . اخذت أفكر فيه ميتاً : رأيته يتجندل بين الصخور في احدى هاويات

لبنان ، وبقيت اياماً لا استطيع الا التفكير فيه . عشرون سنة من صداقة بيننا انتثر عقدها ، ورحت أبحث عن الحبّات واحدة واحدة لعلني اجد مفتاحاً لسر اختفائه على هذا النحو .

لم يكن لديّ الاّ الذكريات ، وأوراقه المكدّسة ، المحشوة في اغلفة كبيرة ، والّتي كلما فتحت غلافاً منها أحسست كأن الزمن ينهال عليّ من كلّ صوب فأختنق تحت ركامه ، فأعيد الأوراق إلى الغلاف ، لكي استعيد حرية تنفسي .

وبقدر ما صدمت أنا مما حدث ، صدم ايضاً عدد من اصدقاء وليد . عامر عبد الحميد ، الذي لم أره يوماً يشير إلى موت أحد ، أو إلى زواج أحد ، كأنه في معزل عن عواطف الناس في حالاتها القصوى ، كان يتصور — أو كنت أنا اتصور — انه لن يحزن على موت انسان أو فراقه . وإذا الحزن يهزّه ، فينغلق على نفسه اياماً ، ويرفض رؤية الناس ، ويقلع لاسابيع عديدة عن اقامة حفلات العشاء الكبيرة الّتي كانت حياتنا الاجتماعية تغتني بها فيما مضى .

وجاءني ابراهيم الحاج نوفل مساء دون سابق انذار ، وشفتاه ترتجفان ، غضباً وحدّة ، وأنا لا أدري إن كان على وشك الانفجار حقداً أو اجهاشاً بالبكاء . وراح يضرب بقبضته ذراع الكرسي الكبير الذي جلس فيه ، وهو يردد : « مستحيل ! مستحيل ! هذه خدعة يا جواد . وليد ضحية خدعة رهيبة ! أسمعني الشريط الذي تركه في السيارة ، ارجوك .. » ولكنه لم يكن في حالة يستطيع معها الاصغاء حتى إلى صوت وليد . جاءتنا هالة بكأسين من الويسكي ، فجرع ابراهيم كأسه ، ثم نهض إلى حيث الزجاجة وملأ الكأس إلى اكثر من نصفها .

وفي ذلك المساء تلفن اليّ الدكتور طارق رؤوف يسألني عن الاشاعات

التي أخذت تتردد ، ثم قال :

— « أتعلم يا جواد ؟ ربمـــا اكون انا آخر من رأى وليد ؟ »

فدهشت ، لأنني لم اكن اعتقد أن العلاقة بينهما على تلك الدرجة من الصميمية ، فقلت :

— « هل رأيته ليلة سفره حقاً ؟ هل ودعته ؟ »

فجاء صوته غريباً عبر اسلاك الهاتف :

— « ودّعته ، نعم . ولكن أتدري أين ؟ في الرطبة ! كنا انا وكاظم معاً . ألم يخبرك كاظم ؟ »

— « لم أره منذ عودته . »

— « كنّا انا وكاظم مسافرين في سيارتي إلى اليونان . وعندمـــا انتهينا من معامـــلات جواز السفر في الرطبة عند منتصف الليل — لعلك تعرف تلك القاعة الكبيرة البذيئة التي لا هي بالمحطة تمامـــاً ، ولا هي بالمقهى تماماً — هناك رأينا وليد يدخـــل وبيده جواز سفره . حييناه ، وودّعناه هناك . وكان اشبه بالضائع منذ تلك اللحظة . »

وعندما التفتّ إلى ابراهيم لاخبره بما قال طارق ، وجدت أنه كان يتسمّع بانتباه شديد إلى سمّاعة التلفون وهي على اذني . وقال :

— « غداً سأذهب إلى كاظم اسماعيل ، لاعرف منه التفاصيل . »

وأية تفاصيل تلك التي سيعرفها ابراهيم من صديق رأى وليد ربمـــا لدقيقتين ، وكل منهما على وشك الدخول في سيارته ، في منتصف ليل مظلم ، في محطة صحراوية ؟ التقيت كاظم بنفسي بعد يوم أو يومين ، وتحدثنا عن وليد طويلاً . أمّا عن اختفائه ، فلم نعثر على أي جديد .

مرات عديدة عدت الى الشريط الذي وجد في السيارة ، أعزفه مقطعاً مقطعاً ، وأتأمل فيه . وقد عثرنا على الشريط عندما وجدنا مسجلة حمراء صغيرة ، من صنع ياباني . وفيها كاسيتة لم ننتبه اليهـــا أول الأمر .

وكانت هذه المسجلة ملقاة على أرضية السيارة ، اضافة الى المسجلة الأخرى المثبتة تحت راديو السيارة ، والتي كـان فيها شريط موسيقي عزف الى نهايته . أما المسجلة الحمراء ، فكانت متصلة بميكروفون مثبت بسكّان السيارة ، وكان زرّ التسجيل مضغوطاً . من الواضح أن وليد كـان يسجّل بصوته وهو يسوق ، قبل أن يحدث ما حدث .

عندما عزفت هذا الشريط وجدت انه ينقل ، أولاً ، الموسيقى التي كانت تصل الميكرفون مـن المسجلة الأخرى المثبتة ، وهي « متواليات الهاربسيكورد » لهنري بورسيل (كان اقتناها في الآونـة الأخيرة ويكثر من عزفها) ثم يبدأ الكلام . وهو ليس دائماً كثير الوضوح لأنه مشوب لا بالموسيقى فحسب ، بـل بهدير السيارة . أي ان وليد كان يسجل ، وهو يسوق — عـلى الأرجح بسرعة فائقة . ولكن الكلام يسترسل ، يتقطع أحياناً ، ويتواتر أخرى . انه صوت وليد نفسه ، دونما ريب .

أدهشني الشريط عندما سمعته أول مرة ، وبقي يدهشني . لسبب لا أستطيع تحديده ، شعرت أن وليد أراد تضليلنا جميعاً بهـذا الشريط « الأخير » . أم انه أراد ، وللمرة الأخيرة أيضاً ، أن يصارحنا جميعاً ، ويضع أوراقه على الطاولة ؟ أين الوجه وأين القناع ؟ أي الاثنين عرفت منه طوال عشرين سنة طارت وكأنهـا يومان ؟ وحتى إذا اعترفنا بأن وليد كان تحت تأثير تجربة أليمة جداً ، بل بين فكيْ كآبة سوداء تجعل لكلامـه سيولة الهذيان ، كضرب من آلية دفاعية يحاول أن ينقذ نفسه بها ، فان الشريط يحمل كلاماً يجب وضعه في الحساب . لم يكن فيه ما قد نعتبره أشبه بافادة متهم ، أو أشبه برسالة « الى المحرر » يدافع بها رجل عن نفسه ضد طعن ما في مجلة أو جريدة . (على كل ، لم يكن وليد ليفعل شيئاً من هذا القبيل طوال أيام حياته . فكلما هاجمه أحد ، أجابه بصمت ملؤه الاحتقار .) لقد تعمّد وليد أن يتخلى عن المنطق —

على الأقل ظاهرياً . ومن الصعب أن نعرف ما الذي بالضبط جعله يسجل كلاماً كهذا على نفسه ـ وفي ذلك اليوم بالذات ، يوم اختفائه .

بعد أكثر من شهرين مرّ بنا عامر في احدى الأماسي وطلب إليّ أن اسمعه الشريط . وسألني : « هل يذكر اسماء عديدة ؟ »

قلت : « يذكر خليطاً من الأسماء . »

— « معروفة ؟ »

— « بعضها فقط . اشاراته اليّ حقيقيّة . فربمـا كانت اشاراته الى الآخرين ايضاً حقيقية . »

وعزفنا الشريط ، وعامر يدخّن ويصغي بتركيز شديد . ووجدنا أن اسماء اصدقائه في طفولته لا تعني لنا شيئاً ، وكذلك اسمان أو ثلاثة لم نعرف كلانا من المراد بها ، وبخاصة ذلك الأسم الواحد الذي يتردد أكثر من غيره ، والذي ينتمي على الأرجح الى الفترة الأخيرة من حيـاته : شهد .

من هي شهد ؟ لست أدري . ولم يعرفها عامر ايضاً ، مع ان بيته كان ملتقى معظم الرجال والنساء الذين يختلط بهم وليد . لمَ حجب ذكرها عني ، وكان يبدو أنه يصارحني بكل خفاياه ؟ منّ هي هذه العسلية الّتي أصرّ على التكتم بشأنها حتى في لحظاته الأخيرة ؟

ضحك عامر . « اربعون غرفة لنا أن ندخلها كلها ، ولكننا نصر على دخول الغرفة الوحيدة الّتي اغلقت دوننا ! لابأس ! سندخلهـا . عندي فكرة . »

— « وهي ؟ »

— « إذا كنت لا تمانع ، فانني اقترح أن ادعو عدداً من اصدقاء وليد إلى منزلنا يوم الخميس القادم ، ونفاجئهم بعزف الشريط ... »

– « ولكن لا أظن أنك ستحصل على جديد . وليد لا يتّهم احداً . ولا يفضح احداً . »

– « لو كان في الأمر فضيحـــة ، أتعتقد انني كنت افكر في امر كهذا ؟ »

لم اكن مطمئناً إلى غرض عامر ، فهو لا يخلو من ميل إلى العبث الماكر دون ان يبدو على وجهه أنه يضحك في سرّه . قال : « أجد كلام وليد هنا غامضاً ، يائساً ، بريئاً فرحاً – كلها معاً . فلنجعل من الشريط مناسبة للحديث عن صديق يهمنا جميعاً . على كل ، سنجعل الحلقة مقصورة على المقربين فقط . »

وافقت بعد تردد . لم أعط عامر الشريط ، وقلت إنني سآتي به معي في مساء السهرة . وجلست انقل كلامه المسجل على الورق ، كما جاء بالضبط ، سيّالاً متداخلاً ، لكي أقرأه واتقرّى تفاصيله ، وأضيفه إلى اوراق وليد الأخرى ، وكتبه ، لعله يساعدني في الدراسة التي قررت أن اكتبها عنه .

كان الخميس يوماً قائظاً . وجاء الليل واعداً بشيء من نسيم ، عندما تلقّانا عامر عبد الحميد بباب داره مرحّباً ، وعانقت هالة زوجته آن بحرارة . وسرنا رأساً نحو الحديقة الكبيرة ، من خلال الجهنميّات وسعف النخيل المتهدلة ، إلى بقعة بليلة الثيّل ، وعلى مقربة منها تنفث بضع نوافير مياهها في الجو فتتساقط كالمسابح الفضية في حوض ازرق مستطيل ، ترتعش اضواؤه من خلال الماء . وقد جعلت الكراسي – على غير العادة – في دائرتين صغيرتين في ركن من الحديقة ، مما اوحى إليّ أن المدعوين لن يكونوا كثيرين هذه المرة .

ناولني فاضل كأساً ، وناول هالة عصيراً ، وبعد قليل دخل الدكتور طارق رؤوف مع زوجته سميرة واخته الصغرى وصال ، التي لم نكن –

أنا وزوجتي – نعرفها معه . ثم جاء ابراهيم الحاج نوفل ، وبعده بقليل كاظم اسماعيل ، تلاهما في منتهى الأناقة (هؤلاء العزّاب المساكين !) ، وسُرّ ابراهيم جداً عندما رأى مريم الصفّار تدخل (اعجابه بها لم يعد يخفى على احد) ،وبرفقتها جنان الثامر وسيدة فلسطينية لم اكن رأيتها من قبل ، عرّفتها مريم علينا باسم رباح كمال . وكان آخر القادمين احسان البصري وزوجته نهاد . لم أدر إن كان عامر قد اخبر ضيوفه مقدماً بما كنا قد اتفقنا عليه ، ولكنه ، مهما يكن من امر ، قد أفلح في دعوة عدد من الناس لم يكونوا في الآونة الاخيرة ليجتمعوا تحت سقف واحد ، سواء لديه او لدى غيره . وبدقته المعهودة ، تأكدّ من استحضار مجموعة من الرجال والنساء يعلم أن كلمات وليد قد تهمهم ، أو انهم فعلاً مذكورين في الشريط (صراحة او ضمناً) ولم يغب عني أن النساء كنّ اكثر من الرجال بقليل .

لم تكن مريم تثير اهتمام ابراهيم فقط – بل اهتمامي أنا ايضاً ذلك المساء ، لانني اشتبهت منذ البداية ، في انها هي المقصودة باسم شهد . وقد تقصدت الذهاب اليها مباشرة قبل أن تأخذ مقعداً لها قرب أحد ، وإذا هيَ تفاتحني بقولها :

– « دكتور جواد ، هل التقيت بالسيدة رباح ؟ »

ولما قلت لا ، قالت :

– « أتدري من عرفني عليها ؟ وليد مسعود . في لبنان ، قبل خمس سنوات . »

فقالت رباح : « من المؤسف انني لم آت الى بغداد إلاّ بعد أن... بعد أن ... غاب عنها وليد . حيثما ذهبت وجدتهم يذكرونه ، كما في بيروت تماماً ، لم أكن أتصور أن له هذا العدد الكبير من المعارف هنا أيضاً . »

فكرت لنفسي : ماذا ؟ امرأة أخرى في حياة وليد ؟

فقلت : « اذن كنت تعرفينه ؟ »

قالت بشيء من الاستحياء لم يحجب لمعة غريبة في عينيها : قليلاً ... منذ زمان ... »

— « منذ زمان ؟ ... »

— منذ أن كان في القدس . في اواخر الأربعينات . » ثم اردفت : « كنت مراهقة ايامئذ . »

فهتفت : « رائع ! »

غير انها هزّت رأسها . « لا ، لا تتوقع مني منجماً للمعلومات عنه . اخبرتني مريم انك تكتب عنه كتاباً . لعلك تعرف أنت عنه ، حتى في تلك الأيام ، اكثر بكثير مما اعرف أنا . »

وأحسست أن في صوتي نبرة صريحة من الترجّي حين قلت : « اريد أن اعرف شيئاً اكثر عن ... خلفيته ... طفولته ... أبيه ... أمه ... »

وهنا ضحكت رباح : « لا ، انا لم أعرفه في تلك الأيام المبكرة . »

فقلت يائساً : « من إذن كان يعرفه ؟ »

— « هناك فلسطينيون كثيرون كانوا يعرفونه . أتدري من يستطيع أن يخبرك عن طفولته ؟ صديق قديم من اصدقاء عائلته ، التقيت به قبل سنوات في عمّان . بمحض الصدفة . كنا نؤثث بيتاً لأخي ، فذهبنا إلى نجار معروف هناك اسمه عيسى ناصر . محلّه مشهور . ولما علمت انه من بيت لحم ، سألته ، كما قد تسألني أنت : أتعرف رجلاً اسمه وليد مسعود ؟ ففرح لسؤالي ، وقال : وهل تعرفينه أنت ؟ قلت : صديق قديم عزيز ... قال : حسناً ، سأرتب لك خصماً عشرة بالمئة ، من اجل وليد . »

— « وهل اخبرك شيئاً عن حياته ؟ »

— « لم ادخل معه [illegible] بيل . ولكنه حدثني اكثر من مرة عن معرفته بأبيه ، وأمه ، [illegible] . على كل ، إذا لم يكن قــد اصيب بأذى في احداث ايلول ، فانه ما زال في عمّان ، ولا شك . »

— « ما اسمه ، رجاء ، مرة اخرى ؟ »

— « عيسى ناصر . »

واخرجت دفتري الصغير وسجلت اسمــه . ثم التفت إلى مريم . « اتعرفين حكاية الشريط ؟ »

فاندهشت . « أي شريط ؟ »

— « الذي تركه وليد في سيارته ؟ »

— « وماذا به ؟ »

— « يتحدث به عن ماضيه ، عن طفولته ، وغير ذلك »

أحسست رغم خفوت اضواء الحديقة ، بأن لونهـــا انخطف ، إذ قالت : « وغير ذلك ؟ مثلاً ؟ »

— « عن حبّه ، مثلاً . »

— « حبه ؟ هل بامكاني أن اسمعه ؟ »

— ستسمعينه . »

يبدو أن عامر لم يستطع الانتظار إلى مـــا بعد العشاء ، إذ في تلك اللحظة جاءني مقاطعاً ، واعتذر للسيدتين ، وجرّني مـــن ذراعي ، ثم اخرج قلماً من عبّه وجعل يضرب به كأسه ، ورفع صوته قائــلاً : « يا جماعة ! يا جماعة ! »

فانقطع اللغط ، واتجهت الوجوه صوبه ، وهـــو يجيل بصره بين الضيوف . ثم قال :

« أنا والدكتور جواد هيأنا لـكم مفاجأة صغيرة ، نعرف انها ستسركم جميعاً . لعلـكم سمعتم أن وليد مسعود ، يوم اختفائه ، ترك في سيارته

شريطاً سجل فيه كلاماً ممتعاً ، سيروق لكم أن تسمعوه . والشريط في حوزة جواد . وسيحدثكم هو عنه . ارجو أن تجلسوا جميعاً . »

ومد يده إلى ذراعي ، قائلاً :-« تفضل . قدّم الموضوع . »

أحسست بحرج شديد ، بل بحزن مفاجيء حتى كدت أشهق قبل أن ابدأ بالحديث . قلت : « الواقع ، أن الشريط هو الذي سيحدثكم ، وقد سجله وليد في السيارة في سفرته الأخيرة المشؤومة . ولو لم تكونوا جميعاً اصدقاء وليد ، لما ضيّعنا وقتكم به ... » وفي تلك اللحظة وقعت عيني على وصال رؤوف ، اخت الدكتور طارق ، لقربها مني ، ولحظت أن فكّها سقط ، وعينيها اتسعتا بشكل غريب . وخيّل الي أنّ دهشة غير سارة بدت على معظم الوجوه . فسارعت إلى تطمين الجميع . « ارجو أن تعلموا مقدماً أن وليد لا يذكر احداً منكم الاّ بالخير . العفو ! أنه يكاد لا يذكر احداً منكم باسمه سوى — على كل ... تفضلوا ، واسمعوا . »

وناولت عامر الشريط ، فأخذه إلى المسجلة التي كانت على مائدة قريبة ، وأقحمه فيها . وقبل أن يضغط على زر العزف ، التفت وقال : « جددوا كؤوسكم ، رجاء . » ودار فاضل عليهم بصينية محمّلة بالشراب ، ثم انسحب ، وشغّل عامر المسجلة .

بدأت الموسيقى ، بغير ما وضوح كثير . فرفع عامر الصوت اكثر . وجلجلت نبرات وليد من سمّاعتي الستيريو الكبيرتين : نبرات آليّة ، غريبة ، نعرفها ولا نعرفها . والكل يصغي ، ولا يتحرك احد في مقعده . والصوت ينطلق في فضاء الحديقة ، مع الهدير والانغام التي تعتوره ، كأنه قادم من فضاء آخر عديم الصلة بنا اولاً ، ولكن الصلة شيئاً فشيئاً تشتد لينتمي الكلام ، بشكل ما ، الينا :

« كيس للكتب أخضر بلون الزيتون يمتلىء بالكتب والدفاتر والأقلام الرصاص والأقلام الملونة أيام المدرسة يعلّق بالعنق وينتفخ تحت الذراع على الخصر بأسراره الطفلية كتاب سير الأبطال أسماء غريبة هرقل ويولسيس وأخيل وفطرخلس وفريام ما صدر البيت وقد ولى الظلام هاربا فالشكر لله الأحد شكراً عظيماً واجبـــا أخذت الكيس وأفرغته من الكتب على عتبة الشباك ورحنا أنا وسليمان وعبد نقفز في الحواكير الى أشجار الزيتون جداد الزيتون مستمر ونحن نلقط البقايا القليلة التائهة بين الأشواك والحجارة والتراب أو العالقة بالأغصان العالية تهتز وتضطرب والأقدام تتشبث بدراية والعالم كله أشجار زيتون عارية ومثقلة يا ولد ابعدوا عن تلك الشجرة لم نصلها بعد نحن نصيّف فقط والغيوم البيضاء كالحملان السارحة في حقول السماء الزرقاء آه جون كيتس أيها النجم الساطع ليتني مثلك ثابت ونحن أطفال عمري ثماني تسع عشر سنين لو كان لدي مال قال الشيخ سالم بكل جدية لعلّمت هذا الولد على حسابي نأكل الأرز مع قطعة من لحم والكاهن بلحيته البيضاء الكبيرة المنتشرة على جبته السوداء اللامعة يخلع أسنانه المستعارة ليضعها في كوب من الماء ويغسلها أمام الجميع ويختفي فمه تحت شاربه الكبير قلت لها لا أريد شارباً سأحلقه دائماً قالت لو تجعل لك شارباً كخط أسود فوق شفتك العليا كأنه مرسوم بالفحم فتشبه أبطال السينما ولا سيما الأنذال الوسيمين الذين يغنمون الفلوس وشفاه النساء ولكني احبك بشارب وبدون شارب وهي غارقة في الكرسي الكبير ونهداها ككرتين من عاج وتنورتها حاسرة ملمومة حول خصرها وفخذاها يستقبلان حرارة النار اللاهبة على مهل في الموقد الأسود الكبير أيام كنا نذهب الى البحر ونتلقى الريح العاصفة الجليدية وأفراس الزبد تنبثق من أواسط البحر وتتراكض الى الساحل لتتلاشى على أقدامنا المكافحة في الرمل الطري الناعم البليل وشفتاها باردتان عاطرتان مرصعتان بالرذاذ وخدّي على شعرها الطائر وشعري يطير رغم أصابعها المغروزة فيه ونمد رأسينا من نافذة القطار الضاج الصافر الهادر عبر الأراضي الخضراء

عدني هل تعدني بألا تكبر بألا تشيخ وأنا أعدك بأن أبقى كما تراني الآن وسعة العينين كبيرة الفم وجسدك كالحشيش الأخضر أتمرغ فيه كما حلمت بك وأنا أسمع الموسيقى في بهو المدرسة أراك جالسة بين أغصان محملة بأوراد ككتل من الثلج وقدمك تتدلى وتهتز شجرة زيتون لا لم تكن شجرة زيتون لا أستطيع أن أنسى أشجار الزيتون والتربة الحمراء والكهوف الظليلة الباردة نأكل فيها التين والعنب تتدلى العناقيد الكبيرة من الكروم وتستلقي كالحبالى على الأرض الحمراء وطنين النحل والدبابير قضينا النهار نحاول حرق المدبرة وهاجمتنا الدبابير ولدغتني وورم وجهي لماذا لم تغطّ وجهك بمنخل أو غربال من أين لنا منخل في الوادي وهم يتصايحون حولنا من جبل الى جبل حتى النساء يتخاطبن عبر الفضاءات الزرقاء بلا سلكي الهواء مريم مريااااام جيبي الغدا لابوي صرة صغيرة فيها رغيف من خبز الطابون وبيضة مسلوقة وزيتون وخيار مخلل يضحك ويقول الدنيا مثل الخيارة أبي الذي قبل أن يموت كان ملقى على أرض الغرفة كسنديانة ضخمة أسقطتها الريح وكانت له حكايات عن خبز البلوط أيام السفر برلك والمجاعة ولدت بعد المجاعة والطريق تركض تتباعد بنا كنا في لوري والطريق البيضاء تنساب من خلال الغبار تهرب منّا منّي والتلال تهرب والحجارة حجارة الكيلومترات التي تعلمت قراءتها بعد أن كبرت واستطعت أن أقرأ الرزنامة التي كُتب عليها ١٩٢٧ آب أيلول تشرين وياسمين وريّا حننت الى ريّا ونفسك باعدت مزارك أم أنني كنت هارباً فالشكر لله الأحد من صوتها يديها أصابعها الصغيرة تنسج قماشة الليالي وتطبع القبلات وتكشف عن سرّة كرصعة الخدّ في بطن أملس كتلّة من تلال الأفق البعيد حيث لا نرى إلا طيوراً سوداء تسبح وتتلاشى هل الجنة هناك وراء السماء حيث تلتقي السماء بالافق ولو بلغت ذلك الافق البنفسجي على الجبال الزرق لفتحت ثغرة في السماء ودخلت منها الجنّة آه يا مسكين يا جاهل الى متى تبقى تحلم بالعبور الى عوالم أخرى وما لديك إلا هذا العالم القاسي العنيد عليك أن تقارعه ولا تخشاه تعلمت ذلك في المدرسة

وأصابعي تعجز عن المسك بالقلم لشدة البرد فأنفخ فيها وامسك بالقلم وأكتب ولا تأتي الأسطر مستقيمة كما أريد ولا يسجل القلم كل الكلمات التي تتهاوى من دماغي وشفتيّ وأكاد أراها تتبعثر على المنضدة وتتساقط حولي والتقطها من جديد وأصابعي متجمدة والمعلمون يروحون ويجيئون وأحذيتهم تنقر الأرض العارية وينظرون من خلف رؤوسنا المطأطئة على الورق وأقول للمعلم الدنيا برد فيبتسم ويقول شاب مثلك يشكو من البرد عيب يا شيخ اكتب اكتب فأكتب وأكتب ونخرج الى الطريق البيضاء بالثلج سليمان وعبد ويوسف وبشارة وصالح وأولاد الحي كلهم وتصيبني كرة من الثلج هشة ناعمة على صدري وأحفن الثلج وأكوّره وأضرب واصيب وأحفن وأكوّر وهو بارد جداً أولاً ثم لا احسه بارداً وأشعر بالدفء في أصابعي وكرات الثلج تتطاير بيننا تضرب الوجوه والظهور والجدران والثلج يخشخش تحت الأقدام وأدوس في حفر من ثلج ذائب ويتسرب الى رجليّ وأشعر بالدفء والبرد معاً وامي تصيح من الباب لا أدري على من ربما عليّ والسماء زرقاء نظيفة والشمس بيضاء باردة آه على كوب من الشاي يا شهد اسمك غريب مثلك آ كلك الحسك كالشهد أنت رجلي المثالي منذ سنين الا تدري أم انك تتقصد الهرب مني سأهرب أنا منك أيضاً بعد أن أوقعتني سأهرب لأنني دائماً أهرب أركض الى ان أقع على وجهي وأنا آخذ وجهها القرير بين يـدي ولأتمعن في عينيها وأنفها وفمها البارد الطيب لن أهرب بعد بعد اليوم وفي اليوم التالي هربت وسافرت وأرسلت اليّ بطاقة من بيروت أجبتها برسالة في سطرين أوثلاثة قال الله فليكن الحب فكان النعيم والجحيم واذا الواحد يشبه الآخر فأحب الله كليهما وهذا جوابي على سؤالك القديم لم الحب يملأه الحزن كأنه بداية الفراق وجاءتني رسالتها الطويلة التقيت بابنك مروان ما أجمل عينيه وهما تلتمعان من خلال الكوفية الملتفة حول رأسه وقلت له خذوني معكم وعلموني ضرب النار يبدأ الحب وتتكرر البداية والنهاية في الافق البعيد حيث السماء تنطبق على الأرض في الأيام الصاحية

والشمس كنار منهمرة وأنا أبحث عن ظلّ اريد أن أقرأ أن افكر أن أبكي لأحزان أعرفها ولا أعرفها وكلها سأعرفها يوم يتم الفراق ويموت الأعزاء وتمتلىء البيوت بالضجيج وفي الليل يتجاوب العواء والنباح من تلّ الى تلّ ومن واد لواد وأنا مستلق على سطح الدير العتيق قرب الأجراس أعانق حجراً سقط عن عموده ما أجمل الأعمدة واقفة أو مضطجعة وفيها صدوع الشموس وبثور الأمطار شتاء بعد شتاء لقرون تلو قرون انها الموسيقى التي لا أستطيع التخلّي عنها كالمدمن سراً لا يستطيع اطلاع أحد على أحلامه اللذيذة الماكرة الرهيبة وشهد تمر بي في سيارتها وتعود لتخطف أمني واطمئناني وتهدد بأنها لن تعيدهما اليّ إلا إذا نقدتها ألف كلمة تضعها في عبّها بين نهديها أنا الغنيّ وأموالي الكلمات :

قلت الها خيّة خيّه	اسقيني شُرْبة ميّه
وأنا رايح ومروّح	ومنقي درب القُبليّه
قالت لي اشرب واتهنى	يا ريتو صحّة وهنيّه

وأتكلم بكل لغات الأرض وبشارة يقول هذا كلام أبيك وحكاياته وأشعاره ونحن مختبئان في شجرة اللوز الكبيرة المشرفة على الطريق الجديدة نقرش اللوز الأخضر الكبير بأسنان تضرس أحياناً للحموضة اللذيذة ومريم في الحاكورة تطعم الدجاج ثم تتلفت حولها وتشمر عن ردفيها الصغيرين وتقرفص قرب الجدار الى أن تسمع كركرتنا وتنهض مذعورة وتهرب كاحدى دجاجاتها وتأتيني ببيضة ما تزال حارة وتقول الآن باضتها الدجاجة البيضاء أعرفها صديقة ذلك الديك الأحمر السمين الذي يروح ويغدو مختالا بين اناثه وكأنه يملك مزابل الدنيا كلها ولكنه على الأقل كديك ربابة ربة البيت ديك حسن الصوت ومريم تفاخره بصوتها القويّ الحادّ وتزعم انها تستطيع أن تصرخ فيسمعها الناس من على جبل خريطون ولكن جبل خريطون نادراً ما يكون فيه اناس ليسمعوها من جبل الفرديس ألعلّه الفردوس الذي آ

أذكر تفاح المجانين الذي تحمله شجيرات صغيرة بين الصخور أحمر براقاً صقيلا تستقر التفاحة في الكف كالجوهر مغرية بنعومتها وحمرتها وأخشى أن أذوقها والمجنون الذي رأيناه مغلولا في تلك الغرفة الحجرية المظلمة في دير مار جريس كم كان وديعاً وكثيف الشعر واللحية ثم صار شرساً أهوج صرخ وعاط إلى أن انهارت قواه ومتّ خوفاً منه كما متّ خوفاً على ريمه ألعله أكل من تفاح المجانين الذي يملأ فراديس الدنيا كما أكلت ريمة حتى العربانة العتيقة التي ركبناها ظهيرة يوم من أيام تموز في طرقات بغداد من الكرادة الى الوزيرية وكأنّ في قربى منها والتفاح الأخضر في كيس الورق في حضنها برودة الجبال ونسمات الربيع ونحن نخشى أن يلتفت الينا العربنجي مع انه كان يعلم اننا نتغازل وراء ظهره وهو ينوش حصانيه المسكينين برفق وهل من يريد أن يستعجل الزمن أو يختصر المسافات وعندنا تفاح يكفي لخمسين حواء :

قلت لها خيّه خيّه اسقيني شربة ميّه

ولكن ساهرة لا تعرف للخطيئة الاصلية معنى وعذرتها في ريعانها كوردة من ورود بغداد الحمراء الجنونية وعيناها الواسعتان تشعان بخواطر محرقة كالنيران الجائحة في ليالي الجفاف الذي يبدو أحياناً انه لن ينتهي وهل ينتهي مثلا في الرابعة صباحاً عندماينطلق أول صفير متردد من عصفور حيي في الحديقة ثم يعود الصفير مرة اخرى فأخرى ويتشجع البلبل وينوّع اغنيته قليلاً وينضم اليه عصفور آخر فآخر الى أن تصدح أوركسترا العصافير بكاملها من على مجاثمها في الأشجار التي أخذت تستفيق مع أول خيوط الفجر ما أكثر ما رأيت تلك الخيوط وهي تتحول من الأسمر الى الأشهب فالأزرق فالبنفسجي وكأنما الدنيا ستذيب همومها في مساحات الألوان الساطعة التي تسبق بزوغ القرص الأصفر الدامي ولكن ليس هذا ما أردت قوله هذا الذي خبرته آلاف المرات حتى ما عاد يدهشني وان كنت دائماً مهيأ

للدهشة نفسها كأنني كلما سمعت النغم نفسه عاودتني العواطف نفسها بحدتها العتيدة الزائلة الباقية كمياه النهر الجارية تتراكض بعيداً وهي ما زالت حول رجلي المتدليتين من الزورق وأنا اطرطشها وهي تهز رأسها لترفع الشعر الطويل عن عينيها وتتلو Margaret are you grieving over goldengrove unleaving أتحزنين يا شهد على آجام الذهب وهي تنضو عنها أوراقها كما نضوت عنك ثيابك ورقة ورقة حتى الورقة الأخيرة والحزن يترقرق على وجهك ونهديك وبطنك وتقولين لا هذا كثير مستحيل أتراني جميلة كشجرة هزت الريح عنها أوراقها والحب لها حزن كالمطر المنهمر والصباح غريب يرى من النافذة الكبيرة كصور مجمدة على شاشة سينمائية يتوهج فيها الحنين والغموض والتوق والسر والألم مروان مروان ها ويبقى الألم أدري أدري كما في بعض الصور السريالية عين على عين حوراء كحيلة دامعة والمطر يضرب النوافذ ويترقرق سيولاً على الزجاج والباب مفتوح أو نصف مفتوح ثم ينغلق صمتاً كباب سجن قديم لا تدري بالبراكين التي تضطرب وراءه يبكي كعاشق لم يعتد البكاء وكل دمعة كالسكين في الجرح يا مروان وفجأة تملأ الشمس الدنيا وتزمر السيارات وتهدر مارقة خلال الغبار صائحة ها ويبقى الألم حتى في المشاهد النائية الفسيحة حيث البحر والمراكب والصيادون وحيث الغابة وآجام الذهب تنضو عنها أوراقها لتكشف عن الوحوش التي داهمتها رياح الخريف ففرت معها الملائكة وهي تصيح ها ويبقى الألم أف لا ليس هذا ما أردت أن أقوله فلأقلب الشريط .

أتساءل هل أريد الموت أنا أيضاً ولكنني أعرف الجواب منذ زمن طويل ولم تبق ضرورة للوقفة المسرحية آخذاً جمجمة يوريك بين يديّ وجماجم أخرى تقذف بها مسحاة الحفار كل لحظة لأتذكر أن الضحك كله والروعة كلها ستلتهمها سيدتي المصون دودة وما همني من يلتهمها بعد اليوم وطريقي الصحراوية لا تنتهي ولا اريدها أن تنتهي فهي أروع من الرؤوس كلها والعيون كلها والشفاه كلها كما كان يقول ابراهيم عندما اكتشف وزجاجة

العرق بين يديه ان الحياة أحلام ثم قال بل كوابيس لأنه تذكر المرأة التي رآها تطير أشلاء في لحظة انفجار القنبلة لا لذنب جنته وركز عينيه في الزجاجة والكلمات كالضجيج بين شفتيه المتمردتين قائلا كلنا أنذال وقلت وأوفيليا قال وأوفيليا وان كانت أشرف مني ومنك لأنها في عالم من الأنذال والخونة استطاعت على الأقل أن تنتحر ولكن الحياة تبقى أهمّ منها ومني ومنك أهم من الرؤوس البديعة والعيون الواسعة والشفاه العريضة كان دائماً يناقض نفسه وكنت أحسب أنني أكثر منه انسجاماً مع منطقي الى أن أف لا أريد أن اذكر ذلك وهكذا بضربة واحدة ينقصم الظهر وطار المنطق وتهشم العالم وانتهى وليقل ابراهيم ما يشاء عن أهمية الحياة بين حشود الأنذال والخونة وسط لزوجة الوحل والأسن ووجه شهد كالجوهرة كتفاحة المجانين وهي تعرض لي حلمتيها كنذيرين بالثواب والعقاب التقمهما وأجن وهي ترفع تنورتها أكثر فأكثر لتقنعني أن لها أجمل فخذين على ضفاف دجلة منذ أن أخفقت عشتار في إغراء كلكامش وأنا القرد المشعر في صدري صرخة الغابات الأولى تتصاعد إلى حنجرتي فأذيبها كلمات من لبن وعسل وحضارة ورقة لا تحتاج إلاّ إلى موتسارت ليلحنها لكي تغنيها زرلينا وبيني وبينها هذه الصحراء العريضة وأغار من يدي لأنها فعلت ما فعلت وأحست ما أحست وقلت لو أستطيع أن أضع الأحاسيس اللذيذة في صندوق مخملي لشعشعت كالماس في ليل بهيم في عالم من البهائم يقرطون الحصى ويلعبون بخصيهم فيما عدا جواد حسني يأتيني كل يوم بقصة وأعلم أن حبّه هو الوحيد الذي لا يمحّض ولا أستطيع أن أقنعه بأن توازني قد تدمّر ورجحت في كفة الظلام والبهائم ما هذا لعله صقر لا غراب أو حدأة تحوم النسور في سماء الوديان العريضة بين جبل وجبل لا تكاد الشمس تنخفض حتّى ينطلق نسران أو ثلاثة وإذا هوت على طير أو حيوان لا هذا غراب أكيد هذه غربان تختصر العمر كله من أقاصيص كليلة ودمنة وحكايات لافونتين إلى وقائع الجثث التي ملأت الأرض حيّة كانت أم ميتة وأفعم النتن منها الخياشيم وزكم أنوف أهل الفضيلة وأهل الرذيلة معاً

ولكن كيف تميزهم أبأنوفهم المعقوفة كالسيوف ها ها أبآذانهم المسطحة كالمناسف هاها أبراطمهم المدورة كفتحات البواليع وهذا غراب آخر وآخر غراب غراب أينما أنظر لا أرى إلاّ الغربان فظيع ضرب الزجاجة كيف لو تحطمت أهي رائحة الموت تحملها حتى ريح الصحراء كريح المستنقعات قالتها بلهجة أدهشتني أنت بطة بريّة ما الذي تفعله بين هذه الطيور القعيدة في المستنقعات أهرب أيّتها البطة البرية أهرب اهرب قبل أن وضحكت أنا من شاعريتها وقلت أين أهرب قالت أهرب أينما يأخذك جناحاك وكتبت ذلك فيما بعد بخط انكليزي أنيق في رسالة وعنونت الغلاف توذي وايلد دّك وسلمتني الرسالة من سيارتها وأنا واقف على الرصيف وانطلقت بالسيارة وهي تقول أهرب قبل أن يفوت الأوان وفات الأوان دائماً يفوت الأوان دائماً نصل متأخرين حيث لا يفيدنا طيران ولا أجنحة وتغزونا الغربان في وضح النهار وحلكة الليل لا فرق لا فرق لا فرق لا فرق لالالالالا قبل عشرين عاماً كنت أقولها بكبرياء وقبلها بعشرة أخرى كنت أقولها بغرور وعناد والآن أقولها بغير ما اكتراث ولكن جذورها في الصدر والكبد والأحشاء ولا يهمني من يسمعها فالممثل ما عاد يهمه من هم هؤلاء الجالسون في القاعة بل لا يهمه إن كانت هناك قاعة مادام هو في وسط الخشبة يطلق صرخته في رحم الظلام قبل أن ينسدل الستار وتأتي شهد عبر الفرات وعبر البادية لتلقى حبيبها وهو يقذف بالكلمات في رحم الظلام الأنثى التي تحبل بالمستحيلات وتحتفظ بالبوم والغربان والبلابل بين فخذيها حتى ساعة القذف والموت وإحسان ما زال يناقش ابراهيم ولسانه يكاد يعجز عن الحركة في فمه ويده ترتجف كيد ابراهيم وقد بلغ ذروته إذ صاح وعيناه مترعتان بالدموع كلهم خونة كلهم خونة ولم يبق له بعد ذلك إلاّ الهبوط إلى مهاوي واقعه الذي هو كابوسه اللامنتهي حتى مقدم ليل آخر وظلام آخر وأنثى أخرى بين فخذيها اللذة والرعب والموت يوماً بعد يوم كمسرحية ملودرامية بذيئة لا بد من تمثيلها إلى ما لا نهاية والغربان تملأ الطريق ولا أرى في الأفق إلاّ الغربان وغابت الشمس

ولم تصل بعد لست أدري متى ستصل مريا!!!!!!ام جيبي الغدا لآكله مع مروان تحت الزيتونة الكبيرة وأنام على التراب الأحمر ورأسي على صخرة وأنا رايح ومروّح ومنقّي درب القبليّة إلى أن تصل شهد وتقف فوق رأسي وترفع تنورتها لأرى كل ما عندها وينهمر عليّ ضحكها كالبكاء إذ تركب أفكاري كفارس شبق وتلكزها في اتجاه أهوائها لالالا ليس هذا ما أردت أن أقوله ولو أنني أردت أن أقول بعضه إذن متى أين أقول ما أريد قوله وكل ما قلت ما هو إلاّ الحواشي » المتن ضائع فلأجرب مرة أخرى ربما على طريقة الفلاسفة بأن أحدد السؤال فيرضى عنه عامر ولا يرى فيه كاظم لغماً طوباويا وليكن الجواب ما يكون من جبل خريطون إلى عين سفني حيث انفجرت المياه وبدأ الطوفان ولم يجد نوح من يسعفه في صنع سفينته وغرق الانسان وكل ما صنع زوجاً زوجاً أماه كيف تنقذين أولادك هذه المرة إلاّ بكبريائك الرائعة التي وزعتها عليهم جزافاً لا تخشين الاسراف لأن الكبرياء كان مملكتك الوحيدة وعنادك يفتت الحجارة ويجفف البحار ويملأ الجبال ينابيع مهما قلت وكيفما قلته وجواد يكتم دهشته لكثرة من عرفت من النساء باحثاً عن تلك التي لها عناد أمي وكبرياؤ ها ويزعم أنه ما عاد يفهمني وأنا الذي ما فهمت يوماً أحداً فلأجرّب أن أحدد السؤ ال » .

ما كاد الشريط ينتهي حتى شعرت بأنني ارتكبت حماقة لا مبرر لهـا بانصياعي لرغبة عامر في عزفه علناً تلك الليلة . لحظت أن السيدات ، كلهن ، يشهقن بالبكاء وجعلن يجففن عيونهن وانوفهن بالمناديل . وبدا لي أن العملية أحرجت الجميع ، ذُكرت اسماؤهم ام لم تذكر .

كان ابراهيم اول من تكلم ، إذ قال : « فظيع هذا الحزن . لقد رثى وليد نفسه قبل أن يرثيه الآخرون . وأنا اغفر له ما قاله عني . »

غير أن الدكتور طارق كان له رأي آخر : « هـــذا الشريط يكاد يكون فضيحة ــ بالنسبة لوليد . كنت أفضل لو لم يعزف على هذا الشكل . »

سأله عامر : « لماذا ؟ »

— « لأنه ، لأنه . . شخصي جداً ، صميم جداً . مـــليء برموزه الخاصة . كلام كهذا يجب أن يسمعه الواحد منا وهو مختلٍ بصاحبه ... »

فعلّق كاظم اسماعيل : « ولكن هذه الرموز التي تذكرهـــا ، الا تستحق منّا شيئاً من التأمل الواعي الدقيق ؟ انـــا كنت دائماً اقول إن وليد لا يفصح عن نفسه الاّ وهو في غيبوبة عن نفسه — كما فعل هنا . »

وقالت مريم : « أية رموز هذه التي تتحدثون عنها ؟ كلام الرجل واضح وضوح الشمس . انه يبكي ابنه ، ويعود بنفسه وابنه ، معاً ، إلى أمه ، إلى الأرض التي لم يستطع يوماً أن يكّف عن التفكير فيها . »

وفجأة ، ارتفع صوت جنان ، رفيعاً ، مليئاً بالدمـــع : « ولكن من هي شهد ؟ »

وأدهشني ابراهيم إذ قـــال : « انها ... انتن جميعاً يا سيدات ... المعذرة أقصد ... انها المرأة في حياته ، هرب منها واصطدم بهـــا في كل طريق سلكه — »

فقاطعه احسان : « هذا تهرّب من محاولة معرفة الجواب . ربمـــا كان في لبنان صديقة بهذا الاسم . »

قالت رباح : « لا ، لا اظن أنـــه كان يعرف احداً بهذا الأسم هناك . »

فقال كاظم : « وهل من الضروري أن نعرف من هي بالضبط ؟ عندما يلخص الانسان حياته كلها — لا سيما حياته الخصوصية جداً — تبطل لضرورة لتحديد الهويات . الهويات هنا متداخلة جداً ، لا شك . »

« إلى حدّ ما ، نعم » قالت مريم : « الغريب أن اسمي يرد — إذا هو اسم طفلة كان يعرفها ايام طفولته ... وهـــل مرغريت ، في بيت الشعر الانكليزي الذي يذكره هي شهد ايضاً ؟ ومن هي ساجده ؟

« واستدارت إلى الفتاة التي كانت بقربها ، وسألتها : « ماذا تقولين يا وصال ؟ »

لم تجب وصال . هزت رأسها ، ثم قالت بصوت خافت : « أنا لا اعرف هؤلاء الذين تتحدثون عنهم ... أنا لا اعرف شيئاً . »

ونهض الدكتور طارق عـلى قدميه ، وهو يقول : « في الشريط أشياء اهم من ذلك كله . كان وليد ، كما يقول يونغ ، مصاباً بعقدة الأم ... فاضل ! » وسار باتجاه الخادم الذي كـان واقفاً قرب طاولة الشراب . « وما هي هذه العقدة ؟ »

نهضوا جميعاً الواحد تلو الآخر . وانسحب عامر وآن إلى المطبخ ، من بابه المشرف على الحديقة ، وجاءتني جنان ، وهمست : « ليتك لم تلعب هذه اللعبة ! » ثم دخلت إلى المطبخ ، لتعين اهل الدار باخراج أطباق الطعام ، ووضعها على المائدة الطويلة ، المهيأة بصحونها وملاعقها وشوكاتها . وصال وحدها بقيت جالسة . ولما نادتها سمبرة لتقوم وتأخذ صحنها ، سمعتها تقول : « بعدين ... لا اشتهي طعاماً الآن . » ثم قامت واتجهت نحو طاولة الشراب . أخذت كأساً فارغـة بيدها ، ثم وضعتها عنها ثانية . واتجهت نحو النوافير ، وأنا ارقبها من زاوية عيني . سارت بين النخلات ، وتوغلت في المنطقة المظلمة من الحديقة ، حتى لم اعد اتبينها .

عندما وضعت شيئاً مـن الطعام في صحني ، رأيتها تعود ، وتسير رأساً في اتجاهي ، فتحركت نحوها ، مدركاً انها تريد الحديث الي .

— « ما الذي اردت أن تكتشف هذه الليلة ، دكتور جواد ؟ » قالت بصوت منخفض .

قلت ضاحكاً : « لا شيء بالضبط . »

— « لا أصدقك ! »

— « إذن دعيني اقولها . أردنا أن نعرف من هي شهد . »

— « وما الذي ستحققه أنت ، أو يحققه عامر ، إذا عرفنا من هي شهد ؟ »

— « الفضول ، يا آنسة وصال ، الفضول قتّال . »

— « هب انني اخبرتك من هي شهد ؟ »

— « هل هي احدى النساء الحاضرات هنا ؟ »

كان الآخرون منهمكين في التعليق على روعة الطبخ الذي اشتهرت به آن — أو بالاحرى ، طبّاخها عيدان . الكل يريد نسيان الموضوع — أو تناسيه .

وكررت وصال : « هب أنني اخبرتك من هي شهد ، ما الذي تكون قد اكتشفت ؟ »

— « بصراحة ؟ أكون قد اكتشفت أنني لا أعرف عن وليد إلا ما هو اقل من القليل . أنت محقة ... لماذا نريد دائماً أن نبرهن على جهلنا ؟ هل آتيك بشيء من الطعام ؟ »

— « لا ، لا ، شكراً . يبدو أن وليد سيجعلنا كلنا نبرهن على جهلنا . »

— « هل كنت تعرفينه — جيداً ؟ »

— « أنا ؟ بالكاد . وأنت ؟ »

فضحكت ولم أجب . فأردفت : « وعامر ؟ وأخي طارق ؟ والسيدة مريم ؟ وجنان ؟ والآخرون ؟ »

— « آنسة وصال . أنت مغضبة . على شيء لاأعرفه . أم أنني أعرفه ؟ »

— « لا ، لا تعرفه دكتور جواد . غير مهم . أنا مغضبة ، وكفى . وبعض السبب ، هو أن وليد مسعود ، صديقكم العزيز ، ذهب ولم يخبرنا لماذا ذهب ، ولا إلى أين . غريب ، أليس كذلك ؟ هل التقيت يوماً بابنه مروان ؟ »

— « أيام كان طفلا كنت صديق العائلة أيامئذ . أما بعد أن كبر مروان ، فلم أره قط . تعرفين أنه بقي في لبنان . »

— « أعرف . والتقيت به في بيروت . قبل استشهاده بمدة قصيرة . »

وشعرت فجأة كأن الارض تنشق تحت قدمي . تذكرت كلمات الفتاة في شريط وليد : « خذوني معكم وعلّموني ضرب النار ... » فدنوت بشفتي من أذن وصال ، وشعرها القصير يكشف عن دقة صنعها ورهافتها ، والقرط الماسي الصغير يلتمع على لحمتها ، وهمستُ : « هل أنت ... شهد ؟ »

فاستدارت بوجهها بعنف نحوي ، وكادت تصيح : « هل جننت ؟ » وأسرعت إلى مائدة الطعام ، وتناولت صحناً ، وافرغت لنفسها فيه قطعة من لحم . وبقيت واقفاً مكاني ارقبها . لم أدرك روعة جمالها الا في تلك اللحظة . شهد ؟ رائعة حقاً ! حزينة ، وحزنها بديع ، فاتن ... وهل أعيد كلام وليد فيها ؟

تقدم نحوي عامر ، وقال بصوت عال مرح : « أهنا أنت ؟ كنت أبحث عنك ؛ » ثم خفض صوته . « ها ؟ هل اكتشفت شيئاً ؟ »

فقلت : « لا شيء . وأنت ؟ »

قال : « دماغي عاطل اليوم . لم أفهم شيئاً . عندما ينصرف الضيوف سأراجع كتابين أو ثلاثة عندي ليونغ .»

— « لتعرف ما هي عقدة الام ؟ »

— « نعم . أقول ، أنت لم تشرب نبيذاً مع طعامك . لابأس ! عندي زجاجة « بوجوليه » اخرى هنا . تعال . العشاء بلا نبيذ لا يساوي فلساً . هاك . »

وصبّ لي كأساً من أجود خموره .

- ٢ -

د. جواد حسني يبدأ البحث مستدلاً بشيء
من منظور كاظم اسماعيل وابراهيم الحاج نوفل

لئن يكن وليد مسعود قد أثرى في السنوات الأخيرة من حياته – أو انه أعطى الآخرين انطباعاً بذلك – فقد كـان ذلك بمحض المصادفة. كانت المهنة التي فرضت نفسها عليه هي مهنة المال – الصيرفة. عمله في البنك العربي خمس عشرة سنة، أو أكثر، جعله على اطلاع بأساليب التنمية الرقمية التي تجري بالأسود والأحمر على أوراق وبطاقات ملونـة، وهو وراء منضدة وتلفون. هذه النسب المئوية التي تصعد وتهبط بتقدير وتدبير من أدمغة تعمل كلها معاً، كشبكة متناسقة تحيط بالكرة الأرضية ويستجيب بعضها لبعض بذلك الحذق، أو ذلك الدهاء، الذي أوجده، أغلب الظن، المرابون اليهود عـبر عشرين قرنـاً من العدّ والحساب والمضاربة – هذه النسب وضعت بعض سرّها في يده في بغداد الخمسينات وعرف كيف يسترفد هذا العلم الباطني في دبي وأبي ظبي في الستينات، حين درّت رمال الخليج بنفطها على عالم يتلهف له.

غير انه كان مبتلى بعلّة تمنع عنـه ركض الشوط الى آخره: فهو يقنع بأقل مما يمكن أن يحصل عليه فعلاً لو انه يرضى بمتابعة الصفقات الكبيرة بكل دقائقها والتواءاتها متابعة كاملة. وليد جعل مـن الكثيرين غيره أغنياء تراكمت لهم حسابات وأسهم في مصارف وشركات في لندن وبيروت وزوريخ ونيويورك، فلسطينيين وغير فلسطينيين، وقنع هـو بالقليل الـذي حوّله الى بغداد أو بيروت، فيما أعلم. ولست أذيع

سراً حين أذكر ان صديقه عامر عبد الحميد واحـد من هؤلاء الذين أفادوا من صلتهم بوليد ، إذ كان وليد هو الوسيط بينه وبين عدد من شيوخ أبي ظبي والسعودية وقطر . ولم يكن عـامر لينكر ذلك قط ، وبقي محباً مخلصاً لوليد حتى النهاية ، يحبه ويخلص له كما لم يفعل تجاه أي من أخوته أو أصدقائه . ولعل الذي كان ينكر ذلك هو وليد نفسه، ولطالما سمعته يقول : « عامر عبد الحميد يتمتع بذهن أشبه بالدمـاغ الالكتروني : تلقمه المعلومات فيعطيك نتائج ليست في الحسبان ، وفي غاية الدقة . وكل ما حصل عليه لم يكن إلا بذكائه هذا ، الذي جعله جزءاً من المعجزة التكنولوجية في مجتمع لا يفهم التكنولوجيا » .

هـذا الزهد من وليد يرجع ولا ريب الى مزاج أصيل فيه ، لم يكن له أن يخونه . الكثيرون ممن أعرفهم كانوا يتصورونه داهية من دهـاة المال ، لا يتورع عن شيء في سبيل ما يسعى اليه . أما انا فما زلت عند ظني بأنهم واهمون ، أولاً لأنهم لم يعرفوه من الداخل قط ، ولم يعرفوا من خلفيته إلا ما يتصورون انه برهان على دهائه ، وثانياً لأن وليد كان يوحي بسخائـه ، بأسفاره ، بنزواته ، بالاشاعات التي تروّج حوله ولا يحاول تكذيبها ، بأنه يملك الدنيا في جيبه . لا أحسب إلا أن القلائـل فقط كانوا يعرفون شيئاً عن نشأته ، عن دراسته ، عن كدحـه طوال حياته لتحقيق حلم أو اثنين من أحلام طفولته . وما كنت انا لأطلع على الكثير من ذلك لولا الصداقة التي توطدت فيما بيننا عبر السنوات الطويلة – وهي صداقة لم تشبها علاقة مال ، أو مصلحة . تعلقي به كان فكرياً محضاً : أعجبت بكتاباته ، وأنا في أول عهدي بالكتابـة ، فذهبت اليه لأجلس عند قدميه ، وأسمع . اسأل ، فيجيب .

وبعد حصولي على الدكتوراه ، توثقت العلاقة فيما بيننا أكثر مما مضى، فتكشّفت لي تفاصيل في حياته لا يتحدث عنها إلا في ساعات من الاسترسال

مع أقرب الناس اليه . ووجدتني بعد قليل انخرط في مجتمعه : أدخلني فيه وليد وكأنه يريدني أن أكون مؤرخاً له ، وهو يعلم انه هو نفسه في الأصل غريب عنه . لست أدري كم انسجم هو مع ذلك المجتمع ، الذي لم أنسجم انا معه كثيراً لأسبابي الخاصة ، ولو اني ، مع الزمن ، صرت جزءاً منه . غير انه لم يجعل من ذلك قضية خاصة : فبحكم كونه فلسطينياً ، يستطيع الزعم دائماً بأنه يتصل بمجتمع كهذا وينفصل عنه دونما عسر أو ألم ، لأن جذوره الحقيقية في جبال ووديان أخرى تغذيه سراً وباستمرار . ولن يزعم أن مجتمعاً عشائرياً في جوهره ، زراعياً في أفضل الأحوال ، غيبياً في معظمها ، لم يدخل المرحلة المدينية إلا متأخراً وبعوامل تاريخية اقحمت عليه اقحاماً بدخول الانكليز حكاماً في بلد أرهقهم وأرهقوه — لن يزعم ان مجتمعاً كهذا بعد الاندثار الذى حل به لأكثر من خمسة قرون طويلة ؛ قد ثبت على قاعدة حضارية صلبة بنيت عليها قواعد لاحقة صلبة مثلها . وبانعدام قواعد كهذه ، كان يقول من السخف ان نتصور المدينة ومجتمعها كأنهما قائمان في أقطار أوربا ما بعد النهضة ، وما بعد نشوء الطبقة البورجوازية ، وما بعد الثورة الصناعية . مجتمع خام ، موزع ، مضطرب ، مائع ، ينطلق في كل اتجاه ، ولا ينطلق في أي اتجاه : هكذا رأيته أنا في أثناء دراستي له ، وهكذا رأيت وليد يعتبره دونما وعي منه . غير انه بمثاليته العنيدة ، التي لم يتنازل عنها إلا أحياناً في أحلك ساعاته بؤساً ، كان يريد لهذا المجتمع أن يحقق ذاته عن طريق العقل ، والحرية ، والابداع ، وهذه بعض الكلمات التي كانت تتردد على لسانه وقلمه أكثر من غيرها . غير أن الكثيرين كانوا يجدون ان هذه المثالية نفسها هي أضعف ما في شخصيته ، لأنها بدورها ضرب من الغيبية كان يجب أن يتغلب عليها ، باستعمال العقلانية التي يؤمن بها . أما هو فلم يكن يفهم هذا التشكك لدى الآخرين ، بل يجد فيه تشاؤماً يبرّر ، في نهاية الأمر ، التخلّف ، ويبرّر القسوة

ـ على مستوى الأفراد ومستوى السلطة معاً .

كان يقول إن جميع أنواع التصنيع مثلاً ، عندما ندرسها في المجتمعات المتقدمة ، نجد أنها كانت أشبه بثورات فرضت على هذه المجتمعات من فوق ، وانها كانت من عمل أقليات عـــاتية لا تحيد عما صممت عليه ، وتعتبر المشكلات كلها قابلة للحل بالوسائل التقنية والعقلانية ، طلباً للتقدم . غير ان هذه العقلانية المفروضة من فوق تقلقه ، لأن أصحابها من رأيهم أن يتصوروا أن المجتمع يمكن أن ينظّم عقلانياً بمزيج من الدهاء والقوة، وانه إذا وجدت عناصر لاعقلانية داخل المؤسسات الاجتّماعية ، وجب عندها أن تتم السيطرة على هذه العناصر بحزم ، وتغييرها حسب حاجتهم . وليد يصر على ضرورة استخدام التكنولوجيا ، ولكن كيف لها أن تفلح في اداء مهمتها ما دام يقاومها موقف اساسي غير عقلاني من الافكار ، من الاشياء ؟ التكنولوجيا هي معالجة الطبيعة بأقصى العقلانية ، مع ابداعية خاصة . كيف نخلق الموقف العقلاني في مجتمع تعصف به الغيبية صباحاً ومساء ، وتوقعه الغيبية فريسة سهلة لضروب من الغوغائية ؟ وإذا كان لنـــا أن نصدّق اصحاب المقترب التقني فيما يذهبون اليه ، وهو : ان يكون المرء ثورياً او غير ثوري ، طوباوياً أو غير طوباوي ، ليس إلا مسألة درجة او توقيت ، لأن النتيجة الحاصلة حتمية ، علينا ايضاً أن نتساءل : ما هو الهدف النهائي لذلك كله ؟ هل هو تهيئة الرفاه المادي للجميع ؟ حسناً ، ولكن هل هذا كاف ؟ وإذا سلمنا بأنه كاف ، هل سيحقق لنا الحضارة التي نطمح اليهـــا ؟ او لن يكون ذريعة لتمرير اهداف خاصة لفئات تعطي الخبز للفم بيد ، وتسلط المقرعة على العقل باليد الاخرى ، كما حصل في فترات كثيرة من التاريخ ؟ ويبدو أن الفلسفات التي تناقش ذلك قد باتت مبهمة ، لا تثق في قدرتها على تحقيق الرفاه العادي جنباً إلى جنب مع تحقيق انطلاق الخيال الانساني نحو كل ما يجعل من الحياة مغامرة وتفجراً وعشقاً... هل ثمة حلّ لهذا الإشكال

الجدلي الذي يتجدد كل يوم ؟ ثم هذه الوسائل القسرية المفروضة ، ألن تنتهي إلى جعل القانون وسيلة لارهاب المجتمع ، لا لتنظيمه ؟ أليست تتهرب من المعاني الأعمق التي تنشدها الانسانية من الحياة ، والتي يحيا بها الناس عن وعي او غير وعي ؟ كيف اذن نوفق بين ما هو عقلاني وضروري ، وبين ما هو لاعقلاني وضروري أيضاً ؟

هذه الاسئلة وغيرها ، على تناقضاتها ، كثيراً ما كان يطرحها وليد في احاديثنا او فيما يكتب ، مؤكداً على ان الحلول في آخر المطاف يجب ان تنبع من الداخل ، من الارادات التي تمثل بمجموعها هوية الامة ، وان العقل ، كما يراه هو ، مزيج ذو ظلال لا تحصى يجب ان يتحرك بملء الحرية ، مدفوعاً بنزعة الابداع الغامضة ابداً ، الخطيرة ابداً ، لكيما يستطيع إن يفعل فعله الحقيقي في المجتمع .

« يكفي الا تؤمن بالانسان ، بما فيه من كوامن عقلية وابداعية وحس لضرورة الحرية ، لأن تسمح لنفسك بتسليط أشنع ضروب الارهاب عليه ، بحجة او باخرى ، او لأن تتهادن مع من يسلطها عليه . والعكس صحيح : تسليط الارهاب او التهادن مع من يسلطه دليل على عدم ايمانك بالانسان ، مهما ادعيت العكس . » هذه العبارة الواردة في احد كتبه الاولى ، « الانسان والحضارة » ، على ما فيها من بداهة ، جعلها احد اصدقائنا ، عند ظهور الكتاب ، منطلقاً للهجوم عليه في احدى الصحف بشكل أذهل وليد واغضبه . كان ذلك في اواسط الخمسينات ، ولن انسى الضجة التي قامت يومئذ حول الكتاب ، وحول وليد ، وحول كاظم اسماعيل ، صاحب الهجوم .

كان كاظم لفترة ما ، من أعز اصدقاء وليد ، وهو الذي عرفني به اصلا ، وكنا نقضي بعض الليالي في منزل كاظم او وليد في نقاش ساخن طويل . وكاظم لم يكن من اصدقائي القدامى وحسب ، بل من

منافسيّ في كتابة القصة – طوال الخمسينات، قبل انصرافي إلى الدراسات العليا ، وادارة ظهري نهائياً إلى الفن القصصي ، واجداً في الدراسة العلمية لشرائح المجتمع ما يعوّضني عن الفن اكتشافاً ومتعة .

كان وليد يقرأ ما نكتب ويناقشنا فيه . وكنا نطلب الحكم احياناً من سميرة ، أخت كاظم ، بعد عودتها من الدراسة في الولايات المتحدة ، فكانت تلك فرصة لتعرفها بوليد – قبل زواجها من الدكتور طارق رؤوف العباسي ببضع سنوات . وكنت اعلم ان وليد يومئذ ، رغم نجـاحه في اعماله المصرفية على نحو يلفت النظر ، فريسة ازمة نفسية جارحة قلما يتحدث عنها لأحد ، بسبب الانهيار العصبي الذي اصاب زوجته ريمه – ام مروان ، كما كان يدعوها – وذلك بعد مرور خمس سنوات او ست على زواجهما ، ومروان ، فيما اذكر لم يتجاوز الثالثة او الرابعة من عمره .

صدر كتاب « الانسان والحضارة » – لم يكن أكثر من مقالة مطولة في حوالي ١٢٠ صفحة – وكان بداية الخلاف بين وليد ، والعالم ، وكان ذلك كما ينبغي ، على حد قوله ، لأنه يدلل عـلى أن الكتاب لم يكن مجرد صدى آخر للآراء السهلة السائدة . ولم يكن هو يخشى الاختلاف مـع العالم ، بل يجد متعة شيطانية بمعظم ما يكتب عنه ، تهجماً كان أو غير تهجم ، وكالعادة لا يرد على أحد ، قطعاً ، ويقول : « أجد التهجم عليّ من السخف أو البذاءة بحيث أرفض ارهاق نفسي بمنازلة السخفاء والبذيئين ، وأجد المدح ، ان كان ثمة مدح ، مبنياً في الأغلب على أسس مغلوطة يصعب عليّ تصحيحها ... فلنترك الأمور تأخذ مجراها . بعـد عشرين سنة لعل الناس سيعرفون من المخطىء حقاً ، ومن المصيب . » ومع هذا كله ، غضب وقتئذ لتهجم كاظم اسماعيل بشكل خاص ، لأنه جاء عن رجل يحبّه ، ويعجب به ، ويتصور انه يعرفه معرفة كان ينبغي أن تمنعه عن كتابـة ما كتب . كانت سذاجة وليد في بعض الأمور

الأساسية من الحياة ، رغم دهائه المزعوم في قضايا المال وأسواق الربح والخسارة ، أمراً عجيباً فيه . كل يوم يكتشف ما يدهشه من قسوة الآخرين ، أو لؤمهم ، أو شرهم ، ولا تنتهي دهشته ! غير ان رد فعله في هذه الحالة كان غريباً حقاً .

عرفت التفاصيل في حينها من وليد وكاظم معاً : سردها على كل منهما على حدة ، وعلى الشكل الذي يحلو له بالطبع . وكتبت عنها ما حسبت آنئذ انني جعلته قصة صالحة للنشر بمجرد اطلاق أسماء وهمية على أشخاصي الحقيقيين . غير انني أدركت ، بعد أن فرغت من الكتابة، انني رويت الأمر بحقائقه كلها كما هي ، لما أعرف عن حياة كليهما ، وعلى نحو لن يرضى عنه أي منهما ، فطويت ما كتبت ، ووضعته في احدى اضباراتي القديمة ، ونسيته .

واليوم عدت الى تلك الأوراق ، فوجدت فيها خلاصة رمزية ، تنبؤية ، للشخصية التي بقيتُ على صلة بها قرابة عشرين عاماً ، فضلاً عن ان الحادثة ذكّرتني من جديد بذلك التناقض الذي لم ينقطع قط بين شخصية الرجل الحقيقية وبين ما قيل ويقال فيه . اعدت النظر في القصة ، فقررت ان اتركها على حالها ، لكني عدت واستبدلت الاسماء الوهمية فيها بالاسماء الحقيقية ، لتكون على عكس ما يدعي الروائيون فيما يكتبون ، حين يعلنون ان الشخصيات التي في روايتهم من خلق الخيال بأحداثها وأسمائها ، خشية من دعوى قذف أو تهجم من أحد يحسب أنه هو المقصود باحدى شخصيات الرواية . شخصياتي هنا حقيقية ، وما الحادثة التي أرويها إلا فصل صغير آخر في حياة وليد مسعود ، ولن أكون إلا أميناً ما وسعتني الأمانة في رواية ما أعرف :

رآه فجأة .

ما كادت سيارته تنعطف عن الشارع العام الى الطريق الضيق الممتد في الظلام ، حتى وقع نورها على ظهر رجل ارتفعت كتفاه بحدبة يائسة غار فيها رأسه ، ويداه في جيبي معطفه المطري الطويل ، فعرفه في الحال.

عرفه ، وقد راح يمشي وحده في غيث منتصف الليل كأنه شيء يزحف زحفاً من عالم الموتى. ولم يكن قد رآه منذ أكثر من ثلاثة أشهر.

وقع النور عليه وسيول المطر تشعشع حوله يحيط بها السواد ، والتمع أعلى كتفه ، وحين استدار ليفسح المجال للسيارة القادمة وقد غمره النور ، التمعت نقطتان في عينين صغيرتين مرصعتين في وجه غائر .

فأوقف السائق سيارته على بعد قليل منه ، وأنزل زجاج الشباك بسرعة ، وصاح :

« كاظم ! »

فاندفع رأس كاظم من بين كتفيه اندفاعاً آلياً ، وانتفضت يداه خارجتين من جيبيه وانتشرت أصابعه على الحائط ، وسقط فكه شبراً . وصدر عن حنجرته صوت مرتعب : « ها ؟ »

— كاظم !

فالتصق كاظم بالحائط ، وتمعن من فوق فيض النور في صدر السيارة ، وقال : « من أنت ؟ »

فطفرت السيارة نحوه ووقفت ، ثم فتح السائق الباب الذي على يمينه وقال : « اصعد ! »

فما وجد كاظم نفسه إلا وهو يصدع بالامر ، ويصعد إلى السيارة . فعرف الجالس وراء السكان وقال : « وليد ؟ في هذه الليلة اللعينة ! ما الذي أتى بك هنا ؟ » وصفق الباب مغلقاً اياه .

وسار السائق بالسيارة . « بللت المقعد بثيابك المنقوعة . لا بأس . يروق لك هذه الأيام ان تبلل كل شيء . »

لم يكن في نظرة كاظم أي امتنان لصديقه ، وقال متذمراً : « لماذا تفرض كرمك على الناس ؟ »

– « هل كان من عادتك دائماً أن تبلل كل شيء ؟ كان يجب أن أعرف ذلك منذ أول يوم عرفتك فيه . شهوتك هي أن تتناول أي شيء نظيف ، وتلطخه . منذ أول يوم عرفتك فيه . »

– « وهل هناك شيء نظيف في هذا العالم تخشى عليه ؟ »

– « الى أين أنت ذاهب ؟ »

– « سؤالك رائع . الى أين في هذا المطر إلا البيت ؟ »

– « سنمر ببيتكم بعد دقيقتين . »

– « نعم ، شكراً . »

– « ولكنك لا تريد أن تذهب الى البيت . ستفضل المجيء معي . »

وانعطف السائق عائداً إلى الطريق العام ، وداس على البنزين . وقبع كاظم في ركنه من المقعد ، وحين نظر اليه وليد نظرة عجلى ، بـدا كأن رأسه قد غار في صدره . كتفان باثستان ، لا جبين ولا عنق .

وأعاد وليد : « ستفضّل المجيء معي . سنوات مرت وأنت تفضل المجيء معي لأنني كنت أودك . كنت أحبك . ألا ترى ما أهزل الحياة وما أمحلها . كنا نظن ان الحب سوف يخصب هذه البقعة الصفراء السبخة، مثل هذا المطر . »

كانت كلتا ماسحتَي زجاج النافذة الأمامية ترسم نصف دائرة صاعدة نازلة ، ويترقرق ماء المطر عن ريشتها سائلاً على الزجاج ويتلألأ بأضواء الشارع .

« وهذا المطر كالدمع . والحب أيضاً كالدمع . حب الأصدقاء وحب النساء وحب الأشياء . لذة مريرة براقة . أراك صامتاً ، ها يا كاظم ، كنت أحس انك تتمتع بتلطيخ الأشياء ، ولكنني حسبت أن هناك عـلى

الأقل شيئين أو ثلاثة لن ترفع اليها يداً ملوثة . »

— « إلى اين أنت ذاهب بهذه السرعة في هذا المطر ؟ لقد مـر منتصف الليل . »

— « إلى اين ؟ إلى الشوارع التي كنت فيما مضى تبحث في زواياها عن مغامرة صغيرة كل ليلة . ثم تعود إلى اصدقائك لتضخّم وتهوّل . لتكذب كذبة اخرى . وما كنت اتصور أن كذبتك الكبرى ستكون في النهاية علي . علي انا . »

— « انا لم اكذب عليك يا وليد ، ولكن اغضبك انني قلت الحق . لماذا تغضبك الحقيقة إذا كشفتها لك فوجدتّها تتجه ضدك على غير مـا كنت تتوقع ؟ »

وأحس كاظم براحة عميقة لقوله ذلك ، كأنـه فجّر دملة صديدية في صدره كانت تؤذيه . وفي غور بعيد من اغوار ذهنه انطلقت قهقهة تلذذ بها ، قهقهة صامتة شامتة ، لأنه استطاع أن يفجرّ دملة الصديد .

— « اية حقيقة ؟ هل بلغت باك السذاجة حـد الاعتقاد أن هناك حقيقة تكشفها ، تجعل في رأسها نبلة ملوثة وتقذف بها في صدر رجـل أحبك هذه السنوات كلها ؟ »

ولكن كاظم بقي متمتعاً براحته العميقة ، بقهقهته الداخلية البعيدة . وقال ، والاضواء السيالة تترقرق حول السيارة :

— « سمّها سذاجة إن شئت . اما انا فأسميها أمانة فكرية . »

— « أمانة فكرية ؟ أن تجهل الوقائع وتختلق الاوّليات ، ثم تسيء التأويل بمنطق الكاره الموتور ، وتسمي ذلك كله أمانة فكرية ! »

— « يكفي أن قرائي يفوقون العد ، وأن ما اكتبه يقرأ ويناقش ، ويقضّ مضاجع الكثيرين . ما أهميّة الوقائع ، إذا كانت النتيجة صائبة ؟ من الساذج الآن يا وليد ؟ متى ستنضج ؟ »

— « لا بد أن في نفسك ينبوعاً من الحقد . »

— « في سبيل الدفاع عما أؤمن به ، حتى الحقد ، يكون فضيلة . »

— « ولكن كيف تستطيع حمل هذا الحقد كله وتدعي الدفاع عن الانسانية ؟ »

— « القضية قضية مفاهيم . أنت تكتب بحرارة أهل اللاهوت ، وانا ارفض ذلك ، كما تعلم . »

— « كم سنة قضيناها في النقاش ؟ كنت ارفض رؤية التناقض بين القول والفعل في حياتك ، انظر إلى دمعك وأنت تذبح العصافير ، ولا انظر إلى ما تفعله يدك . »

— « مصيبتك انك مثالي . تخشى النظر إلى اليد التي تذبح لأنك تخشى نتيجة الكفاح . »

فاشتدت يدا وليد قبضا على عجلة السكان لئلا تفضحا ارتعاشها المغضب حين قال : « ولكنك كذاب ، لأنك لا تؤمن بقيمة انسانية واحدة . »

لم يحس كاظم بعد أن استقرت القهقهة في اعماقه ، بأي غضب . كأنه كان منذ زمن طويل يتمنى لو يفوه وليد بمثل هذا الزجر . غير أنه شعر بتوق شديد إلى الشاي الذي ربما تركته له خيرية على النار . لقد اثار البرد والمطر عطش المدمن في حلقه وصدره . ونظر إلى اضواء الشارع المهجور ، ولم يجب بشيء .

هذا كان الفرق بين الاثنين : كاظم بطيء الاهتياج ، بطيء الغضب ، بينما يشيط الهياج والغضب في نفس وليد بحكة واحدة ، كعود الكبريت ، كأن الواحد منهما متمم للآخر . فاذا بدر من وليد عمل لم يترو فيه ، أسعفه كاظم بمنطق قرير بارع . وإذا تأمل كاظم في قضية ما ، وبلغ به التأمل نتيجة غير متوقعة ، كان وليد هو الاسبق إلى

العمل بموجب تلك النتيجة .

غير أن اختلاف الطبعين ادى ، ولعله امر محتوم ، إلى اختلاف في التحصيل . لقد استطاع وليد أن يطفر في اعماله في سنوات قلائل إلى مركز لم يكن صديقه كاظم بكل ما اوتي من نظر ومنطق ، يتوقعها . لقد اصبح احد المدراء في البنك الذي يعمل فيه ، وفي الوقت نفسه جعلت كتاباته تقابل باهتمام واعجاب . وقد ادهشه أن يتمكن وليد من الجمع بين سعي مادّي يراه ضرورياً لحياته ، وبين سعي فكري مجرد ، يتحدث فيه عن تجديد الأمّة .بذلك التحرق الفلسطيني إلى اعادة النظر في الوجود العربي كله ، بكل مستوياته .

اما كاظم اسماعيل ، فقد اصر على البقاء محامياً ، مدعياً بأنه يحتقر التجارة واساليبها ، وانها خطر على المفكر . وكان يقول لوليد : « ذكاؤك فطرى . إنك تعمل كالطاحولة الضخمة . أما أنا ، فاعمل كساعة اليد ، واتعلّق بالدقائق والخفايا . »

رأى وليد في صديقه اول الأمر مفكراً يترفع عن المادة ، لكي يستطيع أن يشرف على الحياة من نافذة حرة — لا تضبّب زجاجتَها أهواءُ الكسب اليومي . فيقول إن كاظم يراقب الاحداث والافكار موضوعياً ، فيحلل الاثنين ، مع كثير من التعنيف والتوجيه . إنه حارس من حراس الانسانية . غير أن كاظم ، وإن لذ له رأي صديقه فيه ، كان في دخيلته انما يتطلع إلى شهرة الاديب ، ويشعر أن في أدبه ايقاظاً لاذهان معاصريه . لقد كان شاعراً ، وقاصاً ، وناقداً ، كلها معاً : غير أن قصائده بعد سن الخامسة والعشرين تناقصت إلى أن تلاشت ، وتناقصت بعد ذلك اقاصيصه — مع أن كلا منها لم يكن الا دفاعاً عن الانسان الصغير ازاء الظلمَ الاجتماعي من الانسان الاكبر . ولم يبق منه الا ذلك المعلّق المعقب ، ينظر بعينين لا ترحمان ، ويكتب بقلم قاطع مر ،

يدعمه اطلاع شتيت .

ولكن انتاجه كان رهناً بنزوات الايام والصحف ، في بلد تظهر فيه الجرائد والمجلات وتحتجب بكثرة رتيبة . فكان يقول في فترات الجدب : « اني مصاب باحتقان فكري . » أو « كتبت مقالاً ارفض نشره ، لأنني لا ارى حولي جريدة أو مجلة جديرة به . » أو « انجزت قصة ، ولكنني اعرف انني لن انشرها ، ولذا فسوف اعيد كتابتها . . »

ولم يكن من العسير عليه أن يعيد الكتابة مرة اثر مرة ، ما دام له مكتب يزاول فيه المحاماة ، وما دام يعرف انه لن يرى المراجعين مصطفين في انتظاره كل صباح ومساء . إن له من الوقت فراغاً كبيراً ، بقدر فراغ مكتبه . لقد أحس ، بعد سنوات من حياة المكتب الهزيلة ، أن مواهبه انما جنت عليه . فالناس قد يذكرونه شاعراً أو قاصاً أو ناقداً ، ولكنهم لا يذكرونه اكثر من ذلك . فهم لا يقيسون جدارته كمحام بما يكتب ، بل بما يكسب من قضايا . اما هو فيردد : كسب القضايا في بلدنا لا علاقة له بعمق الفكر أو اشراق الاسلوب — لا علاقة له البتة . »

وهكذا اشرف على الخامسة والثلاثين ، وهو ما زال في حياته البيتية يكاد يعتمد على ما يكسبه ابوه الحاج اسماعيل من تجارة الجلود التي ورثها عن ابيه . وقد عادت أخته سميرة ، التي تصغره بحوالي اثني عشر عاماً ، من بعثة دراسية في امريكا تحمل درجة ماجستير في التربية ، فكان في راتبها عون اضافي له ولأبيه في تصريف أمور البيت ، فلا يضطر إلى طرد خيرية وابنتها — وهما كل من تبقى لهم من « الأوادم » الذين تعلقوا بالعائلة منذ الايام العثمانية البعيدة ، ايام كان جده ، حقي الجلبي ، من كبار تجار المدينة .

وكان له في البيت ايضاً خالتان عانسان ، لجأتا منذ ما ينيف على

الاربعين سنة إلى حماية كلتاهما تتطلع إلى زوج تحظى به . غير أن ركب الشباب فاتهما ، وبقيتا كقطعتي اثاث قديم لا تستطيع العائلة عنهما غنى ، بحكم العادة . ولم يطرأ على وضعهما أي جديد حتى بعد وفاة أمه . فكانتا تقولان للولدين : كلتانا امّ لكما ... ولعل كاظم يتعلق بهما لأنهما ما زالتا تلهجان بذكر جماله ايام طفولته . « شلون حسن ، فدوه لعينه ، كاظم ! عينان سوداوان واسعتان ، وشعر كستنائي كخيوط الحرير ، وخدان كاوراق الورد ، وخشم منمنم ، كأنه مرسوم باليد . » الا أن كاظم إذ كبر ، تغيرت ملامحه ببطء وتنافرت . فاستقرت « حبة بغداد » على ارنبة أنفه وسلخت عنها جزءاً سخياً من البشرة الجميلة ، وورم خداه سمنة ضاقت لها عيناه ، ثم عاد خداه إلى هزال هضيم دون أن تعود عيناه إلى الاتساع . ولم يبق له من محاسن الصبا الا شعره الكستنائي الجعد الذي يطيله ويزهو به .

أمر واحد لم يعترف به كاظم لأحد ، لم يعترف به حتى لوليد : شعوره بالوحشة ، شعوره بان كل ما كتبه لم يحقق له حلماً واحداً من احلامه . لقد اضحى ، كلما ارتدت عيناه نحو ماضيه ، يرى طريقاً طويلاً مقفراً تحيط به بضع نخلات عجاف ، ويرى نفسه يمشي الطريق جيئة وذهاباً — وحده . لم يكن يرى نفسه الا منفرداً ، يتخلى عنه رفاقه أو يتخلى عنهم ، فتكاد البصقة تندفع إلى شفتيه . فهو إذ يغدو ويروح ، إنما هو غادٍ رائح بين نقطتين من عدم ، نقطتين من فراغ ، فيشتهي احياناً لو ينفثّ في هذا الفراغ الجائر نفثة سامة تملأ جوانبه العراض .

كلما عاد إلى مسكنه متأخراً وجد خالتيه في ثرثرة ونقاش ، يطفو صوتهما الرفيع الخادش على هواء كل غرفة . فيصيح بهما : « مقبولة ! حسيبة ! » فتصمتان في الحال . وبعد بضع ثوان يسمع لهما همساً بحيحاً

مهادناً ، فيصيح من غرفته ثانية : « ما تنامون ! » وتكون أخته في هذه الأثناء في فراشها تتصفح المجلات . فيدفع باب غرفتها قليلاً ، ويمد رأسه في الشق المفتوح ، ويقول : « ها سمر ؟ » فتقول سميرة دون أن ترفع عينيها عن المجلة المصورة : « ها ؟ »

— « ما نمت بعد ؟ »

— « بعد وقت . »

وإذ يرمــق المجلة الرخيصة يقول : « هـــا ، شلونه العلم ؟ في تقدم ؟ »

— « ما عليك . »

— « يا خسارة الماجستير ! »

وقبل أن تقذفه بما قد تقع يدها عليه يغلق الباب وراءه ، ويصيح : « خيرية ! »

ومن أعلى البيت يصدر صوت كمواء قطة مرهقة : « هاء عيني . »

فيقترب من مصدر المواء ويقول : « شكو للعشا ؟ »

— « دقيقة ، عيني ، دقيقة . »

ويتلو ذلك خرفشة ثم طقطقة نازلة على الدرج . وبينما ينزع ثيابه في غرفة نومه ليلبس بيجامته ؛ تهيء خيرية أكلة ما على طبق تأتي به على طاولة قرب فراشه . فيسألها : « أبوي في البيت ؟ »

فتموء خيرية مواء بطيئاً : « البك بعد ما رجع . اجوا عليه بالسيارة وراح ، وبعد ما رجع . ما تريد شاي ؟ »

— « عندك مخدّر ؟ »

— « إي ، خليت لك القوري عالنار . »

وهي تفعل ذلك كل ليلة : تترك ابريق الماء على نـــار منخفضة ، وتضع في فوهته ابريقاً صغيراً ليتخدر ما فيه من شاي على بخار المـــاء

الفائر ببطء ، في انتظ . فهو لا يتنازل عن كوب الشاي ، الذي لا بد له منه ، كل ليلة قبيل نومه .

رائحة البلل ، وهو في السيارة المغلقة النوافذ ، أثارت توقه إلى الشاي ، ووليد مسعود يقبض على السكان بيدين شديدتين ، محاولا الحد من سورة غضبه ، انها سورة لم تبارحه لاربعة اسابيع لعينة ، تعاوده كنوبة من مرض ، وتغالبه . فلما لم يفه كاظم بشيء ، التفت اليه التفاتة سريعة ، عادت عيناه بعدها إلى التمعن في طريقه الزلق ، وقال :

— « انا لا أحاسبك على أحقادك . أنت حرّ فيما تحب وما تكره . »

فقال كاظم متأففاً : « أنا مبلّل ، مبلّل جداً . أرجو أن تعيدني إلى البيت . »

— « ولكنني أحاسبك على ما اقترفته بحقي أنا . »

— « وما الفائدة من ذلك ؟ ألم تقل انه ليست هناك حقيقة ؟ »

— « هناك ما هو أهم . »

— « أعلم ما الذي تريد أن تقول . هناك ثقة ، حب ، صداقة ، فضيلة ما ... أما أنا فلم اعد اعترف بأي شيء من ذلك . لم أعد أعترف الا باندفاع احمق ، يهيج احياناً ويمكر أحياناً ، يظهر أحياناً كسيارتك هذه منطلقاً بعينين كهربائيتين وسط المطر والطين والظلام ، ويظهر احياناً كفأر يقرض خشب فراشك وأنت نائم . والسيارة والفأر كلاهما حقيقي . كلاهما أعترف به . لا فضيلة ولا حب ولا ما يحزنون . »

— « أهذا كل ما اكتشفته من الحقيقة التي جابهتني بها ؟ »

— « أتريد اكتشافاً اعظم ؟ انه الاكتشاف الوحيد الذي يجعلني لا أخشى مواجهة أحد في الصباح . تصور مثلاً لو زوّجك ابوك من امرأة لم ترها من قبل ، وفي الليلة الأولى دخلت عليها وهي تنتظرك في الظلام ، متحرّقاً لنزع ثيابها ولمس عريها . وإذا بيدك ، حالما تعرّيها ،

لا تقع الا على لحم غضين متهدل مهترىء ، فتتراجع مجفلاً وتضيء النور لترى ، حيث توقعت شلالاً من الورد ، كومة من الجلد والعروق ... ماذا تفعل حينئذ ؟ اتنطلق في الشوارع لتتغنى بها ؟ لقد دخلت أنا على حياتي ، فوجدتها قبيحة يصرخ قبحها لله في سمائه ... ليتك وليد تعود بي إلى البيت . لأنني بردان . »

قبل سنوات سبع تزوج كاظم من ماجدة الصباغ ، بعد أن تخرجت من دار المعلمين العالية . كانت ماجدة من ابرز بنات دورتها لجمالها . ثم اضافت إلى شهرة الجمال شهرة الشجاعة حين القي القبض عليها في سنتها الدراسية الأخيرة ، وفصلت من الكلية زمناً لنشاطها السياسي . ولما تزوج كاظم منها ، كان كمن يتزوج تلميذة له تعدّ كل كلمة تسقط من شفتيه لؤلؤة يجب كنزها . فقد كانت تقرأ كل ما يكتب قبل أن تتعرف به ، ثم التقى الاسمان في احدى المجلات اللبنانية حين علق الواحد على الآخر بقليل من النقد وكثير من الاطراء . ثم اكتشفا انهما يقيمان في الحي نفسه من « الاعظمية » . ولما دخل كاظم عليها اخيراً ، بعد توقع طويل لذيذ ، رأى في عريها شلال الورد الذي كان يمنّي نفسه به .

غير ان التلميذة لم يطل كنزها للآلىء الساقطة من شفتي استاذها ، حين نزل بها على أهله ، كترتيب مؤقت ريثما يؤثث لها بيتاً جديداً . لم يدم الزواج أكثر من سنة ، ابتدأت بخصب عاطفي وانتهت الى الجدب، والطلاق . وبقي الاستاذ في بيت أهله ليرى التلميذة الثائرة تستقل بحياتها، ثم تتزوج من جديد . ثم تنجب ولدين . وقد رآها مع ولديها مرة في « اوروزدي باك » وأطال النظر اليهما . كان بالامكان ان يكونا طفليه هو ، لولا عنادها وجماحها . ومن أعماق حلقه تجمّع اللعاب على رأس لسانه ، في بصقة حنق اخرس ، بلعها وخرج الى شارع الرشيد . كان

الشارع مختنقاً بسيارات متلاصقة ، مقدماً لمؤخرة ، تزحف زحفاً كثير السعال والزئير والتزمير ، وصفارات الشرطة تحاول تقطيع سلسلة العجلات المتراصة . وعرض الرصيف استاقى بين أرجل السابلة المتزاحمة بلا حراك ولـد عاري الصدر ، برزت ضلوعه الرفيعة تحت جلده المعفّر ، وقد قرفص قربه رجل مشوّه العينين ، ناشراً في حضنه كفه الكبيرة وهو يرتل آيات قرآنية بصوت يقارع أبواق السيارات وحنـاجر بائعي الحَبّ وأوراق اليانصيب . عثر كاظم بقدم الولد المستلقي ، فتفجرت عن غضبته الخرساء شتيمة ، والرجل المقرفص يرتل « لعلهم يعلمون » . التقطت أذنه الكلمتين الاثنتين ، فتكرر لهما صدى في رأسه « لعلهم يعلمون ... ولكن أكثر الناس لا يعلمون ... » ووقف في وجه تيار السابلة المتصايحة المتضاحكة، وتفجرت غضبته ثانية : لا ، لا يعلمون . سنوات عجاف ، تتلوهـا سنوات عجاف . صراع منذ اول ما وعينا الحياة . ندرس كل شيء . نحكم على كل شيء . نوجه كل شيء . ولكن ماجدة أفلتت من يدي. شهرة لا قيمة لها . لعلهم يعلمون ... يطبق المارة عليه من كل صوب. غير أنهم ما يكادون يقتربون منه حتى يبتعدوا . كأنه ذلك الشحاذ الملقى كعظمة جرداء على الرصيف . وعلى حين غرة ، من بين عشرات الأيدي العابرة ، امتدت يد واستقرت في كفه قبـل أن يستبين صاحبها الذي هتف به : « يا هلا بعمي كاظم ، يا هلا » .

فسحب كاظم كفه من القبضة الصلبة الباردة بسرعة ، وقال :

– « مهدي ؟ شلونك ؟ »

– « أريد خاطرك ، عمي . »

– « دتنشتغل ؟ »

– « إي . صرت بقسم المكاين ، والفضل لصديقك أبو مروان . »

– « مو أحسن ما تظل فراش في المكتب عندي ؟ »

— « إي والله احسن . »

— « زين ، مهدي . مع السلامة . »

— « في امان الله ، عمي ، الله يحرسك . »

ولكن ما كاد مهدي ينجرف مع تيار العابرين ، حتى اخرج كاظم من جيب سترته زجاجة الكولونيا الدقيقة التي تلازمه ، وصب منها قطرتين على كفيه ، وفركهما ، ثم صب عدة قطرات فيهما انطلق شذاها إلى خيشوميه ، فتلذذ به ، وفرك كفيه ثانية . وفجأة انتبه الى ما يفعل . أعاد الزجاجة بسرعة إلى جيبه ، خاشياً أن يكون هناك من رآه وهو يعقم يديه .

بعد ذلك بربع ساعة كان كاظم اسماعيل في مكتبه في رأس احد الازقة المتفرعة عن شارع الرشيد ، جالساً إلى منضدته ، وقد امسك القلم بيد معطرة معقمة ، ليكتب مقالاً عن وليد مسعود ، كاتب « الانسان والحضارة . » لا شك أن صديقه الذي ما زال يلقاه ، ولكن في آونات متباعدة بالنسبة إلى ما مضى ، يتوقع منه شيئاً يقوله ، شيئاً يدعم به كتابه الجديد ، هكذا فكر كاظم . غير أن كاظم كان قد قرر أن يقذف ببصقته في الهواء ولو سقطت على وجهه بعد ذلك . فأمسك القلم ليكتب وهو يقول لنفسه : « يجب أن اصوره على غير ما يتوقع — بورجوازياً يجعل من الانسانية قناعاً يخفي به خوف طبقته من الانهيار . نشأ في احضان النعمة ، ويرى الحضارة من منظور غائم يخشى فيه على الحرية خشية اهل الترف ، وينسى أن ضرورة الخبز تفوق كل الضرورات الاخرى . »

وانطلقت في اعماقه قهقهته الشامتة الصامتة . « يكفي أن ادعوه بورجوازياً لتنهار القمة الصغيرة التي يتمتع باعتلائها ... »

* * *

– « لا ، لن أعود بك إلى البيت . »

– « قلت لك إني بردان . »

غير أن وليد ظل دائساً على البنزين ، مركزاً عينيه على الطريق التي تخترق ستائر المطر المنهمر ، وماسحتا الزجاجة الامامية لا تكلان من الصعود والنزول ودفع الماء المتلألىء عنها ، وقال :

– « لماذا اذن لا تصف الحياة فى ما تكتب على واقعها ، وتعين هذا القبح الذي رأيته يصرخ لله في سمائه ؟ أم أن مقالك عني كان من هذا القبيل ؟ »

– « وليد ، أنت حققت ما تريد من كسب مادي ، افلا يكفيك ذلك ؟ بمجرد اقتنائك هذه السيارة مثلاً أنت انما ترمز إلى انصرافك عن الكثير مما كنت تتشدق به في الماضي عن ضرورة الكفاح والصراع ، إلى آخره . »

– « هذه السيّارة القديمة المقرقعة إذن اصبحت عنوان الترف والانصراف عن الكفاح والصراع ، إلى آخره ؟ »

– « تماماً . »

– « مسكينة القيم كلها حين لا تصدر الا عن هزيمة في الحياة ! نشأت أنت في عائلة تتمتع بدخل مضمون وبيت ذى غرف عديدة ، وخدم . وتقارن نفسك بي ! اين نشأت انا ! في قصر من قصور اوهامك ، ولا شك »

– « انظر إلى نفسك الآن . هذا هو المهم . هل كنت مخطئاً بوصفي اياك كما فعلت ؟ »

– « طبعاً كنت مخطئاً ، وعن قصد غريب ، ابتداءً من نشأتي ، وانتهاءً بكتاباتي . رغم هذه السنوات كلها ، أنت لا تعرف عني شيئاً ، وتتشدق بالكلمات الكبيرة . وتتصور أن أناساً مثلك سيغيرون

المجتمع ؟ تغيّره وأنت قاعد على جحرك ، تلوك احقادك الصغيرة ، وتغازل اخفاقاتك المتوالية ؟ كم فقيراً عرفت في حياتك ؟ كم يوماً جعت وعريت ؟ »

— « هذا كله خارج عن الصدد . لماذا تجعل القضية شخصية ؟ »

— « عجيب ! هاجمتني في شخصي ، ولا يروق لك أن اسائلك في شخصك ؟ كم مظاهرة خرجت فيها ؟ كم قنبلة قذفت بيدك ؟ كم قرية درست احوالها الاجتماعية ؟ كم نفساً تعيل ، مثلاً ؟ »

— « غير مهم . »

— « كم نفساً تعيل ، بالله أخبرني ؟ »

فسدد كاظم من عينيه الصغيرتين نظرة ضارية إلى وجه وليد ، غير أن عيني وليد كانتا مركزتين على الطريق الذي يتلقى انهمار الماء صاغراً ، فلم ير ما في عيني جليسه من ضراوة ، ومن احساس بالاهانة يحاول كتمه . ولما لم يجب كاظم ، أعاد وليد سؤاله :

— « قل لي ، كم نفساً تعيل ؟ »

— « لا أعيل احداً ، ولا اريد أن اعيل احداً . ليس في نجاحك في الأعمال ايّة دلالة على نجاحك في الفكر المكافح ، لأنك تعطي الكلمة عن عمد معنى غير المعنى الذي اقصد اليه . انا لا اعيل احداً لأنني جعلت من كل عزيز علي ضحية في سبيل مبادئي . »

فالتفت اليه وليد بسرعة ، وأطلق في وجهه قهقهة عالية ، وقال : « شهيد الانسانية ! لمن تقول هذا القول ؟ الا تتساءل احياناً ، وأنت الذي تهمك الحقيقة ، إن كان لهذه الكلمات التي اتخذت منها سلاحاً بوجه الآخرين اي مدلول حقيقي في حياتك ؟ تستثير عاطفة كريمة مبهمة في صدور الذين لم يعرفوك ، بينما أنت تغمس يدك في دم الذين عرفوك وأحبوك ؟ اليس الأحقّ أن تبدأ بنفسك اولاً ؟ »

فقال كاظم ، واول الهياج باد في صوته : « شوف ، وليد ، قلت لك ارجعني إلى البيت . »

ولكن وليد أجاب بلهجة يدل برودها على عزمه العنيد : « إلى البيت ؟ ابتعدنا كثيراً عن البيت . »

— « إلى اين أنت ذاهب ؟ هذه بغداد الجديدة . »

— « إلى بعقوبة . ولن يكون في الطريق اي سيارة غير هذه . »

— « الآن في هذا المطر ؟ أجننت ؟ أقول لك ، أرجعني ! »

— « اضبط اعصابك يا كاظم ، كما كنت دائماً تفعل . لا تكن مثلي . انا عندما أغضب ، اعجز عن الكلام ، ولكنني اتحرك بجنون . يوم قرأت مقالك ، لم أصدق عيني . انا لا اخشى تهجم احد علي . انا الطاحونة الضخمة التي شبهتني أنت بها ، أطحن القمح والزؤان معاً . غير أن هجمتك كانت جارحة لأنها جاءت منك ، منك أنت ، وأنت ادرى الناس بما عانيت انا من فقر ، وما جابهت من مشاق . ما الذي تعرفه أنت عن الكفاح ، والصياح ، والوقوف عارياً بين الذئاب ؟ الكلمة عندك منفصلة عن الفعل ، والارادة منفصلة عن التنفيذ . معرفتك بالحياة بدأت نظرية ، وبقيت نظرية ، ولم تمتد قط إلى الأسس العنيدة الرهيبة . لم تعرف يوماً قرص الجوع ، ولم تعرف رعدة البرد عندما يهاجمك الشتاء وليس لديك سوى دشداشة واحدة ، دشداشة قطنية مرقعة واحدة تكاد لا تغطي خصيتيك ... »

وانعطفت السيارة في اتجاه بعقوبة ، وكشف نورها النفاذ طريقاً طويلاً اسود ، فيه فجوات من الضوء المنعكس عن بلل الأرض . لم يكن على الجانبين الا الظلام الكثيف . لا اضواء ولا بيوت : فحمتان ممتدتان إلى ما لا نهاية . والمطر يضرب ظهر السيارة ، متلازاً متسارعاً ، كمناقير الآلاف من الطيور الكاسرة .

فصاح كاظم : « اخفض السرعة لخاطر الله ! أتريد أن تقتلنا ؟ »

وود لو يستطيع أن يزيح وليد عن مكانه ، فيوقف السيارة قسراً ، لولا خشيته أن يخل بحركة السكان ، والأرض زلقة ، فتودي السيارة بكليهما . واستمرت السيارة بهديرها واندفاعها العنيد . ووليد لا يلتفت الى كاظم ، وهو يقول :

« أنت ترى الغريق يخبط الماء فتقف على رأسه خطيباً إلى أن يغرق . ما تفوهت يوماً بكلمة ، ما كتبت يوماً كلمة صادرة عن حب لشيء أو انتصافاً لأحد . ما تفوهت ولا كتبت الا عن حقد كثير الالتواءات والعقد في نفسك ، حقد تجاه كل شيء ، تجاه كل أحد . هل تظن أن هناك أي عمل كبير يصدر الا عن حب ؟ »

لم يكن لدى كاظم ما يفعله ، وقد وقع في المصيدة ، فتكوم في مكانه ، وغار رأسه بين كتفيه من جديد ، مستسلماً لمشيئة السائق . غير أنه تمتم : « من الخطيب الآن ؟ ومن الغريق ؟ »

وفجأة وجد كاظم نفسه يُلقى بشدة إلى الامام ، حين صرّت السيارة صريراً خطراً ، وحادت بقوة الوقف الفجائي على الطريق البليل حياداً عنيفاً مال بالراكبين يساراً ثم يميناً قبل أن تستقر السيارة في وسط الطريق ، ونورها كسكين طويل يقطع متاهة الظلام الماطر شطرين .

وقال وليد : « نعم . انا الخطيب هذه المرة ، وأنت الغريق ! »

وبسرعة خاطفة امتدت يده اليمنى إلى مقبض الباب الذي بجانب كاظم وفتحته ، وقبل أن يعي هذا وضعه الجديد ، دفعه وليد بيدين صلبتين عن مقعده دفعة قوية من خلال الباب المفتوح ، فسقط على جانبه في الجادة بخبطة أليمة ، والمطر ينهمر عليه من كل صوب ، والماء يسيل من تحته ، ورأى الباب يوصد دونه بصفقة هائلة وسمع وليد يقول : « ... معنى البرد ! » وزمجرت السيارة وانطلقت .

فانتصب في الحال غير مستقر على قدميه ، وصرخ في عقب السيارة المتباعدة عنه : « قواد ! يا قواد ! والله لراويك يا قواد ! والله لأقتلك يا قواد ! »

ثم رأى السيارة تقف ، فتستدير ، وإذا بها تقبل عليه بنورها ، شرسة ضارية كأنها ستمحقه ، وهو ما زال يصيح ، ثم تمرق عنه في زمجرة كزمجرة الرعد الذي يملأ السماء ويستصغر الأرض .

وبسرعة ، لم يكن حول كاظم سوى الظلام والمطر الدافق ، وبصيصين احمرين قصيين يدلان على سيارة تسرع بعودتها إلى بغداد . ثم اختفى البصيصان ، وانغرزت أظافر كاظم المقبوضة في كفية الملوثتين بغضبه المغلوب ، وانقبض حلقه بنشيج عميق ، إذ امتزج المطر البارد على وجهه المتكسر بسيلين ساخنين ينبعان من عينين لا تريان الا الحلكة السوداء ، وحط المزيج المر على شفتيه . ثم تسرب بينهما واستقر على لسانه .

* * *

هكذا تنتهي القصة كما هي مكتوبة لدي (عنوانها « المزيج المر ») . ولعل الدرامة التي فيها يجب أن تنتهي عنيفة هكذا . غير أن الامانة تقتضيني أن اذكر أن النهاية الحقيقية لم تكن كذلك — أو انها لم تكن كذلك بالضبط . لقد اختطف وليد صديقه كاظم فعلاً إلى الطريق المؤدية إلى بعقوبة في تلك الليلة الشتائية ، وكانت ايامئذ طريقاً محفرة ، رديئة التبليط ، لن يجد فيها كاظم شجرة واحدة يتقي بها المطر المنهمر . وعندما دفعه وليد وأسقطه على الأرض ، انطلق بسيارته فعلاً ، تاركاً كاظم لغضب السماء ، الذي كان في تلك الساعة ما حقاً ، ولا شك . ولكن ما كاد وليد يجد نفسه وحيداً وراء السكان حتى شعر بأن غضبه تخلى عنه ، وأن النار المحتدمة في رأسه خمدت فجأة ، وأن حزناً

غريباً استولى عليه ، وتملكته شفقة على صديقه حاول مقاومتها ، ولم يفلح ، وفي الحال اوقف السيارة ، ثم استدار بهـا ، وعـاد باقصى السرعة نحو كاظم من جديد .

رأى كاظم سيارة تقبل عليـه بنورها ، فقفز إلى وسط الطريق يلوّح بذراعيه امامها كالمجنون . وكاد لا يصدق عينيه ، لشدة فرحه ، عندمـا وقفت السيارة عنده . ولكن حين ترجـل منها وليد ، وتبينه كاظم ، تراجع خوفاً واستدار هاربـاً ، غير أن وليد ركض بذراعين مفتوحتين ، وامسك به وباغته بعناق حار ، واخـذ يقبل خدّه وكاظم يقاوم ، والمطر منهمر عليهـما ، ووليد يقول : « آسف ، آسف . كاظم . فقدت عقلي . اعذرني كاظم ، اعذرني . » وكاظم متشنّج ، متصلب ، لا يعرف كيف يستجيب . غير انه لان اخيراً ، واسترخى ، وأخذ هو ايضاً يقبل خد وليد ، ثم انفجر باكياً ... وعادا إلى السيارة ، كخرقتين منقوعتين بالمطر والدموع . وداس وليد على البنزين .

لم يسبق بسرعة هذه المرة . لم يكن بوسعه أن يفعل ذلك ، حتى لو أراد . بقيا صامتين طوال الطريق ، إلى أن بلغا بيت كاظم ، وهمـا يرتعشان بللاً وبرداً — وعند الباب ، تردد كاظم في النزول . ثم قال : « لن انزل الا إذا نزلت أنت ايضاً ، لتشرب معي كوباً من الشاي ، مع الكونياك . ما رأيك ؟ »

— « وماذا يقولون عنا في البيت، ونحن مبللان هكذا ؟ وفي الساعة الساعة الثانية صباحاً ؟ »

— « فليقولوا ما يقولون . كلهم نيام أصلاً . »

نزلا معاً ، ودخلا البيت،ووجد كاظم ان المدفأة في غرفته مشتعلة ، وان ابريق الشاي في المطبخ ما زال على النار المنخفضة ، وان زجاجة من كونياك ريمي مارتان — وهو الذي يؤثره أيضاً وليد — ملأى لأكثر

من نصفها ، تنتظره في الدولاب . ولم يكن عليهما الا ان يجففا البلل على أفضل ما يستطيعان . وجعلا يشربان ويتحدثان حتّى الصباح .

« كان مجنوناً ، يا رجل» ، قال لي كاظم ، وهو يصف ما حدث . « وجدتني بغتة في قبضة رجل أضاع رشده . كان يسوق كالمجانين ، ولا أظنه كان مخموراً. وكالمجانين في ظروف استثنائية ، تمكن من سيطرة مدهشة على كل شيء : عليّ أنا ، على السيارة ، على الطريق . حتّى خُيّل اليّ ان المطر نفسه كان من تدبيره ، إي والله ! »

كانت تلك مصالحة غريبة بين كاظم ووليد . فكاظم ليس بالرجل السهل ، ولا هو بالذي ينقاد لعواطفه في لحظة من الضعف ، فينسى كل شيء آخر . لقد نشأ على الشك في كل شيء ، على الزهو بأنه « يقرأ الممحوّ » ، على الاصرار بأن الجانب الآخر من الصورة ، اذا استطعنا رؤيته ، يوضح الكثير من مبهمات الجانب المعروض أمامنا : فلنبحث دائماً عن الممحو وعن الجانب الآخر! ولكنه كثيراً ما يشتطّ في «البحث» الى التقول والتخمين ، ويدرك أخيراً نتيجة يختلط فيها الخطأ بالصحيح اختلاطاً تعجز فيه عن التمييز بينهما . كان ذلك في بعض الأحيان هو السر في قوة ما يكتب ، ولكنه كان أيضاً السر في ضعفه . فأنت مع كاظم في متاهة من المعطيات التي يتصور أنه محصها ، وهي في الواقع مدينة لشكوكه وخيالاته أكثر مما هي مدينة للحقيقة الاحصائية الموضوعية . واذا نبهته الى ذلك ، قال انه يعتمد في النهاية على جعل حسه الداخلي هو الحكم بينه وبين نفسه : هناك حدس حاصل، بعد التمعن والتدقيق، تصبح فيه صحة « الحقائق الصغيرة » او عدم صحتها امراً غير وارد . المهم هو النتيجة النهائية .

وقد كان رأيه في وليد ، بعد معرفة بضع سنوات ، مثلاً على ذلك، ناقشته فيه دونما جدوى . وليد ، كما جعل يراه كاظم أيامئذ ، سليل

« ارستقراطية منقرضة » لا تنسى تاريخها ، الضائع بين الناس ، الراسخ عميقاً في نفسها ، فيدفع ذلك أفرادها الى فروسيات وهمية ورؤى نخبوية غامضة . ووليد يحاول إخفاء ذلك او كبته ، لأنه أمر لا يصلح لزمانه « وهو يريد ان يكون جزءاً مهماً من زمانه » ، ولكنه في قرارته ، بينه وبين نفسه ، متشبث به ... لقد أضحكني كاظم بحديثه عن مثل هذه الارستقراطية « الباطنية » ، غير أنه كان جاداً في رأيه ، يفصّله تفصيلاً ، وهو ينفض رماد سيكارته بعصبية بين آن وآخر ويقول : « انها من بقايا العهد العثماني في اقطار عربية كثيرة . ورغم انقراضها كقوة اجتماعية او سياسية الا انها بقيت فاعلة كقوة نفسية خفية، كعاهة يخجل صاحبها من الاشارة اليها تمده بجبروت داخلي . وكون وليد قد نشأ نشأة مسيحية لا يقلل من أهمية ذلك ، بل يزيد الأمر تعقيداً عليه . فهو يبدو أنه لا ينتمي الى أية أرض مئة بالمئة ، ولا ينتمي الى أيةطبقة مئة بالمئة ، غير ان أحاسيسه الفروسية ، التي قد تكون لاواعية بالنسبة اليه ، بعد ان دفع ارستقراطيته الى ابعد ما يكون عن ذهنه ووعيه ، كابتاً اياها كما يكبت الطفل مشاعره الجنسية على الطريقة الفرويدية ، تدفعه الى تبني الأرض ، وتبني الطبقة ، ولكن على نحو فردي ، بل اوتوقراطي ، مليء باحلام رومانسية نعرفها جيداً من مطالعاتنا عن القومية الالمانية أو الايطالية في القرن الماضي . والبورجوازية التي تطمح دائماً الى احتلال مكان الطبقة التي تعلوها ، تتبنّى أفراد هذه الطبقة المنقرضة وتحتضنهم ، لأنهم دون علم منهم ، يخدمون أغراضها بالضبط . وهنا الفخ الذي وقع فيه وليد ، والذي يرفض ان يصدق انه يتخبط فيه . »

كانت خيرية قد وضعت صينية على المائدة الصغيرة وعليها استكانات الشاي ، فنهضت سميرة وقدمت استكانا لي ، وآخر لأخيها ، واخذت الاستكان الثالث وهي تقول ، ضاحكة : « كاظم ، لو ان وليد قال لي هذا الكلام عنك أنت ، لربما صدقته ، او لصدقت الكثير منه . أما

ان تقوله انت عن وليد » .

فاجاب كاظم بشيء من الحدة : « وهل تعرفين وليد كما أعرفه ؟ ما الذي تعرفينه عن حياته ؟ هل قرأت كتابه ؟ »

— « طبعاً قرأت كتابه . ولكنني لم اقرأه على طريقة قراءة الفنجان، أو فتّاح الفال ، كما تفعل أنت . »

فتدخلت مؤيداً لها : « كاظم ، اسقاط الذات على الآخرين مزلق معروف . »

فجرع كاظم ما تبقى في الاستكان جرعة واحدة ، وقام ليضعه على الصينية . « مصيبتنا معكم هي انكم حرفيّون في ما تفهمون . الكلمات أحرف جامدة ، لا تتخطون حدودها في تفكيركم . وهذا موقفكم بالضبط تجاه كل ما يقوله أو يكتبه وليد . »

فقلت ، وسميرة تتناول الاستكان الفارغ من يدي : « مهما يكن تأويلك بارعاً ، فانه بعيد جداً عن الموضوع . وليد شيء آخر غير ما تصف . فيه شيء ما داخلي ، باطني : هذا اتفق معك عليه . ولكن ما هو هذا الشيء ! لست أظن انك قد اهتديت اليه بعد . »

قالت سميرة : « مهما يكن فانه ليس بقايا الارستقراطية المنقرضة التي تتخيلها يا كاظم . أنت تتشاطر في ذلك أكثر مما يجب . وليد مقتلَع، وهذا أمر لا يحتاج الى ذكاء كثير لرؤيته . وهو يحاول أن يجد الأرض يعيد فيها غرس جذوره . وإلا فانه لن يستطيع أن يفكر ، أن يكتب ، أن يحقق شيئاً . ولكن هل استطعت أن تكتنه ما في دخيلته ؟ لا أظن . ماذا تعرف عن حياته أنت ؟ »

— « ما أعرفه عن حياته هو ما أراد هو أن يحدثني به . وهو قليل. ومنتقى ليتفق مع الصورة التي يروق له أن يراها لنفسه ، ويريها للآخرين . وطبعاً صورة كهذه لا تقنعني . وهي الصورة التي يراها ابراهيم الحاج

نوفل ، ويتغنى بها . أمس رأيته عائداً من دار وليد وكأنه عائد من زيارة وليّ ، أو بطل اسطوري . »

ـ « انه يرى في دخيلته عكس ما تراه أنت . لماذا لا يكون هو المصيب ، بقدر ما تتخيل انك أنت المصيب ؟ »

فقلت : « . اذن فلنقل ان وليد يقع في منطقة وسطى بين ما يراه فيه إبراهيم ، وما تراه أنت ؟ »

وهنا ضحك كاظم ، وأشعل سيكارة أخرى ، وقال : « أكبر مجامل ، هذا أنت يا جواد ! تريد أن ترضيني وترضي ابراهيم معاً . وأنا واثق من أن رأيك الحقيقي يختلف كليّاً عن رأيينا معاً . بالله عليك ، أليس كذلك ؟ »

قلت : « جائز . جائز ... على كل ، أنت تعلم انني لا أطلق الأحكام جزافاً ، لأنني أرى لكل أمر ألف وجه . »

فالتفت كاظم إلى أخته : « أترين يا سميرة كيف يتملّص الدبلوماسي ، لكي لا يفضح التزامه الحقيقي ؟ » ثم التفت اليّ « ألف وجه ؟ حدثني عن وجهين فقط ، وأتنازل لك عن ٩٩٨ الأخرى ! »

قبل ان اجيبه بمداورة ثانية ، رفع كاظم يده فجأه كأنه يتلقف فكرة هبطت عليه من السقف : « ألا تتساءل أحياناً لماذا يتعلق ابراهيم بوليد؟»

قلت : « لشدة ما بينهما من اختلاف في الشخصية . ثم تذكّر ، أوقفا كلاهما معاً أكثر من مرة في السنة الأخيرة . لا بد أن بينهما رابطاً مشتركاً ، يجمع بين الشخصيتين ، ولو على تباعد فيما بينهما . »

ـ « تقصد الموقف السياسي ؟ هناك رابط أهمّ . جواد ، أنت سيد العارفين ، ولا حاجة بي الى افصاح كثير . »

فدهشت لتلميحه الذي لم أفهم منه شيئاً . « ماذا تقصد ؟ »

فرك سيكارته بشدة في المنفضة ليطفئها ، وقال هو ينظر الى رمادها :

« لماذا هذه البراءة كَ رفع عينيه اليّ « ريمه ، أليست ريمـه لابراهيم هي بيت القصيد اولاً وآخراً ؟ الرباط المشترك بين ضدين ؟ »

فكادت سميرة تشهق ، قائلة : « لا يا كاظم ! »

وقلت : « ابراهيم معجب بشخصية أم مروان ، صحيح . »

— « معجب بشخصيتها ؟ فقط ؟ وجمالها ؟ أنا أعتقد أن له صلة بانهيارها العصبي . ولنسمّ الأشياء بأسمائها : بجنونها . »

قلت : « أبداً ! مستحيل ! »

— « ابراهيم يجنّن حتى الملائكة ... يخلط بين الجـد والهزل ، بعبقريته الخاصة ، وتتناثر عواطفه حوله تناثر الأوراق عن شجرة كبيرة في يوم عاصف . أنا أعرف ان مثل هذا الكلام لا يروق لك . »

— « طبعاً لا يروق لي . ولا أدري ما الذي بك هذه الأيام ، بهذه الأوهام الغريبة المستمرة . »

سميرة ، كذلك ، كانت عـلى خلاف مع أخيها . وبقدرتها على الصراحة ، مع شيء من السذاجة المحبوبة ، قالت : « عقدة الاضطهاد . هذا ما يعاني منه كاظم . فيكون رد الفعل لديه هكذا : ضربات عشوائية ضد أصدقائه ، ومحبّيه . »

ثم التفتت الى أخيها وقد تقطب حاجباهـا : « كاظم ، عيوني ، لا يجوز أن تستمر على هذه الحال . هذا الصباح كان شجارك مع الخالة مقبولة بدون مبرر . وتفوهت بكلمات معها ، بل حتى معي ، ما كنت أتصور انني سأسمعها في هذا البيت . لماذا لا تسافر في اجازة ، لتريح أعصابـك ؟ اذهب الى لبنان ، الى الاردن ، الى القدس . اذهب الى لندن . اترك محيطك هذا شهراً أو شهرين ... »

— « اسافر بفلوس موتاك ؟ تتكلمين كأنك قادمة اليّ من المريخ ! »

شعرت بحرج شديد لهذا العراك العائلي ، وأردت بصورة مـا تهوين

الأمر على كاظم . غير انني ادركت بلمحة خاطفة أن تجربته مع وليد تلك الليلة الماطرة ، تركت جرحاً في كبريائه ، ورأيت أمامي رجلاً بالغ الذكاء يصاب بهزيمة إثر هزيمة . لعل سميرة كانت محقة ، أكثر مما تدري . كل هزيمة أصابت كاظم ، أضافت حساً جديداً الى أحاسيس السقوط المتراكمة في نفسه ، وبات يشعر ان اضطهاداً يلاحقه ، وانه لن يتغلب عليه إلا إذا أعمل ذهنه في محاولة تحطيم الآخرين . « رقيب الانسانية » الذي أحبه وليد يوما ، لم يعد رقيباً مدافعاً عنها ، بل مدافعاً عن ذاته . سيدعي الدفاع دوماً عن المُثُل الكبيرة ، غير انه لن يتورع باسمها عن الدس ، والاستعداء ، حتى بات مضيعة للوقت أن يناقشه الواحد منا في شيء .

فجأة نهض على قدميه ، وقد اصفرّ وجهه حتى حسبت انه سيغمى عليه . لم يتحرك للحظتين أو ثلاث . ودون ان يفوه بكلمة ، ودون أن يلتفت بنظرة إليّ أو الى سميرة ، انطلق نحو باب غرفة الجلوس ، وفتحه بعصبية ، ثم صفقه وراءه ، وسمعناه يفتح باب المنزل ويغلقه بعنف أيضاً . ولما هرولت سميرة في أثره ، ولحقت بها أنا ، كان قد ابتعد عن البيت في اتجاه الشارع العام .

عند بوابة الحديد ، وقفنا أنا وسميرة نتبادل نظرات الحيرة وقد بلغ حرجي أشده . « جواد » ، قالت سميرة بضراعة غريبة : « لا تتركه . أنت أقرب أصدقائه اليه . والينا جميعاً . لا تتركه . أقنعه ، أرجوك ، لا اريده كلما غضب أن يفعل كالآخرين ، فيذهب لشرب العرق ، ثم يعود في منتصف الليل ليستأنف الجدل العقيم . »

ودّعتها ، وركضت لادرك كاظم ، غير انني ما كدت أبلغ الشارع العام ، حتى كان باص الأعظمية – شارع الرشيد قد توقف عند الموقف القريب ، ورأيت كاظم يصعد اليه . فركضت بأسرع ما أستطيع ، وبلغته

وهو على وشك التحرّك ، وما أن طفرت اليــه حتّى تحرّك ، ووقعت لاهثاً على مقعد أمامي ، قرب كاظم . لم يستغرب ، ولم ينطق بكلمـة واحدة ، إلا عندما وقف الجابي فوق رأسي ، فمدّ كاظم يده اليــه بالفلوس ، قائلاً : « اثنان . » وعندما دخلت الحافلة شارع الرشيد ، وجاء الجابي مـرة أخرى ، مددت يدي اليه بدوري بالفلوس وقلت : « اثنان » . واشتد ازدحام الركاب ، وقلت مرسلاً بصري عبر كاظم خلال النافذة المغلقة : « ستمطر مرة أخرى . »

أجاب ، دون أن يلتفت : « سوف تغرقنـــا لا خلاص . إمّا حريق ، أو غريق . »

وعندما ترجلنا همّ بمغادرتي وهو يقول : « الليلة في مطعـم شريف وحداد . » فجررته من ذراعه ، قائلاً : « لا ، ابق معي . لنذهب الى سينما روكسي . »

— « الا تكفينا مشاكلنا ، فنشاهد مشاكل الناس أيضاً ؟ »

— « أية مشاكل ، يا رجل ؟ »

— « طيب ، بعد السينما،ادعوك الى ربع عرق في شريف وحداد . »

— « الى ما بعد السينما ، ربك كريم . »

كانت الساعة قبيل الرابعة والنصف بعد الظهر ، والسينما على بعـــد خطوات . ولأول مرة ابتسم كاظم : رأى عـــدداً كبيراً من الفتيات يدخلن باحة السينما ، فقال ، ضارباً كوعه بأضلاعي : « يا خبيث ! أنت تعلم أن بنات المدارس والكليات يذهبن الى السينما في مثل هذه الساعة... انتظر الى أن اخبر هالة عن استمرارك في المغـــامرات ! » فقلت وأنا افطع التذاكر : « ومن أدراك انها لم تسبقني الى السينما لكي أراها ؟ »

— « مسكين ، جواد ... خاطب ، ولا يقدر أن يلتقي بخطيبته إلا في الأماكن العامة ... »

— « لا تهتم . ربما وجدنا خطيبة لك أنت أيضاً ! »

وشققنا طريقنا بين جمهور من الداخلين والخارجين ، وكاظم يتلفت حواليه ، قائلاً : « خطيبة لي ؟ أليس حراماً ؟ لقد أسقطوني من الحساب ، اولاد الحرام . »

وقلت له ، ونحن نهم بالجلوس في القاعة الرطبة ، الدافئة ، الضاجة ، باللغط وتنهدات فريد الاطرش : « طول عمرك متشائم . هنساك الف فتاة تتمنى نظرة منك . »

فنظر يميناً وشمالاً وقال : « أرني واحدة تنظر الي الآن ، او تريد النظر الي . طول عمرك متفائل ! »

وبدأ العرض .

عندما خرجنا ، كان كاظم قد عاد اليه شيء من المرح . رأينا عدة وجوه نعرفها ، وتسالمنا هنا وهناك ، وعلق كاظم بحرارة على فتاة تسير صامتة مع امها ، يداها مدفوعتان في جيبي معطفها الطويل الأحمر الفاخر ، وعيناها تنظران بعيداً وكأنها لا ترى أحداً حولها . وهمس : « ألا تعرفها ؟ سوسن عبد الهادي . اعطني امرأة بهذا الجمال الهادىء ، وهذه الكبرياء الشامخة ، وخذ عشر سنوات من عمري . طالبة في كلية الملكة عالية ، ويقولون انها أيضاً رسامة موهوبة . »

فمازحته : « اذن ، ضع عقلك في رأسك ، ولنخطبها لك . »

— « هل جننت ؟ أنا أحلم فقط . »

— « احلم اذن ! بالضبط كما أوصى لينين : دع الجماهير تحلم . »

— « ولكن ستالين اهمل الوصية . »

قال ذلك ، وأوقفني ، وكأنه قد عزم على أن يذهلني بقول جديد . ثم نطق : جواد . لنذهب الى بيت وليد . »

أذهلني فعلاً ، وترددت في الموافقــة : « إذا كنت تنوي استئناف

الجدل – والعراك – فابحث لك عن رفيق آخر . »

وإذا هو يجرّ بي جراً ، ويقول : « أبداً ، أبــداً . » ويوقف سيارة اجرة . تسرع بنا في اتجاه ساحة عنتر . ولسبب مـــا ، وأنا في السيارة العتيقـــة ، بقيت صورة سوسن عبد الهادي تومض في ذهني ، بعينيها الضائعتين ، ومشيتها المترفـــة المتئدة . وقلت لنفسي : سأسأل هالة عنها .

كان وليد في البيت ، لحسن الحظ . واستقبلنا هو وريمة معاً في غرفة الجلوس الصغيرة ، الملأى بالكتب . يبدو أن وليد كان يكتب على مائدة الأكل ، في الركن الصغير المتفرع عن غرفـــة الجلوس . فقد كانت الأوراق والكتب متناثرة على المائدة ، وفنجان القهوة يلتمع تائهاً بينها ، واسطوانة ما زالت تعزف على الغراموفون ، وصوت الموسيقى يملأ البيت . وقد جلس الى المائدة فوق وسادة موضوعة على كرسي ، مروان ، وهو يرسم بأقلام ملونة ، وصاح من على مقعده الرفيع : « هلو عمّو ! »

بـــدا لي وليد كئيباً ، متعباً . خفض صوت الموسيقى ، وجلسنا ، بينما ذهبت ريمة الى المطبخ لتطلب الى المربية تهيئة القهوة . ومـــا أن عادت بقوامها الفارع وبشعرها الطويل في فوضى حول وجهها الشاحب، رغم تورّد خديها ، حتى بادرت كاظم بقولهـــا : « أين قضّيتما تلك الليلة الماطرة الطويلة أنت ووليد ؟ قل الصدق ! أفي بيتكم كما يدّعي وليد ؟ »

ولمحتُ وليد يغمز لكاظم ، ويعض له على شفته ، فأجاب هذا : « في بيتنا طبعاً . »

– « وبقيتما تتجادلان حتى الصباح ؟ »

حول عينيها كانت الزرقـــة الشاحبة مخيفة .

فضحك كاظم . « كعادتنا . آسف اننا لم تستطع أن نخبرك . كان تلفوننا عاطلاً . »

— « وكانت أختك سميرة معكما طوال الليل ؟ »

وبدا كأنه أجفل لسماعه هـذا السؤال وأجاب بشيء من الحرج :

« سميرة ؟ العياذ بالله ! سميرة تنام قبل الساعة العاشرة . »

جلست ريمة ، واستدارت إليّ : « متّ خوفاً عليه ، حسبت انهم أوقفوه مرة اخرى . الى متى هذه الحال ، يا ربي ؟ »

فانحنى كاظم باتجاهها ، يقاطعني قبل أن أجيب : « سيأتي يـوم قريب ، وتنتهي هذه الحال . اطمئني يا أم مروان . »

وفاجأته بسؤالها : « ومتى ستتزوج ؟ »

— « أنا أتزوج ؟ ثانية ؟ من يريد أن يعيد التجربة للمرة الثانيـة بعد أن ينجو بجلده في المرة الاولى ؟ »

— « وأنت يا جواد ؟ كيف امورك مع هالة ؟ »

— « ممتازة . سنتزوج حالما تتخرّج لهذه السنة ، ثم ... »

— « ثم ماذا ؟ »

— « ثم نسافر الى امريكا لكي أدرس للدكتوراه . »

فالتفتت ريمة الى وليد : « لماذا لا نذهب الى امريكا نحن أيضاً ؟ »

فهز وليد رأسه بقوة : « أمريكا ؟ امريكا هنا ، هنا ، يا ريمة. »

تألقت عيناها تألقاً غريباً (وقلت لنفسي : ما هـذا الجمال الرهيب المجنون ؟) . « ألم تزهق الرواح والمجيء والتوقيف والابعاد والعودة؟ وليد ، حبيبي يلعبون بك لعب الكرة ، ثم يضحون بك في ليلة باردة. »

— « اذن نسيت ما قلته أمس ؟ »

— « ماذا قلت ؟ »

— « ريمة ، قلت لي : اياك ان تتنازل . وعندما يكبر ابنك هذا ، اريده مثلك ، يرفض التنازل . »

انتفضت ريمة ، وهزت رأسها هزة عنيفة ، وقالت ، وعيناها شاخصتان بنا : « صحيح . سأجعله مثل ابيه ، يرفض التنازل ... » ثم حدقت في عيني واردفت كمن يستنجد بي : « أف ، جواد ... أنا تعبانة .. تعبانة جداً ... »

وصمتت .

وانطفأ الألق في عينيها . مدت ذراعيها على مسندي كرسيها، وارتخت يداها على الجانبين كوردتين ذابلتين . غابت عنا دفعة واحدة ، وهي أمامنا ، أشبه بمريم المجدلية في احدى الصور القديمة ، وصدرها البارز يكشف عن بعضه قميصها المفتوح ، وشعرها الاهوج الغزير مرسل على كتفيها كأنها ستمسح به قدمي حبيب مصلوب .

جاءت المربية الفلسطينية ، بالقهوة ، وتناولت ريمة فنجانها ، غير انها وضعته جانباً ولم تأخذ منه رشفة واحدة . كان وليد مرتبكاً ، لا تتركز نظراته على شيء سوى زوجته بين الحين والحين ، وقد ازعجه ولا ريب أن يراها اصدقاؤه في ذلك الوضع . وغضبت أنا ، بيني وبين نفسي ، على كاظم واقتراحه السخيف هذه الزيارة المفاجئة ، مع اننا كثيراً ما كنا نتزاور على هذا النحو . ولم أعلم ما الذي اراد أن يحدّث به وليد ، لأنه بقي مكانه في غير ما عجلة ، وكأنه يريد أن يمتلىء من رؤية ريمة وهي في أسوأ حالها . ليتني رافقته الى « شريف وحداد» بدلاً من هذه المهانة التي لم أرضها لوليد ! واردت انقاذ الموقف كيفما اتفق ، فسألت وليد عن الموسيقى التي توقفت للتوّ ، ثم عن تلك الأوراق المتناثرة على المائدة ، ونهضنا ليرينا رسوم مروان ، واسترسل بنا الكلام ، وريمة صامتة ، حاضرة غائبة ، تنظر ، ولكنها لا ترى ولا تسمع . وأخذني وليد جانباً وهمس : « ام مروان راحت، راحت، يا جواد . سآخذها الى بيت لحم ... ربما عند والدتها — أو في المصح

هناك . لا هي ولا أنا نعرف طعم النوم هذه الايام . بعد قليل سيأتي الدكتور طارق رؤوف لعيادتها . »

وهنا اسعف النطق كاظم اخيراً . « أنا آسف يا وليد » قال متلعثماً « لاصراري على مجيئنا هذا المساء . لم أكن أعلم بهـذا . اردت أن احدثك بمشروع — بمشروع كتاب أو ما أشبه — ولكن هذا ليس وقته . المعذرة . »

وبدا أن وليد لا يستطيع التركيز على ما يسمع أو يقول ولكنه قال: « هل الأمر مستعجل ؟ أنا تحت تصرفك . »

— « لا ، ليس مستعجلاً . هل من مساعدة استطيع ان اقدمها ؟ »

— « لا ، لا ، شكراً ، شكراً . »

— « أرجو أن يتاح لك أن تتصفح جريدتك بعد ثلاثة أيام أو أربعة. »

فأجاب مع ضحكة ساخرة : « كل يوم ، كل يوم . وهل لنا غنى عن غذائنا الرائع اليومي هذا ؟ »

وقلت « يلا كاظم ، تأخرنا . »

وعدنا الى ريمة لنصافحها مودعين . فنهضت لنا ، واحسست انهـا تحدق فينا وقد نسيت من نحن . لكنهـا رافقتنا مع وليد الى الباب ، وخرج وليد معنا حتى البوابة وهو يعتذر ، ونحن نعتذر . كانت السماء تنثّ رذاذاً ناعماً ، فحثثنا الخطى . ومرت بنا سيارة ، ثم توقفت ، وسألنا سائقها : « اين بيت السيد وليد مسعود ، رجاء ؟ » قلت : « انت الدكتور طارق رؤوف ؟ انهم في انتظارك . » ودللناه على البيت .

لم أدهش كثيراً عندما وجدت ، بعد بضعة أيام ، مقالاً في الجريدة بقلم كاظم اسماعيل يقول فيه ما معناه ان مراجعته لكتاب وليد مسعود « الانسان والحضارة » قبل بضعة أسابيع كانت محاولة لاستبطان وجـه

واحد ممكن لدراسة خصبة ومهمة ، وانه اليوم سيبحث في وجـه آخر ممكن للكتاب ، وهو وجه فيه بعد فكري خاص ، يتميّز بوعيه محنـة الانسان في النصف الثاني مـن القرن العشرين وبعد الفاجعة الفلسطينية ، مع مستقبليّة جريئة تضع مؤلفه في الصف الأول من ... الى آخر مـا هناك من هذا الضرب من الكلام . لم أدهش كثيراً للمغالاة بحد ذاتها ، ولكنني بقيت في حيرة ازاء هـذا التناقض الجديد في كاظم بالذات . كيف رضي لنفسه أن يستدير بوجهه هذه الاستدارة الكاملة الصريحة ؟ لم يكن ثمة اشارة الى أيـة ارستقراطية منقرضة وأوهام فروسية وفخاخ برجوازية . بل كان هناك حديث طويل عن إمّا / أو ، الحريـة أو الجنون ، المجابهة أو الانتحار . لكأن كاظم اعترف أخيراً أنه أطلّ من على حافة هاوية مخيفة ، فرأى ، لا وليد وريمة مسعود فحسب ، بـل كاظم اسماعيل نفسه .

حاولت الاتصال بـه ذلك اليوم ، فلم أجده . وعصر اليوم التالي أخبرتني سميرة أنه طلب اليها ان تعتذر لي عنه ، لعدم تمكنه من رؤيتي أو الاتصال بي قبل سفره ، وانه استقل الطائرة في الساعة التاسعة صباحاً الى لبنان . ثم أضافت : « ابراهيم أيضاً سأل عنه عدة مرات أمس ، ولكن كاظم ــ أرجوك ألا تخبر ابراهيم بهذا ــ لم يكن ميالاً الى رؤيته ، وطلب الينا أن نقول لابراهيم انه خارج الدار ... »

قلت : « كاظم مرهق ، نفسياً . حسناً فعل بسفره . »

ــ « بقيت ألحّ عليه . اشتريت له تذكرة الطائرة بنفسي . وقلنا له : تمتّع في بيروت ، في الجبـل ، أينما شئت . ولا تستعجل العودة . » ثم أضافت همساً : « يقولون ان هناك حملة اعتقالات جديدة ... »

وذلك بالضبط ما جعلني أمرّ عصر ذلك اليوم على مكتب ابراهيم الحاج نوفل ، لأطمئن ــ وكذلك على وليد ، لأنني كنت واثقاً من انه على

اتصال بوليد ، ولم أشأ ان ازعج وليد نفسه بمخابرة تلفونية أو بزيارة مربكة أخرى .

خمس عشرة سنة مرّت منذ ذلك اليوم ، وابراهيم في جوهره هو هو ، لم يتغير ، ولن يتغير . كان صديقاً لكاظم ، رغم أنه أصغر منه سناً : صداقة مضطربة ، غريبة ، يمتزج فيها الحب والكراهية بمقادير مجهولة . فهو كثير النقد لكاظم – وكاظم لا يبخل بنقده له ، ولكنهما في لحظات التصافي يتناغمان كطيرين غريبين يتغازلان ، قبل أن ينتف أحدهما ريش الآخر من جديد .

ولئن اعتدت ذلك كله منهما ، فانني بقيت طوال هذه السنين لا أفهم تماماً سرّ الروابط الغامضة التي جمعت بين ابراهيم ووليد . في السنوات الأخيرة لم يعد ابراهيم يكثر من الكتابات التي عرف بها في الخمسينات ، غير انه بقي تلك الشخصية الحادة ، المندفعة التي تبلورت في تلك السنين الأولى : رجل يتشهّى كل شيء ، وقد تعهد بتسليم روحه ، مقابل تحقيق ذلك ، لشيطانٍ لا بدّ أن يطالبه قريباً بها . ترى هل كان ابراهيم يجد في وليد الشخص الذي يتمنى أن يكونه هو ، دون وعي منه ، فيتشبث به ذلك التشبث العنيد ؟

ابراهيم اليوم ، كما في الأمس ، إذا تحمس أو غضب لشيء ، أخذ صوته يعلو وينخفض بايقاع خاص به . لسانه يتحرك كالسفّود في الجمر ، ولكن النار قد تبقى في صدره هاجعة الى أن يبدأ الشرب . وإذا شرب ، أخذ يلعب بالنار . يؤججها ، يقذف بها ، وليحترق من يحترق ! يتكلم بأصوات الملائكة وأصوات الشياطين . صوته يسفع ، ويصفع . يبدأ هازئاً ، ويتدرج في شربه صوب الهَوَج . يضحك ، ثم يصخب . هناك حريّته أخيراً – الحريّة التي يطلبها بنهم ، ويتخيل أنه أحياناً يهدّم الجدران القائمة بينه وبينها . وعندما ينتصف الليل ،

وتبدأ ساعات الصباح الأولى ، يكون قد استنفد تلك الحرية المزعومة نفسها . حينئذ يصافي جلساءه ، ويتحول الغضب الى شفقة ، ثم الى حزن ، ثم الى تجريح للنفس عميق ، كئيب . وقد يتهدج صوته ، ويجهش شيء في حلقه . تضيق عيناه السوداوان الواسعتان ، وتقطر منهما دمعتان . ويهمس همساً كالفحيح من بين شفتين يشدهما توتره المتهافت الأخير ، ولا تعرف بالضبط أي كلمات أخيرة يقول .

ولكن هذا الوصف ، الذي جاء في شريط وليد الاخير ، والذي اراني اكرر ما يشبهه هنا ، ليس الا جزءاً من الحقيقة : انه ابراهيم كما هو اليوم . اما في الخمسينات ، فكان ابراهيم يتوقف عند الذروة الساخطة ، ولا يهبط . تجاربه اللاحقة راحت تؤاكل نفسه على مدى السنين ، وأدى التآكل البطيء ، الاكيد ، إلى تلك الرجفة المحزنة في يده ، وذلك الذوبان النهائي في صوته إلى الحس العميق بالضياع والمأساة . أما في تلك الايام ، فكان ما يزال ذلك الشاب المليء بالافكار والصور الذهنية التي تشعره بان كلمات القواميس كلها عاجزة عن الوفاء بها ، والتي يريد لها أن تتفجر على الناس ، في الجرائد ، في الشوارع ، مع الاصدقاء ، بين الاعداء ، في وجه الشرطة ، مع الطلاب ، منذ أن شارك في مظاهرات الوثبة ، والمظاهرات الكثيرة التي تلتها عبر عقد كامل من السنين .

هكذا كان عصر ذلك اليوم من عام ١٩٥٧ الذي رأيته فيه . أحوال العراق ، جمال عبد الناصر . حلف بغداد ، وليد وريمه ، الشعر الجديد ، التردي الاقتصادي (« ولكن أبي ما زال اكبر مستورد في البلد ! أتريد صكا بخمسين الف دينار يصرفه لك البنك في طرفة عين ؟ فليوقعه أبي !) ، لوحات جماعة بغداد ، معرض الرواد ، حفلة « البالو » التي ذهب اليها برفقة اخته نوال في « بهو الامانة » وشاهد فيها اجمل نساء بغداد ... كل ذلك اختلط في زيارته اللفظية اختلاطاً هائلاً . ولكن

همّه الثقيل كان أن صديقه الدكتور طارق رؤوف اكّد له ذلك اليوم أن ريمة مريضة جداً ، وأن وليد ضحية ملابسات مستمرة يزيد من تعقيدها قَدَرٌ سخيفٌ عاتٍ سوف يلاحقه إلى الابد .

كان يتكلم واقفاً وظهره إلى النافذة المغلقة من الطابق الرابع الذي نحن فيه في مكتبه ، فأستدار فجأة ، وفتحها لينشق هواء المدينة ، وألقى نظرة على اسطحها الشهباء الكئيبة ، ثم قال ، وكأنه يريد لمن في الفضاء أن يسمعه : « والله إذا سمعت أن وليد أوقف مرة اخرى ، فلن يبقى لي الاّ أن اقتحم مركز الشرطة حيثما كان ، وفي جيبي عشر قنابل ، وعليّ وعلى اعدائي يا رب ! » ثم التفت إليّ وأردف ، وعيناه السوداوان تحدّقان في عينيّ : « لو انني فقط أعرف كيف احصل على القنابل ! »

هذه الصورة بقيت مطبوعة في ذهني سنين عديدة ، وهي تعود إلى حيويتها كلما زرته في الغرفة نفسها ، وقد تحولت عبر هذه المدة الطويلة إلى مكتب شديد الاناقة ، بأثاثها الفولاذي والجلدي ، والصور الزيتية المعلقة على جدرانها ، والتماثيل البرونزية والخشبية التي يكثر من شرائها من فناني بغداد . والنافذة الخشبية القميئة إياها قد اتسعت الآن ، وأصبحت مؤطرة بالالومنيوم ، فضلاً عن الستارة المعدنية التي تكسوها . لا ، انه لن يفتحها اليوم لينظر منها الى فضاء بعيد . « الفضاء في داخلي ، يا جواد » قال ، وهو يدق صدره بقبضة يده : « انا هنا في رحم دافىء ، وليكن مزيفاً . ما رأيك في هذه اللوحة الجديدة لسوسن عبد الهادي ؟ » ثم غمز بعينه ، وزمّ شفتيه ، وأضاف : « انها رحم آخر — كما قال يوماً وليد . »

ورويت له كيف رأيت سوسن لأول مرة في سينما روكسي أيام كانت طالبة ، وما قال عنها كاظم آنئذ . فسألني : « لماذا لا يتزوجها ؟

قد تكون أرملة ، ولكنها ما زالت في قمّة انوثتها ... ولكن كاظم المسكين لم يعد في قمّة رجولته ... »

فقلت ضاحكاً : — « وما ادراك ؟ »

— « لنسأل النساء ! عندهن الخبر اليقين ... »

وبغتة استدار نحو لوحة سوسن عبد الهادي مرة أخرى ، ونظر اليها نظرة ساهمة ، ثم قال « هل من جديد ، بشأن أبـي مروان ؟ »

فقلت وأنا أعمّر غليوني : « ما زلت تائهاً ... لا أدري أين أبدأ ... »

— « ولكن يجب ان تبدأ . »

— « لماذا لا تبدأ أنت ؟ .. »

— « أنا ؟ اصبحت الكتابة عندي عملية شاقة . صرت اخشى رؤية الورقة البيضاء أمامي ... »

— « أتقول ذلك ، وانت الذي تكتب طليقاً كما يكتب الشعراء ، فماذا اقول أنا ؟ أتدري ، ان النظرة السوسيولوجية تفسد الخيال من اساسه . يدربونك عشر سنوات على رؤية الانسان كظاهرة مجتمعية — واذا انت في النهاية تفقد القدرة على رؤيته كأنسان متميز . كأنسان مستوحد ، أصالته في دخيلة ذهنه ، في خلايا دماغه . »

فقال ابراهيم وهو يناولني القدّاحة : « اذا لم تر وليد كذلك ، فخير لك الا تكتب . »

أشعلت غليوني ، ثم استعاد القداحة واشعل لنفسه سيكارة . « اعظم الحروب تستغرق بضع سنوات — الحرب العالمية الاخيرة ، مثلا ، والتي قبلها — ثم يعود اصحابها الى وضع ما ، طبيعي ، منطقي ، انســاني بشكل من الاشكال . أما بالنسبة لوليد ورفاقه ؟ خمسون سنة ، خمسون سنة ، من الصراع ، من اسعار الحقد ، من تلقي الضرب والكراهية ، من المقاومة العنيدة — أي امة في التاريخ عرفت هذا الردح الطويل الرهيب من العداء والقتال ؟ كيف كان لاي فلسطيني في مثل هذا الجو المرير ،

القاحل الفاجع ، أن يفكّر ، ويعمل ، ويبني ، ويكتب ، وهو يقاوم العتاة والاقزام والمتجبرين ايما توجه ؟ ومع ذلك ، انظر ! عاش وليد كما لم يعش واحد منا ، كما لم تعش أنت وأنا : قاوم ، وأنتج ، وولّد ثراء ،واستولد افكاراً — وترك اثراً سيشغلنا طويلاً تحديد أبعاده ... ما هذا التناقض ؟ أين التفسير ؟ »

فقلت : « كل ما اعرفه هو أن وليد اراد أن يأتي الحياة مـن جوانبها كلها . ثم ، ثم ... قذف بها عنه دفعة واحدة . »

قال ابراهيم وعيناه كعادته مركزتان في عينيّ : « اتعلم انه كان منذ خمس وعشرين سنة يدعو الى تأليف جماعات سرية ، كجبهات الفدائيين اليوم ، ولا يصغي اليه أحد في تلك الايام ؟ »

— « ويبدو انه عاش لنفسه حياة تنسجم مع رغبته تلك . اراد أن يقتحم كل شيء . أتذكُرُه اذ يقول : هذا الشيء الممكن الذي امامك ، كم هو « ممكن » بالفعل ؟ امكانات الحياة ، وانت دائماً محاصر بألف طوق ، كم منها تستطيع أن تخترق ، وفيها تتغلغل ، وفي النهاية تستنفد »

— « جواد ، تضور الحياة جوهرة بين يديك ، في كفك . كيف لك أن تقلّب هذه الجوهرة ، وتمتـع عينيك بألوانها ، بلآلئها ، بتبدل الشعشعات في اوجهها ؟ الحياة فاكهة على شجرة ، ولا حواء هنا تغريها حيّة الارض بعضّ الفاكهة ، وتغريك بعدها أنت يا آدم بعضّها . لا . الفاكهة نفسها هي الاغراء الدائم الذي تتقبله انت عن معرفة ، وتستجيب له إحياء دائماً لخلايا جسدك ، خلايا روحك ، الهاباً لنيران توشك دائماً على الخمود في عروقك ... كم عمرك الآن يا جواد ؟ »

فضحكت . « أضروري أن تذكرني بالعمر ؟ »

— « لا بأس ، لا بأس . عاشرت وليد هذه السنين كلها ، ولم تر الفاكهة التي كان يلوّح بها كل يوم امام انفك ! كاظم أبرع منك .

فهو كان يرى ما يراه وليد ، ولكن الغيرة تقتله ، لأنه كلما مدّ يد اليها راوغته ، وهي لا تراوغ هذا الغريب القادم من وديان مجهولة . اسمع ، ما الذي تلتزمه أنت ؟ المجتمع ؟ العقل ؟ ما الذي التزمه أنا ؟ الجماهير ؟ ما الذي قضى كاظم عمره في التزامه على طريقته ؟ إحلال البروليتاريا محل البورجوازيين ؟ انه دائماً التزام العام دون الخاص ... شيء رائع . سيقيمون لنا التماثيل في ساحات بغداد . بالعشرات ! أما وليد فقد تطوّح كالمجانين بين الخاص والعام ، بين التزام الذات والتزام الآخرين . ورأى ان السعي للآخرين يكون بتحقيق السعي الداخلي نحو كلّ ما هو عميق ، وجيّاش ، ومزلزل ، وهادر بالحرية . اقل الناس انانية ، واشدهم عشقا لما يتحقق عن طريق الذات في تلولبها حول خلايا المجتمع . يَلتهِم ويُلتَهَم ولا ينتهي ... »

— « ولكنه انتهى ، يا ابراهيم . انتهى . »

فنهض من كرسيه ، واتجه نحو دولاب على جانب من مكتبه ، وفتحه ، لتخرج زجاجة وكأسين . « لا ، لم ينته . نحن الذين انتهينا . انت وأنا ، والآخرون . نضرب رؤوسنا بجدران من السمنت ، ولا نعترف بأن هذه الجدران هي النهاية . » وصبّ كأسين ، قدّم لي احداهما ، وعاد الى كرسيه ، قانعاً بالنتيجة التي توّصل اليها . نحن الذين انتهينا ، ويبقى وليد مستمراً . »

غير انني لم اقتنع . « لا ، لا ، يا ابراهيم . غداً ستعترف انت نفسك بان كلامك عن هذه النهاية مبالغ فيه . وقبل ان تحاول استدراجي الى الاتفاق معك ، سأتركك . » واخذت جرعة كبيرة من كأسي .

— « وتعود إلى أوراقك ؟ »

— « أوراقي ؟ سأعود لأبحث عن الفاكهة التي تحدثت عنها . »

قهقه ابراهيم عالياً . « ابحث عنها عند ابن كَنّو . واذا وجدتَها أبق لي شيئاً منها ! »

شربت ما تبقى من كأسي ، وأحسست بالكحول تلهب احشائي ، ونهضت . ولكنه حين رافقني الى باب المكتب ، اوقفني بحركة مباغتة من يده على ذراعي ، قائلاً : « هناك نقطة اريد أن اسألك عنها . » وسكت ، وعيناه تتمعنان بوجهي ، موحياً بخطورة سؤاله .

— « نعم ؟ »

— « كاظم وطارق ، كلاهما رأيا وليد في الرطبة في ليلته الاخيرة . »

— « نعم . »

— « أية صدفة غريبة هذه ؟ »

— « ابراهيم ، كم مرة نعود الى هذا السؤال ؟ لا يكاد يبدأ الصيف حتى يذهب مئات من الناس بسياراتهم الى الخارج للاصطياف . فما وجه الغرابة في ان يلتقي في موسم الاصطياف اصدقاء ثلاثة بمحض الصدفة في محطة على الحدود ؟ »

— « هل كان هناك ... شيء ما ... بين الدكتور طارق ووليد ؟ »

— « شيء من الفتور ، ربما . في الآونة الاخيرة . »

— « اكثر من ذلك ؟ »

وفجأة تذكرت اشتباهي بأن وصال رؤوف ، اخت طارق ، قد تكون هي شهد المذكورة في شريط وليد . ففي تلك الامسية في بيت عامر عبد الحميد أحسست انني وقعت على سرّهم ، غير انني لم استرسل بما قد يعني ذلك بالنسبة الى طارق نفسه ، ان كان يعني شيئاً أبداً بل ان عدم اتجاه تفكيري نحوه دليل على انني لا احسب ان الامر يهم طارق في شيء . وما كنت بالطبع لاذكر ذلك لابراهيم ، أو غيره ، لاكثر من سبب . أليس من المحتمل انني مخطىء أو واهم أصلاً ؟

قلت : « قطعاً لا

بدا عليه أنه لا يصدقني . « لا بأس . لا بأس . أتعلم انني كنت واسطة الخير بين طارق وأخت كاظم أيام زمان ؟ »

فضحكت . « نسيت والله ! اذكر انك توسطت لدى طارق ، ليتوسط لدى ابيه في قضية تهم كاظم – قبل ثورة ١٤ تموز ؟ »

– « لكي يعيّن كاظم في وظيفة معقولة قبل ان تضيع منه الوزارة . وصار الذي صار . وقع طارق في غرام سميرة ، وبعد الثورة بعدة أشهر ، كنت انا الموفق بين القلوب . بل وشاهد القران الميمون ، يا سيدي . »

– « جاءتني الاخبار يومئذ وأنا في اوستن ، تكساس . »

– « المهمّ ... »

– « المهمّ ؟ »

فأجاب وكأنه يدلي بحكمة لا تبلغها إلا الأدمغة الكبيرة : « المهم يا جواد ، لا نتوقع خيراً من أحد . كلهم خونة . »

فضحكت ، وقلت : « لن تتغير يا ابراهيم ! في أمان الله . » وخرجتُ ، ووراء ضحكتي همّ جديد : ما الذي بالضبط يراه ابراهيم من علاقة بين اختفاء وليد وبين التقائه بكاظم وطارق ليلة اختفائه ؟ أي خيال محموم يعبث بعقل ابراهيم ؟

بعد اسبوعين أو ثلاثة ، تلفن اليّ ابراهيم ليدعوني أنا وزوجتي الى العشاء في منزله ، وقال مازحاً : « جدران الاسمنت راوغها ، وخلّ الفاكهة عليّ ! عندي منها الكثير ؟ »

ثم غيّر لهجته ، وأضاف : « سوسن عبد الهادي مدعوّة ايضاً ... أيهمك ذلك ؟ »

فضحكت أنا هذه المرة . « أتلوّح بالفاكهة أمام أنفي انت ايضاً ؟ »

واخترقت قهقهته التلفونية طبلة أذني ، وهو يقول : « يا ماكر ! يا ماكر ! يا ماكر ! » .

-٣-

عيسى ناصر يشهد موت مسعود الفرحان ،

بعد ان عاصر بعضاً من حياته

كان المطر يهمي علينا ، ونحن نهيل التراب اللزج على مسعود فرحان بسرعة ، ونلبّده على صدره دون هوادة ، كأننا نخشى أنه قد يقوم من هجعته ثانية . فضحكت رغم موقف الحزن الذي انـا فيه ، وهمست للرجل الذي بجانبي : « والله لو قام هذا التعس الآن ، لأمسك بتلابيبنا وطالبنا باضجاعه ثانية في موضعه ! » ولهذا اتممنا عملنا بسرعة ، واثقلنا القبر بصف من الحجارة رصفناها حوله زيادة في الحيطة والحذر ، فبدت كمسبحة ضخمة ألقيت باهمال على التراب المكوّم . وبعد أن انهى الكاهن عبارته الأخيرة مرنّما : « نجّنا من الهاوية الابدية اذ نصيح لك ونقول : سبحانك اللهم سبحانك » أدار المبخرة وسكب ما فيها من نار وبخور في وسط تلك « المسبحة » ، ثم أدار لهـا ظهره ، فكان ذلك ايذانا بانصراف الدنيا لآخر مـرة عن الميت المدفون ، وإن كانت الدنيا في الواقع قد انصرفت عنه قبل موته بكثير . ولكنها انصرفت عنه هذه المرة وقد أوى إلى مكان جميل ، تحت اشجار الصنوبر الخضراء ، وحبات المطر متعاقدة عليها كحبات اللؤلؤ — أم كانت تلك دموعـاً ؟ وقف اربعة اشخاص أو خمسة من اقاربه على طرف ، فصافحناهم كلا بدوره قائلين : « رحمه الله . عمره لك . رحمه الله . البقاء في حياتك . » وأرجلنا تغوص في الوحل وتقتلع منه قطعاً ضخمة تنوء بحملها .

كان مسعود منذ أن فارق الحياة عشية اليوم السابق كأنما قد القي به

على كواهلنا ، وكواهلنا غدت اضعف من أن تحمل وقراً ثقيلاً كذلك كل يوم . فبات التأمل في حياته وموتـــه موضوع حديثنا طيلة ساعات الليل إلى أن تخلصنا منه في الصباح الباكـــر . تعاوننا جميعاً على ذلك – وإن يكن معظم اصدقائه يقاربون الشيخوخة ، وتنثني ظهورهم تحت أي ثقل . وأبو وليد ، رغماً عن المرض الطويل الذي هدم قامته ببطء مريع ، رجل كبير العظم ، طويل الجسم . جاءت زوجته نجمة تـــدق باب بيتنا الحديدي – وكنت أتناول العشاء مـــع ام يوسف – ولمـــا ادخلناها صاحت : « مات ابو وليد ، مات ابو وليد . » وولولت ، واعادت : « تركني وحدي وراح ... تركني وراح . » كانت عيناها واسعتين داميتين في وجه تجعد جلده فوق عظام ناتئة لا يفصلها عـــن الجلد المهيض اي لحم . ودقت صدرهـــا بيد طينية اللون فيها آلاف العروق النافرة .

فرافقناها انا وزوجتي إلى بيتها ، على الطرف الآخر من الزقاق في حارة العناترة . ودفعنا الباب الخشبي لنرى في ضوء قنديل النفط ابو وليد ملقى على الأرض في فراشه ، وعيناه ككرتين من زجاج تحدّقان بنا . فأسرعت اليه ، وانحنيت فوقه ، وبرفـــق اغمضت جفنيه ووجهه بارد صلب كالجليد . وبعد قليل جاءتنا بعض نسوة الحـــي ، متهامسات متصارخـــات ، فتركتهن في نحيبهن وندبهن ، وذهبت إلى بيت انطون سالم ، واخبرته بالأمر . واتفقنا على السهر عند الميّت ، واحضرنا شمعة ضخمة من الكنيسة وضعناها عند رأسه ، وأشعلناها .

كان الليل طويلاً . جعل المطر ينقر الباب ، ثم سمعناه ينهمر . وفي ضوء الشمعة القلق ، بدت ام وليد وزوجتي الجالستان ارضاً قرب الميت ، بعد أن انصرف الآخرون إلى بيوتهم ، كجثتين اقيمت كل منهما عـــلى مؤخرتها ، وقد تدثرت كلتاهما ببطانية رمادية من بطانيات اللاجئين ،

ويداها في حضنها ورأسها منحن على عنق مجهد. لم ادر إن كانت الارملة قد اغمضت عينيها عن نوم أم عن حزنها العيّي الذي اصمتته ايام مرض زوجها الطويلة. اما زوجتي فقد كانت نائمة. وانتفض ضوء الشمعة، وترنحت الظلال السوداء الكبيرة.

« واحداً واحداً يذهبون، ولا يعودون »، قال انطون، ودخان سيكارته يتماوج خارجاً من فمه ومنخريه، ثم اضاف:

— « وحالما نطلع من المقبرة غداً يجب أن نستعجل ونذهب لجنازة ثانية. واحداً واحداً، يا عيسى، رجالنا يذهبون ولا يعودون. وشبابنا كلهم مشتتون، كل واحد في بلد، يفتشون عن لقمة الخبز في مدن هذه الدنيا وصحاريها، وآباؤهم من العوز والحسرة يموتون هنا وحدهم — مثل مسعود صديقنا. خلّف ثلاثة شبّان، ولا يجد واحداً منهم يحضر دفنه ...»

كانت بيت لحم تبدو لي انها اجتزئت من الفردوس. ولكننا ما عدنا نسمع فيها تلك الأيام الا اخبار الوفيات. القديسين، والاعياد، والموتى. وإذا جاء عيد الميلاد، بنواقيسه وترانيمه الفرحة، لم يكن اكثر من رخة مطر وجيزة فيها بضع بذور للحياة، في شتاء قاحل اجرد يدوم طوال السنة، مليئاً باناشيد الجنائز — في لغات عديدة ومراسيم مختلفة.

كان ذلك، فيما اذكر، سنة ١٩٥٠ أو بعدها بسنة، وبيت لحم قد تضخمت بالآف الناس الذين لجأوا اليها. غير أن الشباب هجروها، كما كنت اشعر انا ابن البلدة ولم يبق فيها الا الشيوخ والعجائز، وعدد من الفتيات. والكثيرات منهن ايضاً كنّ يحلمن بالذهاب إلى اماكن بعيدة يستطيعون الدراسة أو العمل فيها. امـا اللاجئون فيحتشدون في منازل البلدة القديمة أو في الاكواخ المقامة على التلال المحيطة بنا، في الدهيشة، بين الصخور، عند حواشي الكروم، عـلى التراب المجدب، تحت

الخيام الممزقة ، يتطلعون إلى امل يراودهم ، وتتنقل اذهانهم من ذكرى الحقول الحبلى بالذهب إلى يومهم الرصاصي العقيم . والحياة تجرى كيفما اتفق من خلال الضوضاء والحركة : ضوضاء وحركة من اجل حفنات طحين الوكاله وعدسها . المهانات تتكرر ، والشتائم . مسجلو بطاقات ، وشرطة ، وساسة تسمع اصواتهم من بعيد يعدون ويتوعدون - والحياة تجري كيفما اتفق . والمخيمات ، ذلك المجتمع الرهيب الجديد ، آخذة في « التكامل » الذي لم يكن يخطر ببال انسان .

سفح واحد ، صخري شائك ، يحمل آلاف الحيوانات ! انا لست فيلسوفاً ، كنت اقول ، ولكنك لا تحتاج إلى فلسفة لتدرك أن الصخر والشوك لا يلدان الحياة ، وأن الحياة إذا اقحمت اقحاماً في الشقوق من سطح صخري شائك ، فانما هي مرغمة على التحول إلى صخر وشوك . ولكن الحياة لا يمكن أن تقبل ذلك ، رغم كل ما في البشرية من قسوة ولؤم . لأن الحياة تتفجر دائماً إلى الاعلى ، إلى الجانبين ، إلى الاسفل . فاذا حاولوا ارغامها على التصخر فانها لا بدّ يوماً أن تنفجر في وجوههم كالقنابل ، مهما بدت مستكينة الآن . سفح صخري شائك ، واحد ، يحمل آلاف الحيوات ! اليس ذلك تناقضاً لا يقبله العقل ؟ أمـر لا يحتاج إلى فلسفة . فيقول مسعود الفرحان : « هل بقي شيء ما شفناه ؟ أنت ما تزال شاباً ، يا عيسى ، وتقرأ الكتب ، مثل وليد ، عمرنا نحن انقضى . ما الذي ستفعلونه انتم الشباب ؟ »

ثم يسكت ويهز هامته الكبيرة .

وفي هز تلك الهامة ، بما يعلوها من شعر رمادي قصير ، وما فيها من اخاديـد وعروق وآثار جروح ، كنت ارى خلاصة حياة مسعود فرحـان . لقد كانت كلها ، كالسفح الصخري الشائك ، تناقضاً لا يقبله العقل .

عرفته منذ سنين بعيدة . ومع ذلك فاني لا اذكره الاّ رجلا عملاقي الجسم عالي الصوت ، يرتج زجاج النافذة من ضحكته . لعلني كنت في السادسة ، عندما كان هو في شبابه ، فكأنه بالنسبة الي ولد عملاقاً ، بقدميه الضخمتين اللتين ترسخان في الأرض كالصخر إذا وقف ، وتطيران إذا مشى . كنت ولداً صغيراً ، عندما كان الناس يتحدثون عن « دق الطبل » و « السفر برلك » . عندما كنا نأكل خبزاً بطعم التراب ، ويتحدثون عن صنع الخبز من البلوط ، عندما كان الرجال في السهرات يتحدثون كيف كانوا في الجيش التركي يحملون تنكات المـاء اميالاً كالحمير ، وكيف كانوا يفرون من العسكرية إلى قراهم وذويهـم ، ويغنون في ذلك الاغاني ، وكانوا يتحدثون عن جنرال انكليزي دخـل القدس بعد أن ترجل عن حصانه ومشى على قدميه احترامـاً للأرض المقدسة . ولم يكونوا يعلمون بعد ما الذي سينزله دخوله ذلك بالأرض المقدسة من ويلات . وكان الناس يتحدثون عن مسعود الفرحـان ، واسفاره الواسعة — من مادبة إلى السلط ، من السلط إلى القدس ، إلى غزّة ، ولعله ايضاً بلغ العقبة والقاهرة . كانوا يتحدثون عن فراره من الجيش التركي والقاء القبض عليه والحكم عليه بالاعدام ، ثم فراره من السجن والمشنقة والعودة إلى بيت لحم ليرى فرار العثمانيين انفسهم ، ليرى حصاني ابيه في خدمة هذا وذاك من وجوه البلدة ، وقد برزت الضلوع في صدريهما من الهزال .

كان ابو مسعود قد شاخ ووهن ، وانقطع عن الخروج بعربته التي بقيت عاطلة طيلة ايام الحرب في انتظار ابنه . ولكن حال عودة مسعود خرجت العربة إلى شوارعنا من جديد ، مجلوّة ، مصبوغة ، براقـة السواد من الخارج ، ناصعة البياض من الداخل ، جديرة بشهرة سائقها الجديد .

اسمع قرقعة على الطريق — ولم تكن قد زفّتت ايامئذ — فأقول : « عربة مسعود ! رائحة إلى القدس . » كنت اصغي إلى قرقعة عجلاتها الحديدية ، والاحق بسمعي ايقاع وقع حوافر الحصانين على الحجارة ، ورنين اجراسهما ، وانطلق إلى نافذتنا المزدوجة المطلة على الطريق ، لاراه في مقدمة ركّابه ، عالي الرأس ، مستقيم الظهر في قعدته . كأنه أمير في قنباز وطربوش أحمر ، وقد امسك بأزمّة الحصانين برشاقة راقص يمسك بيد راقصة ، والحصانان مطهمّان ، مزوقان ، مريشان ، تلتمع عضلاتهما كالحرير اذ ترتعش في شمس الصباح . وأصيح : « يا مسعود ! خذني معك يا مسعود ! » ولكن العربة السوداء تمر ببيتنا متهادية بركابها ، بينما يرفع مسعود كرباجه ، ويهزّ الرسن ، وتنطلق من شفتيه المرحتين « هاي ! هاي ! هاي ! » ويستجيب الحصانان الاصهبان بانطلاق موزون ، وتمايل العربة كحيوان ضخم غريب على حجارة الطريق ، مخلّفة وراءها ستاراً رقيقاً شفافاً من الغبار .

لم تكن عربة مسعود هي الوحيدة في البلدة . ولكنها كانت رمز عربات العالم . والعالم كله هو هذه البلدة المتصاعدة البيوت في قوس تلو قوس حول وادي الجمل ، و « المدينة » ، القدس ، التي كان مسعود ينقل الناس منها واليها كالساحر ، كأنه كل مرة يأتي اعجوبة جديدة . وكلما عاد من « المدينة » ، نزل الركاب من عربته ومعهم اكياس وسلال ورزم وتنكات وثياب جديدة وأحذية لماعة . ينزلها مسعود من جوف عربته ويسلمها إلى الركاب كأنها هبات جادت بها يداه هو ! وثلاث مرات أو أربع أخذني معه إلى القدس ، فيجلسني بقربه ، على المقعد الذي لا ظهر له ، وفي محطة العربات عند باب الخليل يقول لي : « دير بالك على العربة ريثما أعود . » ثم يعود حاملاً بطيخة نأكلها معاً .

— « مسعود ، اما تريد أن تتزوج ؟ »

– « ما شفت لك بنت حلال لسه ، يا مسعود ؟ »

– « مسعود ! مش حرام على شبابك . خمسة وعشرين سنة ، وبلا زواج ؟ »

كانت العجائز لا تتورع عن مناغشته . ولكنه يضحك . السوط بيد والرسن بيد .

– « ما تخلينا يا حرمه . الله يستر عليك . بدّى احوّش لي أكم قرش بالأول . »

فتجيب العجوز : « المرأة كنز . بتجيب رزقها معاها . »

– هاي ! هاي ! هاي ! »

وذات يوم دخل علينا وفتح علبة السكاير ، وناول ابي سيكارة ، قائلاً : « معزومين عندنا عالفرح الليلة . »

– « مبروك ، مبروك ! »

ثم خرج ، ودخل بيت الجيران وناولهم سيكارة وقال : « معزومين عندنا عالفرح الليلة . »

– « مبروك ! »

وذهب من بيت إلى البيت . وهو يوزع السكاير ، ويقول : « معزومين عالفرح الليلة . »

وانصبّت البلدة تلك الليلة في بيت مسعود الفرحان .

احتشدت النساء متراصّات في الغرفة الكبيرة الوحيدة ، والعروس ، نجمة حمصية ، مطأطئة حياء في الوسط ، وهنّ يغنين ويصفقن (والاطفال في احضان بعضهن يصيحون ويبكون وينعسون) ، ويتناوبن النقر على الدربكة ، والغناء والتصفيق يهزان الغرفة الحارة الهواء ، والوجوه والأعناق تتلألأ بنضح العرق ولكن الغناء لا ينقطع ، يطلق الهموم الحبيسة ، ويفلت العواطف المكتومة . أتراهم يغنون هذه الايام بمثل تلك البهجة

المائلة ؟ واحداهن تقول ، والاخريات يردّدن :

« كوكيَّة طلبت دبّوس
خدّ الشايب ما بتبوس
بدها شاب يكون محروس
كوكّية يا كوكية ،
كوكية يا كوكية ـ
تسوى الفين وميّه .،
حتّى القاضي والمفتي ،
وحتّى ريّس البلدية ... »

فيشق الفضاءَ صوتٌ نسائي عال تسمعه دور البلدة كلها :

• « ها هي ! ...
يا حبطتك بالله ... »

أمـا الرجال فجلسوا على عشرات كراسي القش المنخفضة المستأجرة من المقاهي ، والمرتبة في حلقات في الحاكورة الواسعة . وفي الصدر ، تحت فانوس ساطع قوي ، جلس عازفو العود والكمنجة والدف، يدقون ويغنون . وبين الرجال يدور مسعود وأخوه وبعض أقرانه يصبّون العرق في كأس صغيرة ، ويقدمونها للحضور واحداً واحداً .

كان مسعود لارتفاع قامتـه يرى مـن كل صوب ، ويسمع صوتـه خلال الغناء وهو يحيّي الوافدين ويجلسهم ويساقيهم .

« يلا هزّها يا أبو فرحان ! »

صاح أحد الشباب ، وقام اليه وجعل يعانقه ويقبله ويطلب اليـه أن يرقص . فأفسح لـه من في الوسط فسحة كافيـة بدفع مقاعدهم إلى الخلف ، ونزل إلى الرقعة الصغيرة ، ورفع يديـه ، الزجاجة في واحدة والكأس في الأخرى ، وجعل يرقص . والرجال يحتّدون طرباً ويشتدون

تصفيقاً . وقنباز مسعود « الروزا » يتألق على جسمه .

وفي ركن من الحاكورة قام عدد من الشباب ، ووقفوا كتفاً لكتف . وعقدوا الأصابع معاً ، وفي وسطهم عودة الأعرج قـد حمل الطنبور ، يعزف عليـه ويغنّي . وبدأوا يدبكون بترنح ونشوة ، ويدورون حول عازف الطنبور ، ويصيحون ويهللون .

وإذا صرخـة ناشزة تعلو وتتوالى : « مسعود ! يا ابن فرحان ! اسمع يا ابن فرحان ! »

فالتفت الجميع ورأوا خميس حمصية ، واقفاً على طرف من الحاكورة ، وعصاه مرفوعـة في الهواء تهديداً ، وهو مـا زال يصرخ : « ارقص يا مسعود ، ارقص ! بس اعمل حسابي بالأول ، وبعدين ارقص ! »

وانقطع العزف للتو ، وتجمد الراقصون في مكـانهم لحظتين . وصاح خميس وهو يلوح بعصاه : « والله يا رجال ، ما أخليها توصل الكنيسة بكرة ! »

فصاح مسعود من مكانه ، من فوق رؤوس الضيوف :

« تفضل يا خميس وشاركنا في الفرح . »

— « والله ما أخليها توصل الكنيسة ! »

فوجه العريس كلامة إلى المدعوين :

« بالله يا جماعة ، من المتعدّي ؟ »

فقال أحد الكبار عمراً : « عيب يا خمس ! لازم تفرح بعرس اختك . »

— « والله ما أخليها تدخل الكنيسة بكره ! واللّي يعيش يشوف ! »

أنزل خميس عصاه ، وانصرف .

واستدار مسعود نحو العازفين وقال : « دقـوا ولا يهمكم ! » وملأ الكؤوس التي أمامهم .

وفي لحظات عاد الجميع إلى صخبهم ، بينما انسحب بضعة رجال ،

ولحقوا بخميس حمصية وهو مـــا زال في الطريق ، وحاججوه وجادلوه وخجّلوه ، وأخيراً وفّقوا بينـــه وبين العريس ، حين وعـدوه باقناع مسعود الفرحان بدفع ثلاث ليرات ذهب اخرى مهراً لاخته . فقد تبيّن أن نجمـــة كانت قد وافقت على الزواج برضا من أمهـــا ، رغمـاً عن اعتراض أخيها .

في صباح اليوم التالي ، كان خميس في مقدمة الزفّة التي اشترك فيها أكثر أهل البلد . فكان أولهـــا عند قوس زرارة ، وآخرهـــا في بيت مسعود . بل ان خميس نفسه ، إذ فعل الحماس فيه ، وكان معروفاً بحبه للغنـــاء والكيف ، تقدم الجمهور الهاتف الزاحف نحـو الكنيسة ، ورفع عصاه ورنّحها ورنّم :

« يا حلالي يا مالي ! »

فرد الجميع : « يا حلاي يا مالي ! »

— « يا حلالي يا مالي ، ويا ربعي ردوا عليّا »

— « يا حلالي يا مالي ... »

— « قلت الها خيّه خبّه .. »

— « يا حلالي يا مالي ... »

— « اسقيني شربة ميّه ... »

— « يا حلالي يا مالي ... »

— « دانا رايح ومروّح ، ومنقّي درب القبليّة ... »

— « يا حلالي يا مالي ... »

— « قالت لي اشرب واتّهنّا ، يا ريتو صحّة وهنيّه ... »

— « يا حلالي يا مالي ... »

وبعد الزفاف في الكنيسة والعودة إلى البيت ، كـــان في الحاكورة ، في ظل الصنوبرة السامقة ، رجل يرقص بين الرجال ملوحاً بسيف كبير

معقوف ، وهو يدور ويدور ، والسيف يقطع الهواء كل مرة بضربات جبارة ويل لمن يقف في سبيلها ...

ولكن السيف لم يصب إلا مسعود نفسه : فقد كان في مجيئه وذهابه بين المهللين والمصفقين ، عندما اقترب من الراقص دون حذر ، فمس رأس السيف الطائر خده مساً سريعاً ، كان كافياً لرسم سطر من الدم فيه ، وهوى إلى الأرض . فألقى الراقص السيف عنه ، وارتمى على العريس يصرخ وينشج ويقبل جبينه ، بينما تهافت عليه الرجال والنساء يمسحون الجرح الخفيف بالعرق ، ويرددون :

— « الحمد لله عالسلامة ! الحمد لله عالسلامة ! »

وفي الحال دفع مسعود المنحنين فوقه ، المطبّبين لجرحه ، ونهض واقفاً من بينهم ، وصاح : « والله اللّي ما يغني ويصفق لأضرب رأسه بهالسيف ! » واستمر العرس .

وبقيت الندبة المستطيلة في خد مسعود قصة اخرى يرويها ركاب عربته بين بيت لحم والقدس أشهراً كثيرة .

كلما رأيته ، وقعت عيني في الحال على الندبة ، وتذكرت العرس والمغنين . هو نفسه كان يحب الغناء . وكلما اقيم عرس ، كان هو أحد المدعوين اليه ، فيجلس قرب عازف العود ، ويجرع كأساً من العرق ، ويغني . ولن أنسى يوم امتدحت أمي صوته ، قائلة لأبي : « لماذا لم ينعم الله عليك بصوت كصوت مسعود ؟ » فغضب أبي وصاح بوجهها : « أأنت أيضاً وقعت في غرامه ؟ أما تكفينا قصة رجينا مع هذا العربجي ؟ »

فقالت أمي : « يا عيب الشوم يا ناصر ، ما هذا الكلام ؟ »

فردّ عليها بصيحة غريبة ، سد بها الموضوع . ولم أعرف أنا بالضبط ما هي قصة مسعود مع رجينا .

غير أن أبي لم يمانع ، عندما رزق مسعود بولد بعد ذلك بمدة

قصيرة ، أن يكون اشبيناً له . وسُمي الولد ، ترضية لامه وأخيها ، خميس . وقد رأيته ينمو كما تنمو زهرة في الصحراء : حتى في طفولته كنت أشعر أنه يختلف عن الآخرين ، برقته ، بخفته ، بصلابته . كنت أراهِ ، مع فارق السن بيننا — كنت أكبره بثماني سنوات أو تسع ، فلما بلغ هو السادسة أو السابعة ، كنت أنا قد تركت المدرسة وجعلت أتعلم النجارة — كنت أراه دائماً مع شلة من الأطفال ، يلعبون حفاة في الطرقات ، وسيقانهم بيضاء بالتراب ، وهو يتزعمهم جميعاً . أراه قابعاً بين أغصان شجرة التوت ، أو اللوز ، يغني أو يقرأ . كان يدرس دروسه وهو قابع كفاكهة بين الأشجار ، مطلاً على وادي الجمل . ثم ينزل بسرعة القط ليدلي دلواً كبيراً في البئر ويخرج منها ماء ليشرب ، أو ليسقي أصدقاءه ، أو ليروي البصل أو القرنبيط المزروع في الحاكورة . وأراه أحياناً جالساً في العربة قرب أبيه على مقعد الحوذي ، ممسكاً بأعنة الخيل ، يسوقها بعض الطريق ، وأتذكر نفسي قبل ذلك بعشر سنين . وكلما مرّ بالمنجرة التي أعمل فيها ، شقّ طريقه إليّ بين تراكمات الأخشاب وأكداس النجارة ، ورفع صوته لأسمعه من خلال صوت المنشار الكهربائي ، يقول : « مرحباً ، عيسى ! أتريد أن اساعدك ؟ » أو : « أمي تقول أعطنا من فضلك كيساً من النجارة للطابون . » أو يبرز لي كتاباً من كيس المدرسة ويقول : « أرأيت الكتاب الجديد الذي أعطانا اياه المعلم اليوم ؟ »

لا أذكر بالضبط كيف تحول اسمه إلى وليد وهو في تلك السنّ . جعل أقرانه يدعونه بوليد ، ثم أخذنا نحن أيضاً ندعوه بهذا الاسم ، مما أغضب خاله خميس أول الأمر ، إلى أن اعتدنا جميعاً اسمه الجديد . وبعد سنتين أو ثلاث نسي الناس — فيما عدا أمه — أن وليد مسعود هو في الأصل خميس مسعود . وجعل الناس يتحدثون عن « أبو وليد » بدلاً من « أبو خميس » . وكان أبوه يقول : « أردت أن اسميه

فرحان ، باسم أبي ، ولكن أمّه أصرت على أن نسميه خميس . ولما كبر قليلاً جاءني باسمه من حيث لا أدري . يا أخي ليس هناك « وليد » في عائلتنا . لا شك انه جاء بالاسم من أحد الكتب التي يقرأها في الليل ، وهو يتشاجر كل ليلة مع امه على قراءة الكتب ، لأنه يرفض أن يطفيء اللمبة ، وأمه لا تستطيع أن تنام بسبب الضوء . واللمبة إذا لم تُنَوَّس ، تحرق كثيراً من الكاز ، فتكلفنا ما هو فوق طاقتنا . ساعدنا الله على هذا الولد ! »

في سبع أو ثماني سنوات رزق مسعود خمسة أولاد ، كلهم ذكور وكانت السيارات في هذه الأثناء قد أخذت تنافس العربات في حمل الركاب بين بيت لحم والقدس ، مما جعل كسب الرزق لمسعود أمراً يزداد مشقة يوماً بعد يوم . عرض عربته للبيع فلم يتقدم لشرائها أحد ، ومات أحد الحصانين ، فلم يستطع شراء بديل له . وإذا هو ذات يوم يبيع الحصان الآخر ، ويغلق الاصطبل على العربة ، ويتعلم سياقة السيارة على يد أحد معارفه .

آه ، كان ثمة عصر وانقضى ! كلما عاد ذهني إلى العشرينات ، وتذكرت كيف تحول عاشق الحصان إلى سائق سيارة ، كيف هجر القنباز ولبس البنطلون — أرى النقطة التي تحوّل عندها الزمان . ويوم جاءه أخوه المهاجر سعيد الفرحان ، واقنعه بالرحيل معه إلى كولومبيا ، قلنا انه سيثري في أمريكا ويسحب عائلته عنده فيما بعد ، ويسحبنا جميعاً إلى عالم الثراء معه .

وبقيت أم وليد وحدها مع أطفالها ، تربيهم بكدها وحرصها ، تعمل كخياطة في منزلها بعد أن اشترت آلة « سنجر » قديمة . مات أحد الأطفال ، وبقي وليد واخوته الثلاثة ، فرحان والياس وبسام ، في رعاية أمّ لا تنال المشاق من اشراق بسمتها ، واستطاعت أن تدخل وليد

في دير أبينا انطون ، ليتعلم اللغة الايطالية . وخدمة القداس ، ويعمل في قسم تجليد الكتب ، ولا يراه أهله إلا مرة في الاسبوع ، عصر يوم الأحد . وكنت أذهب أحياناً مع والدي ، بصفته اشبيناً لـه ، لزيارته في الدير الكبير ، فنراه مرحـاً ضاحكاً ، يلبس حذاء ضخماً من صنع الدير ، ويأكل شرائح كبيرة تقتطع من الأرغفة المكورة الرائعة التي كان فرن الدير مشهوراً بها . وسمعت الرهبان يتحدثون إلى أمه عن « شطارة » وليد ، وتفوقه في الدروس . وقال أحدهم : « كلما أعطيناه كتاباً لكي يجلّده ، راح الأفندي يقرأه . » وطلبوا منها ، بعد سنتين أو ثلاث ، أن توافق على تسفيره إلى ميلانو في ايطاليا ، لكي يدرس اللاهوت .

« اللاهوت ؟ » قالت أمه : « وماذا يفعل باللاهوت ؟ » « ليصير راهباً مثقفاً » قالوا لهـا . « راهباً ؟ يا حسرتي ! ومـاذا يفعل هذا الشيطان بالرهبنة ؟ » قالوا : « لا . انه ليس شيطاناً . مجرد عفريت، لشدة حيويته . ولكنه سيصبح راهبـاً ممتازاً ، ويعود بعد ذلك إلى دير في القدس ، وتعتزين به عندما ترينه يعظ في الناس من على المنبر بلسان كلسان الملائكة . »

والتفتت نجمة حمصية إلى ابنها وقالت : « ماذا تقول يا خميس ؟ » أجـاب بحدة : « قلت لك ألف مرة ، اسمي وليـد ! » فقـالت : « طيب ، طيب . أتريد أن تذهب إلى ايطاليا ؟ » قـال : « نعم . اريد أن أذهب إلى ميلانو . اريد أن أدرس ، وأتعلم الموسيقى ، أرجوك، يمّه ، وافقي على ذهابي . »

نظرت اليّ أمه بوجه كلّه همّ وحيرة : « من الأفضل له ، ولنا ، أن يسافر . والاّ ، فأنا متأكدة من أنه سيهرب مرة اخرى ليختفي في احدى مغاور الوادي . ولن نجد له اثراً هذه المرة ! »

وادركت ما الذي ترمي اليه باشارتهـا الى ذلك الحادث الذي سبّب

لأمّه واخوته فزعاً كبيراً ، وقذف الدير الآمن الساكن في لجّة من الهرج – يوم هرب مع اثنين من رفاقه من الدير ، واكتشفوهم بعد يومين أو ثلاثة في كهف قصيّ في اعماق وادي الجمل ، وهم يرتلون ويتعبّدون ... أو هكذا ادّعوا ، ولم يصدّقهم أحد ! أما انا فكنت واثقاً من انه سيعود بعد هربه ، لأنه لن يستطيع الابتعاد طويلاً عن الارغن الذي ابدى قابلية عجيبة للعزف عليه حين اخذ يعلمه الاب جوفاني .

ارسل وليد الى ايطاليا وعمره ثلاث عشرة أو اربع عشرة سنة ، فيما اعتقد – قبل اضراب فلسطين بسنة أو سنتين ، لا اذكر بالضبط . وقد تزوجت انا في السنة التالية للاضراب ، وهي السنة التي عاد فيها أبو وليد من بوغوتا ، عاصمة كولومبيا : عام ١٩٣٧ . اذكر ذلك لأن مسعود رافق والدي في الخطبة ، باعتباره مهاجراً ثرياً عاد للتو الى الوطن، يصعب رد أي طلب له .

لم يكن ثراء مسعود الاّ وهما من اوهامنا . لعله عاد بشيء من النقود . ولكنه لم يفتح متجراً ، ولم يبن قصراً . وبقي بلا عمل لاشهر عديدة ، يفكر في طريقة « يستثمر بها امواله » – هكذا حسبنا . والذي حدث اخيراً هو انه اشترى سيارة قديمة لنقل الركاب بين بيت لحم والقدس . وعادت قصة رجينا تلوكها ألسنة الناس . ورأيتها أيامئذ : أرملة في حدود الاربعين ، تكحّل عينيها الواسعتين بضراوة ، وتحمّر شفتيها ، وتبرز صدرها شبرين ، وتكاد تنورتها تنشقّ عن ردفيها الكبيرين المشدودين . ونجمة تتجاهل وجودها بأنفة ، وتحاول اقناعها بأنها لا تعرف شيئاً عن العلاقة بين زوجها ورجينا ، ورجينا لا تتورع عن ان تُرى احياناً برفقة مسعود في سيارته – التي سرعان ما اضطر الى بيعها . ربما لانه جعلها في خدمة رجينا اكثر مما جعلها في خدمة ركابه . ولست ادري حتى اليوم نوع الصلة التي اقامها هذا الرجل الوسيم ، الأميّ ، الذي ما عاد يملك

حرفة أو عملاً يرتزق به ، مع امرأة كرجينا ، وهي تسكن مع والدتها العجوز في بيت من حجر أحمر خلّفه لها زوجها الراحل ، كما خلّف لها معملاً لاشغال الصدف ، وراء كنيسة المهد ، اضطرت فيما بعد الى بيعه لأنها عجزت عن الاشراف عليه .

راح أولاد مسعود يتركون المدرسة الواحد بعد الآخر ليتعلّم كل منهم حرفة ما . أراهم صباح كل يوم أحد ، ثلاثة فتية يسيرون معاً بكبرياء وقد ارتدى كل منهم بدلته الوحيدة الأنيقة ، وهم في طريقهم الى الكنيسة ، أو خارجون منها . ويا ويل من يمسّ أحدهم ، أو أباهم ، أو أياً من أقربائهم ، بكلمة نابية : فإن ثلاثتهم ينبرون له معاً « ليكسّروا رأسه » . كان أهل البلدة يشيرون اليهم بأنهم « أولاد مسعود » ، ويخشون التحرّش بأي منهم . وإذا رافقوا أباهم أو أمهم الى مكان ما ، بدوا برصانتهم وطول قاماتهم وكأنهم حرس ملكيّ يرافقون أكبر سيّد في البلد ! وكان ابن عمي ، انطوان سالم ، أبو ابرهيم ، جارهم وصديق مسعود منذ الصغر ، « أحسنهم سافر . راح الأذكياء وبقي الأشقياء ... » ونتحدث معاً عن وليد . ولا تكاد نجمة تسمع اسم ابنها حتى تطفر الدمعة من عينها ، ثم ترفع رأسها بشمم وتقول : « سيعود ان شاء الله ، ويكون فخراً لكم جميعاً ، كما هو فخر لي ، ولأبيه وأخوته ! »

ويمازحها أبو ابراهيم : « لو لم ترسليه الى بلاد « برّه » ليصبح راهباً ، لزوجته أجمل بنت من بناتي . » فتجيب : « ولكن من يقول انه إذا لم يترهب سيرضى بأي منهن ، ستر الله عليهن ؟ » ثم تردف : « حبيبتي أنا ، بين بناتك ، ريمه . ريمة لنا ، يا أبو ابراهيم . » وقهقه أبو ابراهيم : « أما فكرت إلا بالصغرى منهن التي عمرها بالكاد ست سنوات ؟ » فتجيب : « وماذا أفعل ، وهي كل يوم عندي

تسلّيني بحكاياتها الحلوة ، وتطلب إليّ أن أمشط شعرها، وأزينه بالأشرطة؟ لك عندي مفاجأة : خطت لها فستاناً أزرق ستلبسه يوم الأحد القادم . أجمل فستان لأجمل صبية ! »

لئن كانت ظروف العيش في البلدة الصغيرة في الثلاثينات قاسية على الكبار . فقد كانت أشد قسوة على الصغار . أخذ أولاد مسعود يطالبون بالانتقال الى القدس حيث مجالات العمل أرحب . ويبدو أن رجينا ، في هذه الأثناء ، وجدت عملاً لمسعود في المدينة . قالوا انها تعرف الراهب فلان ، والمطران علان ، ونجحت في تعيين مسعود بواباً ، أو مراسلاً ، في دير القدس . وما كادت العائلة تنتقل الى القدس ، ووليد ما زال في ايطاليا ، حتى هاجر فرحان الى كولومبيا ليعمل عند عمه سعيد . وعندما نشبت الحرب كانت العائلة — أو ما تبقى منها — قد استقرت في غرفة كبيرة في الطابق الأسفل من عمارة في جورة النسناس — وسط العديد من العائلات الفقيرة مثلها . لا نكاد نقترب من تلك الغرفة المشرعة الباب أبداً ، حتى نسمع وسط ضوضاء الحي ، كركرة آلة الخياطة ، وندرك أن نجمة ما زالت في كدحها المعهود .

كنا أنا وزوجتي نتردد هناك كلما استطعنا . وكل مرة أنظر الى الندبة الطويلة في خدّ مسعود ، أجدها تشتد بروزاً . بل كانت ضربة السيف تلك خطاً رسمته يد نبويّة خفيّة ، خطاً فاصلاً بين شبابه الرائع أيام تلك الحياة البدائية البسيطة ، وبين أيامه التالية ؟ رأيته رجلاً يسعى ولا يصل ، يحب الحياة والحياة ترفضه . ما أكثر الذين أفادوا من الحرب أيامئذ ، بشكل أو بآخر . أنا نفسي فتحت معملاً كبيراً للأثاث ، وكانت أشغالنا تنهال علينا انهيالاً ، وأخذنا نلعب بالدراهم لعباً ، نشرب أكثر من طاقتنا ، ونذهب من مكان لآخر طلباً للمتعة واللهو . أما مسعود فلم يصب شيئاً منها سوى الألم . ولقد غاب عنه ابناه وليد وفرحان ،

لا ، لم يكن راهباً . لقد كانت أمه أعلم بـه من الرهبان الذين أرسلوه إلى ايطاليا . في وجهه الضامر – وجه أبيه ، مع المزيد من الرقّة والصلابة ، رقة الشفرة وصلابتها – رأيت عزماً رهيباً ، كأنـه وهج حـ مصهور في بوتقـة . عندما فتحوا حقيبته وجدوها مليئة بالكتب ، ولم يكن فيهـا من الثيـاب إلا ثلاث أو أربع قطع . ولم ولما قالت له أمه : « أخوك قتلوه – قتله الارهابيون اليهود، » منه صرخة قصيرة ، ورفع كفّيه يغطي بهما وجهـه ، بين الناس ملأوا الغرفة حوله . وانقطع اللغط فجأة لثانيتين ، ليُسمع نشيجه وق . ذلك هو الوجه الذي أذكره دائماً ، ولن أنساه .

لم ادهش قط لكل مـا رأيت منه وسمعت عنه بعد ذلك اليوم . لقد أدركت منذ سنين طويلة انه الاستثناء الذي لا بد منه لكل قاعدة . في ايطاليا هجر دراسة اللاهوت ، وترك الدير ، وعمل ، وربمـا درس ، في مـدن عديدة . وفي القدس جعل يكتب . وعمل موظفـاً في البنك العربي . وأخـذ اسمه يتردد في الصحف الفلسطينية . شاب في الرابعـة والعشرين من عمره ، لا يكاد يملك ما يشتري به سترة جديدة لنفسه أو لأبيه . ولكن اسمه أخذ يتردد في عوالم كنت أنا غريباً فيها . في أواخر الأربعينات ثم في الخمسينات ، أعوام التشتت الفلسطيني الأولى ، كانت هناك عوالم تبهرني ، ولكنني لا أفهمها . أما لوليد فقد كانت هي الجو الذي لا يستطيع التنفس إلا فيه .

لم أره كثيراً بعد عودتـه ، ولكن كنت أشعر أنني على صلة دائمة به ، بل اني سمّيت ولدي الثاني ، الذي جاءنـا بعد عودة وليد ببضعة أشهر ، باسمه . وليد عيسى ناصر – انه الآن مهندس نفط في أبو ظبي . وهو يعلم بأنني سمّيته باسم وليد مسعود . عندما يسمع بما جرى، سيتحطم حزناً . لقد ساعده وليد كثيراً في أبو ظبي، بعد أن أوجد له العمل فيها .

في عام ١٩٤٨ ، عادت العائلة إلى بيت لحم ، كالكثيرين من أهل البلدة القدامى الذين عادوا اليها من المناطق التي احتلها الصهاينة في القدس. غير أن وليد لم يقم مع والديه طويلاً ، بعد أن التحق بالمجاهدين في الأشهر الاولى من السنة ، ثم ذهب إلى دمشق والتحق بجيش الانقاذ ، وأيام كان يجاهد في القدس . راجت اشاعة مفادها انه في احدى الليالي الراعبة بالبرق والرعد كان له دور في نسف شارع في أحد أحياء القدس الجديدة الآهلة بالعدو . غير أن أخباره انقطعت عن والديه مرة اخرى، ونحن نتتبع انباء القتال في كل مكان ، وبخاصة في شمال فلسطين ، حيث كانت معظم المعارك التي خاضها جيش الانقاذ على قلة سلاحه وعتاده . وكان مسعود في هذه الاثناء قد أضحى طريح الفراش ، يكاد لا يتحرك فيه إلا لسانه ، وبصعوبة ، ونجمة تخدمه ، وتطعمه ، وتغسل له وجهه، وتقيمه متكئاً عليها ، وتقعده ، وتنومه ، ولسانه لا يكف . « والله إذا قتل وليد في هذه المعارك ، فسأكفر بك ، يا رب ! أما يكفيك مني ولد واحد ؟ » فتقول نجمة : « استغفر الله ، استغفر الله ! عندك ولدان كالاسود ، غير وليد ، فلا تكفر ! »

ثم كانت مهزلة الهدنة ، وبعدها سقطت اللد والرملة ، وخرجنا في مظاهرة كبيرة ونحن نصيح : « وين اللد ، وين الرملة ! بدنا سلاح ! » وزحفنا باتجاه مقر الطلائع المصرية في ظاهر البلدة ، ونحن نصيح : « بدنا سلاح ، بدنا سلاح ! » وخرج الينا القائد الذي كان الجميع يحترمونه ويحبونه ، ليقول لنا ان السلاح قليل ، ويطمئنا بان الجيش سيقوم بواجبه . وقد استشهد هذا القائد بعد اسابيع قرب دير مار الياس ، وهو يحارب اليهود مع جنوده القلائل ، وسلاحه الاقل . وبعد ذلك بمدة سمعت أن وليد إستقر به المقام في بغداد . وعاد موظفاً في البنك العربي هناك من جديد .

بعد توفي مسعود ابرقنا لوليد في بغداد ، ولبسّام في دير الزور ،

ولم يستطيعا الحضور الى بيت لحم الآ بعد ثلاثة ايـام أو اربعة . لقد كانت مصيبة الفلسطيني لا النفي عن مسقط رأسه فحسب ، بل الصعوبة المفروضة عليه في التنقل من بلد الى بلد ، ورصده رصد المجرمين من اجهزة أمن لا تحصى انواعها . وما من حكومة عربية إلا وتصرخ بالوحدة وتضع في الوقت نفسه ألف حاجز بين قطرها والقطر العربـي الآخر . أمرنا لله!

في هذه الاثناء كانت ام وليد في خشية دائمة من ان يتزوج ابنها امرأة من خارج العائلة ، فينأى عنها الى الابد . ولحسن الحظ . لم يكن من الصعب اقناعه : كانت ريمة قد درست عند الراهبات ، وكبرت لتصبح فتاة تشتهي العين رؤيتها . رآهـا وليد في زيارته الخاطفة تلك بعد دفن أبيه ، وهي تساعد أمه في شؤونها ، وخطبها في الحال . وفي الصيف التالي ، لم يكن اشد فرحاً من وليد إلا انطون سالم ، عندما زفّت ابنته وليد . وبانت ريمه في ثوب عرسها ، اشبه بملاك من ملائكة فجر عيد الميلاد ... واخذها زوجها الى عالمه الجديد ، ببغداد .

مسكينة ريمة الجميلة !

رأف الله بانطون سالم ، فاختاره اليه قبل أن يرى ما حلّ بابنته — بعد زواجها بست او سبع سنوات — حين عادت اخيراً الى مسقط رأسها ، لا هي في قيد الحياة فننعم بمجالستها ، ولا هي ميتة فننساها . كيف ، كيف نخبرها بالذي حدث ؟ أما من قرارة لهاوية الأحزان هذه ؟

- ٤ -

وليد مسعود يتذكر النساك
في كهف بعيد

بعد غيـــاب الشمس بقليل ، تسللنا من بوابـــة القسم الخارجي واحداً واحداً ، كما يتسلل الهـــاربون من سجن . كانت المسافـــة بين الدير و « الموردة » طويلة ، علينا في بدئها أن ننزل درجات الطلعة العريضة ، وعلى جوانبها منازل كثيرة ، وعلينا بعدها أن نقطع طريقاً يُضاء بمصابيح نفطية يشعلها كل مساء أبو نزار وهو يحمل سلّمه من مصباح لآخر ، ويقوم عند الفجر بجولة اخرى بينها لينفخ عليها ويطفئها . وفي الطريق مقهى يجتمع فيه عدد كبير من رجال البلدة بعد أن يعودوا من كدح النهار ، يدخنون الناركيلة ويلعبون الورق والدومينو . وفي أعلى باب المقهى فانوس كبير يلقي نوره الصارخ عبر الشارع . غير أن روّاده ، عند مرورنا ، كانوا منهمكين بلعبهم وضوضائهم ، فلم يلتفت الينا منهم أحد . ومـــا أن بلغنا مشارف « الطريق الجديدة » حتى اطمأننّا اننا أمسينا في مأمن من الاكتشاف . ولكن خوفاً من نوع آخر كان يتنازعنا ، يصعب التغلب عليه . فالموردة ، التي اخترناهـا مدخلاً إلى الوادي ، اشتقّت اسمها من « المردة » . عشرات القصص سمعناهـــا عن مردة تنطلق في الليل وراء المارّين في تلك البقعة ، وكل مارد منهـــا طيف رجل قتيل ألقي به في ذلك المكان . ينطلق المارد ووجهه مضرّج بالدم ، ويلحق بعابر السبيل ويصرخ في طلب الانتقام ، إلى أن يمسك بـه ... غير أن المردة كانت في الأكثر تؤثر ليالي الظلام . كما انها كانت تفزع من اشارة الصليب ، فتراجع عمّن يقوم بهـــا . الليلة التي اخترناها كانت مقمرة ، وقلوبنـا

تطفح بالايمان ، وفي جيب كل منّا مسبحة وردية : وفي ذلك كله دعم لنا ضد المردة ، لا في الموردة فحسب ، بل في ثنايا الوادي كذلك .

بدا لنا أن البدر في تلك الليلة أكبر ممــا عرفته بيت لحم منذ زمن طويل ، ونوره الأخضر يضيء منحدر الموردة الصخري الوعر كما لم ينره في أية ليلة مضت . والمنحدر يحاذي مقلعاً نعرفه ثلاثتنا جيداً . كما كنا ثلاثتنا نعرف حبلات الزيتون التي تليه ، والأماكن التي تهدمت فيها سلاسل الحجر القديمة جاعلة من الثغرات المتلاحقة بوابات صغيرة تؤدي بنـا إلى الأعماق المسترسلة نزلا نحو المكان الذي قال سليمان انــه يعرف فيه كهفاً عظيماً هيّأه الله للنساك في العصور الغابرة ، وهو الآن في انتظارنـــا : ولم نشكّ في اننا سنجده تلك الليلة ، مهما طال بحثنا .

رحنا نتراكض ونقفز ، ونجلس حينـاً على الحجارة ، ونغني ، أو نرتّل . كان لمراد صوت عذب جميل — وصوتي ، أو صوت سليمان ، لم يقلّ عنه عذوبة بكثير . وكلما جلسنا واجهنا الشمال ، أو ما كنا واثقين من أنه الشمال ، لأننا نعرف أن مدينة القدس تنتشر وراء تلك القمم التي يعلوها ضرب من الشفق طيلة الليل ، فبقيت دليلاً على اتجاهنا شرقاً ، إذ جعلناها على الجانب الأيسر منّا في أثناء رحلتنا . وفي بضعـــة أماكن من الوادي كانت تلتمع نقاط من الضوء كنجوم حطّت في كروم الليل وتاهت بينها . غير اننا تقصدنا أن نتجنبها . الكروم رائعــة ، ولكننا نريد « البرية » ، حيث لا أعناب ، ولا تين ، ولا رمّان — ولا بشر . حيث لا يوجد إلا الكهف الكبير الذي نستطيع أن نخاطب الربّ منــه ، ونتلقّى نعمته كل صباح ومساء . وكلما ازدادت مسالكنا وعورة وازدادت بنا مشقتنا ، اشتدت فرحتنا .

رغم كثرة الصخور ، كانت الأرض رخوة في مواضع تتهافت تحت أحذيتنا الكبيرة ، فتتلقانا أشواك من كل نوع . والأشواك (رغم رضانا بها لأنها كما يقول سليمان ، هي أيضاً من خلق الله) مزعجة : بنطلوناتنا

قصيرة ، وسيقاننا عارية تتخدّش بوخزها ولكننا لا نهتم ، وندى الليل أخذ يطرّي أطرافها . أما الذي نخشاه فهو القرّاص : انه ناعم المظهر، ولكن اللمسة الواحدة منه تلهب الجلد بالحكّ ، ويصعب تمييزه في ضوء القمر . وكنا أحياناً نقع على أزهار غريبة أيضاً . تمايل في نسيم الليلة القمراء . « طريق الانسان إلى الله شائك وطويل » ، قال سليمان : « ولكنه لا يخلو من ورود . »

قال مراد : « أما تعبتما ؟ »

قلت : « قليلاً . »

قال سليمان : « ما زلنا في البداية . أنا لا أتعب . وأنت يا مراد ؟»

انطلقت صيحة طويلة موحشة من بعيد . توقفنا . وأجابت عليها صيحة موحشة اخرى من طرف آخر . « بنات آوى ، » قال مراد . قلت : « كنا نسمعها طوال الليل حين كنا نصيّف في الكروم . »

لم تنقطع الصيحات في التردد بين أرجاء الوادي . وكان بعضها قريباً. وتساءلت بيني وبين نفسي : هل حقاً لا يخاف سليمان أو مراد هذه الصيحات الوحشية ، الحزينة ، المرعبة ؟ كانا كلاهما أكبر مني سناً بقليل . وفي ركن قصيّ في داخلي كان ثمة الكثير من الرهبة ، رغم كل تبجّحي .

قلت : « الضبع هو الذي يخيف . »

قال سليمان : « الضباع لا تنزل الى هذا الوادي . انها تقف عند دير مار الياس . ومار الياس بعيد الآن . »

فقال مراد : « إذا بال الضبع على واحد منا ، اضطر الى السير وراءه . »

فقال سليمان بعصبية : « قلت لك ، لا ضباع في الوادي . فلماذا الخوف ؟ »

كان البدر في صعود سريع الى وسط السماء ، وقد انتثرت فيها غيوم صدَفية رقيقة يضيء حواشيها القمر ، وتتحرك ببطء فتجعله يبدو كأنه

في ترحال مستمر . والصمت مطلق ، فيما عدا صوت ارتطام أحذيتنا بالصخور ، يتخلله أحياناً حفيف مكتوم من النسيم إذ يهب على الأشواك أو بين ثنايا الصخور ، ثم تمزّقه ولولة من ابن آوى ، أو نباح من كلب في أحد الكروم .

كنا نستأنس بأصواتنا . نركل الحجارة ، أو نطلق الصرخة لنسمع صداها بعد قليل يعود الينا . وقد فرحت عندما اعترف سليمان نفسه بأنه تعب قليلاً . فاعترفنا أنا ومراد بالتعب أيضاً دون خجل ، وقلت ان جلد ساقي قد تورم من حكة القرّاص .

قال سليمان : « لنركع على هذه الصخرة ، ونبتهل الى الله لكي يعطينا النشاط ، والقوة على الاستمرار . »

واخترنا صخرة عالية ، وبشيء من المشقة علونا صهوتها ، وركعنا في توازن قلِق مواجهين القدس ، ورفعنا وجوهنا وأيدينا إلى السماء ، وابتهلنا .

ثم قال مراد : « والآن لنرتل « آفي ماريس ستيلاّ » — وهي من الأناشيد اللاتينية التي كنّا نطرب لترتيلها في كنيسة الدير . ورتلنا ونحن لا نفهم معنى للكلمات سوى انها تحية لمريم العذراء ، وفيها يرد اسم الملاك جبرائيل ، فيلذ لمراد أن يعمل سحر صوته باسمه كأنه هو الملاك المبشر بميلاد يسوع . ولما فرغنا ، شعرنا براحة هائلة ، وخامرني إحساس بأن الوادي كله باتساعاته المتلاحقة وفضاءاته المذهلة ، يبتسم لنا ، ويمنع عنا أي أذى قد يكمن بين دغله وحجارته ومغاوره . ذلك كان أثر الأب سبيريدون فينا .

« ليكن ايمانكم كايمان النبي دانيال ، ألقي به في جبّ الاسود ، فألجم أفواه الاسود ، وأخضعها ليديه وجعلها تتمسّح وديعة بقدميه ... » هكذا كان الأب سبيريدون يسلّط بلاغته علينا نحن الأطفال في كل قدّاس . « أنبياء الله لا تمسّهم الوحوش في الفلاة . ولا الضواري في

الجبال . والنسّاك الأبرار هم الذين تشبهوا بالأنبياء ، فحباهم الله تعالى بمنعة من لدنـه ، ليمجدوا اسمه ويقدسوه في حياة أكلت منها الأوضار والآثام . مار جيروم يستأنس بالأسد في كهفه ، ومار انطون يطعم الفهد والنسر على باب مغارته ، وسمعان العامودي يجابه لظى الشموس وعتوّ الرياح سنة بعد سنة،وهو من على عاموده الشاهق يرسل تعاليمه الى الناس، ويطعم صقر السماء من بين يديه . سبحانك اللهم ! كل صباح وكـل مساء كنت ، جلّت قدرتك ، تنزل الطعام والشراب مـن السماء على نسّاكك ، وهم يصلّون اليك ويضرعون لغسل الانسان من آثامـه ، ويلهجون بذكر الأب والابن والروح القدس ، ويتـأملون في عجائب ما خلقت ... انظروا الى الزنابق كيف تنمو ، قـال الفادي ، فانها لا تكدح ولا تغزل ، ولكن سليمان بعظمته كلها لم يلبس ثياباً برقتهـا وجمالها ... وإذا كان الله هكذا يُلبس الأعشاب ، وهي اليوم في الحقل وغـداً تقذف الى التنور ، فكيف يلبسكم أنتم ، يا من قليل ايمانـكم ؟ لا تطلبوا ما سوف تأكلون وما سوف تشربون ، ولا تدعوا للشك سبيلاً إلى قلوبكم ... »

كلما حان درس الأب سبيريدون ، قصّ علينـا أقاصيص القديسين والشهداء ، وجعلنا نكرر الكثير من كلماته وعباراته . ولعل سليمان كان أشدنا حماساً في الاستجابة لهذا السحر « المقدّس » . ففاتحني ذات مساء، بعد الخروج من الزيّاح : « ما رأيك يا وليد في أن نتنسك ؟ »

فقلت : « ونصبح من القديسين ؟ »

قال : « نقضي عمرنا كلـه في التعبـد والصلاة في كهف في وادي الجمل ... ألا يعجبك ذلك ؟ »

— « ومن أين نأكل ونشرب ؟ »

— « ألا تسمع ماذا يقول أبونـا سبيريدون كل يوم ؟ « لا تطلبوا ما سوف تأكلون ، وما سوف تشربون . »

– « هل سينزل الله علينا خبزاً وماء كما كان ينزل على القديسين؟»
– « كل يوم ! وما علينا إلا أن نتعبد ونضرع اليه تعالى . »
وخطر لي أن القديسين كانوا دائماً رجالاً طاعنين في السن ، ونحن أطفال لم نتخط بعد الثانية عشرة ، أو الثالثة عشرة ، على الأكثر . غير أن سليمان قال : « الله يرحب بالصغار قبل الكبار . انه يحب الأطفال . »
فسألته : « هل ايمانك عميق ؟ »
– « جداً . وأرى أحلاماً جميلة . أرانا نتعبد ، ويأتي الناس الينا من كل قرية ومدينة ، رجالاً ونساء ، ويسألوننا العون في حياتهم ... »
– « أنا أيضاً أرى أحلاماً جميلة – وغريبة . أراني أطير في الفضاء، أحلق كالنسر ، وأعلو وأهبط في الوديان ، والناس يأتون إلي ويندهشون، ويقولون : « علمنا الطيران مثلك . هل باستطاعتنا إذا رحنا وتنسكنا أن ... نغيّر البشر ؟ نغيّر العالم ؟ »
– « العالم مليء بالآثام . ويجب أن يتطهر ، ويتغيّر . »
هذه الكلمات الكبيرة كانت تتردد على ألسنتنا بعد أن سمعناها أشهراً ، صبحاً وعشية ، من أبينا سبيريدون . وحين اكتشفنا أن مراد أيضاً يحلم أحلام النسّاك مثلنا ، قررنا ثلاثتنا أن نهرب من الدير ، وننزل إلى الوادي بحثاً عن الكهف الذي قال سليمان انه يعرف مكانه ، وانه في عزلة عن الناس والعالم ، تهيء لنا الانقطاع إلى الله .
تساءل مراد :
– « كم نأخذ من الطعام معنا ؟ »
فقال سليمان ، بشيء من الغضب :
– « أين ايمانك ؟ لن نأخذ أي طعام معنا ! »
ووافقته على ذلك ، ولو أنني خجلت من شيء قليل في نفسي ، قليل جداً ، من الشك ، لم أكشف عنه . ولكنني اقترحت أن نأخذ بضع

حبّات من البندورة ، ربما لأني كنب أحب البندورة ، آكلها مع قليل من الملح . ودافعت عن اقتراحي مدعياً بأنها لا تعتبر طعاماً يذكر، وفيها سائل يرطّب الفم إذا عطشنا أثنــاء النزول في الوادي ، قبل أن نبــدأ مراسيم التنسك . لانت مقاومــة سليمان لذلك ، ووافق حتى على أخذنــا أيضاً رغيفــاً واحداً — واحداً فقط — من الخبز ، وبضع حبــات من « الحلو حامض » كانت امي تأتيني بهــا عند زيارتها لي في الدير أيـام الأحد . « هذا الزاد للسفر ، » قال سليمان : « وبعد ذلك ... »

تصوّرت طائراً رائعاً يحط من السماء بباب الكهف كل صباح وينفض عن مخلبيه سلة مـلأى باللحم والفاكهة ، ثم يعود محلّقاً إلى السماء بجناحيه الكبيرين ولمـا أردت أن أصف طائري الخيالي هــذا ، أوقفني سليمان عند حدّي قائلاً : « لا تكن شرهاً يــا وليد ! فالله لا يرسل اللحم والفاكهــة بهذه السهولة لكل خاطىء نام في مغارة . ربمــا أرسل خبزاً جافاً — ربما كان خبزاً من الشعير ، يجرب به ايماننا . وسيكفينا الخبز، كما قال يسوع . »

قال مراد : « ولكن يسوع وزّع مع الخبز ، السمك أيضاً . »

— « إذن ، قد نأكل سمكاً أيضاً . ربـي غفرانك ! ألا ترى أننـا بكلامنا هذا نجرب الربّ ، سبحانه وتعالى ؟ »

وفي المساء الذي عينّاه للهرب ، وجدنا أننا لا نستطيع الحصول على الرغيف المزعوم ، فاكتفينا بقطعتي خبز لكل منا احتفظنا بها من حصصنا في عشاء الليلــة السابقة ، وغداء ذلك اليوم الذي كان يوم عيد عذراء السنابل . واستطاع سليمان أن يأخذ من المطبخ خلسة،وهو يستغفر العذراء، بضع حبّات من البندورة ، يوم كان من واجبــه أن يساعد الطاهي في تهيئة الطعام للأولاد ، دسّها في جيوبه وكادت تُفعص فيها . وأفرغت في جيبيْ ما عندي من « حلو حامض . »

وقد اخترنا يوم عيد العذراء للبدء برحلتنا المقدسة ، لا لأنهــا فاتحة

خبز فقط ، بل لأن الأيتام أيـام الأعياد كانوا يختلطون عصراً بأولاد الملعب الخارجي ، إذا شاءوا ، وقد يحضرون معهم حفلة السينما المسائية بعد الزيّاح . وهذا يسّر لنـا خروجنا من الباب الحديدي الكبير الخاص بهم ، والذي يبقى مفتوحاً حتى نهاية العرض .

كان ايمـان سليمان من النوع الذي يزحزح الجبال ، مقرونـاً بقدرة غريزية على السيطرة والأمر . لم يكن يشك فيما يريد ، فيأخذ أقصر السبل اليه ، ولا يتردد . وكان هذا يسهّل الأمر علينا ، أنـا ومراد . وكلما خطر لي أن اعترض ، فضّلت أن أكبت اعتراضي ، واستسلم لمشيئته . ومع ذلك ، إذ طال توغلنا في الوادي ، وتكرر تعثرنـا ، وسقوطنا ، ونهوضنا ، خطر لي أن سليمان ربما لا يعرف كهفاً نأوى له ، كما زعم . فقلت : « سليمان ، كم ساعة مرت علينـا منذ بداية الرحلة ؟ » رفع عينيه إلى القمر ، الذي أخذ ينحدر عن سمته في السماء ، وقال : « نحن الآن في حوالي منتصف الليل . يعني أننا قضينا تقريبـاً أربع ساعات في السير . »

فقال مراد : « انا تعبت ، وعطشت . »

قلت : « هل متأكد انك تعرف الطريق إلى الكهف ؟ »

— « متأكد ؟ اننا متجهون نحوه . كل الطرق تؤدي إلى الطاحون . »

قال مراد : « وأين هـذا الطاحون ؟ هل بسنبقى في سيرنـا حتى الصبح ؟ »

— « لا . أنا متأكد اننا بعد ساعة أو ساعتين سنصل . »

فقلت : « نحن الآن في بطن الوادي . يا جماعة . حالما نجد كهفاً ، سنستقر فيه . خلص ! »

توقف سليمان فجأة على طرف « حبلة » فيها شجرة زيتون يتيمة ، وأرسل نظره إلى أسفل ، ونادانا . أسرعنا اليـه . وصاح : « أتريان

تلك الصخرة ؟ عليها ! »

وما أن قفزنا حتى سمعنا خرفشة غريبة ، ثم صوت انطلاق بين الدغل والحجارة . حيوان ما أيقظته أصواتنا ، وهرب . وركضنا إلى الصخرة الكبيرة ، وقد فغرت فاهـــا . كأنها في انتظارنا منذ بدء الخليقة . على عتبـــة المدخل العريض نمت أنواع من الأزهار البريـــة كان من الصعب تبيّنها في الظلّ الحالك ، إذ كان ضوء القمر يغمر أعلى الصخرة،ويقذف ظلّهـــا المستطيل إلى مسافة بعيدة عن مدخل الكهف . ولكن كـان من السهل أن أرى الكثير من الشقائق وقـــد انتشرت حول الصخرة ، وفي المدخل ، ونمت من الشقوق وبين الحجارة ، وهي تمايل برفق في الهواء . قلت : « انظروا إلى الزنابق ... »

ثم صحنا أنا ومراد دهشة عندما رأينا سليمان ، دون أن ينبس بكلمة ، يخرج شمعة من عبّه ، ويشحط عود كبريت ، ويشعلها . ورفع الشمعة عالياً بلهبها الصغير ، ورسم بها اشارة الصليب أولاً ، ثم دخل المغارة ، ودخلنا وراءه ، وكلنا لهفـــة وتهيب ، وهـو يقول : « سألت عذراء الأحزان هذا الصباح في القداس : ما الذي سنحتاج اليه ، يا والدة الله الطاهرة ؟ فالتمعت دمعة في عينها ، وهي تقول : شموع ، يا ولدي . وكان طبق الشموع مليئاً تحت تمثالها . فسألتها : وهل تغضبين عليّ إذا أخذت من هذه ثلاث شمعات ؟ فهزّت رأسها : كلا يـــا ولدي ... قلت : سأعود اليك يوماً وفي يدي شموع كثيرة وباقـة من الزهور . »

كان الكهف رطباً ، وغير عميق ، ويواجـه المرتفعات التي هي أولى تلال القدس ، كما أردنا بالضبط . فقعدنا عـــلى الأرض الكثيفة بالنبت والحجارة ، وأنا أحس بالكلال في ساقيّ وقدميّ ، وبالجفاف في حلقي . ووضعنا الشمعة بين حجرين في الوسط ، ولهبهـــا يعلو ويهبط ويميل مع كل نسمة ، ويلقي ظلالنا مضخّمة على السقف الصخري العتيق .

حرج سليمان حبّات البندورة القليلــة من جيوبه ، وأخذ كل منــا واحدة . ما ألذها ، ريّانة ، طرية ، ناعمة على الشفتين والحلق ! وبعد قليل قال سليمان :

« والآن لنشكر الله على هدايتنا إلى هذا الكهف المقدس . »

وركعنا على رُكَبٍ مجرّحـــة ، مكدومة ، مرهقة . وضوء القمر آخذ في الانحسار عن قاع الوادي ، وقــد جعلت الاشكال تكبر وتهول حولنا . وصاح ابن آوى من بعيد . وعاودتني الرهبة التي كنت أكافحها . غير أن الصلاة خففت عني . ثم نزعنــا أحذيتنا التي حطمت أقدامنا ، واضطجعنا على الحجارة ، كيفما اتفق . وقلت : « غداً نعدّل الأرضية . غداً سنبدأ حياة الصلاح والخير ... » وجعل كل منــا يزيح حجراً هنا وحجراً هناك من تحت جسمه ، تخلّصاً من وخزها الموجع .

وكنت على وشك النوم – قرب سليمان ، ومراد مضطجع على الناحية الأخرى منه ، عندما سمعت مراد بصوته الأغنّ يرنّم :

Miserere mei, Deus secundum magnam misericordiam tuam. Et secundum multitudinem miserationum tuarum, dele inquitate meam ...

ولا أدري كم من هذا المزمور أكمل ترنيمــه ، لأنني غرقت في النوم والكلمات اللاتينية تتقاذفني كالموج ...

وفجأة أفقت ، شاعراً بالبرد والرطوبة ، ووجهي على حجر مكسوّ بالعشب ، وصديقاي منبطحان بين الحجارة على شكل لا يوحي براحة . أين أنا ، تساءلت مندهشاً للحظتين . ثم تذكرت . من مكاني في الكهف رأيت الوادي مليئاً بزرقة شهباء باردة . وضعت ساعدي تحت رأسي ، ورفعت ركبتيّ المرهقتين إلى بطني ، طلباً للدفء . عصفور حطّ بسرعة على الزيتونة البعيدة ، وغرّد قليلاً ، ثم انطلق . لم يكن هناك أي زرع ،

فيما عدا بعض الزيتونـــات الضامرة المتباعدة . أزهـــار صفراء وبنفسجية وشقائق تمتد ، رغم قلتها ، على مدى البصر . صخور بيضاء ومزرورقة أينما نظرت . وقبل أن يستيقظ سليمان ومراد ، نهضت حافيـــاً لأستطلع مستقر عبادتنا . كان الأفق الشرقي ، وراء الجبال الزرقاء البعيدة، مضاء بـــأشعة صفراء حمراء . ثم أذهلتني الشمس وهي تنبثق مـــن بين الغيوم الصدفية الخفيفة ، كأنني أراهـــا لأول مرة ، وقدماي يدغدغهما الحصى والأزهار البليلة بندى الفجر . وشعرت بعطش خفيف ، لم أعره اهتماماً . غير أنني لم ابتعد عن الكهف . بل عدت مسرعاً ، وجعلت أبحث عند مدخله ، وقد اخذتني رجفة لذيذة . هل أرسل الله لنا خبزاً وماء ونحن نائمون ؟ لم أجد أي خبز أو أي مـــاء . بحثت بين الحجـارة ، وبين الأعشاب . وتسلقت الصخرة مـــن على جانبيهـــا . ورأيت بضعة عصافير تنطلق حولي ، وتبتعد . ولكن ، لا خبز ولا ماء . ومن أعلى الصخرة تشبّثت بطرفها ، ومددت رأسي إلى النائمين تحتها ، وصحت :

« سليمان ! مراد ! طلعت الشمس ! هيا إلى الصلاة ! »

بانت الخيبة على وجهيهما صريحة عندمـــا قلت لهما إنني لم أجد أي أثر لخبز أو ماء . غير أننا صلينا صلاة الصبح ، ونحن راكعون ، متجهين نحو القدس . ولما انتهينا أخرجت احدى شريحتي الخبز اللتين في جيبي ، وقـــد انتابني احساس رهيب بالجوع . ولم يعترض سليمان ، وفعل هـــو ومراد ما فعلت ، وأكلنا كفافنا . ثم أخرجنا كتاب الصلاة وقرأ سليمان الفصل الأول ، وتلونا « السلام عليك يـــا مريم » و « أبانا الذي في السموات » بعدد الخرزات في مسابحنا الوردية ، وأعقبنا ذلك بابتهال إلى الخالق عزّ وجل بأن يرحم الانسان المسكين العاري ، ويهبه كساء يقيه البرد ، وطعاماً يقيـــه الجوع . أجلت البصر في السماء ، باحثاً عن طير يهبط في اتجاهنا ، ولكن لم تكن هناك إلا عصافير الدوري الصغيرة، تعبث في فضاء الوادي باحثة عن طعامها ومائها دوننا .

أغلق سليمان الكتاب ، وتنحنح قليلاً ، وانطلق ينشد بالسريانية التي كان يتباهى بمعرفته لها ، لاعتقاده بأن المسيح تحدّث بهـا ، وبأن الملائكة أيضاً تسبّح لله بها . أصغينا اليه انـا ومراد ، وكلنا خشوع ، وهو مسترسل في ترتيله . ولكن يبدو أن طير السماء كان غافلاً عن صلاتنا حتى بالسريانية .

لم نيأس . وانصرفنا الى واجبنـا لذلك الصباح : أخذنا نمهد أرض الكهف ، ونرفع الحجارة الكبيرة من أمكنتها ، وكلما رأينـا الديدان والحشرات المتجمعة تحتها ، دسناها بأحذيتنا الثقيلة ، وثقتنا لا تتزعزع في اننا سنجعل من هذا المكان حجرة تليق بنسّاك ثلاثة يريدون مخاطبة الله ليل نهار ، طيلة أعمارهم .

اشتد حرّ الشمس ، وغرقنا في عملنا ، وأخرجت حبات من « الحلو حامض » وزعناها بيننا . ما ألذها ! غير انها بعد قليل سببت لنا عطشاً أخذ يلح علينا . وتمرّد مراد فجأة وقال: « سأذهب وأفتش عن ماء!...»

فأوقفه سليمان لحظة . « أترى تلك الأشجار اليابسة البعيدة ، عـلى ذلك التل المحاط بسلسلة حجرية ؟ » وللحال أدركنا معنى سؤاله . اينما اجتمعت الأشجار مع الجدران الحجرية ، لا بد أن هناك كرماً أو أثراً لكرم . فاتفقنا أن نذهب اليه ، وسليمان يقول : « هل من المعقول أن يهجر الله عبـاده ؟ » وسرنا والشمس تنصب علينا بحرارة الظهيرة . ولكنها ما زالت حرارة طيبة ، تلطفها انسام ربيعية . كـانت الجنادب تتقافز بين الأشواك والنباتات ، وأمسكت بطزّيز أخضر لمّاع استقر في كأس زهرة بنفسجية ، وحملته في كف يدي الى التل . أما مراد وسليمان، فكانا يلاحقان الفراشات ، يمسكان بها ثم يطلقانها .

كان المرتفع أبعد مما ظننا . واضطررنا الى التسلق ، والتشبّث ، حتى بلغنا السلسلة الحجرية . فتسلقناها . وإذا بكوخ مهدم تكومت جدرانـه

المنهارة قرب باب خشبي عتيق متآكـل . وترامت حول الكوخ بضع حواكير ، أشجارها يابسة ، كانت في يوم مضى لوزاً وتفاحاً ومشمشاً ... « البئر . لا بد من بئر . اين البئر ؟.. » وعندما قفزنا الى احدى الحواكير كانت هناك خرزة كحجر الطاحون — انها تلتمع ، وقد تركت فيها الدلاء التي أدليت منها في عشرات السنين الغابرة حزوزاً وأخاديد ... وركضنا اليها . ورفعنا باباً حديدياً صدئاً عن وسطها . ماء ! ماء ! وكنت من العطش بحيث وددت لو أقفز الى أعماق البئر وأغرق في مائها .

لم تكن عميقة ، ومع ذلك فإن الماء لم يكن في متناولنا . ولمـا قال سليمان ان الله يهيىء للانسان ما يحتاج اليه ، ولكنه لا يسهّل عليه الأمور لكي لا يكسل ، صحت به : « بلاش فلسفة ! أين السطل ؟ هذا هو المهمّ . كل بئر لها سطل . »

وانتشرنا في الحواكير نبحث عن السطل ، وفجأة صاح مراد صيحة فرح ، وعدنا الى البئر وفي يده دلو مطعّج من تنك ، محمرّ بالصدأ الكثيف . وكان بلا حبل ولا جنزير ... غير اني لم أتردد . نزعت الحزام الجلدي الرفيع عن بنطلوني ، وربطته بعلاّقة الدلو ، وكلّي خوف من أن تسقط العلاّقة من مكانها لشدة الصدأ . وأعطاني سليمان حزامه أيضاً وشددته بطرف حزامي ، وأنزلت الدلو من وسط الخرزة ، ومراد يهذرم لنفسه بالدعاء ، وأنا أصيح : « يا رب ، يا رب ... » وبلغ الدلو الماء ... يظهر ان أحداً لم يكن قد سحب من تلك البئر بعد الشتاء الأخير ، فالماء فيه مرتفع ... خبطت الماء بالدلو ، ثم أنزلته الى أعمق ما أستطيع ، لكي أبدد ما على سطح الماء من أسن . ولما سحبته صعد يترنح مليئـاً بنعمة الله ... وشربنا . شربنا حتى انتفخنا . وملأنا الكرم القديم بصيحاتنا .

لم يكن في الكرم ظل كثير ، فملأنا الدلو من جديد ، وعـدنا الى كهفنا بالماء . وشعرت بجوعي يشتد ، ولكني خجلت من ذكره ، ودون

أن نتحدث عنه أخرج كل منا قطعة الخبز الأخيرة التي في جيبه وأكلها ، وساعدنا الماء على بلعها رغم يبسها . ولما كان التعب قد فعل فعله فينا، نزعنا أحذيتنا واستلقينا على الأرض الممهدة ، ولو أنها لم تكن تكن أرأف بنا مما كانت في الليلة السابقة إلا بقليل .

قال سليمان ، وهو نصف نائم : « بعد أن نفيق ، سنصلي صلاة المساء. وسيرزقنا الله بما يشاء عند غياب الشمس . »

أغمضت عينيّ على هذا الوعد الجميل ، غير ان شيئاً من الشك عاد وانتابني . وتمتمت لنفسي : « ابعد عني يا شيطان ! » ونمت .

عند غياب الشمس ، وبعد فراغنا من الصلوات والأدعية ، لم ينزل الطير المرتقب بالخبز والماء – أو بالخبز على الأقل

هبط الظلام ، وطلع القمر . وأشعلنا شمعة وقرأنا فصلاً آخر من كتاب الصلاة . وجاءتنا أصوات الليل مـــن جديد . ونباح الكلاب البعيدة . أفزعتنا خرفشات لا ندري كنهها . وأخذنا النوم مرة أخرى . لكنه كان متقطعاً هذه المرة . وطرق اذني صوت نشيج حسبته حلماً أول الأمر . ولما فتحت عيني ، رأيت رغم كثافة الظلام ، وقد غاب القمر ، سليمان راكعاً يصلي ويبكي بكاء مكتوماً ، غير ان النشيج كان أقوى من ارادته .

في تلك اللحظة خفت خوفاً أرسل رعدة في بدني . لملمت أطرافي ، وبرد الليل لا يبارحني ، وعزوت رعدتي الى القشعريرة . فجاءني سليمان وقال هامساً ، وهمسه ينضح بالدمع : « وليد ، ألا تستطيع أن تنام ؟ مثلي ؟ »

– « لماذا لم نحضر لحافاً ، أو حراماً ، معنا ؟ »

– « وهل كان ذلك ممكناً دون أن نفتضح ؟ »

مراد وحده كان مستغرقاً في نوم هادىء ، ويده بين فخذيه . وسألت سليمان : « لماذا كنت تبكي ؟ »

– « لأنني شعرت ان ايماني تزعزع ، وغافلني الشيطان وجعلني أندم على مجيئنا هنا . فقمت وصلّيت . وعاد ايماني قوياً كالصخر . »

ورحنا نتحدث . حدثته عن أبـي وعربته وخيله . أما هو فلم يعرف عن أبيه إلا ما أخبرته أمه عنه ، ولا يذكره إلا وهو مُسَجّى على الأرض والنسوة قاعدات حوله مع أمه ينتحبن . « أبـي كان رائعاً » قلت: « كل ليلة يقص علينا القصص . ويغنّي . وفي الصباح أساعده في علف الحصانين ، ثم نخرجهما من الياخور ، ونربطهما بالعربة . »

– « يا نيّالك . »

– « ولكنه سافر الى كولومبيا ، ليصبح غنياً ، وتركنا . »

وفجأة وقع سليمان على عنقي ، وهو يرتجف ... لقد وقف بمدخل الكهف حيوان غريب ، فاغراً شدقيه ، يلهث . لم نستطع أن نتبين ما هو . وقد بدا ضخماً يكاد يملأ باب الكهف ، وتصدر عن حلقه غرغرة رهيبة . وأمسكت بسليمان بقوة ، وقد تسمّرت عيناي بالحيوان ، وكلانا ينتفض رعباً . وهمست بفمٍ جفّ لعابه : « الشمعة ! »

بقي الحيوان واقفاً مكانه ينظر الينا ، وعيناه تقدحان شرراً في الظلام . ومضى دهر على سليمان وهو يبحث عن الكبريتة في جيوبه ، وقد ناولني الشمعة التي أمسكت بها بيد راجفة . وصرخت : « انـه الشيطان ! » وتمنيت لو أن الشمعة تشتعل تلقائياً . غير أن سليمان تمكّن أخيراً من أن يشحط عود الكبريت ، وأشعلها . وفي الحال استدار الحيوان الأسود ، واختفى . وصاح سليمان : « يا الهي ! معجزة ، معجزة ! يـا مليكة السماء ! هرب الشيطان من نور شمعتك الطاهرة ! السلام عليك يا مريم ... »

وزالت عنّا الرجفة شيئاً فشيئاً ، واحسست براحة لذيذة تغمر صدري وفخذي وركبتيّ وساقيّ ... وتمددت ارضاً ، واحتواني ظلام رفيق

ناعم ، وسليمان ما زال يحتضنني . وعندما فتحت عيني ثانية ، كانت الشمس تملأ الدنيا .

لم نعجب هذه المرة عندما لم نجد خبزاً بباب الكهف ، وقلنا ان الله يمتحننا . ولكنه يمدنا بقوة من عنده .

بعد الصلاة ، قلت : « الوادي مليء بما يؤكل . وهذا موسم العكوب . لماذا لا نبحث عن العكّوب ؟ »

شربنا مما تبقى من ماء الدلو ، ورحنا نبحث شبراً شبراً ، بين الدغل والاشواك والازهار ، عن هذا النبات البرّي الذي نعرفه من اوراقه الصفراء . لم يكن في كل مكان ، ولكنه كان موجوداً . جعلنا نقتلعه ، وننزع عنه اوراقه الشائكة ، ونحشو به جيوبنا — ونأكل بعضه نيئاً . وكانت هناك ازهار نعرفها ، نقطفها ونشقّ التويج منها ونرشف حلاوة عطرة تجمعت في قرارته . وفي بضعة اماكن عثرنا على حبات من تفاح المجانين تتألق ككرات حمراء من الزجاج بين الوريقات الخضراء الكثيفة . فقطفناها لنلهو بها ونحن نتمنى لو انها تؤكل .

ثم صعدنا الى الكرم ، وسحبنا ماء ، وجعلنا نفرك الدلو لنقشط عنه ما يمكن قشطه من الصدأ . ولم تكد الشمس تتوسط السماء حتى كنا قد اشعلنا ناراً وبدأنا نسلق حصيلتنا من العكوب في الدلو ... وأكلنا — أكثر من كفافنا هذه المرة . لم يبق شك يخامرنا . واشتد عزمنا على البقاء في الكهف .

عصر ذلك اليوم انصرفنا الى « ترتيب » كهفنا ، بازاحة المزيد من الحجارة ، واقامتها على جانب من الكهف في شكل هيكل ، ثبّتنا في فجوة فوقه صليباً صغيراً وايقونة كان يلبسها مراد حول عنقه . وغرس سليمان بين حجارة الهيكل ما تبقى من شمعته ، والشمعتين الاخريين .

عند العصر كثرت العصافير . واخذت اسراب السنونو تهوي وترتفع في

فضاء الوادي . جلسنا على صخرة قريبة ، وقد انهكنا التعب . وعاودنا الجوع اللعين من جديد . وقلت : « لو أن لدينا نقافة لصدنا بعض العصافير ... الى ان يستجيب الله لدعائنا . »

قال سليمان بكل ثقة : « غداً ، اذا لم يأتنا طير من السماء ، سنصنع نقافة لكل منا . »

وقال مراد : « إذا اقتضى الامر ، ذهب واحد منا الى البلدة يجيء بنقافات ... و ... بعض الطعام . »

ولكن سليمان لم يوافــق ، قائلاً ان علينا ان نرضى بمشيئة الله ، وننقطع عن العالم مهما كانت المصاعب .

غير ان الليل كان اثقل وطأة هذه المرة ، حتى من الليلة السابقة . بقايا العكوب لم تسدّ لنا جوعاً . وانصرفنا الى التعبّد ، واعتبرنا حرماننا من الطعام صوماً لمرضاة الله ، وان تكن الظروف قد فرضته علينا فرضاً . وعندما استلقينا على الارض للنوم . بان الوادي المخضوضر بضوء القمر كأنه يموج بالاصوات . وحلمت احلاماً غريبة . كنت اراني راكباً حصان أبي ، أجوب به فلوات واسعة ، أشق به صخوراً وكهوفاً ، واعبر مياهاً تتصاعد حولي تريد اغراقي ، ولكني أبقى عائماً عليها مع حصاني ، وما أن أصل الى الضفة الاخرى حتى الوى عنق الحصان واخوض به المياه عودة من جديد . وفجأة أفقت وقد نسيت صديقيّ الاثنين ، وبي احساس بأن الله ، لسبب ما ، غاضب عليّ . كان البرد شديداً ، فانقلبت على بطني ، ووجهي على كفي ، ووجدتني أجهش بالبكاء ... لماذا يا ربي ، لماذا ، لماذا ؟ ... وجاءني صوت لهاث وغرغرة ، والتفتّ ، وإذا في مدخل الكهف ذلك الحيوان الاسود الذي رأيناه في الليلة الماضية ، ولكنه بدا أصغر بكثير هذه المرة . ورغم ما اصابني من هلع ، اقتلعت بكل يد حجراً وقعت عليه وانا في مكاني ، وزحفت نحو الحيوان ، وقذفته

بأول حجر ، فأصابه بين عينيه ، وألحقته بالثاني ، فولى الادبار – دونما اشعال الشمعة – وهو يصبح صيحات رفيعة حادة . وقمت والتقطت حجرين آخرين ، وخرجت وقذفته بهما وهو يتلاشى مع صيحاته في عتمة ما قبل الفجر . وعدت الى ركني ، وبعد قليل غرقت في النوم من جديد .

في الصباح ، قبل ان تبدأ مراسيمنا التنسكية ، خرج سليمان يتفقد البقعة التي حولنا راجياً ، مؤملاً ، الا انه عاد حائراً خائباً ، بل ومغضباً ... ولكنه استغفر الله ، وتوجهنا نحو هيكلنا البدائي ، وانصرفنا الى الترتيل . وبدا مراد كأن صوته قد فقد رنته الصافية . وقال فيما بعد : « يلا ، لنبحث مرة اخرى عن العكّوب . »

ذهبنا إلى الكرم وطبخنا ما جمعناه من جذور الأرض ، وأكلنا . وفيما كنّا نقفز فوق الجدار الحجري عودة إلى الكهف ، صعقنا حين رأينا من بعيد رجلاً على حمار يتهادى في نزوله بين الصخور . كان يغني أغنية من أغاني التعامرة التي لم نكن نفهم كلماتها بالضبط ، ولكننا نعرف أنغامها الرتيبة ، النائحة ، الحزينة . ولم يسع مراد إلا أن يطلق حنجرته بنفس النغم . أما سليمان فلم يرق له ما رآه ، وتوجست انا شراً لم أستطع تحديده .

بلغنا كهفنا وراكب الحمار يقترب على مهل . لقد رآنا هو أيضاً ، وجاء متجهاً نحونا ، بتصميم . ثم كفّ عن الغناء ، وهو يضرب عنق دابته ذات اليمين وذات الشمال ، ويلكز جنبيها بشدة متصاعدة . فأسرع الحمار وهو يتعثر بين الدغل والحجارة .

وقعت عيني على هراوة الرجل الكبيرة المعلقة بساعده ، والخنجر المعقوف المدسوس في حزامه ، حين قال : « السلام عليكم ، يا أولاد ! »

– « وعليكم السلام . إلى أين يا عمّ ؟ »

– « هل بينكم من اسمه سليمان ؟ »

وأجال بصره فينا ، واحداً واحداً .

دهشنا ، ولم نجب . وسأل :

– « وهل بينكم ... مـــا اسمه ؟.. ابن مسعود الفرحان ؟ والاسم الثالث نسيته والله ... »

ومن بعيد ، من اتجـــاه آخر ، رأينا رجلاً ثانياً على حماره يتجـــه نحونا ...

فقلت له : « وأنت ما اسمك يا عم ؟ »

قال: « أنا ؟ أنا أبو الديب حمدان . ألا تعرفون أبو الديب ؟ » وفجأة تغيّرت نبرته وقال : « ماذا تفعلون هنا ؟ أتظنون انـه ليست في الدنيا حكومة ، أم ماذا ؟ »

قلنا : « حكومة ؟ وما دخل الحكومة فينا ؟ »

قال : « تهربون من الدير ، وتقولون ما دخل الحكومة ؟ بيت لحم قائمة قاعدة عليكم ... يبحثون عنكم في كل مكان ، يا من لا تستحون . لماذا تهربون من الدير ؟ ما الذي فعل لكم ؟ هل آذاكم ؟ هل جوّعكم ؟ هل طردكم ؟ يلاّ ، لمّوا أغراضكم ، وامشوا معي ! »

فتصدى له سليمان : « يا عمّي رح بسبيلك . ودعنا نرى وجه ربنا . إذا كنت تريد أغراضنا ، فها هي . كتاب للصلاة ، وشويـــة عكوّب طبخناه اليوم . »

– « عكوب ؟ هاتوا لنشوف . »

وناولته من جيبي بعض العكوب الطري المطبوخ . والتقمه مستطعماً ، وقال : « بس ينقصه ملح . »

وفي هذه الأثناء كان الرجل الثاني قد دنـا منّـا ، فصاح أبو الديب في اتجاهه : « هؤلاء هم ، يا عليّان ! يلاّ ، امشوا معنا ... »

فقال سليمان : « مش ماشي ! »

وقلت : « ولا أنا . »

وقال مراد : « ولا أنا . »

فزمجر أبو الديب : « بلا زعبرة . عاملين عصابة يا أولاد الكلب ! بدكو تتعدوا عالناس ؟ »

قلنا : « جئنا نتعبد لله يا أبو الديب . »

— « بلا عبـــادة ، بـــلا زعبرة . يـــلاّ . لمّوا أغراضكم . أنت يا عليان ، ركّب هذا الولد على حمارك ، وأنـا بركّب هذا وهذا ... والله اللي يتخنفس بنعل أبو أبوه ... يلا ، قبل مـا أشغّل النّبوت على رؤوسكم . »

باغت عليّان سليمان ورفعه بين يديه وأركبه على حماره بالقوة،وأركبني أبو الديب على حماره ، وأركب مراد ورائي ، وهـو يقول : « مليح اللي صاحبكم في الدير أعطى خبر عنكم ... احنـــا حسّبنا رحتوا ع بيت ساحور ، وبعدين قلنا لأ ، رحتوا ع دير مار سابا . بس دير مار سابا بعيد ، شو بيوصلكم الو . وامبارح واليوم واحنا بندوّر عليكم ، يا اللّي ما بتستحوش على شرفكم . »

وأدار سليمان رأسه نحوي وقال : « صاحبنا ، قـــال ، صاحبنا ! عبد الله اللي وافق ، وبعدين غيّر فكره ... »

كانت الشقائق تملأ الحبلات التي بدأنا نصعد اليها مكرهين . نظرت الى أبو الديب متفحصاً ، أخمّن مدى قسوته ، غير انني جازفت والقيت بنفسي على الأرض ، وجعلت أقطف الشقائق الحمراء الطرية ، وأنا أقول في نفسي : سأعود الى الوادي بعد يومين . واذا هو يضحك ويقول :

« شو بدك فيه هالحنّون ، يا ابن مسعود ؟ والله انتو مجـــانين ، انت واصحابك مجانين ، يا ابن مسعود ! »

ورفعني بقوة ، وأقعدني على الحمار من جديد .

وفاجأني سليمان بأن قفز عن حماره ، وهجم عليّ واختطف الشقائق من يدي وقذف بها أرضاً ، وهو يقول : « أتريد أن تأخذها للعذراء، وهي التي اهملتنا ولم تشفع لنا عند الله ليرسل لنا ولو رغيفاً من الخبز ؟ أبداً ، لن أقبل ! »

هكذا بالقوة أعادونا الى الدير . هناك وجدت أمي في الانتظار مع بعض أقارب سليمان ومراد . وحالما رأتني بادرتني بالشتيمة وأضافت : « أرعبتني ، الله لا يرضى عليك ! » وهددتني بأنها لن تزورني بعد ذلك اليوم في الميتم إذا لم أعدها بالتوبة ، وعدم التهور بمثل هذه الجنونيات . ثم جاء أبونا « دون ترتيني » وهددنا بالطرد إذا لم نحسّن سلوكنا ، وعاقب كلاً منّا بأربع عصي على اليدين وحرماننا لثلاثة أيام من دخول الكنيسة للصلاة مع الأولاد الآخرين .

أما الأب سبريدون فقد أصغى الينا ، وهو يصدّق ولا يصدّق . يهزّ رأسه الأشيب ، ثم يدنو به من وجوهنا ويقول : « وبعدين ؟ وبعدين ؟ » ولما انتهينا من روايتنا ، خيّبنا أشد الخيبة حين نهض وقال : « لا ، لا ، مش معقول ، مش معقول أبداً . »

- ٥ -

الدكتور طارق رفوف

يتأمل في برج الجدي

كان وليد مسعود من مواليد برج الجدي . فقد ولد في الخامس عشر من شهر كانون الثاني ، أي انه ولد وبرج الجدي ، كما يقولون ، في صعود . ولو لم يكن لـــه اهتمام ، يصل إلى حد الغيبيـــات ، بالنجوم وأثرها في حياة الناس ، لما عبئت بأنه من مواليد برج الجدي أو السرطان أو العذراء . والمسألة كلها مسألة شهية للمعرفة ، حتى ما كان منها قديماً وغير مجد ، ووليد كان مبتلى بمثل هذه الشهية . يلتهم التفاصيل، ويتمتع بالجزئيات ، ويستمد ذهنه غذاء من كل مـــا تقع عينه عليه . غير أن كونه خاضعاً لبرج الجدي ، أصبح على مر الزمن ذا دلالة خاصة لديه ، إذ يلتفت إليّ فجأة ويقول : « أترى يا طارق ؟ أنا من مواليد برج الجدي . لا حيلة لي بذلك . » كأنه يرى في تلك الحقيقة تبريراً لا يفنّد لشيء فعله ، أو سيفعله . ولما كنت أنا جاهلاً بأمور التنجيم والأبراج ، لم أكن أفقه بالضبط ما الذي يقصد اليه ، فأقول له ضاحكاً : « وليد، أأنت بكل منطقك ووضوحك الذهني ، تهمك مثل هذه السخافات التي تضعها المجلات في صفحاتها الأخيرة تحت عنوان : « بختك هذا الأسبوع؟ » « بختي هذا الاسبوع ؟ » يقول : « طبعاً لا يهمني هـذا الهراء ، أما القوى الخفيّة التي تتحكم بالانسان فإنهـــا هي التي تهمني . وهي التي لن أجد عنها شيئاً في الصفحات الأخيرة من المجلات . »

— « وهل بأمكانك أن تجد هذه القوى ، أو ما يدلك عليها ، في أي مكان ؟ »

– « في النجوم . في كتب الذين استقرأوها . »

– « في الغيبيات ! انك تدهشني . »

– « لا تندهش . كان البابليون ، والمصريون ، والاغريق ، يعرفون أن من يولد تحت برج الجدي مثلاً ، ستتحكم به نوازع داخلية تعطيه بعض صفات الجدي . »

– « يعني ؟ »

– « يعني ، صفات الكبش . أو المعزى ان شئت . »

– « تقصد خفّة الحركة ، أم الشهوة الجنسية ؟ »

– « الخفة ، والشهوة ، كلتيهما . وما يتصل بهما . لا سيما الاقبال العنيف على كل ما هو حسّيّ . الرغبة الجائرة . الشبق . اسمع . »

أخرج كتاباً ، وقلّب صفحاته ليستقر على إحداها . « هاك ما كتبه أحد العلماء القدامى ، فيرميكوس . العبارة باللاتينية ، ولكنني سأترجمها لك . »

وجعل يقرأ ، ويترجم : « ان الذين يولدون وبرج الجدي في صعود ، يكون لهم مظهر خداع ، يخفي حقيقة شخصيتهم . وجوههم رصينة ولحاهم طويلة وجباههم عريضة عنيدة . وما ذلك كله إلا زيف وخداع . لأن من طبيعتهم الحقيقية أن يكونوا ماجنين خلعاء ، تفترسهم لواعج الشبق ، وتلتهمهم نيران الحب . وكثيراً ما يقعون ضحية شهواتهم الشريرة فيضطرون إلى قتل أنفسهم ... »

انها صورة ، ولو كاريكاتورية بعض الشيء ، لوليد مسعود ، مهما يقل عنه الآخرون . وجه رصين ، ولحية طويلة (مجازية) وجبهة عريضة عنيدة . ذكاء ونفاذ بصيرة ، واتزان . ولكن ما ذلك كله إلا زيف وخداع ، كما يقول فيرميكوس بدون تحفظ . قناع وقور يحجب وجه وليد مسعود الحقيقي – وليد الماجن ، الخليع الذي افترسته لواعج الشبق ، والتهمته نيران الحب ، ودفعت به في النهاية إلى قتل نفسه .

فوقفة سيارته المهجورة على قارعة الطريق على مسافة من الرطبة لا تقنعني كثيراً في النحو الذي تروى عليه .

وليد انتحر ، مهما تدل القرائن على العكس .. كان وليد ، بدنياً ، رجلاً قوياً ، له عضلات لم تَهِنْ حتى عندما أدرك الخمسين . كنا نسبح في النادي معاً ، فيدهشني ببناء جسمه المشدود – ولو أن شيئاً من الكرش كان قد أخذ يشوّه قوامه . وكثيراً ما ألمح إليّ انه « جاء على أبيه » ، الذي كان يحمل على ظهره كيساً من الطحين من فئة المئة كيلوغرام ، ويصعد به طابقين من الدرج ولا يشكو ! كان وليد من أهل الجبال في فلسطين ، وكلهم على ما يبدو فلاحون أقوياء ، يقارعون الأرض ، فتمدهم الأرض بصلابتها ومقاومتها . وكان هو يتباهى بذلك . غير أن هذه القوة العضلية لم تكن إلا غلافاً لقوة من ضرب آخر تجوهرت في دخيلته . لم أكن أعرف في الأيام الأولى لصداقتنا ما هي بالضبط تلك القوة . حسبتها قوته العقلية ، أو عناده الجبلي الذي يجذبك وينفّرك في وقت واحد ، كأنه هو المحق دائماً والآخرين على ضلال . غير أنني اكتشفت فيما بعد ، انها قوته تلك التي كنت أود لو انني لم اكتشفها ، لولا انه هو الذي نبهني اليها : قوته الجنسية . لقد رضي لنفسه بعزيمة الكبش، وكأنه يقول انها هبة من الله ، وهو لن يرفض ما وهبه الخالق !

كم امرأة عرف وليد مسعود ؟ ليته أخبرني . ولكنني أعلم من بعض ما حدثني به – رغم انه كان ضنيناً بالحديث عن علاقاته الغرامية ، ونادراً ما يذكر أسماء النساء اللواتي يتصل بهن – ومن بعض ما حدثني جواد وابراهيم ، انه كثيراً ما كان على علاقة غرامية بأكثر من امرأة واحدة في آن واحد . أعرف منهن شخصياً على الأقل ثلاث نساء ، كن صريحات في « اعجابهن » به . وهناك أخريات لا أعرف إلا أسماءهن ، صحت الشائعات بصددهن أم لم تصح . ولكن لا دخان بلا نار .

إذا أراد الله ان يلعن امرأة ، أنزل بهـا جنون الشبق . وإذا أراد أن يلعن رجلاً جعله ضحية امرأة مصابة بهذا الجنون . ووليد ، بكل وعيه وصفاء قريحته ، سمح للكبش بالتحكم في غرائزه ، فجعله يتعلق بنسوة من ذلك النوع ، ليصبح الجنون الواحد ، جنوناً مضروباً بمثة . لم أنتبه الى ذلك فيه إلا بعد سنوات من المعرفة والالفة ، ولم أتأكد منه إلا بعد موته أو اختفائه . رسالة معينة واحدة وقعت بيدي ، ففتحت عيني ، واستعدت كل ما أعرفه عنه لأراه في ضوء جديد .

لقد انكرت جنان الثامر أول الأمر أن هذه الرسالة منه ، لأن التوقيع لم يكن واضحاً ، ولكنني كنت أعرف خطه على نحو لا يقبل الشك . ولدي منه أكثر من رسالة . أما هذه الرسالة ، فكالكثير من الرسائل لا يدرك المرء خطورتها ، أو معانيهـا المبطنة ، إلا إذا ألمّ بالظروف المحيطة بها ، ووضعها في مكانها الزمني الصحيح ، في نقطة تلتقي عندها خطوط كثيرة فتبرز على حقيقتها .

كانت جنان صديقة حميمة لامرأة أخرى جميلة ، أنشأ وليد علاقـة معها — في نفس الوقت ، أو فيما بعد ، وهو الأرجح . ولعله كان في الوقت نفسه على علاقة بامرأة ثالثة لا أعرف عنها شيئاً ، إذ تبين لي أن علاقاته النسائية كانت تتناقض . كيف استطاع أن يعيش هذه التناقضات كلها ، لو لم يسع اليها سعي المرء نحو حتف محتوم ؟ من الواضح ان ايمانـه الغيبي بما « كتبه » عليه برج الجدي ، دعم طريقته في الحياة بتخفيض قيمة الشك والضمير لديه في تصرفاته مع النساء . ومن يدري ، لعل النساء أيضاً كن يقبلن عليه ، لأنهن خفّضن هن أيضاً قيمة الشك والضمير في ما يفعلن ؟ لا ، أنا لا أزعم ان وليد كان ذئباً بين الحملان. قطعاً لا . كان ذئباً بين الذئاب ، نداً بين الأنداد . انما المهم ، هـو انه كان يعرف من هم — أو هن — هؤلاء الأنداد . لا أتصور أن وليد

أغوى يوماً فتاة دون ارادة منها . لم يكن هذا الضرب من الغواية ليهمّه كثيراً ، بل يخيل اليّ انه كان هو ضحية الغواية في أغلب الأحيان – فيروق له ، ربما ، أن يتعذب بالنيران التي تستعر بين جنبيه ، دون أن تفلح امرأة في اطفائها تماماً .

لقد جازفت وسمّيت هذا يوماً بعقدة الأم ، التي يقول كارل يونغ انها تبدو في وجهها السلبي في الدون جوانية . وهي عقدة غريبة ، لأنها تحمل أضداداً مهمة . أصحاب الفعل الكبار في التاريخ هم أيضاً في الأغلب عشاق نساء كثيرات . ويبدو أن هذا العشق اللحوح يزوّد أحياناً الوجه الايجابي من عقدة الأم هذه ، فتتبدّى العقدة في أشكال من الرجولة ، والعزم ، والطموح ، ومحاربة الظلم ، والرغبة في التضحية بالنفس فى سبيل الحق لدرجة البطولة . فهذه العقدة اذن التي يتمثل وجهها السلبي بحب امرأة بعد أخرى ، وجهها الايجابي يتمثل في شهوة في استطلاع ألغاز الكون مشفوعة بتلك الروح الثورية التي تكافح لكي تعطي العالم وجهاً جديداً .

كلمات خطيرة ، أوردها وكلي حذر ، لأنني لا أعرف كم منها ينطبق فعلاً على وليد . ربما لا يهمني أن أعرف ، لأن الاحاطة بوجه واحد من العقدة أمر عسير بحد ذاته ، فكيف الاحاطة بالوجهين . ثم من قال ان المحلّل النفسي صائب دائماً ، وأنا أعلم أن فنه لا يخلو من الكهانة والسحر ؟ فلأعد إلى ما أنا واثق من معرفته – بقدر ما يمكن للانسان أن يثق بأية معرفة .

الرسالة التي سأدرجها وثيقة نفسية كاشفة ، ولكنها من النوع الذي لا أحسب أحداً يكتب مثله إلا إذا تمرّس طويلاً بالكتابة الأدبية – أي بتلك الكتابة التي يتزلها صاحبها ستاراً بين دواخله وبين الناس ، رغم ما يدعي الأدباء بأن من شأنهم بما يكتبون أن يرفعوا الستار عن دواخلهم

للناس . ولكنه مع ذلك ستار شفاف ، ملون ، والأضواء من خلفه تجعل ما تراه العين شديد الايحاء ، بحيث يخيل الينا أننا نرى أكثر بكثير مما هو في الواقع أمامنا .

ولكن ثمة نقطة لا أظنني أفلحت في حسمها بوجه نهائي : إلى من بالضبط وجّه وليد رسالته هذه ؟ جنان بعد أن أنكرت أن الرسالة جاءتها منه هو ، أنكرت أيضاً أن الرسالة موجهة اليها ، ثم عادت وادعت انها « طبعاً » موجهة اليها ، وإلا فكيف تقع رسالة كهذه بين يديها ؟ ولكن لا بد من ذكر الحقائق التي أعرفها . أولاً ، غلاف الرسالة ضائع ، وإلا لعرفنا من العنوان اسم المرأة التي وجهت اليها . ثانياً ، لا تبدأ الرسالة على النحو المألوف ، أي بمخاطبة المرسل اليه بالاسم : مثلاً ، عزيزتي أو حبيبتي فلانة . انها تبدأ رأساً بالكلام دون ذكر أي اسم . ثالثاً ، هل كانت جنان عشيقة لوليد على النحو الذي تشير اليه الرسالة ؟ يبدو أن الرسالة أقدم عهداً من علاقتها بوليد ، وهي لا تحمل تاريخاً يسعفنا . الذي أرجحه هو أن جنان حصلت على الرسالة من الفتاة التي وجهت اليها بالأصل ، بطريقة ما . أي أنني أظن – ولو أنني لست جازماً – أن الفتاة المعنيّة ، بعد أن هجرها وليد ، وبعد أن عرفت بعلاقة جنان به ، أعطتها الرسالة ، لغرض ما . وبما أن الرسالة تشير إلى امرأة « أخرى » . تكون جنان ، في رأيي ، المرأة الثالثة ، على الأقل ، يقيم وليد معها علاقة – أي بعد المرأتين المذكورتين في الرسالة . (حتى هذا التسلسل لست واثقاً منه !) ولكن لماذا تطلعني جنان على رسالة واحدة يتيمة ، وترفض أن تطلعني على غيرها ؟ ولماذا ادعت أن الرسالة موجهة اليها ، وهي حتماً ليست كذلك ؟ هل حرمها وليد متعة المراسلة ، فلم يترك لها اعترافاً خطياً بحبه ؟ هذه أسئلة عرضت لي فيما بعد – وفي الفترة الأخيرة ، حين أردت أن أستجلي غوامض النوازع والدوافع الجنسية التي كانت تفعل في نفس وليد . من المحتمل أن

استنتاجاتي ابتعدت بي عن الحقيقـــة بدلاً من الدنو منهـــا . فليكن ! ولأعرض الرسالة موضوع الادعاء :

« بلغتني رسالتك الآن ، وكادت تحرّك فيّ الدموع . لم أقرأ كلمات كهذه منذ زمن بعيد . انك جوهرة . لا أصدق ان امرأة مثلك توجد فعلاً بيننا . تحرك كلماتك عواطفي فتنتابني أحاسيس غريبة ، وأشعر ان كلماتي غدت أخيراً سخيفة وغبية . أعتقد انني أعلم كيف توصلت الى معرفة حالتي الذهنية ، وأدركت حقيقة ما أردت الإعتراف به وخشيت الافصاح عنه . هل استطعت فعلاً ان تدركي تعقيد ذلك كله من كلماتي الشتيتة ، كلماتي التي جاءت تعوزها البراعة التي تتميز بها كلماتك ؟ ما الذي فعل الحب بنا مما يستطيع أحد أن يفهمه ؟ أن احبك ، أن أستمر في حبك ، على هذا النحو المستحيل، المتناقض أصلاً ، وإذا فجأة حب آخر ، وهوس آخر — ولا أستطيع مهما حاولت ان أجعل الواحد يحل محل الآخر...لا تتهميني بالنفاق، يا حبيبتي ، أرجوك . ولا تتهميني بالكذب . فانت الوحيدة ، الوحيدة قطعاً ، التي بوسعها أن تفهم هذا كله فيّ . اني أعانق خيالك . اضاجع صورتك . أفكارك تثيرني ، وتستحثني ، تجعلني أغبطك على ذكائك . انني دائماً أتخيل صوتك ، وقفتك ، حتى ثيابك وعريك . انك حقيقية جداً ، والحب في مثل هذه الحالة أمر منطقي لكلينا معاً . وإذا من خلال ذلك كله تنفذ صورة اخرى — غير انها صورة مرئية ، ملموسة ، ولا تناقض بين الصورتين — وهذا ما يقلقني . أي الصورتين أقرب الى الـ « هنا والآن » ، لست أدري . قلت لك مرة ان الخيال والواقع ، بالنسبة إليّ ، متبادلان في أكثر الأحيان . ثم انك ما عدت شيئاً خلقه وهم فنتزي مني (كما حسبت ذات مرة) : انك حقيقية كالخبز الذي آكل كل يوم . لقد أحسستك من الداخل . واحتويتني في كيانك (أتملّق نفسي بهذا القول) . واحتويتك في كياني . والآن يحدث هذا الشيء الجديد — هذا الشيء الرائع ، المحيّر ، الملحّ . نعم ، كما قلت أنت، علينا أنا وانت يوماً أن نكتب معاً كتاباً

عن الحب ، كيف أننا عن طريق الفرح نبحث عن العذاب ، وكيف أننا عن طريق العذاب نهلّل صاخبين لرب السماء والأرض . إذا لم تفهمي أنت هذا ، فليس هناك من يفهمه . ولكنك تفهمينه . أمر عسير ، معقد . نعم وجحيم . مستحيل ، مذهل ، جنوني ، وأحياناً لا يملؤه إلا الألم . وها أنا أبدأ بالكتابة من جديد ، مع أنني أعلم أن الكتابة بفعل مؤثر مباشر كهذا لن تنتهي بالضرورة إلى أفضل ما يمكن المرء أن يكتب . (آه ، ولكن فكري بالقصائد التي يمكن أن يسيل بها القلم الآن لو كنت أكتب شعراً !) إن لم أكن قد ضعت كل الضياع ، فانني أوشك أن أضيع . أشعر أنني أحيا على مستويات عديدة في آن واحد ، وقد تتداعى كلها وتتهاوى في أية لحظة . أرجوك ، أجيبي على هذه الرسالة . أتمتع بكل كلمة تقولينها . أتمتع بطرائق حبك الرهيفة . تقولين أنك لم تغضبي كثيراً للفراق لأنه أضفى على الحب بعداً جديداً له سحر جديد . أما أنا فغاضب جداً . ولكن ما الفائدة ؟ أكتبي ، انصحي ، اعتبي ، وبخي . قولي إنك غضبى ، إنك تكرهينني ، انك تحبينني ، انك سئمتني . ولتكن السنة القادمة (الامطار التي أراها من نافذتي لم تنقطع طوال هذه الرسالة) أملاً حبّاً ، ودهشة ، وصراعاً عاطفياً ، وتهاليل لرب السماء ، من أجل عينيك ، شفتيك ، ذراعيك . من أجل صوتك ، يديك . طرائق حبنا المتضادة ، المتقاطعة ، من سيفهمها ؟ وكيف أبرر اليوم أيتها الحبيبة حبي الآخر ، لتغفري لي ؟

وليد

لست أدري هل ثمة امرأة تستطيع مقاومة هذا الأسلوب الخطر ، هذا الأسلوب الأشبه بخطة عسكرية تلجأ الى الحيلة والاستنزاف المعنوي أولاً ، ثم الالتفاف والضربة القاصمة .

تظاهرت بأنني أصدّق ادعاء جنان بأن الرسالة موجهة اليها ، فسألتها:

— « وهل غفرت له ؟ »

قالت :

– « لم أجب على رسالته . »

– « وكانت تلك النهاية ؟ »

– « تقريباً . »

– « ماذا تقصدين ، « تقريباً » ؟ »

– « رأيته مرتين او ثلاثاً بعد ذلك . »

– « وعرفت من هي الأخرى ؟ »

– « تخميناً . »

– « من ؟ »

– « لن أقول . »

– « اين كنت عندما كتب هو اليك هذه الرسالة ؟ »

– « في لندن ، حيث ذهبت لأرافق أمي اثناء علاجها ، وبقيت هناك أشهراً عديدة . »

– « وعندما عدت ؟ »

– « لم يبق شيء . »

– « هل تألمت ؟ »

– « ماذا تتصور ؟ »

غير ان الامر لم يكن بهذه البساطة ، مهما ادعت جنان ، لأني اعلم ان وليد سافر الى لندن ، حيث كان على موعد معها ، وحيث عاشا معاً لفترة قصيرة في بيت ريفي خارج لندن ، في « سَري » وأمها طريحة الفراش في احد مستشفيات لندن . لا أظن ان وليد كتب لها اية رسائل تذكر ، لانهما كانا معاً طيلة الوقت ، سواء عند بدء علاقتهما في بغداد ، او عند ذهابهما الى لندن . ولا اظن ان وليد احبهـا بذلك العنف الذي يروق لجنان ان توهمنا به .

اما الذي اعتقد انه واقع الامر ، فهو أن مستلمة الرسالة الحقيقية هي احدى صديقات جنان الحميمات ، مريم علي الصفار . وهي اكبر منها ببضع سنوات. امرأة ممشوقة الساقين ، تلفت النظر ببياض لونها ، وشفافية بشرتها ، بعينيها الخضراوين وشعرها الطويل – وصوتها الغريب . عندها نزعة ادبية ينم عنها حديثها وان لم تنشر اي كتاب حتى الآن ، فيما اعلم . ويبدو ان وليد كان معجباً باسلوب رسائلها . كانت مطلّقة ، او بالاحرى على وشك الطلاق ، وكان اهتمام وليد مسعود بها امراً ظاهراً كلما التقينا في منزل الاصدقاء . ولا ادري ان كان لوليد علاقة بطلاقها اصلاً . وانا اعلم انها التحقت بجامعة ساسيكس بانكلترا للدراسة للماجستير بعد طلاقها .

كان ذلك كله في أواسط الستينات . وقد سجلت تاريخ زيارتها لعيادتي أول مرة في بطاقات المرضى التي أحتفظ بها . وعدت الى بطاقتها قبل مدة ، لأنعش ذاكرتي ببعض التفاصيل . كانت في الثانية والثلاثين من العمر يومئذ ، وتشكو من أرق دائم ، وصداع كثيراً ما ينتهي بها الى نوع من الغثيان . لم يكن من الصعب أن أرى أن علاقتها البائسة بزوجها هي السبب ، مضافاً اليه « انجذابها » الى وليد ، كما قالت . إلا انني بعد الزيارات التي توالت بعد طلاقها بمدة أحسست بأنها لم تكن مجرد « منجذبة » لرجل تعجب به ، أو تحبه ، بل انها مهووسة به ، وعلى الأخص بطاقته الهائلة على الحب – على الجنس . لست أعلم إن كان وليد يدري انها كانت على علاقة بأكثر من رجل ، الى ان التقت به ، وأخذت تحاول امتلاكه لنفسها بشراسة لا تكل ، وفي حوزتها كل ما تتمناه المرأة من أسلحة : جمال الوجه والجسد ، طلاقة اللسان ، ذكاء الجوار ، وذلك الشبق الذي يود كل رجل أن يتصوره في معشوقته ، الى ان يدرك انه لا قِبَل له بكل هذا التهالك الجنسي الذي يتجدد عنيفاً كل يوم .. غير ان وليد ، إذا صح ما قيل عن مواليد برج الجدي ، كان ولا شك كفوءاً لها . ولو انه لم يستطع أن يضع حداً لأرقها ، وصداعها .

يخيل إليّ أنني أظلم مريم بهذا الكلام . أعدت قراءة ما كتبت عنها هنا ، وإذا هي غير السيدة البارعة ، الناعمة التي أعرف : امرأة لا تأبه لأناقتها كثيراً ، ومع ذلك تبدو جميلة وأنيقة . إذا جلست ، بانت كأنها لا تريد منك الانتباه إلى جسدها ، بل إلى صوتها وكلماتها . ولم يكن كثيراً عليها أن ترفض زوجها (الذي رافقها في أولى زياراتها إلي ، قبل الطلاق) ، حتى بعد أن تم تعيينه رئيساً لاحدى المؤسسات التي جرى تأميمها أيامئذ ، لأنه كان رجلاً صنعته الوظيفة : شديد الانضباط ، شديد الأصول ، شديد التفاهة . لا أحسبه كان يجد هدفاً في حياته أعظم وأبهى من الكرسي الجلدي الأسود وراء منضدة خشبية ، تحمل تلفوناً أبيض وآخر أسود وتنساب عليها الأوراق دخولاً وخروجاً، بلغتها الوظيفية الميتة ، وهوامشها الوظيفية الأشد موتاً . ومريم كقطعة من جمر ، تتأجج في البيت عاطفة ، وخيالاً ، وتحرقاً للحياة ، يقابلها رجل لا يتمتع إلا بتهرؤ مؤخرته على مقعد سلطة موهومة ، ازاء كتبة وملاحظين ومدراء ينافقونه لوجهه ، ويحفرون له وراء ظهره . وحالما يخرج الزوج – نسيت اسمه : هشام ؟ هاشم ؟ – تلجأ مريم إلى التلفون . لا لتتصل بصويحباتها فقط ، بل بعشاقها . أو ، على الأقل لفترة مهمة ، بوليد مسعود . احدى ساعات الصباح – التاسعة ، أو العاشرة – كانت ساعة الغزل التلفوني كل يوم . أو الغزل الفعلي ، إذا استطاع وليد أن يترك عمله بحجة ما . يسرع إلى بيتها بسيارة أجرة ، وتتلقاه بحرارة الجائع المتلهف في غلالة النوم . وإذا ما تركها منهكة بلذاذة الجنس ، وعاد إلى عمله ، خابرته أو خابرها ، للتأكيد من جديد على تشبثها بتلك اللذة ... كيف يكون العشق إلا هكذا ؟ محموماً ، مجازفاً ، ضارباً بكل التقاليد عرض الحائط ؟ لماذا يسخط المجتمع على فكرة الحب ؟ لأن الحب يحفز في المحبين كل الدوافع التي يخشاها المجتمع ، ولا يبقى لرادع قيمة . الروادع ، بالمنسبة إلى المجتمع ، مهمة

للحفاظ على هيكل العلاقات السليمة بين الناس . ولكن الحب يتجاهلها كلها - وكأن المحبين في مجابهة مستمرة لامكانية القتل أو الموت ، وهذه المجابهة بالطبع تزيد من اللوعة والمتعة ، فيزيد التصميم عليها ، وهكذا يدور المحبون في حلقة مفرغة لا تنتهي .

اني أبدو في ما أقوله هنا وكأنني أدعي العلم بخفايا حياة الآخرين . ولكن ، بعد السنوات الطوال من الملاحظة ، وسماع اعترافات المرضى ، ولجوء الناس إليّ للمساعدة أو العلاج ، اكتشفت وعلمت الكثير ، واطلعت على نواح من حياة الآخرين كنت قد حدست بها أو استنتجتها من قبل . كان لمريم مكانة خاصة من نفسي ، لأنني وجدتني أتورط شيئاً فشيئاً في تلافيف علاقات لم أحسب أول الأمر أنني مهيأ لها . لم أكن أتوقع قط وأنا احاول أن اساعد مريم في مرضها - نوع من الهستيريا ، مما من شك - أنني سأجد نفسي أشد إلى شفتيها ، إلى صوتها ، إلى رعبها ، أنا أيضاً . لست أدري ، بعد ان تم طلاقها ، وسافرت إلى الخارج . ثم عادت لتعمل في الجامعة ، لماذا كشفت لي عن علاقتها بوليد . بل انها ذات يوم أتت إلى عيادتي وأخرجت من حقيبتها دفتراً مدرسياً ، ولوّحت به أمام عينيّ : مذكراتها ، يومياتها ، بؤسها ، عذابها - هكذا قالت ، والعطر يفوح من شفتيها . كانت الأمسية حارة ، رغم مكيّفة الهواء الهادرة بهوائها البارد . أخذتها إلى غرفة الفحص الداخلية ، وأقفلت الباب بتأكيد ظاهر ، وقبلتها وشعرها الطويل في زوبعة حول وجهها ووجهي . لم تقاوم . أخرجت نهديها من البلوز وقبّلت الحلمتين واحدة واحدة . وانبطحت على سرير الفحص ، وإذا هي نار شهية يطيب الاحتراق بها . وهي تقول ، لا ، نعم ، نعم ، لا - وتكاد تغيب عن الوجود بين ذراعي . وقبل أن تخرج ، تركت الدفتر على منضدتي .

بقي الدفتر في مكانه يتحداني ، ومرت ساعتان أو أكثر قبل أن أجرؤ على لمسه . رأيت مرضى عديدين ذلك المساء ، ولم أكن استعجلهم ،

لأنني قلت إنني حالما أفرغ من فحصهم ، سأبقى وحدي مع الدفتر، ولن أستطيع مقاومة قراءته ، فلأماطل . بعد أن ذقت حلاوة جسد صاحبته ، خشيت أن تفارقني الحلاوة بما قد أجد في كلماتها . ولكنني أخيراً أخذته بين يدي بجرأة اليائس ، وقلّبت أوراقه . لماذا سلّمتني اعترافاتها هذه ؟ ماذا يهمني من تحب ، ومن يحبها ، وأي الليالي قضتها مؤرّقة ؟ هل هجرها وليد ، بعد أن تركها زوجها ، فلجأت إلي ، طبيباً لمرضها ، وعشيقاً لجسدها ، وكاهناً لمراسيم كوابيسها اليومية ؟

•

ولكن من يعيش بين المرضى ثماني أو عشر ساعات كل يوم، مصغياً إلى أقاصيص الألم والبؤس والخيبة كل ساعة من ساعات عمله ، تتصلب دواخله وتتخدر أحاسيسه . من الصعب أن يدهشني أو يثيرني أو يهزني شيء من ذلك بعد عشرين سنة من الممارسة . ومع ذلك ، ففي تلك الأمسية ، وجسدي ما زال حاراً بما امتلكت من جسد مريم ، وجدت أن مشاعري لم تكن مصابة بشلل كلي ، كما كنت جعلت أخشى ، واذ ما يتكشف لي من خفايا هذه الشقيّة الرائعة سيقلقني حقاً — ولو دون مبرر . هل سلّمت نفسها إلي عن قصد ذلك المساء ؟ أتراها تستدرجني إلى اقتحام بؤسها ؟ نساء كمريم ، حين يغامرن بالجسد ، لا يتكلّمن كثيراً عن الحب . ثمة فيهن حاجة رهيبة لا يفي بها الحب — هوّة فاغرة لا يملأها حتى الطوفان .

« قرأت كتاباً لميكيل اونامونو ، » كتبت في احدى الصفحات . « أنا معه في كل كلمة يقولها . » عليّ أن أعترف أنني لم أكن سمعت بهذا الكاتب الاسباني ، وبحثت عنه فيما بعد ، لعلني أعرف ما الذي اتفقت مريم عليه معه . وعليّ أن أعترف أيضاً أنني ، دون علم منها ، أعطيت الدفتر في الصباح التالي ، إلى كاتب طابعة وطلبت اليه أن ينسخه كله في نسختين — « كوثيقة طبية ، » عللت ذلك لنفسي : « سأكتب

يوماً بحثاً لمجلة الجمعية السيكولوجية البريطانية ، اعتمد فيه على معالجتي لمريم . » واعترف أيضاً أنني عندما أعدت الدفتر إلى صاحبته ، لم أخبرها بأنني نسخته بالآلة الكاتبة .

كانت الصفحات مزيجاً مضطرباً من الأسطر المتقطّعة ، والرموز ، والفقرات الطويلة أحياناً دون أن تنتهي إلى نتيجة معيّنة . الحروف ترمز في الأغلب إلى أسماء رجال ، ولو أن بعضها يرمز إلى أسماء نساء أيضاً . ولم يكن عسيراً عليّ أن استنتج أن « م » تشير إلى مسعود — وليد مسعود :

« ٩ صباحاً . تلفون م . الذات للذات . . »

« م المحنة الرائعة القاتلة . ٣ ساعات . لا خلاص . . »

« كل يوم . صباحاً ، وبعد الظهر . وحتى في الليل ، لو كان الليل مؤاتياً . . »

« لم يبق لشيء قيمة . لشخص قيمة . لا شيء . لا شيء ولكن م ؟ »

« الرعب الأكبر هو الوحشة ، كما لأونامونو ، حين أفقد الصلة مع الأنت ، كما للإنسان البدائي ، الذي يجب أن يخاطب الأنت . الحوار مع الله ، مع الحبيب ، مع الوهم — هو الهواء والماء . ماذا أنا ؟ مبتورة ، ناقصة ، أبحث عن مكمّلي في الأنت . لا أنسى صداعي إلا على صوتك . كيف يكون الصوت موسيقى ورعداً وريحاً وفحيحاً وجنة وغابات وأدغالاً ، أرى بأذني وشفتي وأحشائي وأطفو على بحار عميقة ساكنة فسيحة وتطلع الشمس حمراء وصفراء وينزف دماً على التلال وذهباً على الأنهار وجسدي ماء ولهيب بصوتك ولذتك وشهوتك . ما أرعب الوحشة إذا انقطع الحوار — معك ، مع الله ، مع الوهم . لا أريد ذلك . ولكن لا أستطيع التنفس بدونه . قفص ، زنزانة ، وعصفورة لا تغني إلا إذا أحاطت بها جدرانك العالية الصماء ، وجسدي صراخ

كالغناء ، كالموت كالرعب كالتيارات الجارفة . أسمع ضحكاً في داخلي ولا أستطيع أن أضحك . سأفتح النافذة وأصبح للغيوم الراكضة . »

« كنا نائمين على الأرض في مكتبك : وكانت هناك أيضاً ج و س وامرأة ثالثة لا أعرفها . كلّنا تحت البطانيات . أنقلب عليك ، فتستيقظ ج فتأخذها بين ذراعيك وأسقط على الطرف الآخر . ماء ، كأنني سقطت من قارب . وأجرّك من يدك ، فتقع معي في المـاء . وتغازلني والماء يغمرنـا ونبتعد و ج و س والمرأة الأخرى يراقبننا ويضحكن . وأخرج من الغرفة وتركض ورائي وأنا عارية وأنت في بدلة فاخرة . ننزل الدرج . ننزل ولا ينتهي الدرج ، ويقابلنـا ع ويعبث بشعري وأقول أنت أفعى ونجلس على الأرض و ـ نسيت ، نسيت البقية . أناس كثيرون حولنا، ويدك تعصرني ... »

« ٩ صباحـاً . حوار حتى العاشرة . ارتميت على وجهي وبكيت . الملح والمرارة ما زالا في عيني . »

« نهار ماطر . خرجت ومشيت في المطر الدافق . لم أستطع أن أبتعد كثيراً عن الـدار . عدت وتلفنت . لا جواب . استحممت . نمت على القنفة وحلمت بـ هـ . لا أذكر إلا المطر وهو يحاول أن يخرق جسدي . سرّحت شعري مـن جديد . لنقرأ الجرائد ـ أخبـار البؤس والكراهية فيما عدا قصيدة صغيرة (كيف تسرّبت إلى الجريدة ؟) . سأخسر كل شيء ولن يبقى لي الا ـ لا لن يبقى لي شيء . غداً سأمشي في المطر ـ اذا أمطرت . »

« أمس بعد الظهر نمت فحلمت . وفي الليل حلمت نفس الحـلم . واليوم بعد الغداء غفوت فجاءني الحلم نفسه . في كـل مرة عراك ثم مضاجعة . اخجل من التفاصيل . لا أجرؤ ان اكتبها . لا أريد أن أرى هذا الحلم هذه الليلة مرة اخرى ، ربـي ارجوك . جسدي مجرّح، مجرّح. »

ما هذه الا فقرات متباعدة، ولا تبين على حقيقة اضطرابها وزعزعتها الا حين يقرأ المرء صفحة تلو صفحة من هـذا الكلام المتوتر المتراكم لسبعين أو ثمانين صفحة. لم أكن واثقاً كلياً ان الرجل المقصود هو دائماً نفسه ، وليد مسعود ، بل لم استبعد ان مريم كانت في كتابتها تمازج بين رجلين او ثلاثة يمثلهـم دائماً وليد . غير ان الجو كان واحداً ، والدوامة هي ابداً ذاتها : شهوة محتدمة لا تنطفىء ، لم أعرف كيف استطاعت مريم ، أو جرؤت ، ان تصفها بهذه الأمانة العجيبة . طبعاً، من الجائز أن بعضها موهوم ، ومبالغ فيه . أحلام اليقظة عنـد البعض أعنف من أحلام النوم بكثرة . والنزعة المرضية يصعب تحديد اتجاهها أو فرز الحقيقي فيها من الخيالي .

كانت قد مرت مدة طويلة على مراجعة مريم لي لأول مرة ، ولكنني في ذلك المساء أحسست بأنني رأيتها على حقيقتها — أو على الأقل ، على جزء كبير من حقيقتها . ولم يكن وضع جسدهـا بين يدي الا فقرة اخرى من فقرات دفترها السري .

في المساء التـالي ، تلفنت الي ، وجاءت الى العيادة في الموعد المضروب .

كانت جميلة ، مثيرة ، بقميص نيلي ، وتنورة نيلية قصيرة تكشف عن نصف فخذيها ، وجوارب نيلية ، تؤكد كلها على نضارة بشرتهـا وطول ساقيها . وما كادت تجلس أمامي حتى وجدتني عاجزاً عن البقاء جالساً الى منضدتي ، فذهبت اليها وانهضتها واحتويتهـا بين ذراعي ، وقبلتها . ولكن عندما هممت باقتيادها الى غرفة الفحص الداخلية، تمنعت: « لا ، أرجوك ، دكتور طارق . عندي صداع . » قبلتها ثانية قبلـة طويلة ، وقد استيقظت بي رغبة عنيفة ، غير انني لم احـاول التغلب على مقاومتها . هبطت في كرسيها ، وأخرجت من حقيبة يدها سيكارة،

فأشعلتها لها ، وعدت الى منضدتي .

قلت بلهجة الطبيب : « قرأت الدفتر . »

فأدهشتني إذ أجابت : « هل تريد البقية ؟ »

— « هل من بقية ؟ »

— « ثلاثة دفاتر أخرى . »

— « من نفس النوع ؟ »

— « ربما أفظع . »

— « لماذا تكتبين أموراً كهذه ؟ ألا تخشين انها قد تسيء اليك ؟ »

— « لم يكن لي مناص من الكتابة . انها تعينني على التحمل . »

— « هل وقعت هذه الدفاتر يوماً في يد زوجك ؟ »

— « لا أظن . كنت أخفيها بحذر شديد . »

— « ولو رآها ؟ »

— « لو رآها ؟ لقتلني . كان شديد الغيرة . بشكل جنوني . ما ذهبنا الى سهرة ، إلا وعدنا وهو يحاسبني في السيارة على ما قلت لهذا ، وما فعلت لذاك . »

— « هل ضربك يوماً ؟ »

— « عدة مرات . إذا ثارت به الغيرة كان يبحث في كل زاوية في البيت ، لعله يجد رسالة أو ورقه تثبت له انه على حق ، ويضربني . »

— « لا شك انك كنت تتقصدين اثارة غيرته ؟ »

فضحكت ، وهي تطفيء سيكارتها في المنفضة ، وقالت :

— « أنت المحلل النفسي . لك أن تقول ذلك . »

— « بل كنت تتمتعين بذلك . »

— « وفي الصباح التالي أخونه ، لأؤكد لنفسي أنه لا يستطيع التحكّم بـي . »

– « مع وليد ؟ »

فهزت رأسها بشكل لم أدر أقصدت به الايجاب أم السلب ، فكررت السؤال :

– « مع وليد ؟ انه في مذكراتك واضح وضوح النهار . »

– « كنت أتمنى لو اطلعك على الدفاتر الأخرى . »

– « وغير وليد ؟ »

– « وليد كان كافياً . ورائعاً . كنت اتصور انني استطيع ان أقضي أيامي كلها ، بساعاتها ، بنهاراتها ولياليها ، على صدره ، ولا اكتفي . »

– « وهو ، ألا يكتفي ؟ »

– « أبداً . »

– « هل كان له علاقة بنساء اخريات في تلك الأيام ؟ »

– « غير مهم . أنا التي اعترف لك ، يا دكتور ، أنا المهمة في عملية التشخيص هنا . »

– « أرجوك أجيبي عن سؤالي : هل كانت له علاقة على الأقل بامرأة أخرى ، في الوقت نفسه ؟ »

– « لم يهمني ذلك . كان رائعاً ، لا يتعب . كنت أصرف عنه آلام الدنيا ولو لساعة . وكان هو لي كل شيء . »

– « والآخرون ؟ »

– « أحياناً فقط . »

– « لماذا لم تذكري لي هذه الأمور في زياراتك الأولى ؟ »

– « هل كان ذلك بمقدوري ؟ »

– « والآن ؟ »

– « انتهى كل شيء – أو تغير كل شيء . أنا الآن امرأة حرّة . »

– « وهو ؟ »

– « كنت أود لو أستطيع القول إنني أكرهه الآن . لكنه في عالم آخر . »

– « إذن ، تعب أخيراً ؟ »

– « لا . ولكن امرأة اخرى جاءت بيننا . »

– « متأكدة ؟ »

– « نعم . كتب إلي يخبرني بذلك . »

– « غريب ! أتعرفينها ؟ »

– « لست متأكدة . أظن أنني أعرفها . غير أن ذلك قد مضى . لأن أخرى وربما أخرى ثالثة قد لحقتها . »

– « ألست تبالغين ؟ »

– « أبداً . »

كانت في جلستها ، والساق على الساق ، شديدة الاغراء . كانت الجوارب الزرقاء الطويلة التي تشف عن فخذيها ، تجتذب عيني ، رغماً عني ، وتثير فيّ رغبة أكبحها ما استطعت ، لكي أتمكن من الاستمرار بالاستجواب . وفجأة سألتها :

– « هل أنتِ من مواليد برج الجدي ؟ »

– « برج الجدي ؟ ماذا تقصد ؟ »

فتناولت مجلة أسبوعية لبنانية كانت على منضدتي ، وبحثت في صفحاتها الأخيرة ، الى أن وقعت على صفحة « حظك هذا الأسبوع » ، وقدّمتها لها ، مشيراً الى صورة الجدي ، حيث كتب التاريخ : من ٢١ / ١٢ الى ١٩ / ١ » .

وقلت :

– « هل ولدت في هذه الفترة ؟ »

– « وماذا يعني ذلك ؟ افرض انني ولدت تحت برج الجدي ؟ »

– « ألم يخبرك وليد ؟ »

– « لا . على كل ، تاريخ ميلادي هو ٢٨ آب . أي برج ذلك؟ »

فراجعنا الصفحة معاً ، وإذا بذلك برج العــذراء . فضحكت مريم ساخرة وقالت :

– « أرأيت ؟ أنا من برج العذراء . لم أكن أدري . هل يعني ذلك شيئاً معيناً ؟ ماذا تقول المجلة هنا ؟ (وقرأت) « حاذري قبــل أن تندمي . أمامك فرصة جديدة . لا تتظاهري بالكبرياء . ستأتيك أخبار مفرحة ولكن يجب أن – « كلام سخيف . »

وأعادت المجلة اليّ .

غير انني قلت : « الجدي والعذراء ! »

– « اسطورة اغريقية ؟ »

– « ربما ... غير مهم . »

سمعت جلبة في غرفة الانتظار ، ثم قرع الباب ودخل عليّ الفرّاش ليهمس في اذني ان هناك رجلاً يصرّ على الدخول لأنه يقول انه انتظر مدة طويلة .

فأطفأت مريم سيكارتها في الحال ، وقالت :

– « كالعادة ، أخذت من وقتك أكثر من حصتي . وغرفة انتظارك مليئة بالمرضى »

ثم انتصبت واقفة وقالت : « غريب ، دكتور طارق . أشعر الآن انني أحسن بكثير . »

– « راح الصداع ؟ »

– « كلياً ! »

وعندما مدت يدها لتصافحني مودعــة ، لم أعرف كيف أنظر اليها بالضبط . غير اني قلت ، رغماً عني :

– « متى ستأتين ثانية ؟ »

– « سأتلفن » ، قالت ، وخرجت .

بعد ساعتين أو ثلاث ، إذ كنت عائداً في سيارتي إلى البيت ، خطر لي أن أحيد عن طريقي قليلاً لأمرّ ببيت وليد . ولما رأيت البيت مضاء، والسيارة في الكراج ، توقفت عند البوابة ، وضغطت الجرس .

فتح الباب وليد نفسه ، ولما تبين من الواقف في ضوء المصباح الخارجي ، جاءني مسرعاً ، مرحباً . ودخلنا معاً صالونه الجميل القليل الأثاث ، وهو يقول : « عاش من شافك » وأنا أعتذر عن مجيئي دون سابق انذار . واقترح هو أن نتعشى معاً ، إذ كان خادمه فرات في تلك اللحظة يهيء له طعام العشاء .

وبعد لحظات جاءت زجاجة البيرة ، وملأ لي كأساً كبيرة ، دون أن يشرب هو ، لأنه كان قليل الشرب .

لم ألمّح إلى الموضوع الذي جئت من أجله ، مترقباً فرصة سانحة ، وتناولنا العشاء معاً ، ثم عدنا إلى الصالون ، وجاء خادمه بالقهوة .

وقلت ، متظاهراً بأنني لا أعير الموضوع أهمية خاصة :

– « أتدري ، مريم ما زالت تراجعني . »

فلم تبد عليه أية دهشة .

– « مريم ؟ أظن أنك تعالجها منذ زمن طويل . »

– « طلاقها لم يخفف عنها كثيراً . ولا دراستها في الخارج . »

– « هناك دائماً امكانية النكسة عند كل مريض . »

– « ولكن يظهر أن مريم لم تشف أصلاً لكي تنتكس . »

– « سيدة فاخرة . ولكنها غير محظوظة . »

وهنا عزمت على المجاهرة ولو بطرف من الموضوع ، فقلت ، مشعلاً سيكارة :

— « وليد ، أنت صديق قديم لها . »

— « نعم . »

— « وبأمكانك أن تساعدها . »

— « أساعدها ؟ »

— « أو بالأحرى ، أن تساعدني أنا ، في علاجها . »

فضحك ، مستبعداً الفكرة بدبلوماسية :

— « اتريدني ان اتدخل في امور طبية لا أفهم منها شيئاً ؟ »

— « هل كنت تحبها ؟ »

لم يفاجأ بسؤالي ، بل نظر الي ، والضحكة ما زالت عالقة بشفتيه ، ولم يجب . غير انني بقيت صامتاً بانتظار ما يقول .

— « هل قالت هي ذلك ؟ »

— « الواقع انها قالت انها كانت تحبك . تحبك جداً . وبشكل غير معقول . »

— « لست ادري ماذا أقول . ان كانت هي تقول ذلك ، وانت تعالجها ، فلك ان تصدقها ، او لا تصدقها ، وفق ما يتكشف لك من كلامها . »

— « انا اعلم ان مدة طويلة قد انقضت على نهاية العلاقة بينكما . ولكن يخيّل اليّ ان أثرها ما زال باقياً في نفسها . »

لم يقل شيئاً اول الامر ، بل ذهب الى البوفيه ، واخرج زجاجة براندي ، وكأسين ، وصب البراندي ، وقدّم لي كأساً ، وقال وهو يدير الكأس التي بيده ويتنشّق عبيرها : « رائحة البراندي الجيد تكفي لأن تسكرك احياناً . »

ثم أخذ رشفة واستطرد : « أصعب ما في الحياة هو ان تحدد علاقتك مع اية امرأة ، بينك وبينها ، او بينك وبين نفسك . وأصعب من ذلك ،

ـ نتحدث عنها للآخرين . »

ـ « آسف ان كنت اوحيت لك بأنني اتدخل بشؤونك الخاصة . »

ـ « أبداً ، أبداً ، طارق . انا أعرف اهتمامك بمريم ـ اهتمامك باستعادة صحتها . انها سيدة رائعة ، ويجب ان تنقذ من آلامها . ليتني كنت استطيع ان افعل ذلك . ما الذي اعترفت لك به ؟ ولكن ، المعذرة ، الطبيب كالكاهن ، ولا يحق لنا ان نسأله عن اسرار الآخرين . »

ـ « دعني أصارحك . بخصوص مريم ، لا أشعر انني افضح سراً بالحديث معك عنها . بالعكس . انني اريد ان اعرف سرها منك انت ، لعلني استطيع مساعدتها . الا ترى ؟ »

ـ « افرض انني اعرف عنها ما لا تعرفه انت ، او ما ترفض هي الاعتراف به ، كيف يفيدك لو عرفته أنت ؟ »

ـ « شيء واحد يهمني ، وهو ان اعرف الحقيقة . هل هي فعلاً كما تدعي ؟ ام انها مجرد غريقة في اوهامها ؟ »

ـ « من منا ليس غريقنا في اوهامه ؟ »

وجرع ما في كأسه ، ثم ازجى اليّ نظرة شعرت انهـــا مزيج من سخرية وحزن . ولكنها لم تطل . اذ نهض فجأة وقال : « أتودّ سماع آخر اسطوانة اشتريتها ؟ » واتجه نحو كومة من الاسطوانات . « متواليات الهاريسيكورد لبورسيل . »

فضحكت معتذراً بانني تأخرت ، وان سماع الموسيقى يحتاج الى خلوّ البال . وقمت ، وهو يقول :

ـ « خلوّ البال ؟ انت لا تحتاج الى الموسيقى عندما تكون خالي البال . ولكن ـ ويل للنجيّ من الخليّ . »

قلت : « تقصد : ويل للشجيّ ... »

ورفع غلافاً مـن الكومة الكثيرة الالوان ، واخرج منه اسطوانة . فقلت :

– « طيب ، طيب ، وليد . انت لا تريد الحديث عن مريم . ربما في مناسبة أخرى ! »

لم يجب على سؤالي ، كأنه لم يسمعه ، ووضع الاسطوانة على الغرامفون ، ثم انزل الابرة . وانطلقت الموسيقى ، غير انني لم اتريث . خرجت ، وكأن الموسيقى تودعني . ولم اعرف جديداً منه ذلك المساء . او انني لم اعرف جديداً عن مريم . اما عن وليد ، فانني احسست بأنه دون قصد منه كشف عن ناحية من نفسه لم اكن قد انتبهت لها . لم تكن مراوغته جديدة علي . ومن حقه ان يرفض الخوض في الكلام عن امرأة أحبها واحبته ، مع اي رجل ، وان يكن صديقاً له . وكلّنـــا غارقون في اوهامنا : هذا ايضاً ليس بالجديد . ولكن ان يكون وليد غارقاً في وهم له ، ويرفع هذا الوهم جداراً بينه وبين الآخرين – هذا ما بدأت أراه فيه . اي وهم بالضبط ؟ لست ادري . كما أنني لست ادري بالضبط ما الذي جعلني اشتبه في ان علاقة له بأمرأة جديدة تشغله ، او تقلقه ، ربما رغماً عن ارادته . وكان ذلك قبل مقتل ابنه مروان بسنة او حوالي السنة .

ركبت سيارتي ، وشيء أشبه بالغضب يتصاعد في نفسي . ما الذي يهمني من اوهامه ، او شواغله ، او أسباب قلقه ؟ كان بوسعه عـلى الاقل ان يدفعني ولو خطوة واحدة الى الامام في بحثي . لا ، وليد اليوم غير وليد الامس . وتمنيت لو ان بي الجرأة ، حين اذهب الى البيت ، أن اغافل سميرة ، وأخابر مريم تلفونياً ، لاعلمها بما حدث .

« تبدو مضطرباً ، » قالت سميرة حال وصولي . قلت : « تقصدين ، متعباً . »

– « اين كنت ؟ تأخرت كثيراً ، ولم تتصل بـي . »

– « مررت على وليد مسعود ، وتعشيت معه . »

– « لماذا لم تخبرني بالتلفون ؟ وانا ما زلت بلا عشاء في انتظارك ؟ »

– « آسف ، حبيبتي . والاولاد ؟ »

– « تعشوا وناموا . »

– « حسناً . »

– « طـارق ، أرجوك ان تخابرني كلما اردت ان تتـأخر . متى ستتعلم ذلك ؟ »

– « لن أتعلّم . ربما بعد عشر سنوات اخرى ... »

في الفراش لم استطع النوم . بقي وليد عبئاً يرهقني . وأمست مريم عبئاً آخر يرهقني ، وانا أتقلب بين صخرتين . في حوالي الثانية ، نهضت من فراشي ، فأحست سميرة بذلك ، وقالت وهي نصف نائمة : « ما بك ؟ أمتوعّك ؟ »

قلت : « لا ، لا . اريد ان اشرب كأساً من الماء » وذهبت فعلاً الى المطبخ وخطر لي ان اتسلل الى المكتبة لأتلفن لمريم . أف ! ما الذي جرى لي ! وعدت الى فراشي ، ووجدت سميرة نائمة .

في الثالثة – في الثالثة بالضبط – ذهبت الى المكتبة حافي القدمين ، دون ان اشعل ضوءاً . كان ضوء الرواق الذي نتركه عادة مشعلاً طيلة الليل كافياً لغرضي . غير انني ، للمزيد من الحيطة اغلقت باب المكتبة ، وأزحت الستارة عن النافذة لأرى ، في ما يتسرب مـن ضياء الشارع الخافت ، ارقام التلفون . وأدرت الرقم . ادهشني أنني ذكرته بوضوح وسهولة .

سمعت غرغرة التلفون الثنائية وكأنها رعد يهز دماغي . مرتين ، ثلاثاً ، اربعاً . واذ صوت مريم يجيب بحذر : « هلو ؟ »

— « مريم ؟ »

— « من يتكلم ؟ »

— « يظهر انك مستيقظة . لم اتوقع ان ترفعي السماعة بهذه السرعة! »

— « من ؟ دكتور طارق ؟ »

— « نعم ! »

— « أتدري كم الساعة ؟ »

— « نعم . لا يخابر في مثل هذه الساعة إلا معتوه مثلي . »

لم تجب لثانيتين . فقلت : « زعلت ؟ »

فقالت بصوت صاف ، يكاد يضحك : « لا . ولكنني مندهشة . لماذا تتكلم همساً ؟ هل زوجتك نائمة بقربك ؟ »

— « لا . ولكن صوتي مختنق . وأنا مختنق . ذهبت إلى وليد بعد زيارتك لي ، ولكنه رفض أن يحدثني عنك . »

فشعرت بنبرة من الغضب تخالط صفاء صوتها : « ولماذا تحدثه أنت عني . »

— « لأني معتوه . »

— « إسمع . »

— « نعم . »

— « لا تحدثه عني أبداً . ولا تسأله عني أبداً . »

— « طيب . »

— « ثم ... لماذا لا تذهب إلى فراشك وتنام ؟ »

— « لأنك منعتني عن اغماض عيني . »

— « خذ حبّة فاليوم . »

— « أخذت . »

— « خذ حبّة أخرى . »

— « أخذت . »

فتأففت ، ولكن بحلاوة مغرية : « اذن تعال إلي . »

فانتفضت : « الآن ؟ في الثالثة والربع ! »

— « نعم . »

— « أتقبلين ؟ »

— « إن كانت لديك الشجاعة . »

— « أتعلمين ؟ »

— « ماذا ؟ »

— « أحبك . »

— « قل لي : هل أنت أيضاً من مواليد برج الجدي ؟ »

وجاءتني ضحكتها عبر أسلاك التلفون صافية ، رنانة . فقلت : « أنا من مواليد برج النحس . زحل ، عطارد . »

— « دكتور ، جعلت تخربط . الأبراج معروفة ، وليس بينها زحل أو عطارد . »

— « هل آتي اليك ؟ »

— « نعم ، وبسرعة . هل تعلم أين بيتي ؟ »

— « في المنصور . ولكن أين بالضبط ؟ »

— « بعد ساعة أو ساعتين ، يطلع الفجر ... اسمع . سأنتظرك في سيارتي على رأس الشارع ، عند مدرسة الشموع . أتعرفها ؟ »

— « اعتقد .. نعم . »

— « لا تتأخر ! »

وسدّت التلفون .

هل كانت جادة ؟ هل أرادت أن تعبث بي ؟ هل أرادتني أن أتصرف كالأبله المأفون ، فأخرج اليها ، مخادعاً زوجتي ، في عز الليل ، ثم لا القى أحداً في انتظاري ؟

هب انها ستنتظرني . هل تقيم وحدها في المنزل ؟ لم أكن أعلم ان كان لها أطفال ، أو خدم يقيمون معها . هل هي على هذه الجرأة اللعينة من أجل تحقيق لذتها ؟ خواطر كتلك لم تمنعني عن ارتداء بنطلوني وحذائي بسرعة البرق ، والقمصلة التي وقعت يدي عليها في الظلام . وخرجت .

وفي أقل من عشر دقائق كنت عند باب مدرسة الشموع . لا سيارة . ولا انسان . شارع كثير الأشجار ، مهجور . حالما أوقفت السيارة ، سمعت صافرة أحد الحراس من بعيد . وأجابت عليها صافرة أخرى . فسقت الى نهاية الشارع ، وانعطفت الى شارع آخر ، ثم عدت الى المدرسة . وإذا بسيارة مقبلة في اتجاهي . والتقت السيارتان ، ضوءاً لضوء . ثم استدارت السيارة الأخرى ، ولحقت بها .

بعد دقائق ، دخلت السيارة كراجاً ، فتبعتها بسيارتي . ونزلت مريم من سيارتها ، دون ان تقول شيئاً ، واتجهت نحو الباب ، وفتحته بمفتاحها . ودخلت ، ثم قالت : « تفضل ! » .

وما ان دخلت ، وقد تملكني شبق رهيب لهذه المخلوقة العجيبة ، حتى فاجأني خاطر افزعني . ماذا لو أن هناك رجلاً في البيت ؟ ماذا لو ان وليد نفسه ؟ — لا ، مستحيل .

مستحيل ؟

من أعماق احدى الغرف سمعت صوت رجل يصيح ، دونما دهشة ، دونما عاطفة : « هل جاء طارق ؟ » وكان ذلك صوت وليد . وليد نفسه ، ما من ريب .

وكمن ارتطَم بجدار في الظلام ، او ككرة تضرب حائطاً بعنف ، ارتددت الى الوراء ، وفتحت البـــاب وركضت الى سيارتي ، وأدرت المحرّك . لست أدري كيف استطعت ان أعود بالسيارة الى الوراء دون ان أضرب بوابة الكراج ، او الأشجار القريبة منها . وسقت كالمجنون في الطريق الخالي. سقت بسرعة مئة وعشرين كيلومترا ، وأنا لا أدري الى أين . وجدتني أنعطف الى طرق لا استطيع التأكد منها. لأن أضواء الليل تجعل الطرق كلها بالنسبة اليّ متشابهة

الى ان طلع الفجر .

هل كان صاحب الصوت حقاً وليد ؟ أم انني توهمت ، وذعرت ؟ لا ، لم يكن القابع في غرفة النوم ، — غرفة النوم ولا شك — الا وليد نفسه . ما الذي فعلت بي هذه الفاجرة ، اللعينة ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

حال دخولي منزلي استقبلتني زوجتي مضطربة مترعجة: «أمريض آخر ؟»

فقلت : « مات . لماذا يستدعون الطبيب والرجل في نزعه الأخير ، لست أدري . »

— « يبدو عليك الإرهـــاق . اذهب الى الفراش يا حبيبـي ، ونم ساعة أو ساعتين . »

وقبل ان تسألني سميرة من هو الذي مات ، قذفت بثيـــابـي عني ، واستلقيت عـــلى فراشي . وعادت هي أيضاً الى فراشها وهي تقول : — « ارجو ، على الأقل ، أن يكون المبلغ الذي دفعوه يساوي هـــذا التعب كله . »

— « المبلغ ؟ آ ، طبعاً . »

في حوالي الثامنة من مساء ذلك اليوم ، خابرتني مريم في العيـــادة . لا أذكر بالضبط كيف جرى الحديث بيننا لأنني حتى اليوم لا أعرف كيف استطعت أن أبقي السماعة على اذني كل تلك الدقائق الطوال لأصغي اليها .

— « ما الذي حدث ؟ »

— « أأنت تسألين ذلك ؟ »

— « لماذا هربت كالمذعور ؟ »

— « لكي لا أجيب الرجل الذي كان في غرفة نومك . »

— « أي رجل ؟ »

— « أي رجل ؟ مريم ، لماذا هذا الكذب ؟ لك أن تكذبي على نفسك ، وعلى الآخرين . ولكن لماذا تفعلين ذلك بي ؟ »

— « دكتور طارق ، جرحتني . أتيتك في آخر الليل مختارة ، وفتحت لك بيتي ، ثم هربت أنت . »

— « هل بقي وليد حتى الظهر ؟ »

— « وليد ؟ »

— « جعلتني اضحوكة لوليد . جررتني من بيتي في الثالثة صباحاً لتبرهني لوليد انك ما زلت قادرة على اجتذاب الرجال . ليأتوا اليك راكضين بعد منتصف الليل . وعلى اجتذاب أصدقائه أيضاً إذا أردت . أليس كذلك ؟ »

— « واهم ، واهم ، أقسم لك إنك واهم . لم يكن أحد في البيت عندي ساعة دخولك » .

— « وكيف اتفق أنك أجبت على التلفون بتلك السرعة ؟ لا بد أنك كنت مستيقظة — مع وليد بالذات : »

— « كنت مستيقظة ، نعم . لأنني ، كما قلت لك ألف مرة ، مصابة بالأرق . لا أنام أحياناً حتى طلوع الشمس . »

— « اذن من كان ذلك الرجل الذي صاح : هل جاء طارق ؟ »

— « أنت واهم . لم يصح أحد . »

— « هل هذه لعبة أخرى ؟ »

— « أنا آسفة . لن أتصل بك بعد اليوم . »

وسدّت التلفون فجأة .

كان حديثنا أطول من هذا بكثير ، غير أن الذي أذكره هو احساسي الفظيع بالمهانـــة ، واحساسي بالخشية من أن أصبح طرفـــاً في لعبة لا استسيغها ، أو لا أقدر عليهـــا ، في حياة هذه المرأة الغريبـة . ولكنني فيما بعد لم استبعد أنني كنت ربما واهمـاً ، وانني خفت ، واضطربت ، فسمعت صوتاً لم يكن هناك . أو انها قالت شيئاً ، فخيل إلي أنه صوت رجل صادر من أعماق بيتها . ورغم شكي ذلك ، فانني قررت ألا أنزلق حيث تريدني مريم نفسها أن أنزلق . وشعرت أن عـليّ أن أكتشف من وليد نفسه ، مهما راوغ ، ان كان هو حقـــاً هناك في تلك الساعـة . كيف يجيز لنفسه أن يتآمر معها عليّ ، على ذلك النحو المهين، المزري ؟

أدرت قرص التلفون على رقم وليد . جاءني صوت الخادم وقال لي ان سيده ليس في البيت . فقلت له : « فرات ، أنا الدكتور طارق . تعشيت عندكم أمس . »

— « نعم ، دكتور . »

— « أين ذهب الاستاذ وليد بعد خروجي من عندكم البارحة ؟ »

— « والله لا أدري . لأنني ذهبت ونمت . »

— « هل كان في البيت هذا الصباح ؟ »

— « طبعاً . أتريدني أن أقول له شيئاً عندما يجيء ؟ »

— « هل سيتأخر ؟ »

— « غير معلوم . »

— « قل له إنني خابرته . »

— « طيب ، عمي . في امان الله . »

لم يخابرني وليد ذلك المساء . ربمـا لحسن الحظ . ومرت أيام كثيرة

لم يتصل أحدنا بالآخر . وبقيت أول الأمر ممزقاً بين أحاسيس المهانة وأحاسيس الغضب ، حتى كدت أخشى اللقاء بوليد ولو عن طريق الصدفة . ولكن يبدو أنني اقنعت نفسي بمرور الأسابيع أنني كنت واهماً، أو أن الذي سمعت صوته قد يكون شخصاً آخر غير وليد . ولذا عندما دعاني وليد بعد ذلك بعدة أشهر إلى حفلة عشاء في داره ، جعلنا نتعاتب ، ونحن – أنا وسميرة وهو – محاطون بالأصدقاء الآخرين . وكان في الليلة التالية أن كشفت لي سميرة عن سرّ من أسرار صديقتها جنان .

جاءتني سميرة بالعشاء ، وكنت قد عدت كالعادة متأخراً ، وجلست إلى المائدة بمواجهتي ، وقالت بلهجة من سيتمتّع بالتفاصيل اللذيذة التي التي سيدلي بها :

– « كل يوم يطلع شيء جديد ! »

قلت : « خير ؟ »

– « جنان حدثتني اليوم بأشياء ما كنت أتصورها . »

– « يعني ؟ »

– « أتدري انها كانت تحب صديقك وليد ؟ »

– « لا ؟ »

– « نعم ! كانت بينهما علاقة لسنة ، أو لأكثر . والمسكينة تعذبت كثيراً . من أجل صديقك هذا . وفجأة تخلّى عنها . »

– « تتحدثين كأنني أنا الملوم في ذلك ! »

فضحكت سميرة ، وقالت : « لكن الناس فعلاً ألغاز ، ولا يمكنك أن تحزرهم . يظهر ان وليد من النوع الذي لا يوفر امرأة إذا اعترضت سبيله . »

– « لا تبالغي . علاقات من هذا النوع عملية ذات طرفين . »

– « لا تنكر ان النساء عرضة للاغراء أكثر من الرجال . »

– « ولكن النساء أقوى من الرجال على المقاومة . »

– « ومن قال انهن أقوى على المقاومة ، ارجوك ؟ هكذا انتم الرجال تريدونهن ! فإذا ضعفت المرأة إزاء الاغراء ، التهمتوها ... »

واسترسلت سميرة في ازجاء الحكم التقليدية ، وفي اتهامي بأني أنا أيضاً، والله اعلم ، لا اختلف كثيراً عن الآخرين . ولما قلت : « ولماذا عليّ أن أكون مختلفاً عن الآخرين ، ان كان هذا حكمك التعميمي عليهم جميعاً ؟ »

قالت ، نصف ضاحكة : « والله أذبحك ، ان اكتشفت ان لك علاقة مع امرأة غيري ! » ثم أضافت : « أنشرب قهوة في الطارمة ؟ الليلة بديعة ! »

فقلت : « فكرة مقبولة » ، وقمت ، وأحطت كتفيها بذراعي ونحن سائران الى الخارج ، وانا أفكر : يجب أن أتصل بجنان نفسها ، لمعرفة المزيد . أما سميرة فكانت في حالة تلاطف غزلي ، تسقيني القهوة وبودها لو تسقيني من شفتيها .

هذه كانت في الواقع ، البداية التي أدت بي الى الاطلاع على الرسالة التي زعمت جنان أنها موجهة اليها . فالصداقة القديمة التي كانت تربط بين والدة جنان ووالدتي – لأكثر من ثلاثين سنة ، أقامت بين أسرتينا علاقات حميمة لم يفرط أحد منا بها . وقد ساهمت أنا في تطبيب والدة جنان ، ومساعدتها في ذهابها الى لندن للعلاج ، في السنوات الأخيرة . كما ان سميرة كانت تعتبر جنان من أعزّ صديقاتها ، وتبدو دائماً كأنها تبحث عن زوج لها . ولم يغب عليّ ان سميرة غضبت على جنان لأنها ، أولاً ، لم تخبرها عن حبها لوليد أيام كانت على علاقة به ، وانما جاءت تنبئها بأحزانها بعد أن أصبحت العلاقة قصة ترويها لها ، لا فعلاً تتابعه معها، وثانياً ، لأنها بطيشها في علاقة كتلك ، أو ربما علاقات أخرى كتلك ، كانت تضيّع على نفسها فرص الزواج .

عندما تلفنت لجنان عصر اليوم اليالي من العيادة ، واقترحت عليها المجيء لزيارتي ، وافقت دونما تردد — بل بشيء من الحرارة . كأنها تبغي التخلص من ألم في دخيلتها بمشاطرته مع أحد يعرف وليد. لم تذكر الشيء الكثير عند مجيئها الأول ، فيما عدا انها ، هي ووليد ، التقيا صدفة في لندن ، حيث كانت هي تُعنى بوالدتها — نزيلة المستشفى — وهو يقوم ببعض من شؤونه المالية — أو هكذا ادعت . غير أنها بعد يومين أو ثلاثة جاءتني بالرسالة التي تحدثت عنها . وجعلت أنا استقرىء التفاصيل على طريقتي . وفجأة اتضح لي لماذا كانت تلك الرسالة في حوزتها — ولماذا أطلعتني عليها .

وليد ، في الرسالة ، يعترف لمريم بحب جديد ، ومن كانت صاحبة هذا الحب إلا جنان نفسها ؟ لا أعلم كيف أتيح لجنان أن تطلع عن احدى الرسائل الموجهة الى صديقتها — ومريم على كل حال لم تكن من النوع المتكتم جداً ، وتجربتي معها ما زالت حيّة في نفسي ، أعانيها باستمرار — وعندما أدركت جنان انها هي المقصودة ، أباحت لنفسها امتلاك الرسالة بطريقة ما . هل كشفت لمريم أنها هي المقصودة بالفعل ؟ محتمل جداً . ومها يكن من أمر ، فأنا لم يكن يهمني أن أخترق أسرار جنان ومريم ، ومدى ما بينهما من مكاشفات أو ، ربما ، تعاون . كان همي الحقيقي وليد نفسه : فكلما راجعت نفسي حول ذلك الآن ، وجدت ان وليد أخذ يلح على دواخلي ، وهو غافل عني منهمك في علاقاته المتلاحقة . وما أرادت أن تؤكد عليه جنان لي ، من خلال رسالة مريم ، هو ان لوليد علاقة جديدة ، كأنها تدرك ان ذلك يهمني بوجه خاص . غريب ! هي تتمتع سراً بأن وليد اعترف لمريم بأنه يحبها هي ، ثم تستغل الرسالة نفسها ، « الوثيقة نفسها » ، لتتهم وليد بأنه الآن يحب امرأة غيرها ، وتدّعي انها تعرف مَن هي ... ومع ذلك فقد رفضت ان تكشف لي عن اسمها .

كدت أضحك من نفسي . كنت أوارب ، وأداور ، وأجعل من هوسي بوليد حجة للحديث إلى جنان : لماذا ؟ لأنها تتحدث عن مريم بين الحين والآخر . وكلّما ابتعدت عنها بالحديث ، أسقطت بين يديها سؤالاً يعود بها إلى الحديث عن مريم . كنت ما زلت أتحرّق إلى مريم . بل جعلت أتمنى لو أعود اليها أو تعود هي إلي . ربما غفرت لها تلك الليلة الجارحة التي أخذت تتبدى لي ، يوماً بعد يوم ، كليلة من ليالي الرؤى . هل أني حقاً خرجت في الثالثة صباحاً إلى امرأة تنتظرني في سيارتها لتأخذني إلى منزلها ، عشقاً وجنوناً ؟ (جنان ! حدثيني عن مريم !) هل كان في اللاوعي مني شهوة في اتباع خطى وليد ، فأهجر مريم لجنان ، ثم أهجر جنان لامرأة ثالثة ؟ فلأضحك من نفسي لوقوعي في مزالق عاطفية كنت أنا الطبيب النفسي احاول انقاذ مرضاي منها ! لا ، لم تثرني جنان في شيء . صداقتنا العائلية أعرق من أن تتيح لي أي اهتمام جنسي بها . اذن ، فلأعد إلى مريم . ولكن جنان ، بالنيران الحبيسة في جسدها — أف ... إذا كان وليد من مواليد برج الجدي ، فمالي أريد التصرف كأنني أنا أيضاً من مواليد برجه ؟ (أجل ، لم يقتل وليد إلا ذلك الشبق الذي استحوذ على ذهنه ، أشبه بقوة شيطانية مظلمة جعلت ترحف على اشراقه الفكري ، وتنحط به إلى حيث ينغلق ذهنه أخيراً عن كل شيء ، ويمسي الموت هو النهاية الحتمية الوحيدة .)

كيف لو أنني حاولت الاقتراب يومئذ من جنان ، عاطفياً ، أكثر مما ينبغي ؟ لكنت أفسدت على نفسي صداقتها . وامكان استعادة اهتمام مريم بي . فجنان أعادتني إلى مريم ، وهي لا تدري . أتاحت لي لقاءها ، حال عودتها من لبنان بعد ذلك بأيام ، ولا أظن أن مريم أطلعتها على ما كان بينها وبيني سابقاً (ولكن كيف لي أن أتأكد من ذلك ؟) . ومهما يكن ، فإن مريم لم تكن أقل مني كياسة ودبلوماسية . لم تشر إلى تلك الليلة الجنونية — يا الله ! أشهر كثيرة قد مرّت عليها ،

وهي ما زالت طرية في نفسي كأنها ليلة البارحة ! أمـــا غياب مريم فلم يزدهـــا إلا نضارة . امرأة تعدت أواسط الثلاثين ، لا تفارقهـــا الرؤى الحلمية ، وتكاد لا تفرّق بينهـــا وبين الواقع . بعد أن عادت بشهادة الماجستير تمّ تعيينها استاذة في الجامعة ، وهي تتحدث عن نشر كتـــابها الأول ، وشعرها الطويل ينسدل على كتفيهـــا . ويقع بين الحين والحين ليواري خديها ، فتدفعه إلى الخلف بحركة من يدهـــا فأشعر كأن طيور الدنيـــا ترفرف فوق عيني ، ويشتد بي احساس بـالذنب لم أكن أعيره اهتماماً في السابق . لعل سميرة هي السبب ، إذ جعلت تنشر جناحي عطفها على مريم أيضاً . لِمَ لمْ أكبح لساني وأعض عليـــه يوم كانت مريم في دارنا مع جماعة من الأصدقاء ، فانتحيت بها جانباً وسألتها هامساً :

« كيف حال وليد ؟ »

فهمست إليّ :

– « اسأل امرأة أخرى عن ذلك . »

– « تقصدين جنان ؟ »

– « لا . »

– « من اذن ؟ »

فخفضت صوتها أكثر من ذي قبل حتى كدت لا أسمعها : « وصال ! »

وحين رأتني لم أفهم ، أعادت :

– « وصال ، اختك الصغرى ! »

وانصرفت بسرعة إلى الآخرين .

أسأل وصال ؟ ومتى كنت أخوض معها في أمور كهذه ؟ من الممكن أنها هي أيضاً ... أم أنها طريقة مريم ، بخلطها الدائم بين الوهم والواقع ، في استفزازي باتجاه لم يكن في حسباني ؟ رفضت المسألة من أصلهـــا . وقررت في تلك اللحظة ألا أشير مرة أخرى أبداً إلى صديقي ، ان كنت

أريد من مريم اهتماماً بـي . وليذهب وليد إلى الشيطان .

طبعاً ، تبقى القضية قائمـة ، بدلالاتها الكثيرة ، وابهاماتها الأكثر . يوم سمعت باختفاء وليد ، أحسست كأن عبئاً كبيراً قد أزيح عن صدري . ارتحت . أخيراً ارتحت ، ولتقل مريم ما تشاء . وليقل الآخرون ما شاؤا . ولكن لماذا أكون ، باستثناء كاظم ، آخر من يرى وليد ويحدثه ، كأنما عليّ أنـا أن أشيعه دون صحبه الآخرين ؟ حتى في الرطبـة أردت أن أسأله عن مريم ، ثم ضبطت نفسي . وكاظم لم ينتبه إلى أنني بعـد أن سألت وليد أين سيارته في تلك الظلمة ، قصدت اليها عامداً لكي أرى : هل فيهـا امرأة تنتظر ؟ هـل هي مريم ؟ ولكن لم يكن فيهـا أحد . فارتحت .

ولم يكن الشريط الذي أسمعنا ايـاه عامر عبد الحميد قبل أسابيع إلا ليؤكد لي أن غريمي القديم قد انسحب من الساحـة فعلاً ، مهما يكن التأويل والتعليل . وخيل إلي أنني أضحك في عبي هذه المرّة .

غير أنني لا أغفر لنفسي هذه الشماتة التي أظل أقول إنها لا تليق بـي . ومع ذلك لا أستطيع إلا الشعور بضرب مـن الراحة الغريبـة لأن وليد « اختفى » بشكل أو بآخر . أي أنه هزم . أي أنـه أخيراً وقع قتيلاً في المعركة الهلاسية التي التحمت فيها معه . مريم هي المرأة التي كان عليّ ألا أغفر لها ، لأنها أوقعتني ودفعت بـي ، أكاد أقول متمرغـاً ، إلى حضيض كهذا . يحتقر الانسان نفسه ، بل يمقتها أحياناً ، لما ينتابه من مشاعر لا تليق به ولكنه لا يستطيع إلا أن يستسلم لها : هكذا أنا أحيانا، كلما فكرت بوليد . صديق ، أجل ، ولكن لأقلها صريحة لكي أخرجها من تلافيف كياني — عاشق دائماً ، مفترس دائماً لمـا يشتهية الآخرون ولا يلقون منه إلا الفتات . ومع هذا كله ، كان عليّ أن ألفّ وأدور حوله ، وأعيد اللف والدوران ، لأعرف القليل القليل من حقيقته .

هل كانت عقدة وليد الدون جوانية أنه في أعماق لا وعيه ، يخشى أن نفقد رجولته ، فراح يلوّح بها في الأسرّة ، يميناً وشمالاً ، رجل ضائع في حقيقة الأمر ، متروك ، ككثير من المشرّدين مثله ، لوهم من القوة ، لوهم من الوطن ، لوهم من الانتماء ، يسعى نحوها بعزيمة لا تكلّ ، ولا يلقاها إلا بتلويحه في حالات اليأس بهذا الذي يعوّض له عن فقدان آخر . من هنا كانت قدرته الشاذة على اقامة العلاقات مع النساء . والنساء في الأغلب ، المقيمات في غربة جسدية داخلية ، حين تتقطع بهن خيوط الحياة ، يسحرهن الغريب العابر ، لأنه الطير القادم المهاجر ، انه الرخّ الذي يحملهن ، ولو يوماً واحداً ، من وادي الوحشة والكآبة إلى أعالي الجبال المشرفة على رحاب الدنيا ، ومدنها ، ومتاهاتها ، ثم يرحل . انه هذا اليأس ، هذا الحرمان ، هذا الشبق الخفيّ ، الذي يربط بين المثل والمثل ، ويستغل عبور الغريب الخارج على كل قاعدة ، وكل وازع ، لأنه لن يبقى طويلاً لكي يحاسبه أحد . وهكذا عبر وليد طيراً مهاجراً ، وفي عبوره ، رماه صياد لا ندري به ، ولعل الصياد لا يدري أيضاً أي طير رمى بناره . والصياد كان يحمله وليد نفسه بين جنبيه ، في انتظار اللحظة المؤاتية . فإذا صح رأيي أن وليد قتل نفسه ، تخلصاً من كل تلك التعقيدات التي جعلت تلتف حول كيانه التفاف الحبال ، فقد كان لا بد له من ذلك ، لأنه كان قد مهد للصياد الذي في داخله العدة وهيأ له الفرصة مرة بعد مرة . هل كانت مريم تعرف شيئاً من ذلك ، أو جنان ؟ أو أختي الحمقاء وصال ؟ أختي المسكينة وصال !

-٦-

وليد مسعود يكتب الصفحات الأولى

من سيرته الذاتية

منذ أن وعيت كانت المعركة أبداً هي نفسها : بيني وبين نفسي . بيني وبين الآخرين ، بيني وبين العالم . معركة حب اردته لكل شيء ، لكل انسان . فاذا أردت تغيير العالم للحب (يا للغرور !) ، وجب عليّ أن أغيّر الآخرين ، واذا أردت تغيير الآخرين ، وجب عليّ أن أغيّر نفسي .

أردت أن أغيّر العالم على هواي ، وأنا أنظر الى الغادين والرائحين، من على شجرة تطل على الطريق ، وتطلّ من ورائه على الوادي . أردت للعالم أن يتغيّر وأنا جاثم بين أغصان شجرة ، آكل منها لوزها الأخضر . وأردت لنفسي أن تتغير ، وأنا ربما لم أتخط العاشرة بعد ، فلا أعرف كيف عليّ أن أتغيّر .

الفقراء يملأون الطرقات والأسواق حركة وصياحاً . ينامون على الارض في بيوتهم القديمة المتهافتة ، يضحكون كالمردة ، ويبكون كالمردة ، ويتشاجرون كالمردة . يصلّون بايمان ، ويخرجون الى الطرقات والأسواق أيام الأعياد مستبشرين متناسين العوز والثياب المرقعة والأمهات الكادحات الضاحكات الباكيات . كنت من أجلهم أريد أن أغيّر شيئاً ما عميقاً في الأساس من الحياة : تنتابني رعشة داخلية لذيذة إذ أتخيل العالم يتغير ، يتزحزح ، يتلوّن . ليس كما يغيّره السياسيون (كما أدركت عندما كبرت) ، بل كما يغيّره المتمردون الذين لم يعرفوا بعد النظريات وتخطيط الانقلابات ، لأن التغيير الذي يتطلعون اليه لا يتصل بمجرّد

تغيير النظم ، وصراع الطبقات .

كانت خواطر المتمردين تجتاحني لأعيش طريقة تحقق ما أحدس به بغير ما وضوح : طريقة من يرفض الشرائع والأعراف التي يجد انها لا تنسجم مع حبه المطلق وحريته المطلقة. الحياة نفسها كانت هي الوسيلة، هي الرؤيا ، هي الطريق . كأن أتخلى عن كل شيء ، عن كل علاقة، فأسبح كطير مجهول في سماوات مجهولة ، وفي تناقض عزلتي عن كل شيء أكون على صلة مع حبي لكل شيء .

ولم يطل بي الأمر لأدرك ان ذلك سوف يعني العذاب ، والسير عارياً في فلوات ملأى بالذئاب والصقور . هل كان هذا هو السبب في أن الأنبياء كانوا يسعون الى البراري ، الى الغابات ، الى الكهوف البعيدة، لكيما يحققوا تمردهم على هواهم ، وهناك ، ماذا يفعلون ، أيخترعون الأحلام ، ويخترعون الكلمات ؟ وما نفع الأحلام والكلمات ، وهم منقطعون عن الناس ؟ وحتى لو جلجلت الكلمات كما تجلجل أجراس الكنائس ، ما نفعها إذا لم تملأ مسامع الناس ، وترسلهم سكارى في فجاج الأرض؟ غاب المسيح سنين طويلة ، ثم عاد الى الناس ليتحدث عن الحب . ولما عاد الى الناس صلبوه . لا بدّ للمتمرد من أن يصلب اذن . ويكون انتصاره في صلبوته . ولكنّ هناك السنين الثلاثين التي يهيء الانسان نفسه فيها للسنوات الثلاث الأخيرة الفاعلة . ما الذي نعرف عن تلك السنين الثلاثين؟ لم يكن لديّ ما يهديني نحو غايتي ، إلا الحدس ، والحلم ، والتوق الذي لا أستطيع أن أمنطقه . وكلما تطلعت بعيداً الى التلال والوديان ، والجبال البنفسجية التي تماوج وراءها ، أحسست بأنها حيّة بالبراكين الكامنة فيها، وان بوسعها أن تنفجر بين حين وآخر بحمم لعلها تغيّر كل شيء ، ولكنها لا تفعل ذلك ، متذكراً زلزال عام ١٩٢٧ .

شهدت الزلزال وأنا طفل في السادسة : لقد خضّ الأرض كما لو

حضنتها ريح رهيبة . كنت جالساً على الأرض مع غيري من الأطفال في الغرفة الصغيرة ، فحسبت أن الريح الهادرة هزّت البنيــان القديم هزّاً قوياً ، ولما انطلق الصبية مذعورين إلى الخارج ، انطلقت معهم ورأيت الحجارة تتساقط كتلاً من أعلى المبنى العتيق المقابل ، وتتكون أمام عينيّ في ركام أبيض مريع . واتجهت أبصارنا من الخرابة التي نحن فيهـا نحو كنيسة المهد نستنجد الله لانقاذنا . وسمعت بعض الكبار يقولون : إن كان هذا يوم القيامة فهل سيدفننا الله تحت الأنقاض ليقيمنا من تحتهـــا مرة أخرى ؟

رحت أركض إلى البيت ، فوجدت أمي مع عدد من نساء الحيّ في حوش الجيران ، وأخي الرضيع بسّام على ذراعهــا ، وفرحان والياس يلعبون « الحجلة » مع الأولاد الآخرين ، وقد نهض بين الجميع الشيخ سالم بفتوة مدهشة ، ومال طربوشه العتيق جانباً ، كاشفاً عن شعره الأبيض الغزير ، وفي يده عصاه المعقوفة التي أخذ الآن يلعب بها بخفة ، وعلى مقربة منه جلس أبو سميح وأبو صليبا عــلى صندوق خشبي ، والجميع يتحاورون بأصوات عالية حول الزلزال ، والشيخ سالم يقول : « يا جماعة، أقول لكم انها نهاية الدنيا . صدّقوني . وأنا أنصحكم ألا تدخلوا البيوت . هذه اشارة من السماء وبداية لما حكم الله . ستأتينا زلازل أخرى . هذا الزلزال صدّع البيوت ، وهدّم المنازل القديمة فقط . أما الزلازل القادمة فسوف تهدم كل شيء ، ولا تبقي حجراً عــلى حجر ، لتمهد الطريق للملائكة الذين سيهبطون علينا من السماء وفي أيديهم سيوف من نــار . سيهبطون أولاً في تلال القدس ، ثم في بيت ساحور ، في حرش الرعاة، ثم ينتشرون في طول البلاد وعرضها ، ليحوّلوا الأرض إلى سماء . هذه الليلة ستبدأ المعجزات . تطلّعوا إلى تلال القدس يا جماعة . اخرجوا إلى الحواكير ، اذهبوا إلى العراء ، انزلوا الى الوديان ، وترقبوا المجيء العظيم . »

فتقول له أم سميح : « من أين لك هذا الكلام المخيف . يا شيخ سالم ؟ شوبدها الملائكة فينا ؟ »

فيرفع الشيخ سالم عصاه ، وطرفها المعقوف في يده ، ويشير بها إلى مواقع وهمية في الفضاء وهو يقول : « هذه العلامات أراها — هناك ، وهناك ! البارحة رأيت حلماً ما رأيت مثله في حياتي ، فأفقت وقلت : عونك يا رب ! رأيت أهل البلدة كلهم مجتمعين في ساحة المهد، الفقراء والأغنياء معاً ، ومن منّا ليس فقيراً ، يا رب ؟ رأيتهم مجتمعين يرقصون حلقات ، حلقات ، وينزل عليهم نور هائل من السماء ، وتشتعل من حولهم النيران ... ما معنى هذا الحلم أحلمه على وجه الصبح ، وبعد ساعات يدكّ الزلزال البلدة كلها ؟ ها ، ما معناه ، يا امرأة ؟ »

في تلك اللحظة لمحتني أمي ، فأسرعت إليّ واحتضنتني بذراعها الطليقة إلى جسمها الحار ، وسارت بي في اتجاه بيتنا ، غير أن الشيخ سالم صاح بها من مكانه في وسط الحلبة : « أين أنت رائحة يا نجمة ؟ انتبهي ! لا تدخلي مع أطفالك تحت سقف البيت ! » فاستدارت أمي نحوه ، وصاحت به هي أيضاً : « صايرلي نبي ، بآخر زمانك ! خاف من ربك يا أبو أنطون ! »

ألم يكن لله أن يجعل جنة السماء يومئذ ملكاً للأرض ، ملكاً لامهاتنا المتسربلات بالفساتين الزرقاء والحمراء ، ملكاً لهؤلاء الفلاحين، والاسكافيين، والنجّارين ، لهؤلاء الذين يبيعون العنب والبندورة وفيهم أنفة الأمراء وكبرياء الملوك ؟ ولكن الرعب كان طاغياً ، وما حسبته حبّاً جانحاً في الطبيعة تحوّل إلى غضب منها غير مفهوم . غير اني بقيت على تصوراتي المبهمة واحساسي بأن في جبالنا قوى تستطيع تغيير العالم . ولعلني ما أردت تغييره إلا لينسجم مع حاجات أهلي وبلدتي الصغيرة .

رأيت بلدتي إذ أخذت تتململ ، تتثاءب وتتمطى وتستيقظ ضمن

[illegible] رغم كونها خصلة قوى تاريخية ودينية واجتماعية قديمة ، تسير في خطوط متعددة ونيئــة . الكثير من الأراضي تمتلكهـا الكنائس والأديرة ، ولكن ثمة بضع عائلات تمتلك بعض حبلات الزيتون في الوديان المحيطة ، وكروماً هنا وهناك ، لا تدرّ أكثر ممـا تستهلكه أفراد العائلة في أشهر الصيف . عائلات كهذه تمتلك منازلها الحجرية منذ أزمنة قديمة بداياتها غير واضحة ، تعود إلى أوائل قرون الحكم العثماني الأربعة الطويلة المرهقة ، أو تعود إلى ما هو أقدم من ذلك بكثير .

وكان الملاّكون الصغار أنفسهم على حال من الفقر كثيراً ما تدفعهم إلى الهجرة إلى أقطار أمريكا الجنوبية ، ليعملوا في بيع الأقمشة ، يحملونها على أكتافهم ويتجولون بهـا بين قرية وقرية في أصقاع غربة لا يعرفون لغتها ، إلى أن يستقروا على حال من اليسر ، وتبلغنا أنباؤهم «المفرحة» . وكانت الصناعة المحلية المتميزة صناعة الصدف ، تمتهنها عائلات كثيرة . تتعالى أغـاني الصنّاع في كل مكان وهم يتربعون عــلى أرض المحترف المفتوح على الطريق ، ويصنعون من الأصداف بأدواتهم البدائية ، وعلى ايقاع أغانيهم القديمة ، مسابح وصلباناً وتماثيل وحليّــاً دقيقة يتبرك بهـا السوّاح منذ أجيال ، لأنهم يأخذونهـا معهم من أرض الميلاد . وكانت مورداً طيباً لعيش مستور ، ولكن الشباب جعلوا يبرمون برتابته وانغلاقه .

وكان هناك من هم أشد فقراً ، قد يملكون داراً مهدمـة وحاكورة أو اثنتين فيها بضع زيتونات وأشجار رمـان ولوز . وكان يليهم نُزُلاً في طريق الفقر فئات لا تملك شيئاً مطلقــاً : عائلات كان العهد العثماني بمظالمه الكثيرة ، وفوضاه التي التهمت حقوق الأفراد والجماعات معــاً ، قد أقتلعها من أراضيها ودفعها إلى التنقل والهجرة بين أرجاء «الامبراطورية» المريضة ، بحثــاً عن مأوى ولقمة عيش . وقد شهدت بيت لحم مجيء الكثيرين من هؤلاء المشردين منذ أواسط القرن التاسع عشر ، يأتونها من

أصقاع ماردين وديار بكر وطور عابدين ، من قرى شمال العراق. وشمال سورية ، يأتونها من شرقي الاردن – من الكرك ومادبـه والسلط . وفي بيت لحم ، وأحيانـاً في القدس ، تشدّهم أواصر الفقر والطموح ضمن أطر اجتماعية دينية معينة ، ويعملون في مهن كان المهاجرون بحاجـة إلى من يقوم بهـا في غيابهم : فكانوا يعملون في مقـالع الصخر ، ودق الحجارة ، وأعمال البناء . ورصف الطرق ، وتكحيل الجدران ، وسوق العربات (وبعدهـا ، في سوق السيارات) ، والحدادة ، والنجارة ، وصنع الأحذيـة ، والبستنة في الأديرة الكبيرة . كانوا يأتون أميّين في الغالب ، معدمين دائماً ، ولكن مصممين على أن تكون لأطفالهم مدارس ، فلم يكن هناك طفل لا يذهب إلى مدرسة من نوع ما ، ويتكتلون حول كنائسهم ، فيتبرعون من كدحهم العسير مـا يقوم بأود الكنيسة – يكاد الكاهن في كل منها لا يفهم شيئاً مما يقرأ إلا باعتباره «كلاماً مقدّساً» – وما يقوم بأود المعوزين والأرامل والعجزة . نظام اجتماعي مغلق يفي بحاجة أفراده ولو كفافاً ، ويمنع عنهم مدّ اليد للآخرين .

وكانت البيوت التي يسكنونها – كل عائلة قد تبلغ العشرة بافرادها تقيم في غرفة واحدة – هي البيوت التي هاجر منها اصحابها أو تردّت مع الزمن والاهمال ، أو أنها شبه اكواخ اقيمت في الحواكير للدواب أو للنواطير فيما مضى جعلت الجرذان فيها اوكاراً لها ، سقوفها من الاحطاب ، وعلى السطح غطيت بتراب وحصى ، وكُبست بالدرداس . غذاؤهـم الزعتر والزيت والزيتون ، والعدس ، وخبز الطابون أو التنور ، يصنعونه احياناً من القمح ، واحياناً من الذروة أو الشعير الذي يشترونه بالاكياس موسمياً ، ويطحنونه في طاحونة أبو اسكندر المشهورة . صوت مدخنتها المتقطع يرقّم السكون المجاور ايقاعاً ، وجعجعتها تجعل الحديث في داخلها صراخاً ، وقد ابيضت وجوه النسوة والعاملين فيها بنثار الطحين .

كانت البندورة كثيرة ورخيصة ، وفي الصيف يكاد العنب والبطيخ يكونان في متناول الجميع ، وكذلك البرتقال في الشتاء . امـا اللحم ، فكثيرون يشترون عظام البقر والضان من الجزّار بعد أن تُشَفّى ، فيبقى شيء من اللحم عالقاً بها ، واحياناً يجازفـون بقروشهم القليلة ويشترون الرؤوس والمقادم والكروش ، وقد يشترون في ساعة من التجلّي والفرح نصف رطل من لحم الغنم ، ويصب رب الدار كأساً من العرق لـه ولزوجته ، وربما لاولاده الكبار وهـو يقول : « ستين سنة وسبعين يوم ، وما حدا حوّش ... » وبينما تطبخ النساء الطعام على نار حطب في الحاكورة ، يضع صاحبنا كفّه على صدغه وخدّه ويبدأ خافتاً بـ « يا ليل ، يا ليل » ، إلى أن تحمى حنجرته ثم يطلقها في موال يتمايل على ايقاعه ، وليكن ما يكون . لقد ذابت همومه نغماً ، ولو لساعة .

كنت ارى الناس جميلين ، واشعر بقسوة العـالم عليهم ، وهـم يقاومون على مهل ، ولا يرضخون . أمشي حافياً ، أتجول مع رفقتي في دنيا اشبه بدنيا أول الخليقة : دنيا اراها مليئة بالاصوات والانغام ، فنسير كقطيع من الغزلان الهائمة من اول « راس فطيس » إلى ساحة المهد ، ومنها ننزل إلى « القناة » الفائضة ابداً ، المستجيبة ابداً للصبايا المتصايحات المزدحمات حولها ، وقد شمّرن اطراف اثوابهن الفضفاضة المطرزة عـن سيقان كالعاج ، ليملأن التنكات والجرار — ومنها ننحدر إلى الهنداوزة ، ثم نصعد في الطريق الضيق الذي تنضح منازله الحجرية بحسّ الازمـان الغابرة ، وروائح الدواب والجمال ، ونذهب إلى المدبسة في ظل جرسية الالمان المخروطية الشاهقة ونتجه نحو الدهيشة الممتدة بيوتها الكبيرة المتناثرة بين تلال الزيتون والصنوبر ، فتستقبلنا الريح بعصف شديد وصفير ... ثم نعود ، وقد نال منا تعب لذيذ ، إلى بيوتنا المتلاصقة ، لنأكل خبزاً شهياً ممسوحاً بالثوم والملح ، وينتظر كل منا عودة ابيه من العمل .

كنّا ذات عصر جالسين تحت شجرة بيتنا المطل على الطريق ، بعد تجوال في البلدة من اقصاها إلى اقصاهـــا ، حينما مرت لوريات محمّلة بالرجال ، وهم يطلقون الرصاص في الفضاء ، ويصيحون :

« نحن الثوار جيناكم ، نحن الثوار ! »

فوقفنا نلوح لهم بايدينا ونهتف معهم : « ديروا الميّه عالصفصاف ، نحن الثوار ما بنخاف ... »

وظللنا نكرر الهتاف حتّى بحت حناجرنا . وسمعت تلك الليلة من أبـي حديثاً عن البراق والمسجد الأقصى والخليل والثوار . وتصورت العالم يهزه زلزال آخر ، وإذا هـو يتصدع وينهار ويبرز من بين الركام عالم متغير جديد ، يبدأ من الافق الشرقي القصيّ وينتهي بتلال القدس التي تواجـه بيتنا ... وبقيت تلك الصورة يوماً بعد يوم تلازمني ، مع تلك الأصوات الهادرة ، وهي تكبر وتكبر وتلف الكون – أو ذلك الجزء الصغير الذي أعرفه منه . وسألت أبـي في الصباح الباكر ، وأنا اخرج معه الحصانين من « الياخور » : « يابا ، هل أنت من الثوار ؟ » فضحك في وجهي ، وقـــال : « إن شاء الله ستكون أنت من الثوار . » وراح يمشط غرّة أحد الحصانين ، الذي كان يسميه تحبباً « مهرة وليد » ، ثم أردف : « يابا ، أنا كنت دائماً ثائراً ، منذ أيام السفر برلك . ولكن زمـــاني راح . وجـاء زمانـكم – أنت ورفاقك . إنها مشيئة الله . ناولني سطل الماء ... » وتمنيت لو أستطيع أن أركب الحصان وانطلق بـــه في عوالم رائعة لا يعرف أحد عنها شيئاً حتّى أبـي ، ومعي صبية البلدة كلهم . وقـــد أصبحوا فجأة رجالاً يتلثمون بالحطة ويلبسون العقال ، ويشهرون السيوف في وجـــه الدنيا . ولكن كان عليّ أن التقط كتابـي ودفتري ومقلمتي ، وأقحمها بسرعة في كيسي المدرسي ، وانطلق به ركضاً الى المدرسة ، حيث قد أتعلم شيئاً جديداً عن مشيئة الله .

وكنت أصدَم أحياناً بقسوة الآخرين ، فلا أفهم ، ولا يفهمني الآخرون . يوم العيد الكبير ، عيد الفصح ، نزلت الى الشارع لابساً حذائي الجديد ومعي ثلاث بيضات مسلوقة ملونة ، وأسراب الأطفال يملأون الطرقات ، وقد ارتدوا أجمل ثيابهم ، وأقلها رقعاً ، يتبادلون الملبّس والبزر والفستق ، ويقامرون مرحين على البيض . وجاءني ولد يكبرني قليلاً ، اسمه نصري (كان أبوه سائق سيارة ، وأبي ما زال يسوق عربة جدّي) ، وبيده حفنة من البيض الملوّن ، وقال : « تلعب ؟ » قلت : « ألعب . » وأخذت بيضة حمراء من يده ودققت رأسها برفق على أسناني الأمامية ، لأعرف صلابتها ، ثم دققت عقبها ، بينما هو أخذ بيضة زرقاء من يدي وامتحن صلابتها على النحو نفسه . ولعبنا . ضربت رأس بيضته برأس بيضتي ، فانكسر ، وقلب بيضته ، وضربت عقبها برأس بيضتي ، فانكسر أيضاً ، فربحتها . ثم لعبنا مرة أخرى ، وربحت بيضة أخرى . ثم أخرى . حتى ربحت منه بيضاته الخمس ، وأنا لا أصدّق ما أرى ، وأملأ بها جيوبي واحدى يديّ . وإذا هو فجأة يمسك بخناقي ويقول : « وليد ! أرجع لي بيضاتي ! »

ولو قالها بشيء من اللطف لكنت ربما أعدتها اليه ، كلها أو بعضها ، لكنني ، رغم نحولي الظاهر ، عنيد عناد أهل الجبال ، إذا جاءني أحد بالتهديد . فقلت : « ربحتها ، وأنت راض . لن أرجعها . »

قال : « والله ان لم ترجعها ، أخنقك ! » فدفعت بيدي الطليقة قبضته عن خناقي بأقصى قوتي ، وفكّرت بأننا إذا تعاركنا ، سوف تتحطم البيضات ، وخطر لي أنني إذا استمرت العركة ، سأضع ما في يدي منها وما في جيبي على الرصيف ، لكي أتحرر ، فأبطحه أرضاً . ولكنه لم يعطني فرصة للمباطحة . استدار عني مسرعاً قرابة مترين ، وانحنى ليلتقط

حجراً كبيراً بحجم رأسه، وعاد رافعاً الحجر بوجهي وعاط : «أرجعها !» فعطت به : « انزل الحجر ! » (كنت قد عزمت منذ زمان على ألا أتلفظ بشتيمة مطلقاً ، حتى عندما أهاجم) . ولم يخطر ببالي لحظة واحدة أنه سيستعمل الحجر فعلاً .

ولكنه دنا مني ولطمني به على وجهي لطمة عاتية أوقعتني على الأرض وأنا أصرخ ، وغامت عيناي بغشاوة كثيفة . وحسبت أنني عميت .

أفقت على جمهور من الصبية والرجال والنساء يرفعونني بين أيديهم . ويقولون : « سليمة ، سليمة ان شاء الله ، سليمة ! » ووضعت يدي على عيني وإذا الدم من حولها حارٌ على يدي : لقد شُجَّ عظم الخد في الزاوية من عيني اليسرى . سليمة ، والحمد لله ! أما نصري ، فقد اختفى . وأخرجت البيضات من جيبي وجعلت أقذفها بالأرض واحدة واحدة ، وأنا أتساءل في دخيلتي : ما معنى تلك القسوة كلها ، وهل لله مشيئة فيها ؟

ويوم هربت من الدير مع سليمان ومراد لنتنسك في كهف من كهوف الوادي السحيقة ، بعد ذلك بسنوات . هل كنت إلا مدفوعاً بتلك الرغبة الجامحة ، الغامضة ، في الاتصال بمشيئة الله لعلني أفهم شيئاً منها ؟ كيف كان لنا أن نجعل الآخرين يفهمون نشوتنا الداخلية ومحاولتنا تغيير أنفسنا تمهيداً لتغييرهم هم ؟

عندما كبرت ، وجدت أن الكثيرين أرادوا تغيير العالم ، وتغيير التاريخ ، وأدركت أن تصوراتي الطفولية كان هناك من جعل لها منطقاً ، وهيأ لها نظريات وثورات ، وأنا ما زلت مأخوذاً بكلمات المسيح من أن المساكين الفقراء سوف يرثون الأرض . ولذا فإن ثوار القرى الفلسطينية هم الذين في النهاية سيغيرون كل شيء . فلما أرسلت إلى ايطاليا لأدرس اللاهوت في دير سانتا ماريا دولوروزا في ميلانو ، حسبت أنني سأجد

هـــاك المنطق الذي سيبرر حلمي الذي لم يتح لي أن أفهمه في الكهف بوادي الجمل . وإذا بي أكتشف أن مـــا أرسلوني لدرسه قـــد جعلوه وسيلة لتثبيت العالم ، لا لتغييره . أردت تغيير الأعماق ، تلك الأعمـــاق التي بها سوف يخلق الانسان بشراً جديداً . وإذا كل ما أراه هو العمل منصبّ على مسخ السطح ، وردم الأعماق .

هكذا رأيت الجيوش العاوية المحشّدة في الساحات ، تراوح بأحذيتها الثقيلة ، ثم تدفع دفعـــاً إلى مصير يذهلني ، ويغضبني . لم يفهم زملائي ما الذي يريده هذا الفتى العربـي من فلسطين ، يؤمن بثوار الجبال التي جاء منها ، ولا يؤمن بجيوش رومـا الجديدة . انبرى لي أحدهم يومـــاً (ما زلت أذكر أسمه : بيترو براتشي) وقال بحدّة ، ونحن نتمشى في الرواق الحجري المنخفض الأقواس : « مـــاذا تعني بهذيانك هذا ؟ » واستدار نحوي ، وأوقفني عن السير ، وبيدي كتـابـي اللاتيني . « إذا كنت تريد للعـــالم أن يتغير ، كما تدعي ، فـــانخرط في صفوف هؤلاء المحتشدين الصارخين في ساحة الدوومو لأنهم في طريقهم إلى تغيير العالم . أو ابق مكانك . تقرأ الكتب في هذا الحوش القديم ، تروح وتجيء بين الجدران العتيقة المتآكلة ، وانتظر يوم القيامـة . تعال حارب الآن ، أو اقعد على مؤخرتك في الدير واسكت ! »

فقلت له : « ولكن المسيح لم يحارب بأدوات القتل . انظر ما الذي استطاع أن يفعل باثني عشر تلميذاً معدمـــاً ، أبرعهم صيـاد سمك من طبريا . في قرنين أو ثلاثة غيّر العالم . ولكن الامبراطورية الرومانية الهرمة عادت فالتهمت النصرانيـــة ، واستوعبتهـا ، وجمّدت التغيير . » فهز رأسه مستهزئـاً بمنطقي . فأضفت : « نصّبت الامبراطورية المسيح مكان قيصر ، وجعلت منه قيصراً أبدياً يحكمون باسمه — وعاد الناس عبيداً من جديد لألف سنة أخرى . »

فصاح بي ، وقد تحول استهزاؤه حنقاً : « أي تأويل هذا للتاريخ ، وللدور الذي لعبته الكنيسة القديمة فيه ؟ أي كتب تقرأ هــذه الأيام ؟ أهذا كلام يقوله مريد للرهبنة ، وفي دير كاثوليكي ؟ أنت بحاجة إلى الكثير من الصوم والصلاة — والندامة . » ثم امسك بتلابيب جبتي السوداء وقد جحظت عيناه : « أتعلم ، ايها المفكر ، انك تكفر بنعمة من آواك في دير ايطالي ، بعد أن كنت تتسكع جائعاً في قرية فلسطينية ! »

فقلت له بهدوء : « لن تفهم مــا أعني . » ولكنه ردّ صائحاً : « بل افهم ، واكثر ! » وتــركني ليخبر بأمــري الأب براماني ، رئيس الدير .

تلك كانت احدى لحظات الحسم في حياتي : قررت هجر الديــر نهائياً ، مهما جابهتني مصاعب العيش ومراراتــه في بلد غريب دفع إلى حرب لم يخلق لها . قررت الهرب إلى الدنيا .

ولم يكن قراري نتيجة خيبة في ما كنت ادرس وحسب: لقد بات بعد اشهر من الحيرة والقلق امراً لا بد منه إن انا اردت الاخلاص لنفسي ، لوطني ، للعالم . إن أنا اردت الاخلاص لحريتي وحريّة الآخريــن . إن أنا اردت أن استمر في سعيي نحو ذلك التغيير العميق الذي بات يثيرني ويعذبني لأنني ما زلت قاصراً عن ادراك ابعاده الحقيقة ، وانا في بلد غريب لا استجيب فيه إلى اناسه ومشكلاته ، ولا استجيب فيه الا للصور والتماثيل والموسيقى ، لأنني اشعر انها جميعاً انمــا تشير إلى بلدي ، إلى بيت لحم والقدس وطبريا ، إلى فلسطين بسهولها وجبالها وينابيعها .

كنت اقرأ كتبا من كل نوع ، علناً وسراً ، كتباً بالعربية والايطالية واللاتينية والانكليزية ، واكتب على هوامشها تعليقات ، أشعر أن عليّ أن احولها يوماً إلى دراسات تعينني في استيضاح اسرار كثيرة غير أسرار الكنيسة السبعة التي تحثنا على التأمل فيها كتب الكلية الاكليريكية . وبقدر

ما كنت اتمتع بالتأمل في المجردات اللاهوتية ، واخذت اتوق إلى الفعل ، إلى الحركة ، إلى الخروج إلى الناس، إلى مجابهات تتخطى مجابهة الكلمات القديمة .

ثم انني كلما صارحت نفسي ، وأنا اكرر « فعل الندامة » كل يوم ، وجدتني عاجزاً عن نكران جسدي كلياً ، وعيني تلتهم وجوه الفتيات في الكنيسة بنهم شرير ، كأنها تريد أن تحتوي في داخلها جمالاً يكون زادا لمتعتي الحبيسة في الأيام والليالي الكثيرة التي لن ارى فيها ، في اروقة الدير ، وجها لامرأة . لم يكن الاعتراف كافياً لتطهيري من ذلك النهم . وقد قاربت العشرين من العمر . اذن فلأصدق مع نفسي مرة اخرى : انا لم أصنع للرهبنة ...

وهربت ، هذه المرة إلى الابد .

بعد اسابيع قليلة كنت اعمل في بنكودى روما ، في روما نفسها . زودني احد زملائي من طلبة اللاهوت برسالة إلى عم له في العاصمة التي عزمت على السفر اليها . « أتعرف العربية إذن ؟ » قال سلفاتورى برونو ، أحد مدراء المصرف ، وهو يتفحصني من اعلى إلى اسفل ، وانا واجف داخل ثيابي الرثة ، وقام إلى خزانة اضابير أخرج منها اوراقاً فيها كتابات عربية ، وهوامش ايطالية ، دفعها إلي . « كنا نتعامل مع البلدان العربية قبل الحرب ، كما تعلم . معظمها مغلق دوننا الآن . ولكن لدينا أوراقاً يجب أن نصفيها ، والكثير منها بالعربية . شبابنا كلهم مجندون ، لسوء الحظ . أعتقد اننا نستطيع أن نعينك ... » وبسرعة رائعة ، عينني كاتباً في المصرف عنده ، ولكن براتب بخس .

كان يعمل إلى جانبي في المصرف رجل اعرج ، كثير الكلام ، كثير النكتة ، اسمه كارلو . « ها ها ! اردت أن تكون راهباً وأخفقت ! هل طردوك من الدير ، قل لي بصراحة ؟ هل مددت يدك إلى عجيزة راهبة وطاب لك ما أحسست ! من يترك حياة الراحة ، حياة الشرب والأكل

والكسل في سانتا ماريا دولوروزا إلا مخبّل عربي مثلك ؟... وتتحول في يومين من عبادة الله إلى عبادة مموّن ... »

شيطاناً ممسوخاً كان كارلو ، وهو يعيد على مسمعي قوله : « وليدو ! أنا ملاك شطره القدر شطرين . في داخلي تغني الأجواق تراتيل باليستّرينا، وفي ظاهري لا يلذ لي إلا هذيان لساني على شفاه النساء . » أية نساء لهذا الأصلع الدميم ؟

لم يمر على عملي بقربه اسبوعان حتى اصطحبني معه في ليلة مظلمة ، وقد بدأ التعتيم الذي نشرته الحرب في ربوع اوربا كلها ، إلى دار في زقاق متهافت قديم ، على مقربة من المكان الذي اقيم فيه قرب المحطة . وأدخلني وراءه في رواق كئيب ، أدى إلى غرفة باهرة الضوء استلقت على مقاعدها خمس نساء أو ست في أوضاع جعلتني ، وأنا أكاد أموت خجلاً وجبناً ، لا أعرف أين أنظر . أفخاذ ونهود مكشوفة في كل مكان، وانا لم أر في حياتي بعد امرأة عاريـة . وقال لي : « اختر الفتاة التي تعجبك . » فهززت رأسي رافضاً ، مضطرباً . وضحكت الفتيات وانصرفن إلى أحاديثهن . الجمال الذي أهواه في الغاديات الرائحات ، أين هو ، يا كارلو ؟ ولكنه كان يعرف احدى الفتيات ، فذهب اليها ، ونهضت واقتادته إلى غرفتها ، في حين اقتربت مني أخرى ، تريد تهدئة روعي، وابتسمت ابتسامة مصبوغة بأحمر كثيف تجاوزت نتف منه شفتيها إلى أسنانها الكبيرة ، وقالت : « سيكاره ؟ » .

قلت : « نعم ؟ »

قالت : « سيكارة . أعطني سيكارة . »

قلت : « آسف سينيوريتا . أنا لا أدخن . »

فهزت كتفيها ، واستدارت ، وأتت بحركة جانبية بأحد ردفيها تعبّر عن لامبالاتها بهذا الصبي الذي لا يعرف كيف يتحدث حتى إلى مومس .

وفي تلك اللحظة دخلت فتاة سوداء الشعر ، تلبس « روباً » غير شفاف ، غطّى قوامها كله ، فسرت نحوها ، راضياً عنها ، مفكراً : هذه امرأة من نوع آخر حقاً ! وفي الحال أخذت بيدي كأنني طفلها ، وسارت بي إلى الرواق ، وصعدت الدرج ، وأدخلتني إلى غرفتها . ودون أن يفوه أحدنا بكلمة نزعت الروب عن جسدها العاري بحركة واحدة ، واستلقت على ظهرها في الفراش المنخفض ، وفتحت ساقيها ، ورفعت إليّ ذراعيها ، وقالت : « تفضّل ... »

رأيت أمامي جثة ضخمة ، ذات فخذين أبيضين منفرجين عن شق أجرد كأنه شقّ بقرة . « تفضل ! » لا ! مستحيل ... وإذا هي تضحك « سأعلمك كيف . انزع معطفك أولاً ... » قلت : « لا ، شكراً ، سينيوريتا . لا ... » فأشارت إلى ساعة منبهة على الكومودينة القريبة منها ، وقالت : « تستطيع أن تبقى معي لعشر دقائق . عشر دقائق » يا قلبي ... يا إلهي ! تحرّك ! »

لا ، لم يكن ذلك اللحم الأجرد المشطور ما حلمت به . فتلفّت حولي لأرى وجهي شاحباً ضامراً في مرآة كبيرة . وقلت : « هل لديك ... مشط ؟ »

فاندهشت . « مشط ؟ وماذا تفعل بالمشط ؟ »

قلت : « لأمشط شعري . »

فتحت درجاً بالكومودينة وأخرجت مشطاً أزرق كبير الأسنان ، وقالت : « هاك ! » وأخذت المشط ، ومشطت شعري ، وأنا أراها خلفي في المرآة تضع يديها على فخذيها الكبيرين . أعدت المشط إليها وتمتمت من بين شفتين جافتين : « شكراً . » واستدرت نحو الباب .

إن كانت هذه هي المرأة ، فلتحرم عليّ النساء ... خرجت ، أتلمس طريقي إلى الدرج ، إلى الرواق ، الى الخارج . وعند الباب اتكأت على

الجدار ، وقد أصابني غثيان عنيف . أردت أن أقيء ، ولكن معدتي . رغم غثيانها ، لم تسعفني . وكان عليّ أن أحمل ذلك الغثيان مدة طويلة .

أيّ حبّ هذا الذي أحملــه للناس : للنساء ، للأشياء ، للعــالم ؟ أمراسيم كتلك تتكرر كان عليّ أن اغادر الطفولـة ، والمراهقــة ، كما غادرت الدير ، مليئاً بالقهر ، بالقرف ، بالدهشة للهوة التي لا علم لي بها ، الهوة الفاغرة أبداً ، بين دوافعي الطفولية وبين الحقيقة المروّعة ؟ أي قبح هذا الذي عليّ أن أقتحم كل يوم ، لأؤكد أن رؤيا ذلك الولد الفقير القابع بين أغصان الشجرة المشرفة على الوادي ، وهـو يأكل اللوز الأخضر ، ما زال لها مـا يبررها . وان تغيير العالم للحب ما زال أمراً يستحق معاناة الانسان ؟

قال كارلو وقلم الرصاص بين يديــه ، منحنياً بصلعته البذيئـة فوق المنضدة الخشبية العتيقة : « أنــا أعرف مشكلتك ، وليدو . أنت تريد مريم العذراء . ولكن مريم العذراء طـارت إلى السماء منذ زمـان . اسأل البابا ... قه قه قه . »

بابتعادي عن حياة التأمل التي علموني أن أعتبرها وحدها حياة الروح . أدركت أنني قد « سقطت » أخيراً في عالم الجسد ، عــالم الحس ، عــالم الزمن — وهل كان لي إلا أن أحمل في صدري الكثير مــن عبارات القديس اوغسطين (وهو الذي قضى ثلاث سنوات مهمــة من حياته في ميلانو قبلي بقرون طويلة) ، فأرى أحيانـاً بعض ما اعانيه في لغة تلقيتها من كتبه ؟ لقد أدركت أنني في حياتي الآن بدأت « المسيرة الطويلة » التي يتحدث عنهــا في مكان مــا ، المسيرة الطويلة في الزمن وخلال الزمن ، إذ سقطت روحي عن « الأبدية » في مهاوي « الزمن » ، حين سمحت لذلك القلق العميق فيها بالتحكم بـي ، فأردت الاقلاع عن التأمل المستمر الذي يجعلني جزءاً من أزلية الله ، لشهوتي في تجربة روحي

في عـــالم الزمن والحقـــائق الحسية .

فليكن الألم نصيبي بعد اليوم ، وهو نصيب الانسان إذا مـا سقط : فالسقوط إلى الزمن انما هو الدخول إلى دنيا الفعل .

ولكنني كنت ، وأنا أمشي في طرقات روما القريبة ، أو جالساً على الحجارة عند فونتانا أيسيدرا الذي كان على مسيرة عشر دقائق من غرفتي البالية ، أتمنى عندمـا يتحقق لي الفعل (في وطني ! في وطني ! كنت أقول) ، ان أجد بينـــه وبين التأمل وشائج فكرٍ أعرف أن اوغسطين نفسه كان سيرى فيها انقاذاً لي من السقوط .

مريم الصفار تتعلق بصخرة تسكن اعماقها

أين يقع رجل كعامر ناجي عبد الحميد من بنية المجتمع في مدينة كبغداد ؟ في كل مدينة من مدن الغرب الكبيرة هناك دائماً ثلاثة رجال أو أربعة من طرازه ، يتنافسون فيما بينهم كمراكز جذب لذوي الشهرة، والجمال ، والشخصية الفذة . قد تكون لهم أسماء ارستقراطية وقد لا تكون، ولكن لهم قصوراً ارستقراطية أو ما يشبهها ، لم تزعزعها نظريات وأساليب المساواة الاجتماعية المزعومة . ولكلهم دائماً ثروة تنفق بغير حساب . في بيوتاتهم تقام الحفلات اللألاءة ، واللقاءات التي لا تعرف الصحف شيئاً عنها ، وهي التي تغذي أساطير المجتمع وشائعاته بأمتع ما فيها : ابداعات، وغراميات ، وفضائح ، وأفكار تتبلور في اتجاهات ومدارس وتقليعات لا يكون الفن بمنجى منها ، ولا الأدب ، ولا السياسة . رجال كهؤلاء، مع زوجاتهم وعشيقاتهم ، مع أصدقائهم وأعدائهم ، قد يدومون عقداً من السنين ، أو عقدين ، ثم يتلاشون أمام الزحوف المستمرة من كل صوب ، ويصبحون مجرد أسماء ، ومراجع ، وتواريخ . أو لعلهم لا يصبحون شيئاً يتعدى ذكريات أناس قلائل ارتفعت بهم الأيام ثم انخفضت ، والتهمهم الزمن فيما التهم .

عامر ناجي عبد الحميد واحد من هؤلاء — بل انه في بغداد يكاد يكون وحيداً في مجتمع خاص لا يشبهه في كيانه شيء في الكيانات المجتمعية المحيطة به . فهو ليس بظاهرة ، بقدر ما هو شيء من عالم آخر أو ،

ربما ، من عصر آخر . فبغداد ، في تاريخها العريق ، عرفت كل شيء عرفته حضارات اليوم . ولعل عامر ، إن لم يكن مستعاراً من باريس أو لندن ، فهو مستعار من ماضي مدينته هو ، مدينته التي كانت قبل أكثر من ألف سنة حاضرة الدنيا في كل ما يفعله الانسان أو يفكر فيه . في وسط دسائس الحكم ، وتمردات الجند ، وصراعات أهل الدين ، كان هناك من يسمع في حجراته أروع الشعر ، أروع الموسيقى ، أروع الجدل : كان هناك من يلتئم على مأدبته الملائكة والشياطين ، المؤمنون والزنادقة ، الموالون والثائرون ، على أن يتصفوا جميعاً بما يعجز أن يتصف به الآخرون من فتنة ، أو ألمعيّة ، أو لسان .

يقال هذا القول في عامر إذ يرى من الخارج ، ويوضع في منظور لا يأبه له هو في الأرجح . فعامر اليوم يكاد يفزع من النظر الى الوراء : انه لا يعود ببصره الى طفولته ، الى صباه ، الى سني دراسته ، إلا إذا ألحت عليه ذكريات تؤلمه ، ويرفض أن يرى فيها أي جمال . ولهذا يرفض النظر إلى الماضي ، إلى تاريخ أمته . قد يرى التاريخ كله يبدأ بجدّه وهو يناهض العثمانيين عشوائياً في أواخر القرن الماضي ، ويتنامى التاريخ بالاحتلال البريطاني للعراق إذ يبرّز أبوه محارباً وطنياً يشعر أن كل معركة يكسبها ضد الحكام ، بدخوله السجن أو بالأقامة الجبرية في بيته ، تدنو بالبلد من يوم تحرير يحلم به على غراره الخاص ، ولا يتحقق الحلم . وعامر يحس ، منذ تخطى الأربعين ، بأن حتى تاريخه القريب انفصل عنه ، بفجاءة لا يهمّه أن يعلّلها ، والتحق بالتواريخ الماضية التي غدت لديه أشبه بغرف كبيرة ملأى بتراكمات يخشى رؤيتها : فيقفل الغرف ، ويضع المفاتيح في مجرّ ذهني عميق مليء ، بدوره ، بمفاتيح من كل نوع وحجم .

عامر يعيش لحاضره ، لحاضره فقط . لهذه اللحظة بالذات ، العابرة

سريعاً كسحابة صيف في سماء بغداد . وبغداد تعني له داره (التي ورثها عن أبيه ، وجدّدها) وحديقته الفسيحة ، ومكتبته الزاخرة بالكتب الأجنبية — فهو ، على عكس أبيه ، يكاد لا يقرأ شيئاً بالعربية ، اللهم إلا ما يكتبه بعض أصدقائه ، كوليد مسعود ، مثلاً . وفي السنوات الأخيرة ، إذا أراد قراءة كتاب بالانكليزية ، فإنه يدفع بالكتاب إلى زوجته آن لتقرأه وتعطيه خلاصته ، وتؤشر له بعض الفقرات التي تحثه على قراءتها . بغداد تعني له مائدته العامرة ، ومطبخه العصري المزود بمؤن تكفي حيّاً بكامله في سنة مجاعة ، ومجموعة خموره الفرنسية والألمانية ، وأنواع الويسكي الاسكوتلندي والياباني ، وضروب الأجبان الفرنسية والانكليزية والسويسرية والدانمركية .

مستقبليّ لا بنظرته إلى الفن ، والعلم ، والعمران فحسب ، بل إلى الحياة كما يتصور أن على المرء أن يعيشها . وهذه المستقبلية ، على حد قوله ، هي التي خلقت تلك الأواصر الغامضة التي ربطت بينه وبين وليد مسعود سنين طويلة . غير أن هذه الأواصر نفسها تدهش أصدقاء الرجلين : فهما ، في الظاهر ، نقيضان في الكثير من الامور — ولكنهما أثبتا على مر الأيام أنهما يتممان كلاهما الآخر ، كالقطبين المتضادين ، حتى في شخصيتيهما . فوليد يميل إلى طلاقة اللسان ، يتلذذ بالألفاظ ، عربية كانت أم انكليزية ، تلذذاً واضحاً . ولقاءاته مع أصحابه ، إذا كانت الأمسية متجلية ، هي لقاءات تتطاير فيها الكلمات وما تحمل من صور وأفكار تطاير الألعاب النارية . في حين أن عامر أميل إلى الصمت يبحث عن الألفاظ بحثاً إذا قال شيئاً ، ويشعرك بأنه لم يجد بعد الكلمات التي تفي فكرته حقها . ولكنه إذا نطق قال أشياء تصدم ، تذهل ، تغضب ، أو تضحك جداً . ووليد ، بالنسبة اليه ، يفك له عقدته اللفظية ، ويطلق لسانه كالحصان الجامح بين أفكار كالغابات الكثيفة . ووليد يتمتع بذلك :

انـــه يجد في عامر مبرراً للجموح والهـــوج الفكري ، ويسعفه ذلك في مغامراته اللفظية .

وهو لا يدهش حين يخبره عامر انـــه فتح عينيه ، فكرياً ، أول ما فتحها ، على الكتابات الشيوعية . كان لأبيه الاشتراكي النزعة أصدقاء شيوعيون يغذون عـــامر سراً بالكتب والنشرات الماركسية ، ويوم ذهب عامر إلى لندن للدراسة في « مدرسة لندن للاقتصاد » ، كان فرحه الكبير هو في استطاعته مطالعـــة الكتب الماركسية بكامل حريتـــه ، وحضور المحاضرات التي يلقيها أساتذة بارعون يفتنونه بسحرهم الفكري . وعـاد إلى بغداد في مطلع الخمسينات مشحوناً بذلك كله . ولكن بضع سنوات كانت كافية لزعزعة عقائده القديمـــة . شيئاً فشيئاً أخذ يدرك انه ، في قرارة نفسه ، لا يؤمـــن فعلاً بشيء . ذكاؤه المفرط دفعه إلى رؤيـــة التناقضات ، لا في أفكاره فحسب ، بـــل في أفكار الذين يلتقي بهم . وهذا أدى به إلى محاولة التوفيق بين تناقضاته الداخلية الكثيرة ، وإذا هو يجد أن القضية التي يبقى التناقض قائماً في دلالاتها ، هي قضية يجب أن تهمل ، وأن حياته الآن تتسع لنواح وضروب من المعرفـــة قد لا تنتهي إلى حل مشكلات المجتمع ، وتغيير التاريخ ، ولكنها تعطيه متعة حيوية نابضة . بدأ جاهيرياً ، بروليتارياً ، ككثير من أبناء الطبقة المرفهة الذين فتحوا أعينهم المدللة على ما حولهم من فقر فذهلوا لما رأوا ، وانتهى إلى الايمان بشيء واحد : التكنولوجيا .

كان ايمان وليد مسعود بالانسان ، الذي يستشفه عامر من آرائـــه وأقواله ، يضحكه أحياناً فيقول : « الايمان بالانسان ، إذا جسدتـه ، وضربته مثلاً في ألف ، أصبح ايماناً بالناس . والناس هم هؤلاء الذين يتراكضون ، ويتصايحون ، ويقررون اليوم وينسون غداً ، ويرفضون أن يتغيّروا — إلا بالقوة . وإذا تغيروا بالقوة قليلاً ، عـــادوا مرة أخرى

يتراكضون ، ويتصايحون ، يقررون وينسون ، ويبحثون عمن يسلمون له رقابهم لكي يضع عليها نيراً جديداً ، من هذا النوع أو ذاك . »

فيقول وليد : « أنت تفكر بالتغيير بموجب قوة تفرض من فوق . انه تغيير من عبودية الى عبودية . أما أنا فأفكر بالتغيير بقوة تنبثق من الداخل . من عبودية الى حرية . من داخل الانسان ، يا عامر . كالقوة التي تحسها أنت في دمك ، في أحشائك ، وتجعلك أقوى من كل من يحاول وضع النير على رقبتك . »

– « هذه القوة التي في داخلي لن أستطيع أن أهبها أحداً ، ومن العبث ان أحاول . كنت أحفظ مقاطع كاملة من « داس كابيتال » فيما مضى ، بحثاً عن التغيير ، مهما يكن مصدر القوة المغيرة . ولكنني الآن لا يهمني أن أتذكر كلمة واحدة من ذلك كله . لا يهمني أن أغير العالم ، عالم الناس . الكومبيوتر سيفعل ذلك عوضاً عني . »

– « ولكنك بتعلقك بالكومبيوتر واستعماله ، إنما أنت تغير العالم ، بمشيئتك . أمّا الى أفضل أو الى أسوأ ، فمسألة أخرى . »

– « النتيجة الحاصلة تقررها المادة الخاضعة للعملية ... مع ذلك ، لا أظنّني اريد أن أغيّر العالم . ماذا تقولين يا مريم ؟ هل تريدين أنت أو هشام تغيير العالم ؟ » ويقدّم إليّ صندوق الشوكولاته الفاخرة لآخذ قطعة منها .

فأقول ، وأنا أخرج الحلوى من ورقتها المذهبة : « أنا لا أفكر بكلايش العظماء . تغيير العالم أو تغيير التاريخ – كلايش كبيرة أسمعها كل يوم ولا أعرف معانيها بالضبط . »

وينبري ابراهيم الحاج نوفل قائلاً : « تسمعينها كل يوم ، ولا تعرفين ، كما لا أعرف أنا ، من يؤمن بها ايماناً يضع تفكيره كله ، ونشاطه الحياتي كله ، في اطارها . عگرگتة وحچايته حگة – وتبقى الحكاية ،

مهما كبرت ، مجرد حكاية . »

ولكن وليد يفاجيء ابراهيم بقوله : « لا يخدعنّك عامر ، يا ابراهيم . انه ، رغم كل تنصله ، يسعى ليل نهار لجعل الكليشه حقيقة واقعة . » ويتناول بضع فستقات من الصحن الحشي المحفور ، ويقشرها ويلتقمها واحدة واحدة ويقول :

— « عامر ، في زاوية مظلمة من نفسك . هــذه الكثيرة الزوايا والظلمات ، أنا واثق من انك تحتفظ بأمل عزيز عليك ، كجوهرة أودعتها في مصرف فاطمأننت الى وجودها دائماً هناك ، مهما تجاهلت أو سخرت . هذا الأمل هو أن شيئاً مـا جعل فعلاً يتغير في المدينة ، في المجتمع ، في الناس ، بتـأثير نظرياتك الأسلوبية ، والمباني التي أقيمت بموجبها . مكتبك الذي يخطط بمساعدة الكومبيوتر الطرق والعمارات والمـدن الناشئة عـلى شطآن الخليج كلها ، آلة هائلة للأشكال ، وأنت تعرف ذلك . لا يهمك أن تغير العالم ؟ لا بأس . ولكنك تعلم ان الأشكال إذا تغيّرت ، تغيّرت مضامينها ، كما تغير المضامين الأشكال بالضبط . ولـذا فإنك تتمنى سراً ، وأنت تعمل على تغيير الأشكال والصلات المادية التي فيما بينها في محيطك هذا ، ان يتبدل في النهاية أيضاً شيء ما وراءها ، لكيما تبرر ، ولو بنفسك عـلى الأقل ، خروجك على الناس في حياتك ، وفلسفة رؤيتك . وبين يـوم وآخر تذهب الى قبو المصرف ، وتفتح خزينتك الفولاذية الصغيرة ، لتتأكد من ان جوهرتك موجودة في مكانها ... »

ويشع وجه عامر انبساطاً لهذا القول . « اذن أنا لست وحشاً أنانياً ، كما أتصورني أحياناً ؟ » ويطلق ضحكة عالية في فضاء الحديقة ، ويجيل نظرة مرحة في وجوه الجالسين « بلسانه هذا ، يسيطر وليد على كل من يتعامل معه ، من دُبَيّ الى لندن . يستخرج الماسة من كومـة الفحم التي في صدورهم ! » ثم يعود الى لهجة الجد من جديد — مـع انه

لا يستطيع أن يحجب نغمة الهزل كلياً في صوته حتى عندما يجدّ : « في الواقع أنا تهمني عملية الشيء أكثر مما تهمني النتيجة النهائية . أنا أعجب بالارتجال البارع الذي يؤدي الى ارتجال أبرع وهكذا . عملية الشيء فن – كالرسم ، أو الشعر : تبدأ بشيء من الوحي ، بشيء من الجنون ، وتنتهي الى حيث ينظر الآخرون ، فيأخذهم العجب . »

فأقول : « التغيير لديك تجربة جمالية . »

ويقول زوجي : « وما دخل الجمال ؟ أنا لا أفهم . » فاضطر الى ان اقول له جانبياً : « أنت دائماً لا تفهم يا هشام . »

ويقول وليد : « هناك أقوام بدائية إذا سألتها ، لماذا تعمل ، أجابت نعملْ لكي نرقص ... أي لكي ننفعل حسيّاً ، وجمالياً ، وجماعياً . انه تغيير من نوع ما ، ولو لساعة . »

ويأخذ ابراهيم جرعة من كأسه : « ولكن هذا التغيير – هل يؤدي إلى الثورة ؟ » ومن حيث لا يدري أحد ، يأتي بقول غير متوقع : « يقول لينين : عندما تجد الطبقات السفلى انها لا تريد الطريقة القديمة ، وعندما تجد الطبقات العليا انها لا تستطيع الاستمرار في طريقتها ، عندئذ فقط ، تنجح الثورة . »

وتضم جنان يديها لتطلقها عالياً كعصفورين محلقين وتقول : « ويتغير العالم برمشة عين ! يا ويلي ! » .

وهكذا يسترسل الحديث في ليلة حارة من ليالي الصيف إلى ساعة متأخرة ، في الحديقة الكبيرة الهافّة بالنسمات ، والماء يثرثر على مهل من عدة نوافير منتشرة حولنا ، مع الكونياك ، والجميلات (من زوجات وغيرهن) ، وموسيقى الباروك ، الصادرة عن الستيرتو الياباني ، تقضي على الفوارق الشكلانية والزمانية بين بغداد وحواضر الدنيا ، قديمها وحديثها . ويذكر أحدهم كتاباً لوليد عن الحضارة ، ويتحدث جواد

حسي عن أن التخلف « غياب حضاري » ، وكيف يكون الصعود الشاق إلى « مسرح الحضور » ، حيث « تتأطر الأفعال بالقيم ويُحكم عليها بمقاييس العقل . » وما هي القيم ؟ هل هي حقاً كلها عقلانية ؟ وبعد صمت طويل من عامر كان فيه يصغي ولا يصغي ، يضرب بقبضته على المائدة ضربات متعاقبة قائلاً : « الحضارات كلها هنا ! على هذه المائدة ، في نسائنا هؤلاء ، في كلامك أنت ، وأنت ، في أصوات الفلوت والهاربسيكورد ، في المقام العراقي ، في لوحات جواد سليم وفائق حسن المعلقة على الجدران . اليس رائعاً أننا نستطيع أن نتذوق كل ذلك دفعة واحدة وقد جمعناه معاً من سومر ، من فلورنسه آل مديتشي ، من بغداد المأمون ، من عصر الصواريخ المتساقطة على القمر والمريخ ؟ كل ما عدا ذلك اتركوه وراءكم . أنسوه . القيم إما أن تكون حضارية أو لا تكون . وإذا اعترض أحد قائلاً إن التخلّف قائم في كل مكان نعرفه، فليعترض . التخلف لا يعالج : انما انت تتخطاه أو لا تتخطاه . فلأكن مع الذين تخطّوا التخلّف قبل أن أقع ضحية له مع الضحايا الأخرى . وليد : ليس فيّ من المسيح شيء . أرفض أن أكون ضحية . »

بالطبع ، لم يكن عسيراً على عامر أن « يتخطى » ، أو يتصور أنه يتخطى ، التخلف ، والمال لديه لم يعد مشكلة . فقد بدا انه كلما انفق، ازداد دخله . فاذا كان وليد قد عاد بشيء من المال من أبي ظبي ودبي ، فإن مقاولات عامر البنائية جعلت تصبّ عليه أموالاً لم يكن يحلم بها ، بعد أن انتشرت في معظم مدن الخليج العربي ، بما فيها الكويت والبحرين ، وله شركاء يلقون شبكتهم المليئة بالخبرات والهندسة وقدرات التمويل عبر مساحات تضمّ قرابة نصف العالم . بوسعه لذلك أن يدّعي انه يعمّر عالماً مستقبلياً في وسط عوالم التخلّف نفسها . مشكلته الوحيدة هي : كيف يحقق عن طريق ماله هذا أقصى ما يستطيع من متعة — ذهنية أو جسدية — تتكافأ مع ذكائه . « بعد سن معينة ، »

يقول : « سيكون جواز سفري جاهزاً للرحلة الأخيرة ... » كان يتصور انه بعد الخمسين لن يخشى مداهمة الموت . ولما قارب الخمسين ، وقد تضاعفت ثروتــه واشتدت طاقته على المتعة ، أجّل الأمر إلى الستين . ولعله يؤجله إلى السبعين ...

لماذا أريد أن أتحدث عن وليد ، فأتحدث عـن عـامر عوضاً عنه ؟ هل هما وجهان لعملة واحدة ، وهما على هذا التناقض ؟ الحديث عـن الواحد عندي يجر الى الحديث عـن الآخر ، فلا ضرورة للتساؤل عمن يسبق ومن يلحق . أنا عرفتها معاً ، وأعجبت بهما معاً ، وعلي أن أذكر ذلك هنا ، في البداية ، لكي أتخلّص من أي نزعة الى المداورة ، أو خوف من الصراحة . ولكن وليد أوقعني (أم أنا أوقعته ؟) في دوامة لا أستطيع التحدث عنها بالشكل الذي يرضيني . ربما ، عندما أفرغ من كلامي المتّئد الموزون هــذا ، أعود الى تلك الدوامة الّتي عصفت بي ودارت بي كالمجانين أشهراً طويلة ، ولا أدري كيف لم تنته بي الى الغرق . أم أنني غرقت ، وأنا الآن إنما أتحدث كصوت من وراء اللجج الّتي لا تبلغها يــد انسان ؟ في الأشهر الأخيرة علّمت نفسي السكون : فرضت على نفسي السكون . ولن أحتاج الى ذكاء كثير لأدرك أن ذلك يعني التمزّق من الداخل . كيف تستطيع أن توقف حركــة العجلة ، والمحور ما زال في دوران المجانين ؟ مهما يكن ، فهذي أنا . سلّمت نفسي لمذكراتي لفترة ما ، كما سلمتها لوليد ، وكان الأحرى بي أن أعود اليها . غــير انني أخشى الآن قراءتها ، كما أخشى أن أسمع شيئاً جديداً عن وليد قد يفتح في نفسي كوّة ولو صغيرة على أمل . إذا كان قد لقي حتفه ، فلا يهم كيف لقيه . وإذا كان قد اختفى ، عائداً الى فلسطين ليكافح كما كان دائماً يتمنى ، فليبق مختفياً ، يثير التقوّل والتخمين . (كل صباح أذهب الى الكلية لالقاء المحاضرات ، وأخشى ان أجد رسالة

في انتظاري تعلمني بأنه موجود في مكان ما ، ينتظر .) أما أنا ، فلن أتقوّل ، ولن أخمّن .

ما كدت أتخرج من « كلية بيروت للبنات » (التي بقيت ظلماً تسمّى، على ألسنة الكثيرين ، جونيورز كوليج ، حتّى بعد أن صارت لها شهادتها الجامعية) حتّى وجدت هشام في بغداد يتردد علينا مع أهله لغاية مفضوحة. تخرّجت مريم ، ومـا الذي تبقّى لها أن تفعل إلا أن تتزوج ؟ وهشام قـد يكبرها بعشر سنين ، إلا انه شاب وسيم في أواسط الثلاثين تتمنى نصف بنات بغداد لو انه يتقدم اليهن خاطباً (كما كانت أمه تقول) : ارسل في بعثة الى جامعة مانجستر ، في أواخر الأربعينات ، وعاد ليشغل وظيفة رسمية ، ارتفعت بـه الى مركز متنفذ — نسبياً ، على الأقل . يهوى التصوير والكاميرات ، ويكثر من السفر ، ويريد له أهله الميسورون أن يتزوج من فتاة تكاد تكون من الأسرة نفسها ، وميسورة الحال كذلك. وبسرعة ، تَمّ الزواج ، بصداق مقدّم قدره الف دينار ، ومؤخر قدره عشرة آلاف دينار ، وقضينا شهر العسل في روما ولندن ومحمدون ، ورزقنا بسيرين بعد ذلك بسنة . ومع ان ثورة ١٩٥٨ أقلقت هشام بعض الشيء أولاً ، إلا انه بعد سنة أو أقل ، جعل مركزه يتحسن ، وعُيّن مديراً عاماً . وكان في الوقت نفسه يعرف كيف يستثمر نقوده ، ونقودي، في تلك السنوات التي سبقت التأميات الاشتراكية . وفي سنتين أو ثلاث بنينا داراً كبيرة في المنصور على قطعة أرض مساحتها ١٦٠٠ متر (تحملت أنا نصف كلفتها ، وهي الآن كل ما أملك .)

ظاهر الحساب اذن : تصاعد في الطاقة المالية ، أو تحسن في الوضع المادي — إذا اعتبرنا دليلاً على ذلك اقتناءنا بيتاً جديداً ، اضافة الى بيت كان يملكه هشام سابقاً في الأعظمية ، مشرفاً على دجـلة في محلة « السفينة » ، وبيت « أهدانا » إياه أبـي في العطيفية أقمنا فيه سنوات

الزواج الأولى (وتقيم الآن فيه أمي وأختي الصغرى) . ثم الادلة الأخرى الكثيرة : سيارة لهشام . وأخرى لي ، خـــادم . ومربية ، وطباخ ، وفلاّح ، واجازات في لبنان ، وأحياناً في انكلترا . لا أنكر ان هـــذا كله أخذ يتناقص فيما بعد ، وان مواردنا جعلت تتضاءل ، في حين ان مصاريفنا بقيت باهظة على حـــالها ، واشتد بنا شعور بالضيق المادي ، ولكننا بشكلٍ أو بآخر ، استطعنا الحفاظ على المظاهر .

أما باطن الحساب فقد كان من نوع آخر : توتر صامت فيما بيننا ، أخذ يشتد الى أن انفجر . كلما اشتد انخراطنا في حلقة عامر عبد الحميد، اشتد احساسي بأنني تزوجت رجلاً لا يهمني بين الرجال . هو لا يحب ما أنا أحب ، ولا أنا أحفل بما هو يريد من الحياة . كانت ردود فعله عصبية ، تتحول فجأة الى العنف ، والتهديد بأنه سيقتلني ، أو انـــه سينتحر . وأكثر من مرة استعمل قوته العضلية فيّ ، ضرباً . وأخذني اغتصاباً (وهـــل لي أن أنسى تلك الليالي الجهنمية الطويلة ؟) . ست سنوات أو سبع من الحياة معه انتهت بي الى تخمة اليمة . جعلت أنفر من لمسته ، حتى من صوته ، وأكره اقترابه الجنسي مني . كانت غيرته تدفعه الى بلاهات من القول والفعل صرت فيما بعد أشجّعها ، عامدة . ما ذنبي إن أنا كنت جميلة ، وأجتذب الرجال دون وعي مني ؟ أيغار مـــن ذلك ؟ اذن فلأبالغ في اظهار جمالي ، واجتذاب الرجال ! أردت العودة الى الدراسة ، لاستحصال الماجستير . ذريعة للابتعاد عنه سنة أو سنتين . أردت أن أكتب روايـــة . أردت أن أدعو الى بيتي الرسامين والنحاتين والشعراء . أردت ألا أسمع كلمة عن الوظيفة والموظفين والرؤساء والمرؤوسين . أردت أن أرى مشاهير الناس في بيتي ، عرباً وأجانب — أساتـــذة ، صحفيين ، دبلوماسيين ، سياسيين . وبقدر ما جعلت أرى عـامر ، أو وليد ، مرهفاً . بارعاً ، غير متوقع ، جعلت أرى هشام

بليداً ، متكرراً ، لا أتوقع منه اثارة . ثم كان هناك الأصدقاء الآخرون : احسان ، وابراهيم ، وعلاء ، وجواد ، وغيرهم كل على طريقته نموذج ممتع — هم ونساؤهم ، صديقاتي وغير صديقاتي .

ربما كنت واهمة . فقد أصبت بصداع نصفي جعل يتردد عليّ ويلازمني . وجعلت أتمنى حياة الآخرين ، وأرفض حياتي أنا . أتسلى قليلاً بحبيبتي سيرين ، أعلّمها الرسم ، ورقص الباليه ، وأقرأ لها حكايات من ألف ليلة وليلة . ثم أنحدر الى اعماقي الخاصة ، الى ظلماتي الخاصة ، في انتظار رؤية أحد هؤلاء الأصدقاء ، أو مخابرة تلفونية منهم . وكان بعد ذلك عامر . وكان بعد ذلك وليد . وجاء يوم وراح يوم . وجاء يوم آخر... كنت في العشرين ، ثم صرت في الثلاثين . وأخذت أرتعب لمقدم الأربعين . وأخيراً اصبحت امرأة حرّة ، مرة أخرى — نعم . مسافرة ، طالبة ، اكتب اطروحة تاريخية — نعم . امرأة متجددة ؟ لست أعلم . يجيء يوم يلتهب كنيران البراكين ، والتهب معه كنيران البراكين ، ويعود جسدي الى ذلك العنفوان الهائج المسائج القديم ، ثم تعاودني الشقيقة ، وأصرخ من الألم والارق ، ولا أتعلم شيئاً ، وأبدو انني مريم تلك الأولى ، مريم التي يتغزل بها الطلاب والأصدقاء ، ولا تستجيب بكبريائها لأحد ، إنما حصوني قد سقطت ، وأسواري انهارت . وحالما تتيح لي المحاضرات متسعاً من وقت ، سأجلس وأكتب . كل شيء .

كان هشام صديقاً لعامر منذ أن التقيا في انكلترا ايام الدراسة . عادا الى بغداد في السنة نفسها . وعملا معاً في دائرة واحدة لفترة من الزمن . ولكن هشام بقي موظفاً ، يرضى بكفاف الراتب ، بينما استقال عامر من الوظيفة وانطلق في المسارات التي كان يصعب التكهن بها قبل الثورة ، وعاد من احدى سفراته الى الخارج بزوجة انكليزية شقراء : وما حقق كل من هشام وعامر في النهاية إن هو الا ما كان كل منهما يستحقه ،

ولا يستحق غيره . وعندما التقيت ، بعد زواجي ، بعامر وزوجته آن ، لم أنسجم معهما على الفور . ولكنني جعلت احب آن ، لبساطتها ، لجمالها ، « الكلاسيكي » الهادىء لاهتمامها بأصدقاء زوجها ، لاهتمامها بنا بوجه خاص . وفي سنتين أو ثلاث تغير موقفي ، وجعلت أود عامر أيضاً ، وأنا أراه يتغير ، وينضج ويزداد أصدقاؤه ، وتزداد جاذبيته . وآن اكبر عون له . تعنى بولديهما الاثنين ، وتبقى في الخلفية من اطار حياة زوجها الدائبة الحركة ، وتبدو وكأنها لا تطالبه إلا بأن تبقى قريبة منه ، تخدمه ، وتداريه ، ورغم ذلك تبدو وكأنها ، بعينيها الحالمتين ، وشفتيها البسّامتين ، وعنقها الطويل ، قد نزلت للتوّ من احدى لوحات غينز بورو . على عكسي أنا ، قطعاً . فقد كان ظاهراً ان هشام هو الذي يقف في الخلفية من لوحة حياتنا . ولعل الانجذاب بيني وبين آن كان أيضاً انجذاب القطبين المتضادين . كما ان انجذاب عامر لي كان لاختلافي الصارخ عن زوجته ، ولا شك ، بقدر ما جذبني اليه اختلافه عن هشام .

غير ان هذا الكلام فيه تحجّج بالغ ، وتبرير لا يقنعني حتى أنا التي أقوله . فقد جاءت فترة في حياتي — وعلاقتي بهشام على أسوأها ، إذ انفصلت عنه وعدت الى بيت أمي وأختي — كنت فيها كالهشيم الذي يشتعل لأقل شرارة . تعلّقي بوليد أيامئذ ، وبعد ذلك ، كان أسهل ، ومنطقياً أكثر ، لأن وليد كان في عداد العزّاب ، وزوجته منذ سنين نزيلة مستشفى المجاذيب في بيت لحم ، والكل يعرف ذلك . أما مع عامر ، فكان علي أن انسى (ولا استطيع ان انسى) أنّ زوجته صديقتي واني احبها . وكان عليّ ان اقنع نفسي بأن عامر يستحق مني الحب الذي يريد ، لانه رجل غير عادي ، بل لا يخلو من عبقرية . حتى عدميّته كانت جزءاً من عبقريته ، والعلاقة بيننا جزء من هذه العدمية . ولا أنكر انني وجدت متعة شريرة حين وجدت أنوثتي تستدرج رجلاً مثله ، متعالياً ، أنوفاً ، مرموقاً ، يخالط النساء والرجال بالعشرات ،

ليتهي الى صدري أنا ، طفلاً ساذجاً ، عاجزاً ، يطلب مني حمايته من العالم ... أي حماقـــة ، وأنا الواقعة بين حجريْ رحى : بين اندفاعاتي المهووسة ، وبين شقـــائي الزوجي — انظر الى وجهي في المرآة وأحس بجماله احساساً نرجسياً ، ولكنني أحس أيضاً بلعنة تخالطه ، ولا أعرف أين تكون حمايتي منها .

في تلك الليلة ، وأنا في زيارة لسوسن عبد الهادي — زيارة بريشـــة اصديقة كانت أقرب اليّ من أختي ، صديقة ترضى بأن تصغي باهتمام وعطف الى تفاصيل مشكلاتي مع هشام وأهله ، وأهلي ، ولا سيما بعـد الانفصال القلق الذي جعلني لا معلقة ولا مطلقة — في تلك الليلة ، جاء عامر أيضاً لزيارة سوسن وعلاء . ولكن علاء لم يكن في البيت — كان مسافراً الى البصرة أو الموصل في عمل ما ، الأمر الذي جعلني أعتقد أن الزيارة كانت مدبرة ، لأن سوسن تعرف انني سأقضي السهرة عندها — بل انها جاءتني الى البيت بنفسها واخذتني بسيارتهـا . وعامر يعرف أن علاء غائب في سفر ، وجاء بحجة رسم صورته دون مرافقة آن ...

أولاً ، طبعاً كانت الزيارة مدبرة ... فلأعترف بما حدث بالضبط ، ولا الجأ الى اللف والدوران ، كما لجأ عامر ، في جعل ذلك اللقاء يبدو وكأنه مجرّد صدفة . ذهبت يوماً لزيارة سوسن ، فوجدتها ، كالعادة ، ترسم . واذا اللوحة التي عـــلى المسند ، والتي كانت تعمل عليها قبيل دخولي ، « بورتريت » غير كاملة — في مرحلتها الأولية ، لوجه بدا مألوفاً لدى . وقلت : « سوسن ، هذا الوجه اعرفه — ام انني واهمة ؟ »

فألقت الريشة من يدهـــا في مزهرية ملأى بريش من كل حجم ، وهتفت : « يا حبيبتي ! طبعاً تعرفينه . اليس الشبه ظاهراً ؟ »

— « لمحة منه ... الصورة في أولها بعد . هل أجرأ فأقول من أظنه هو ؟ »

– « عامر عبد الحميد . وفّري عليك التخمين ! »

طمأنتها : « لا ، اكيد ، هو ... الشبه ظاهر . »

مسحت يديها بخرقة ملوثة ، ثم استصحبتني الى الحمّام لكي تغسل يديها ، وهي تقول : « زوجته آن هي التي ارادت الصورة . وانا كما تعلمين اخشى رسم الاشخاص . استطيع ان ارسم نفسي . اما الآخرون ، أف ! من يستطيع أن يرضي غرورهم ؟ ولكن عامر يتمتع بوجه قوي التعبير . أليس كذلك ؟ الوجوه التي كوجهه يعجبني أن أرسمها . آن تريد اللوحة لغرفة النوم . »

عدنا الى غرفة الجلوس ، وهي أيضاً الغرفة التي ترسم سوسن فيها ، وناولتني سيكارة وأشعلتها ، وأخذت هي واحدة ، وقلت ، واللوحة تقابلني على المسند في ركن الغرفة : « المهم ان تبرزي هذه القوة التي تذكرينها . الشبه غير مهم . »

– « سأحاول . تعرفين قصة بيكاسو عندما رسم غيرترود ستاين ؟ انتهى من البورتريت ، فقال له أحدهم : بيكاسو ، هذه الصورة لا تشبه غيرترود ستاين . فأجاب : ستشبهها ، ستشبهها ... وتعتقد غيرترود ستاين انها فعلاً تغيرت فيما بعد لتشبه هي لوحة بيكاسو ! »

فضحكت ، وقلت : « أرجوك ، سوسن ، اجعلي الصورة في شبهه ، ولو بمقدار ، واتركيه على حاله ! »

هزّت رأسها ، وأخذت نفساً عميقاً من سيكارتها ، وقالت وهي تنفث الدخان في وجهي : « أعرف اهتمامك المكبوت به . اعقلي يا مريم . »

وخطر لي في تلك اللحظة ان استنجد بها . « تخافين عليّ ؟ ساعديني . »

– « كيف ؟ أيعرف هو اهتمامك به ؟ »

– « هل هناك رجل في الدنيا تهتم به امرأة اهتماماً خاصاً ، ولا يعرف في الحال ؟ اسمعي ، هل يأتي اليكم كثيراً ، لكي ترسميه ؟ »

— « أتى الليلة الماضية ، والتي قبلها ، طبعاً كان علاء في البيت . »

— « هل أتى وحده — بدون آن ؟ »

— « وحده . لماذا يصلب زوجته ، وأنا أرسمه ؟

— « سوسن . في المرة القادمة ، أخبريني . » .

— « ولكن علاء سيكون هنا . »

— « اجعليها مرة حين يكون علاء غائباً . أعرف أن أعمال علاء تأخذه باستمرار الى الموصل والبصرة . »

— « ليوم أو يومين ، نعم . »

— « ألا يكفي ذلك ؟ »

— « آخ منك ... أتحبّينه فعلاً ؟ »

— « جداً ... وهو يعلم . »

— « اتفقنا على ألا يأتي غداً ، أو بعد غد ، لأن علاء سيكون فعلاً مسافراً . »

— « اذن تلفني له . اطلبي منه أن يأتي غداً ، مساء ... ارجوك . وتعالي إليّ ، واحضريني بسيارتك ، لئلا تُرى سيارتي خارج المنزل مع سيارته ... هه ؟ »

— « طيب ، طيب . وهشام ، كيف هو ؟ »

— « لم أره لأسبوعين . يحاصر بيتنا أحياناً مطالباً بخروجي اليه ... يذهب الى بيوت الأصدقاء علّه يجدني هناك ... مصيبة يا سوسن . »

أرادت سوسن ان تمتحنني ، وكأنها تتساءل : الى أي حد تستعد هذه المرأة المهووسة بعامر ان تندفع ؟ ولعلها أرادت أن تمتحن عامر أيضاً : هل يخفي وراء قناعه المتزمت الشامخ انساناً من لحم ودم ؟ ولكن الى أي حد كانت هي نفسها بريئة من دوافع أخرى يصعب تعيينها ، عندما وافقت على تدبير ذلك اللقاء ؟

كان فرحي هائلاً ذلك المساء. كدت أكون وحدي مع عامر، لأول مرة بعد معرفتي به طيلة السنوات، في تلك المكتبة الصغيرة التي تؤثرها سوسن على غرفة جلوسها، ورحنا نتكلم بطلاقة وصراحة. وعندما تركتنا سوسن وحدنا، لتهيئة بعض الطعام في المطبخ، وقعت بين ذراعي عامر كامرأة حرمت الحب سنين طويلة، أقبّله ويقبّلني، فتنهار بيننا السدود، وأود لو يطالبني بكل ما أملك فأقدمه له راضية في الحال. (وخطر لي في تلك اللحظات خاطر من حيث لا ادري، وهو ان وليد أيضاً قد يقبل عليّ بتلك الحرارة لو أردت!)

وفجأة دق جرس الباب. آه، أيها الضيف الطارق، يا هادم اللذات، من جاء بك في تلك اللحظة المسروقة الرائعة؟ دخلت علينا سوسن مضطربة، وأنارت ضوء المكتبة الكبير – إذ كانت الغرفة خافتة الضوء فقط – وقالت، وقد انخطف لونها: «زوجك هشام! انه واقف بالباب. رأيته من نافذة المطبخ.»

– «أف! كعادته، يذهب من بيت لبيت باحثاً عني.»

– «ماذا تقترحين؟»

– «لنخرج اليه معاً. وتمالكي جأشك. ولكن لا تطلبي اليه الدخول.»

عامر وحده لم يضطرب. وقال ضاحكاً: «أأخرج أنا اليه؟»

فقالت سوسن: «أبداً! ابق مكانك!»

وخرجنا أنا وسوسن الى الباب، وهشام على بعد عشرة أمتار، واقف عند البوابة الحديدية. وهتفت سوسن: «هشام! أهلاً وسهلاً!»

ولكنه صاح: «هذه مريم عندكم!»

فقلت: «نعم. ماذا تريد؟ فضحتني بين الأصدقاء والأقرباء، ذاهباً من دار لدار، دونما حياء، تسأل عني! ماذا تريد؟»

وتقدمنا أنا وسوسن في اتجاهه ، وتقدم هو في اتجاهنا ، ووجه كلامه إليّ ضارعاً بنبرة متصاعدة : « مريم ، أرجوك ، خلّي عقلك في رأسك . تعبت . أريد أن تعودي إليّ . تعبت يا مريم . هلكت ! »

— « اش‌ش .. لا ترفع صوتك ! أتدري من في الداخل ؟ علاء ، وعامر وآن . خرجنا اليك ، لكي لا يسمعوا كلامنا . لكي لا يسمعوا عياطك . »

وقالت سوسن ، مسعفة إياي : « هل تتفضل بالدخول ؟ ولكن ، ألا تتصور أن دخولك وأنت على هذه الحال سوف ... »

— « طبعاً ، طبعاً ، سوسن ، لا ، مستحيل . انــا لا أستطيع مجابهة أصدقائي على هذه الحال . ولكن ليتك تقنعين مريم بأن تعود إليّ ، بأن ترافقني الى البيت — الآن لو أمكن ... »

فقلت ، متساهلة : « طيب ، طيب ، هشام . لا تجعلنا نطيــل الفصل . سوسن ، أنت عودي الى الجماعة ، لكي لا يتساءلوا ويخرجوا الينا . سأرافق هشام ... هشام ، سأرافقك ، ولكن الى بيت مامــا . فاهم ؟ »

فقال ، وكأنه لم يتوقع تلك الاستجابة السريعة : « زين ، قبلت ... يلاّ . »

— « انتظر . عد الى السيارة . سأحضر جزداني ، وأعود اليك . »

وعاد هشام الى سيارته . وأسرعت مع سوسن الى داخــل البيت ، ونحن نقول : أقنعناه ! أنقذنا الموقف ! تجنّبنا الفضيحة ! وقلت لعامر ، وهو بكل برود يتصفّح كتاباً أخذه عن رفوف المكتبة : « سأذهب ، وأعود . انتظرني ... سوسن ، سأعود ! »

وفي السيارة عاد هشام الى توسلاته ، وتهديداته ، ومد يمناه الي وهو يسوق ، ثم أحاطني بذراعــه وجذبني اليه بقوة ، وقبّلني ، وأنا أتقزز

من لمس يديه وشفتيه . ولم أحاول تصعيد المناقشة ، متحمّلة رحلة العودة كثمن لا بد من دفعه للتخلص منه تلك الليلة، الى أن بلغ بي بيت امي في العطيفية . نزلت ، ونزل معي ، وأراد استصحابي الى الداخل ، فرفضت . وقلت : « والله ، إذا لم تذهب الى البيت ، في هذه اللحظة ، سأزعق، وأجمع أهل المحلة كلهم عليك ! »

عـاد الى سيارته ، راضياً ، حانقاً ، لست أدري ، أدار المحرّك وانطلق فجأة بسرعة صاخبة . أما أنـا ، فقد تريثت بضع دقائق ، ثم دخلت سيارتي ، وتقهقرت بها الى الشارع ، وانطلقت بسرعة صاخبة أيضاً ، الى بيت سوسن . ولكن من طريق آخر ، وأطول ، وآمن .

إذا انهار السد ، جرفتك المياه الى حيث هي تشاء . لم أكن مشلولة الارادة فحسب ، بل محمولة على قوى غامضة تنطلق بي الى نقطة ينعدم عندها المنطق والتفكير ، وفي داخلي وهج رائع ، راعب لم أعرف مثله من قبل . عندما تتخطى المرأة الحاجز الأول ، تتساقط الحواجز الأخرى دونما جهد كبير . ولذا عندمـا فتحت لي سوسن الباب ثانية ، قلت « آسفة يا عزيزتي لأنني أزعجتك هذه الليلة . هلو عـامر ! » وسرت اليه ، وكأنه الحب الوحيد الذي عرفته في حياتي ، وعانقته بجنون على مرأى من سوسن ، وليكن ما يكون ! ولتهنأ سوسن باكتشافها الحقيقة كلها التي ما عدت أستطيع مراوغتها ! كـل سر جـاوز الاثنين شاع ؟ فليشع !

لم يشع السر ، بقدر ما أعـلم ، وعدت الى هشام ، والى منزلنا ، كأنني أعاقب نفسي على خطيئتي ، وحاولت استئناف حياتنا معاً ، والحفاظ في الوقت نفسه على صلتي الخفية بعامر . ولكن نجاحي كـان ضئيلاً ، لا لأن تعلّقي به كان يتدخل ويفسد المحاولة — والواقع ، أن عامر أصر على ضرورة عودتي الى الحياة الزوجية ، والتستّر على أمري بحزم وشدة —

بل لأن وجه عـامر الثاني ، وليد ، تدخّل وأنا في غفلة من أمري ، والحواجز أمامي كلها متساقطة ، وأقحمني في تجارب كنت أخشى ، حتى تلك الآونة ، أن أجاهر نفسي بها – وإذا بـي الآن أريد أن ألاحقها ، وأسجّلها على الورق . تحوّل هشام الى رقّة وحـلاوة ، أول الأمر ، وعدت الى بيتنا بنشاط من أسعف بدم جديد ، ومقوّيات طبية . الحب جعلت اعرفه لأوّل مرة – محرّمـاً أو غير محرّم . ما عدت أتريث للتساؤل . إنما المهم انني عدت الى هشام برضا جديد ، كأنني أبغي أن أجازيه خيراً على انه اتاح لي ما لم يكن في حسباني ، وهو لا يدري ، وفي الوقت نفسه أوازن في نفسي مواقف وعواطف متضاربة . ويوم طلبت اليه ان يسمح لي بالذهاب الى لبنان لقضاء أسبوعين أو ثلاثة – وتموز يصب شواظه في طرقاتنا – لم يمانع ، وقال : « هذه هديتي لك يا حبيبتي ! » واعتذر عن ان عمله لن يسمح له بمرافقتي ، وكنت أعلم ذلك ، متعللاً بأنه ربما سيلحق بـي فيما بعد لبضعة أيام .

هل اردت الذهاب الى بيروت لانني املت ان يكون في ابتعادي عن بغداد ابتعاد أيضاً عن نفسي الموزّعة ، فأرى موطىء قدمي بشيء مـن الوضوح في هذا الطريق الوعر المظلم الذي اخترته عامدة لما فيه من خطر وإثارة ؟ أم لأنني ، ببساطة ، كنت أعلم أن عامر هناك ؟

كان عامر قد اشترى في شملان داراً من تلك الدور الجبلية القديمـة التي تبدو من بعيد كأنها ترصّع منحدرات الجبل ، بين أشجار الصنوبر والصخور . كثيراً مـا وصفها لأصدقائه ، أشبه بفارس يصف فرساً يعشقها ، ويدعوهم اليها إذا هم ذهبوا الى لبنان في الصيف ، وكـان هو فيها مع عائلته . كان يتحدث عـن أشجار الصنوبر ، والجوز ، والتين ، والكروم ، والعصافير التي تصمّ الآذان في الصباح بتغريدهـا ليتلوها ، إذا مـا ارتفعت شمس الظهيرة ، صرير ملايين الزيزان ...

عرفت ذلك كله أيام دراستي في بيروت ، وبتّ الآن أتوق الى أحاسيس تلك الأيام العذراء التي أخذت تتراءى لي ، وسط ضجيجي النفسي العاتي، كجزر نائية من التناغم والصفاء وسط بحر غاضب متلاطم .

ساعة حطت الطائرة في مطار بيروت ، ونزلت مع الركاب الى قاعة جوازات السفر والأمتعة ، شعرت كأنني انطلقت من أحـــد قماقم سليمان الى الفضاء الفسيح : ولكي يجدني أحدٌ ، لم يكن عليه أن يعـــبر مدينة النحاس – مدينة الموت والقنوط . هذي أنا ، مريم الصفار ، جنية تمرّدت عـــلى ظلم سليمان ، وكسرت ختم الرصاص على قمقمه ، تملأ فضاوات الدنيا ورحابها ، وتحت قدمهـــا تغور وتتلاشى مـــدن النحاس كلها ، الى الأبـد . أو ، عـــلى الأقل ، لأسابيـع ثلاثـــة . وأول ما فعلتُ حالما استقرّت بـي امتعتي في غرفة مبرّدة في أحد الفنادق القريبة من الحمراء ، أنني اتصلت تلفونياً بشملان ، بالرقم الذي كان أعطاني إياه عامر . كان الاتصال بطيئاً ، وكأنما البطء يقصقص جناحي . ثم جاءني صوت من الطرف الآخر . عامر عبد الحميد ؟ غير موجود ، آسف . هل سيعود ؟ نعم بعـد ثلاثة أسابيع . هل غادر لبنان اذن ؟ نعم ، الى لندن ، مع العائلة : من يريده ، رجاء ؟ غير مهم – هذا ما قلت ، وأنا بائسة (هل هرب عامر مني عن قصد ؟) وكدت أسدّ التلفون ، لولا انه خطر لي ، في اللحظة الأخيرة أن أسأل : « مـــن يتكلم ، من فضلك ؟ » فأجاب الصوت : « وليد مسعود . »

– « وليد ؟ صدق ؟ »

– « السيدة عراقية . اظن انني أعرفك ؟ »

– « طبعاً تعرفني . الغريب انني لم اعرف صوتك . »

– « الصوت بعيد ، وغير واضح . »

– « انا مريم . »

– « الصفار ؟ »

— « نعم . »

— « أهلاً وسهلاً . متى وصلت الى لبنان ؟ »

— « اليوم . قبل لحظات . »

— « وهشام ؟ »

— « جئت وحدي . هشام قد يجيء بعد مدة . »

— « هل من خدمة ؟ »

— « لا ، شكراً » .

— « هل يمكنني أن أراكِ ؟ »

— « لم لا ؟ » (قلت لنفسي : اثقلي يا مريم !)

— « أيعجبك ان تري بيت عامر هنا ؟ »

— « لم لا ؟ من يقيم فيه الآن ؟ »

— « انا . تعلمين ، انا لدي مفاتيح البيت ، دائماً . »

— « كيف المجيء الى شملان ؟ عن طريق عاليه وسوق الغرب ، على ما أذكر ؟ »

— « بالضبط . »

— « طيّب . »

— « في أي فندق أنت ؟ »

— « في الماي فلاور . »

— « ورقم التلفون ؟ »

— « لا أعرفه . »

— « تجدينه مسجلاً على جهاز التلفون ، امامك . »

فأخبرته به . وخشيت انه سينهي المكالمة ، لأن موضوعها انتهى . فسألته :

— « أترى أحداً من الأصدقاء هنا ؟ »

— « اصدقائي هنا كثيرون . اتحبين ان تتعرفي على بعضهم ؟ »

– « نعم . انا ايضاً اعرف اناساً كثيرين هنا . تذكر ، انني قضيت اربع سنوات في الدراسة في بيروت . »

– « اذن لن تشعري بالوحدة ؟ »

– « أبداً . »

– « اسمعي . »

– « نعم ؟ »

– « غداً عندي عزيمة . على عشاء . »

– « أين ؟ »

– « هنا في شملان . عزيمة كبيرة . أتأتين ؟ لك ان تحضري من تريدين من أصدقائك . »

(قلت لنفسي : اتّزني يا مريم ! ثم :)

– « من المدعوون ؟ »

– « آه ... كتّاب ، شعراء ، صحفيون ، مصرفيون . »

– « أعرف ذوقك . سآتي . »

– « في الثامنة مساء . اسألي عن دكان أبو رزّوق . ثم اسألي الدكان عن دار العراقي . واضح ؟ »

– « واضح . »

– « إلى اللقاء غداً ، إذن . »

– « مع السلامة . »

في الليلة التالية وصلت إلى دار العراقي متأخرة ، رغم كل توقي إلى الوصول . ولكن ما همّ . لم اشاهد قط في حياتي حشداً كبيراً من ذوي الأسماء ، اللامعة وغير اللامعة ، كما شاهدت في تلك اللحظة . كان هناك على الاقل سبعون أو ثمانون رجلاً وامرأة انتشروا في ارجاء البيت الصغير ، والشرفة الطويله ، وتحت الأشجار المنتصبة بين صخور

الحديقة . وراح وليد يعرّفني على هذا وذاك . وانـــا اجفل بين الحين والحين إذ اسمع اسماً قرأت له ، أو قامت حوله ضجة . كان الرجال متساهلين في نوع الملابس التي يرتدونها ، غير أن النساء كن أنيقات ، مزوقات ، بديعات الشعر ، والغرفة الكبيرة المعتمة الا من ضوء الشموع مكتظة بمن فيها ، وقد جلس الكثير من الضيوف عــلى الأرض أو الوسائد الملقاة عليها . وفي الدقائق الاولى احسست بغربة مزعجة ، اذ لم ألق احداً أعرفه ، سوى وليد . فتمسكت به اول الأمر ، وهمست له : « دير بالك عليّ . لا تتركني وحدي . » فضحك وقــال : « لا تخافي . سيسعون اليك ، على الرأس قبل القدم . » وبالفعل ، ما كدت استقر على كرسيّ تنازل لي عنه احدهم ، حتى رأيت رجلاً يخطو من بعيد نحوي ، ويسأل وليد ، على مسمع مني ، والكأس في يــده : « السيدة من العراق ؟ » ثم همس له بالانكليزية ، وأنا ما زلت اسمعه : « جمالها يدوّخ ! » مما رفع من معنوياتي كثيراً . وقدّمه اليّ وليد . ثم جاء آخر ، وآخر ، ثم توقفت عندي فتاتان قالت احداهمــا إن امها عراقية ، وقدّم لي شاب يلبس قميصاً مفتوحاً على صدره المشعر وبنطلوناً من الجينز كأساً من الخمر ، وقال : « نبيذ ؟ ام ويسكي ؟ » قلت « نبيذ ، أحمر ... رائع ! » ودار الكلام في الحال عن كل شيء ، ولا شيء . كان النبيذ حقاً رائعاً . ووليد يدور بين المدعوين ، ويعود اليّ . ويهمس : « أتسمعين التعليق ؟ يعلّقون على شعرك . وعينيك . ويقولون إن نساء العراق عندما يكنّ جميلات ، يكون جمالهن قاتلاً . مريم ، اين كنت حتى هــذه الليلة ؟ » وصاح بي شاعر معروف . يردد الصدى : « اين كنت حتى هــذه الليلة ، يا سيدتي ؟ وجهك مرمر ، وشعرك خضّب بالذهب ... » فأجبته (وأنـــا اجيب وليد معه) : « في انتظار كلمة منك ، في انتظار لؤلؤة ، يا سيدي ! » واتفقنا جميعاً عــلى أن العراقيين كلهم شعراء : محاربون وعشاق معاً

وقال احـــد الواقفين : « لأن نساء بغداد منذ القدم جميلات و ... متمتّعات ؟ » فقلت : « طبعاً ، والاّ فمن أين يأتي الالهام ؟ » وقال الشاعر : « يا ستّي ، الالهـــام خطر ، رعب . » وضحك الجميع . وقال وليد : « الالهام هو أن تتلاشى فيما ترى – ولا أقصد فيما تـــرى بصرياً ، رؤيوياً ، حلمياً ، أي فيما تـــرى اضافة إلى رؤيـــة العين . كتجربة الفنان السومرى قبل خمسة الآف سنة . اتذكريـــن المنحوتات السومرية الغريبة لرجال ونساء واقفين ، في كل منها تكون العينان متسعتين اتساعاً مذهلاً بحيث تملآن معظم الوجه ، وتكحّلان بالقير الأسود تأكيداً على اتساعهما ، لأن صاحبها على اتصال برؤية مـــا بعيدة ، عميقة ، خارقة ، بينما تجدين يدي التمثال صغيرتين لحد التلاشي . لمـــاذا ؟ لأن اليدين الصانعتين هما التأكيد على وجود الجسد ، والجسد في تجربة الفنان هنا ، يتلاشى ، لأن العينين الرائيتين ، نافذتي الروح ، اصبحتا كـــل شيء ، واصبح الجسد لا شيء ... هذا هو الالهام . يكاد يكون انتقالاً من حالة الانسنة إلى حالة الالوهة ... » وسكت . ونظر اليه الآخرون . ونظرت اليه بعينين واسعتين . وقـــال الشاب لابس الجينز : « كلنا عيون ، وليتلاشَ الجسد ! ولكن لا هـــذه الليلة ... الجسد مهم يا وليد ، مهم . » وجاءنا المزيد من النبيذ .

لم يكن من العسير أن أرى أن من بين النساء الكثيرات كانت هناك امرأتان تدوران حول وليد بشكل لا تخطئه امرأة ، كما تلقيان اهتمامـــاً من الجميع : رباح كمال وحنان عواد . وقد شعرت انهما ، على نحو ما ، تنتميان إليّ – أو انني أنا انتمي اليهما . رباح حسناء اشبه بحيوان بري شارد تقارب الاربعين ، ولو أن لها قوام فتاة في العشرين ، علمت فيما بعد أنها أرملة لبناني ثري : طروب ، ربما ، ولكن بأنفة ارستقراطية لا تخشى الناس ، ولا يمس شخصيتها البراقة أي تبذّل ، مهما تبذّلت . اما حنان – لماذا قالوا تلك الليلة إنني أنا الجميلة ؟ – فقد كانت امرأة

رائعة ، دون الثلاثين حتماً ، لها شعر أسود قصير على بشرة بيضاء نضرة وخدّان وردّيان وعينان زرقاوان تؤكد علـى روعتها بالكحل والآي شادو . تتكلم وتضحك باستمرار ، وتفيض فتنتها على المكان بأجمعـه (ويبدو أن لها مشاكل من نوع مشاكلي ، المسكينة !) لم يخفَ عليَّ أن بعض ما يجمع بينهما اهتمام خاص بوليد (أو حبٌ ؟) . « وليد ! وليد ! وليد ! » كانتا تتقاذفان اسمه ، كأنهما تتقاسمان مغازلته ببراءة ماكرة . وانضمتا اليّ بعد قليل ، وجعل اسمي يتردد على شفاههما بحلاوة عجيبة : « مـريم ، مرغريتا ، ماروشكا ... » لم أفهم شيئاً . لقد ضمّتاني إلى ناديهما بحرارة هائلة : النادي الوليدي .

كيف كان ذلك كله ممكناً بتلك السرعة الغريبة ؟ الخمر تختزل الزمن ، وبعد أيام الخيبة ، والالم ، والمراوغة ، بعد أيام الصبر والتحمل والثورة الداخلية ، بعد أيام الجفاف والقحط والظمأ ، تتحقق النشوة في لحظات ، كهلوسة تحمل الذهن والحواس كلها في سفرة صاروخية إلى عالم مـن السديم الضاحك ، اللذيذ ، النظيف . بدأ الدوران ، ولا دوار . كنت في حركة بين أناس جادّين ماجنين يصطنعون السذاجة ويصطنعون المكر ، أصدّق كل شيء اسمعه ، ولا أصدّق شيئاً مما اسمعه . وعيني على وليد ، تلاحقه ايما دار بينهم ، ومهما شغلوني بمحاوراتهم : رجـل متميّز بصوته ، بضحكته ، على صدغيه وسالفيه مازج البياض السواد . عيناه كعيني النسر في اتّقاد ، وفمه العريض يوحي بالعناد والقوة والإغراء . سألتني رباح : « منذ متى تعرفين وليد ؟ ببغداد ، طبعاً ؟ » قلت : « أوه ، منذ أربـع أو خمس سنوات ... وأنت ، منذ متى تعرفينه ؟ فقالت : « منذ أن فتحت عيني ! منذ عشرين سنة . منذ أن كان في القدس ، لا يعرف احداً ، ويعرفه كل احـد ... » ثم همستْ في اذني : « لا تقولي لاحد ، ماروشكا . وليد اول رجل قبّلني ... ولكنه لئيم ، لا يتابع ما يبدأ . طبعاً كنت على وشك الزواج ايامئذ وتزوجت ...

و .. دعينا مـــن سيرة حياتي ، يا حبيبتي . اتحبين ام كلثوم ؟ رأيتها في القاهرة مؤخـــراً تغني « أنت عمري » . اتحبين « أنت عمري ؟ » يجب أن تـــري ام كلثوم وهي تغنيها . تجنّن ! كيف أتصل بك غداً ؟ ... »

لم اعرف بالضبط ما صلة الاغنية بموضوع حديثنا . غير مهم . المهم الحديث . المهم انني كنت قد انطلقت ، حتى من شباك عامر وعقائده التكنولوجية . ولن تعود الجنّية إلى القمقم بعد الليلة . واردت لرباح ، ولحنان كذلك ، أن تعرفا انني لا أقل عنهما اهتماماً خاصاً بوليد . بـــل ها انه يعيرني من الاهتمام ما لا يعير غيري . يطير عني كالعصفور ولكن رجله مربوطة بخيط في يدي . اسحب الخيط ، فيعود مرفرفاً إليّ .

ولما أخـــذ المدعوون بعد العشاء ينسحبون وبعضهم يقترح الذهاب في جماعات إلى ملاهي الجبل ، لم اترك له مجالاً للشك في ما عزمت عليه. قلت له :

– « أنا باقية . سأكون آخر من يذهب ... »

فضغط على ذراعي وقال : « لنشرب القهوة وحدنا على الشرفة بعد أن ينصرف الجميع . »

حوالي الثانية صباحاً ، كانت رباح وحنان من اواخر من نزل إلى الطريق حيث السيارات تنتظر . ولكن حنان تلكأت قليلاً ، وسألتني . « أنزل بك إلى بيروت ؟ » فقلت : « لا ، شكراً . » فنظرت إليّ بعينيها الزرقاوين نظرة بديعة فاهمة ، ثم قالت : « يا ويلك منه ! باي باي ! »

واخيراً ، بقينا وحدنا ، واللغط ما زال يتردد أصداءً في دماغي . وحدنا ، أخيراً ! .

تركني وليد على الشرفة ليهيىء القهوة بنفسه في المطبخ ، ثم عـــاد

يحمل دلّة ، وفنجانين . كانت القهوة اطيب من كل خمر ، والدوامة آخذة بالتسارع ... دخلنا البيت ، بين فوضى الكراسي والوسائد والكؤوس والصحون ، وذهبنا رأساً إلى غرفة النوم ، التي لم تكن بفوضاها أحسن حالاً بكثير ، وارتمينا معاً علـى الفراش . ولم نخرج حتى مساء اليوم التالي ... سمعنا صدح عصافير الفجر ونحن في الفراش . وتلاها صرير الزيزان في الظهيرة ونحن في الفراش . ودق جرس التلفون عدة مرات ونحن في الفراش . واطبق صمت المساء على الاشجار والبيت والدنيا كلها ، ونحن في الفراش .

ورأينا بيروت من النافذة وهي تتلألأ في حلكة الليل مـن جديد . وفجأة صاح بي وليد : « مريم ! انا جوعان ! ألست جوعانة ؟ »

فقلت : « ميتة جوعاً . »

– انخرج إلى الـ « كليف هاوس » ؟

– نخرج ؟ أبداً . نتعشى هنا .

– من بقايا البارحة ؟

– من بقايا البارحة !

وبقفزة واحـدة ارتـدى وليد بنطلوناً وقميصاً وسمعته في المطبخ « يطربق » ، وعاد بصحنين وهو يقول : « دجاج بارد مع البندورة . مدام . » وناولني أحدهمـا ، وانا جالسة في الفراش ، ثم قـال : « بربك ، هل تعشيت يوماً في حياتك وأنت هكذا عارية ؟ » وانتبهت إلى ما كنت قد نسيته عن نفسي . ولما ابعدت شعري المشعب عـن وجهي ، رفعت رأسي اليه في العتمة التي لا يبددهـا الا النور المتهافت عبر النافذة مـن اضواء الجبل والمدينة البعيدة . رأيته واقفاً يتأملني . والصحن في يده : بدا لي طويلاً ، عملاقاً ، وعيناه لا تمـلآن وجهه فحسب ، بل الغرفة كلها ، الدنيا كلها

« وليد ، أهكذا يكون الانتقال من – ما هي كلماتك ؟ – من الانسنة إلى الالوهة ؟ »

فهز رأسه : « تقصدين العودة من الالوهة إلى الانسنة ؟ ... »

ووضع الصحن جانباً ، واخرج بكرة كانت على جانب صف من بكرات التسجيل في علبها الحمراء ، وركّبها في المسجّلة . وانطلقت موسيقى كورالية شعرت انني لم اسمع مثلها في حياتي – موسيقى دينية اعرف أنه يحبها ، ولا اعرف عنها الا القليل . واستدار نحوي واخذ يتمايل مع الانغام ويطلق صوته معها وهو يركز نظراته فيّ . فضحكت وقلت : « وليد ! أترقص على التراتيل الدينية ؟ » فقال : « الا تسمعين الاجواق وهي تصيح – باللاتينية طبعاً : تعظّم نفسي الرب ، لانه اختارني من بين النساء جميعاً ... وكيف يكون التعظيم الا بالرقص والتهليل ؟ .. » وراح يدور ويترنح في الفسحة الصغيرة بين الفراش والحائط ، يأخذ لقمة من الدجاج ، ويستأنف ترنحه حولي ، وينحني عليّ وأنا أمضغ ، ويختطف قبلة سريعة ، ويلوّح بذراعيه في حركات انسيابية متوترة .

رفع صوت المسجلة الى أقصى مداه ، حتى كادت الغرفة تختض اختضاضاً بالأصوات الرائعة المتشابكة ، وصاح : « مونتيفردي ، ماغنيفيكات لستة أصوات ، عام ١٦١٠ ، ان كنت لم تعرفي بعد ... » وبغتة انفجرت الغرفة بي انفجاراً مرعباً ، وقذفت الصحن من يدي ، وألقيت الغطاء عن جسدي ووثبت على قدميّ ، وانا أزعق لكي أسمع صوتي من خلال زوبعة الموسيقى : « وليد ! انت رهيب! انت لعين ! لعين ! حطمتني ! هشمتني ! اريدك ، اشتهيك ، سأقتلك ، واقطّعك قطعاً صغيرة ، وآكل كل قطعة فيك . » ووقعت على صدره ، وأنا أخبط بقبضتيّ على صدره، وانفجرت ببكاء صارخ لم ابك مثله في حياتي،

وجسمي ينتفض انتفاضات ذبيحة وهو يمسك بي بقوة بين ذراعيه ، وانا انتفض وأعول في نشوة راعبة ...

اصرخي يا أبواق السماء ، يا ملائكة الرعب ، اصرخي ، اصرخي.. ولكن الصارخة أنا . ووليد يضم رأسي الى صدره المكشوف لكي يدفن فيه صوتي ، وأحسّ دموعي تبلل جسده وتنساب عليه . وراح يمسّد شعرتي . ويقبّله ، ويهمس في اذني : « هس ، هس ... أرجوك ، مريم ، اسكتي ، اهدأي ، سيطري على نفسك ... » كيف ، كيف؟ ولكن صراخي تحول شيئاً فشيئاً الى نشيج وحشرجة، وتناقصت انتفاضاتي بين ذراعيه حتّى سكنت ، ثم انقطع بكائي اخيراً ، وأحسست برغبة عميقة في النوم ، ووجهي ملتصق بصدره ، وأصابني ارتخاء في ركبتيّ ، وكنت على وشك الانزلاق والسقوط ، عندما اقتادني دفعاً الى الفراش ، ورفعني عليه . وما كدت اضطجع حتّى رحت في غيبوبة عميقة .

حين أفقت ، وجدتني تحت شرشف يغطيني حتّى العنق . ووليد جالس في كرسي كبير ، يرقبني ، وأنا أكاد لا أرى في الظلام الا عينيه ويديه . والسكون مطبق على كل شيء .

— « وليد ، هل توقفت عن الرقص ؟ »

— « منذ زمان . »

— « رقصت لي أنا ؟ »

— « ربما . »

— « أنت رقصت لي . وأنت تعرف ذلك . »

— « رقصت لك اذن ... أما أنت فبكيت ... لي ، ام عليّ ؟ »

— « على نفسي أنا . نفسي التي حمّلتها اكثر من طاقتها . »

— « مريم ، ستبكين إذن مرة ، ومرة . »

— « لماذا تقسو عليّ هكذا ؟ »

– « انا لا أحيا الا عندما احمّل نفسي اكثر من طاقتها . عندئذ تصبح الدنيا لعبة بين يدي . هذه الدنيا اللعينة الجائرة ، تصبح لعبة ، دمية ، تصوري ، اقيمها على قدميها فتفتح عينيها الواسعتين ، ثم تغمز لي باحداهما ، أنوّمها على ظهرها ، فترخي اهدابها الطويلة على عينيها المغمضتين ، اضغط على خصرها فتقول : آخ . »

– « وأنا الآن اقولها : آخ ... جعلتني لعبة . اردت لك أن تجعلني لعبة ، تضغط على خصري ، لأتأوّه لك . لأتحسّر عليك . وعندما يحدث ذلك لي ، أبكي انا كآلة كهربائية تتحمل فولتيّة معينة ، محدودة . هكذا يبدو . إذا زادت الفولتيّة عن حدها احترقت ، والتهبت ، و ... جننت . إذا رأيتني اخرج الآن إلى الحديقة وأركض بين الاشجار عارية ، لا تندهش ، هه ؟ »

– « هذا بالضبط ما سنفعله كلانا معاً . »

– « لا ، لا . أنت يجب أن تبقى مكانك ، وترقبني . لكي اعود اليك . اتظنني ابالغ ؟ شوف ! »

ودفعت الشرشف عني ، وقفزت عارية إلى الأرض شاعرة بعزيمة هائلة في جسدي ، وأخذت يده وأقتدته إلى باب الدار . « أنت قف هنا ! لا تتحرّك ! فاهم ، حبيبي ؟ » وتركته وركضت حافية إلى الاشجار التي لم اكن اعرفها ، في عتمة وامضة ، طرية ، باردة ، أدور حول كل جذع ، وأحوم حول كل صخرة الحجارة المكسورة الحادة أحسها تنغرز في قدمي فتزيدها خفة ، وجسدي الوثني المشرّع لوحشيّة الليل المتخن بالنجوم ينفذ في الاشياء كلها ، وتنفذ الاشياء كلها فيه ... أهو تلاشٍ هذه الوجد كله ، أم وجود ، وجود عنيف كله ؟ بلغت الطرف القصي من الحديقة حيث تنحدر الأرض إلى ممر كثيف الشجر رأيت فيه أناساً يتمشون ، فصحت من مكاني : « وليد !

أأنزل إلى هذا الممر ، إلى قاع الدنيا ؟ » كانت ذراعه تماوج وهو يصيح : « عودي ! عودي ! »

عدت راكضة . واخترقت حوضاً من اشجار الورد كان محاطاً بحلقة من الصخور ، وتخدّش فخذاي يميناً ويساراً ، وتوقفت بغتة ، وأنحنيت ، والتقطت صخرة من الحوض وحملتها ، رغم ثقلها ، وعدت إلى وليد ، الذي لم يتزحزح من مكانه وهو يرقب جنوني ضاحكاً ، وقلت له لاهثة : « خذ ! » وناولته الصخرة . فأخذها مني ، قائلاً : « رائعة ، مثلك ! » ودفعني بها برفق إلى الداخل ، وشعرت بصلابتها الندية على خاصرتي ، وعدنا إلى غرفة النوم ، وارتميت في كرسيه الكبير وأنا مبهورة النفس ، والقى هو بالحجر على الفراش ، صامتاً . ثم استدار نحوي ، وركع بين ركبتيّ . وقال : « سيكون مقتلي على يديك ، أنا واثق . » وانهال على نهدي ، وشفتيّ ، يمتلكني للمرة العاشرة وكأنها المرة الأولى . وأنا اقبض شعره ، وأرفع رأسه لالتهم فمه . وبين الحين والآخر المح ، وراء كتفه ، الصخرة غائرة بثقلها في الفراش .

ترى ما الذي عنت لي تلك الصخرة في تلك اللحظات ؟ وما الذي ظن وليد اني عنيت بها ؟ ولماذا تبقى أبداً ماثلة امامي ، لغزاً جميلاً ، مغرياً ، رمزاً مشحوناً بكل ما لا استطيع وضعه في كلمات مهما حاولت ، سنة بعد سنة ؟ رأيتها تكبر وتكبر وتغدو جبلاً ، وانا على قمتها ، أتشبث بها وزوابع الرغبة تمزقني ، ورأيتها تصغر وتصغر وتغور في الفراش ، فأغور وراءها ابحث عنها ، اريد الامساك بها ، وتفلت من بين أصابعي .

في الصباح التالي رأينا لطخات من الدم على ارض الغرفة . كانت اللطخات في خط متعرّج من مدخل الدار الى غرفة النوم . كلتا قدميّ

كانت مجرّحة تقطر دماً ، ولم انتبه ! وعندما لبست حذائي ، آخ ! كان الالم نافذاً (ليذكّرني . ليذكّرني دائماً .) كان صباح الاثنين ، وعليّ ان اغادر المنزل قبل مجيء « الصانعة » ام رياض . نزلنـــا انا ووليد الى الطريق العام ، الذاهب الى سوق الغرب وعاليه . عندما ركبت سيارة الاجرة وحدي ، وتلفت خلفي بانطلاقة السيارة لأرى وليد يتباعد ويتباعد ، شعرت ان بيني وبين الواحدة بعد الظهر ، عندما يأتي اليّ وليد في بيروت ، هاوية سحيقة لم أصدق ان أياً منا سيفلح في عبورها . خمس ساعات ؟ انها خمسة دهور لم اكن ادري ان مثلها يوجد في حياة الانسان ، او يمكن ان يوجد . ووجدت لذة في الاحساس بألم الجراح والخدش والرضوض التي في فخذيّ وقدميّ . الالم يؤكد لي ان كل شيء فعلته ، وأفعله ، حقيقي ، وليس حلماً ، وان الحقيقة يستتبعها منطق الواقع ، وان الزمن في هذا الواقع هو ما تعدّه الساعة الصغيرة في معصمي . فلأصدّق .

في الفندق ناولني كاتب الاستقبال مع مفتاح غرفتي رسالة تلفونية : من هشام ببغداد . قرأتها ، انها رسالة من عالم آخر . بغداد ؟اين بغداد ؟ ومن هشام ، زوج مريم الصفار ؟ ومن مريم نفسها ؟ انا انسانة أخرى ، في عالم جديد أرضه حجارة عاشقة تجرّح الاقدام العاشقة ، وهواؤه خمر رهيبة . قلت للكاتب انني قضيت الليلتين السابقتين في الارز . فأجابني بلطفه الماكر : « باين عليك . وجهك ملوّح بهواء الثلوج . » القيت برسالة هشام في علبة النفايات ، وصعدت بالمصعد الى غرفتي .

لاسبوعين دارت بي الدوامـــة بسرعة مدوّخة : دوّامة من الناس والأماكن والمطاعم والبحر والجبل والمراقص . وليد ، وليد ، وليد . وأيضاً : حنان (قلت لها : انها تذكّرني بصديقتي جنان الثامر — لا من حيث الاسم فقط ، بل من حيث الشخصية والمرح . ولكن جنان

حبيسة البيت والاسرة . تستنزف الجدران المطبقة نضارتهـا . فقالت : « وأنا تستنزف خلاياي الحركة العشوائية بين بيروت والجبل . سأكف عن هذا كله . حالما استقل بحياتي سأعود الى الرسم . سأنقطع الى الرسم . ») ورباح ، وعارف ، وانسي ، ورياض ، ونزار ، و... نسيت الاسماء . وزرنا مروان في مدرسته الصيفية ببرمّانا ، وقضينا معظم النهار معه . يتتبع الاخبار السياسية بنهم ، وهو لم يكمل الرابعة عشرة بعد . فلسطيني حتى جذور شعره : طويل بالنسبة الى سنّه ، ضامر الوجه كأي مراهق ذكي ، وعيناه في تألق دائم . لم يهتم بي كثيراً — هل حسب أنني اغتصبت مكان امه ؟ ترى هل كان يعرف أين أمه ؟ لم اسأل وليد اسئلة تحرجه . كان يغيب عني في اتصالات مع أصدقاء له فلسطينيين فأنتظره في مقاهي الحمراء ، أسبقه مساء الى دار العراقي في شملان ، وأنا في توقع دائم ، وتحقيق دائم . والعشاء مع الاصدقاء في الكليف هاوس ، مع أطباق المازة الخمسين كلها ، مع التبّولة والعصافير ، والكبّة النيئة ، وأسياخ الكباب ، والفرّوج المشوي ، وبطحات العرق — انما يجعلني في تحفّز دائم للمزيد ، للمزيد من كل شيء : للمزيد من الكلام ، والضحك والأكل والبكاء والعشق والنوم على صدر وليد . وكلما تساءلت : ترى هل بلغت القضية حدّ الفضيحة ؟ هززت كتفي ، لا أريد أن اسمع الجواب حتى من نفسي . ايتها الجنّية المنطلقة ، العالم مليء بالنحيب ، وسيأتي دورك ، ففيم العجلة ؟

وبدون سابق انذار قال وليد ان عليه ان يطير الى القدس في اليوم التالي . رجوته ان يؤجّل سفره ، فقال ان لديه مواعيد لا يمكن العبث بها . مواعيد ماذا ؟ رفض ان يحدّد . بعد ظهر اليوم التالي ، السبت ، سيسافر مع طيران الشرق الاوسط . تطير الطائرة في الثانية والنصف ، وعليه ان يكون في المطار قبل ذلك بساعة ، وسينزل اليه مباشرة من شملان . وسنلتقي بعد ذلك ببغداد ، بعد اسبوعين او ثلاثة . زين ؟

زين . زين جداً . وترمّل مريم اسبوعين او ثلاثة . ومن قال ان بغداد ستسهّل اللقاء ، ولا تأتي الا بالمزيد من الترمّل ، واليتم ، والفجيعة ؟

في اليوم التالي ، السبت ، في الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ، كانت مريم تواجه موظفة الشرق الاوسط في المطار . باسبورت ، بطاقة الى مطار قلندية ، حقيبتان — مع وزن زائد قليلاً . وجاء وليد متأخراً بعض الشيء ، ورآني واقفة انتظر .

— « مريم ! جئت تودعيني ! أحبّك ! »

— « تحبني وتريد ان تهرب مني ؟ »

— « لكي يزيد حبك لي حين لا تريني . »

— « هذه معادلة قديمة لا أصدقها . »

أنهى معاملته مع الموظفة . تناول حقيبة يده ، وسـار باتجاه مأمور الجوازات . وسرت معه . وعند الحاجز التفت اليّ ، وقال :

— « أعتني بنفسك . عودي إلى بغداد بسرعة . »

وسلّم جواز سفره . وأخرجت أنا جواز سفري من حقيبتي وسلّمته المأمور . فانصعق وليد : « ما هذا ؟! »

وضحكت ، وانا اندفع معه إلى قاعة المسافرين ، وقلت : « رجلي على رجلك ! وهل أرى القدس مع أحد أفضل منك ؟ »

ونظر إليّ نظرة حيرى (هل أغضبته بمفاجأتي هذه ؟) ، ولكن الحب كان يملأ قسمات وجهـه . وانحنى إليّ وهمس : « أموت عـلى ربك ! سيكون مقتلي على يدك ، أنا أعرف ! » واختلس قبلة سريعة من خدي وانتشرت في جسدي رعشة مـن اللذة . وتلفتّ حولي لأرى هل هناك من يعرفني ...

كان ذلك صيف العام الذي سبق صيف هزيمة حزيران . لو لم يبق لي من وليد إلا ذكرى القدس وأسوارها ، ذكرى وديانها وتلالها ، لكان ذلك حسبي . بلغتها وكلي نشوة ، وخوف ، واثارة ، وحزن ، ودهشة .

بلغتها وأنا امتلك وليد ، وامتلك الدنيا ، وأعرف أن قدمي على حافة الهاوية . وفي أشهر قليلة كنت قد فقدت كل شيء . في الظاهر . وفي الخفاء بقي كل شيء غائراً في أعماق ذاتي ، كتلك الصخرة . المدينة السحرية ، والليالي السحرية القليلة ، أعماقها أعماق أزمان الحضارات والتواريخ كلها ، اختفيت فيها ، واختفت في . ما أن حطت الطائرة في مطار قلندية ، حتى أردت البكاء . هذه الطبيعة ، هذا الهواء ، هذه الألوان – لم اعتدها ، لم اعتد مثلها ، لا استحقها . والطريق العريضة بين التلال الخضراء والبنفسجية ، ترصعها منازل الحجر البيضاء – الله ، ما أسهل الوصول إلى الفردوس ، كنفاذ سكين حادة إلى القلب ! أنا أدري أن وليد لوّن لي كل شيء ، وعقّده ، وضاعف فيه المتعة والفجيعة معاً ، وهو يقوم بدور الدليل مع هذه السائحة العاشقة : رام الله هناك ، وهنا بيت حنينا ، وعلى اليمين القدس . التي اغتصبها العدو ، وليس لنا من معين ، وهنا القدس التي سنحميها بدمائنا ، وليس لنا من معين . وعند باب العامود استقللنا سيارة مرة اخرى ، وبمحاذاة الأسوار ، نزلنا في طريق ضيقة ملتوية بين أشجار الزيتون . الطور وجبل الزيتون وراءنا ، وراحت السيارة تلف ، وتنعطف ، وتهبط وتصعد وأنا أتشبث بذراع وليد ، وهو يتحدث عن هذه الأرض التي يعرفها شبراً شبراً ، كما لم يعرف أي أرض ، أو أي جسد . وبعد نصف ساعة كنا في مشارف بيت لحم ، ومنها نزلنا وادياً آخر إلى اليمين ، ثم صعدنا ، وصعدنا ، بين الزيتون والصنوبر والكروم . إلى أين نحن صاعدون هكذا؟ إلى بيت جالا . بلدة صغيرة ، تتلولب الطريق فيها صاعدة بين بيوت كبيرة ، قديمة ، بين اناس واقفين بالأبواب يتضاحكون ، إلى أعالي أخرى ، إلى المزيد من الزيتون والصنوبر والكروم . وفي القمة كان هناك فندق ، وصلناه ، والشمس المنخفضة تشع من بعيد في عيوننا كقرص ذهبي كبير ، وقد انكسرت حدتها ، والريح تهب نشطة باردة عبر آفاق

زرقاء ، شفافة ، تتوالى ولا تنتهي .

أخذنا غرفتين متجاورتين . قال وليد انه معروف لدى الجميع في المنطقة ، ولكن سنداري الأمر بقدر ما نستطيع ، دفعاً لأي لغط ، وبالطبع سيلغطون . ثم أضاف : « في الواقع لديّ دار صغيرة في بيت لحم ، تقيم فيها خالتي وتعتني بها ، لكي أجد مكاني مهيأ كلما جئت هنا — مرة أو مرتين في السنة . »

في الأيام الثلاثة التالية كنت في حركة مستمرة بين الكنائس الفسيحة ، والأديرة الكبيرة ، والشوارع الملتوية الضيقة ، المليئة بالناس ، والباعة ، والدواب ، والسيارات ، والمنادين ، والأطفال ، وبنات المدارس في أزيائهن الأنيقة . والنساء بفساتينهن الزرقاء أو الحمراء الطويلة وحطّاتهن البيضاء الصافية . هنا القرويات لا يلبسن السواد المفروض عليهن في قرى العراق منذ أن يفتحن أعينهن : ما أوسع الشقة بين رمز الحداد والظلام ونفي الحياة ذاك ، وبين هذه الألوان الايجابية المشتقة من الفرح وانبلاج النهار ... « انه موقف من الحياة لا يمكن أن يقهر . » قلت لوليد . أخذني إلى مخيم للاجئين في الدهيشة ، على طرف من بيت لحم : مدينة مصطنعة ، متراصة ، بيوت حجرية بائسة تتخللها الصخور من كل ناحية ، تعج حركة ، وتموج وجوهاً ، وأصواتاً . ومنظمة رغم اضطرابها المشحون ، تنظيماً غريباً ، والأطفال في كل مكان . « هنا خلايا الثورة ، » قال وليد . « عراقيل ، وتعجيز ، من كل لون . ولكن خلايا الثورة تتوثب في كل شبر من هذه الصخور . » أقبل علينا الرجال ، يصافحوننا بحرارة . شربنا معهم الشاي والقهوة . يعرفون أبا مروان كواحد منهم . يهامسونه . يعاملونني كواحدة منهم . وكان أطيب ما سمعت ، تعليق امرأة واقفة بالباب ، حياها وليد ، فقالت : « ما أحلاها ، امرأتك ، يا أبو مروان ! » وما كان مني إلا أن انثنيت عليها وعانقتها ، وقبّلتها على خدّيها بحرارة .

وكلما دخلت كنيسة ، ورأيت صورة أو تمثالاً لسميّي العذراء، اشعلت لها شمعة ، وأسقطت في الطبق أو الصندوق ورقة نقدية ، وتمتمت بكلمات بيني وبين نفسي ، ورفضت أن أفصح لوليد عن النذر الذي كنت أنذره . مرة بعد مرة . وفي كنيسة المهد ، ومغارتها الميلادية المظلمة ، المنارة بقناديل زيتية قديمة ، أحسست ، على غير ما توقع ، بأنني جزء من تلك الأرض الحجرية الصابة ، جزء من صمودها وعنادها ، جزء من قدسيتها ، وان حبّي مقدّس مثلها ، وعليّ أن استمر بذلك الحب مهما حدث .

وهكذا فعلت في القدس ، حيث انتقلنا بعد ذلك ، وأقمنا في فندق خارج الأسوار . لسوف أظل اسمع تلك الأصوات الغريبة . وأرى تلك الطرقات المعقودة العتمة ، وهي تنتهي فجأة إلى مشهد من فضاء وهاّج عريض تتلألأ في وسطه قبة الصخرة . بقيت أتجول فيها وحولها كالمأخوذة بين اناس كثيرين ، ووليد يمدّني بالتواريخ والأحداث والأرقام . وعندما أردت دخول المسجد الأقصى ، أوقفني بالباب شيخ بلطف : « سيدتي، لا يجوز دخولك هكذا ، عارية الذراعين . » وقبل أن أدرك حقيقة الموقف ، أسعفني رجل آخر ، مسنّ وقور ، قائلاً : « تفضلي، وخذي حطتي . » ونزع عن رأسه العقال ، ورفع كوفيته ونشرها على كتفي ، بحيث غطت ذراعيّ العاريتين ، ودخلت مع الداخلين . ما أقل ما أعرف من تاريخنا ، وأنا طالبة التاريخ ! ولما خرجت ، كان الرجل الوقور واقفاً قرب الباب ، لأعيد اليه كوفيته ، متلعثمة بكلمات الشكر .

لم يكن وليد دائماً معي . مواعيده التي جاء من أجلها شغلته ساعات كثيرة ، وأنا لا أعلم عنها شيئاً . لم أكن كثيرة السؤال حين رأيته يرفض أن يسهب في الجواب بشأنها . كان يهمني ألا يطيل الغياب . وألا يتركني في الليالي – فقد تركني وحدي لليلتين فلم يغمض لي جفن فيهما .

وعلمت – وان كنت قد اشتبهت في ذلك منذ البداية – انـه عضو في منظمة فدائيـة ، يتحدث عنها كثيراً بحماس ، ولكنـه لا يخوض في الموضوع بالنسبة إلى نفسه . (أيقنت من ذلك بعد اعتقاله وتعذيبه على أيدي الصهاينة في خريف السنة التاليـة ، بعد احتلالهم الضفة الغربيـة . سمعت التفاصيل مـن جنان وانـا أدرس للماجستير في انكلترا .) ولست أشك في انه بقي عضواً نشيطاً في المنظمة حتى النهاية .

آه ، تلك الصخرة ! ست سنوات أو أكثر قد مرت ، وهي مـا تزال أمام عيني ، رمزاً مغرياً بالانزلاق إلى طوايا الذاكرة وشوارد الوهم ، وأنـا لا استوضح تمامـاً نزقي وتمردي ، ولا أعرف بالضبط كم أحبني وليد . ولكنني أعرف كم أحببته أنا – ذلك الحب الحارق الذي ، رغم النذور والشموع ، أو بسبب منهـا ، فجّر في أعماقي حمم اللوعة واللذة لأشهر غيرت حياتي كلها ، ثم تركني أتخبط كيفما اتفق .

سبقت وليد إلى بغداد . وتسارعت الدوامة جنوناً وهوساً ، وسقطت في اشكالات متعاقبة مع هشام وأنا احاول اخفاء جنوني وهوسي ، عنه هو على الأقـل . وبعد بضعة اسابيع انفصلت عنه للمرة الاخيرة – في عاصفة مريعة من المشاهد العائلية المؤلمة – ثم تم الطلاق ، بـأن تنازلت عن الصداق المؤخر ، وتنازل هو عن حصته في البيت ، فبقيت مقيمة فيه . (وتزوج هشام بعد ذلك بسرعة من امرأة لست ادري مـن أي رصيف التقطها .) وجاءتني مـع وليد تلك الاشهر التي ، إذا قستها بتعاقب الأيام والاسابيع ، بدت قليلة جـداً ، ولكن إذا قستها بعمق الساعات من كل يوم بعد يوم ، بدت وكأنهـا التهمت نصف سني حياتي – أو على الاصح ، اضافت سنين بقدر عمري إلى حياتي . كل ساعة محنة وخلاص ، كل يوم جموح جديـد ينداح بي نحو شطآن أبعد فأبعد ، فأتسع اتساع الكون ، وتغدو كل ذرّة تقع تحت حسي في

روعة الشموس وهول الزوابع . حتى ما عدت افرّق بين اليقظة والحلم . بين احساسيس الجسد وهلوسات الذهن . بين النشوة والعذاب .

ولكن العذاب كان في ازدياد ، والمدينة تشتد ضوضاؤها في رأسي . أروي لوليد احلامي الغريبة (ولا اكف عن تسجيلها في دفاتري) ، ثم جعلت أروي له كوابيسي ، وهي تتواتر عليّ ... مع الامطار جعلت النشوة تزعزعني . وكلما صارحت سوسن بشيء منها قالت : « مريم ، الا تخشين على عقلك ؟ افعلي شيئاً حاسماً ! غيّري حياتك . »

لم يفهم عامر بعد انقطاعي عنه ، ما الذي أصابني . وانا واثقة من انه تظاهر بذلك ، ليوفّر عليّ الحرج ، ويسهّل عليّ الأمر ، ولم يطالبني بشيء . وعندما قام وليد باحدى سفرات اعماله الطويلة ، وجدت أنه لم يبق الا أن انفّذ اخيراً ذلك القرار الذي كنت اتخذته قبل اكثر من سنة حين بلغني القبول من جامعة ساسيكس لاستئناف دراستي . وصباح يوم أغبر قارس البرد ، اخذتني سوسن في سيارتها إلى المطار .

في اثناء السفرة القصيرة من دارنا إلى المطار ، شعرت بأن المفارقة ساخرة وجارحة حقاً . قلت لسوسن : « اتذكرين ذلك السماء ، عندما اخذتني بسيارتك هذه إلى بيتك في انتظار عامر ؟ » .

بقيت عيناها مركزتين على الطريق ، ثم اجابت : « ها ! بداية لم تكن بالبال ، لنهاية لم تكن بالبال ... لتكن هذه الآن بداية أخرى . »

— « نعم ، لنهاية لن تكون بالبال ... »

في المطار وجدت امي واختي في الانتظار لتوديعي . قبّلتهما وانا أقول لكل منهما : « اعتني بسيرين . واكتبي لي كل اسبوع . » ثم همست لسوسن وانا أقبلها : « سلّمي لي على الجماعة . واكتبي لي عنهم . »

فقالت : « ماذا ، كل اسبوع ؟ ! » وضحكت .

كتب إليّ وليد . وكتبت له . ومرضت لفترة . وكان حزيران

الفاجع ، وانقطعت الرسائل بيننا .

ما زلت اخشى عودة الشقيقة في نوبات مباغتة تشل حركتي . ما استطعت أن أحب أحداً بعد وليد . (الجنس ؟ لا ، الجنس امر آخر ، يختلف عن الحب بالمرّة .) وبقي وليد تجرفه تيارات اخرى ، اسمع أحياناً عنها ولا اعرف مبلغ الصحة فيها . تركت ذلك لغيري . اراه في حفلات الاصدقاء ، صديقاً عزيزاً مهيأ دوماً للجدل ، ولكن اخشى الافاضة في الحديث معه وحدنا . وعامر وآن يدهشان الجميع كل يوم بجديد ، امتاعاً للاصدقاء ، ودفعا لها عبر بحرهما المائج بقلق غريب . وعامر ، بأنفته وكبريائه ، لا يشير إلى شيء مما كان بيننا ولو بكلمة . وقد تحوّلت سهراته ، لزمن ما ، إلى حفلات راقصة . فبعد انسحاق الهزيمة وكآبتها بسنة أو سنتين ، عمّ الطيش ، وعمّت شهوة النسيان ، وعمّ الميني سكيرت ، وعلا صخب « الروك » في كل مكان .

أما أنا فعلا بي صخب آخر ، مدمّر يدعوني إلى الاعتراف . تلك الصخرة اللذيذة اللعينة التي تثقل اعماقي ، هل من وسيلة للتخلص منها الا بجعلها محوراً لحديث يفتّتها ، يذيبها ، بالكشف والتكرار ؟ ولكن عندما وضعتها بين يدي الطبيب النفسي طارق رؤوف ، لم تتفتت ولم تذب ، بل تحولت إلى صخرتين ، كتنين يُقطع رأسه فينبت له رأسان ، وأدركت أن التنين ، كلما استمررت بقطع رؤوسه ، نبتت له رؤوس أخرى . فارتعبت ، وقطعت الطريق على طارق . أشفقت على سميرة ، أن لم أشفق على طارق . له أن يداري صخرته كيفما شاء ، ولكن ما ذنب زوجته حتى أضيف شقاءها إلى شقائي ؟

متى ، متى سأكتب كل شيء بوضوح ، وتفصيل ، ودقة ، كما ينبغي أن اكتب ؟ غير اني لن انسى ذلك الكاتب الفرنسي الضحوك الذي التقيته في احدى حفلات العشاء في حديقة عامر وآن ، حين قال

لي بلغة انكليزية تلوّنها لهجته الفرنسية : « أتريدين أن تكتبي ، مدام ؟ ولماذا تريد امرأة جميلة مثلك أن تحمّل نفسها مشقّة الكتابة ؟ » وقبّل يدي ، وانصرف .

حقاً ، لماذا أريد أن اكتب ؟ ما الصخرة الا باقية مكانها ، واقعاً ، وهلوسة ، وهاجساً بما لا يمكن أن يكون . ثم ان الكتابة ، إذا اردت أن يكون لها قيمة حقيقية ، ليست الا اشعال نيران الفضائح . وأنا في غنى عن الفضائح . فلأنصرف إلى اتمام محاضراتي عن داود باشا . الكتابة عنه أسهل وأجدى . انه لا ينتمي إليّ ، ولا تقلقني ذكراه في ليالي الصيف . لم اقتلع صخرة من حديقته ، ولا هو يستطيع التدخل في شأن من شؤون حياتي . وما اكتبه عن حياته ستساعدني الجامعة على نشره . ولا أظنها ستساعدني عن نشر ما قد اكتبه عن حياتي أنا . أو عن وليد .

-٨-

وليد مسعود يخترق أمطاراً تتجدد

مطر . ما أعذبه . مـــا أمرّه . أحبه . أخشاه ، أترقبه ، وأتمنى استمراره ، وأتمنى انقطاعه . أصواته الناقرة ، الضاربـة ، المخرخرة ، تثيرني ، فأريد الحبّ ، والغناء . وأريد التلاشي . والموت . كان يملأ الوديان ، والطرقات . ويهزأ من بيوتنا ، ويخترق سقوفها المسكينة بحثاً عن بواطنها . اسرارها . وهل للفقراء اسرار . وللأطفال أسرار ، وهل للأمهـــات أسرار ، في الليل يتصبب عليهم المطر ؟... يهمي جميلاً ، يهمي عـــلى رساه ناقراً أوراق الشجر ، ناقراً زجاج النوافذ ، مسربلاً الكون بغلالة من الخرز ... وينفجر قوس قزح فوق الهضاب والوهاد ... ثم يعود المطر ويزمزم ويخبط ويقرع ويرسل غربان الطوفان فى أرجـــاء الأرض . ما أطيب السير في مطر أول الليل عـلى الأرصفة في المدينة ، والماء يتزلق عنها الى السواقي . والناس يسرعون الخطى . ويتّقون البلل بالجرائد ، بالمعاطف ، ومـــا أطيب التخبط في البرك الصغيرة الوضّاءة بألوان الكهارب ، والشعر يتلبد أكثر فأكثر على الرأس . وحول الوجه . والسيول الصغيرة تترقرق على الخدين . والأنف والذقن . مطر ، مطر . والشآبيب تضرب حجارة الأسوار الكبيرة ، السوداء ، الرابضة منذ القرون الحوالي في الظلام المديـــد العريض ، المثقّب بالأنوار القليلة المتنائية ، المصدّع بالبرق والرعد ، المختـرَق بالرياح والصفير والعويل . في ردهة باب الخليل . حول نار من أخشاب الصناديق العتيقة ، البلل ، والتعب ،

والبرد ، واللفاف الصوفي حـول العنق ، والمعطف الأسود الثقيل ، والأقدام الرطبة لا تدفأ ، واللُّهُب تتصاعد وتتلوى وتدخّن ، ووجوهنا في النور المتراقص تتغير من قناع الى قناع . وفي الداخل سؤال يُسمع كأنه صادر من أعماق بئر سحيقة : من أنا ؟ من أنت ، ما الذي أفعله هنـا ؟ من هم هؤلاء الذين حولك يضحكون ، يضحكون في وجـه الموت ، والمدينـة يلتهمها الوحش عضواً فعضواً ، ساعـة بعد ساعة ، والمطر ينهمر ويتهاوى ويلعلع مع الزوابع – أي فجيعة يتنبأ بها كل هذا الحزن ؟ كل شيء أسود ، عتيق ، هرم ، والمطر يهطل يهطل . مطر مطر مطر مطر مطر ... وتنبثق حياة رائعة واثبة في الأعماق ، ويتحول الأسود إلى أخضر ، والعتيـق يرقص ، والهَرِم يلتهب نضارة ... مطر مطر مطر ... فلأمت ! تمنيت الموت تلك الليلة . أنـا وبشير وطهبوب أخذنا الجندي الانكليزي إلى غرفة قرب « نقطة » البوليس المجاورة ، وجرّدناه من زيـه الخاكي لكيما أتنكر فيـه ، ولم يقاوم . وبعد ساعات قليلة انتهينا من العملية وسمعت الدويّ القاصف المجلجل الزاعق ، وتصورت كل شيء . آه فلأمت ، ان كـان لك بموتي أن تحيَيْ يـا مدينتي . يا أوغسطين قرطاجة ، ما الذي كنت ستقوله لو علمت ؟ شعبي الأعزل يقتلونـه ، ويقتلعونه ، وينسفونه ، ويبعثرون أشلاءه عبر وديان الأرض وجبالها . مطر مطر مطر مطر . فلأقْتَل ، ولأمت بعد ذلك . تهاوت الجدران ، وتعالى الصراخ ، والمطر ينهمر ، وأفواه القرب تتقيأ أحشاء السماء بمجموعها على المدينة المجرّحة المسكينة ، المدينـة المعشوقة المنتهكة في المطر ، وفي الليل ، المنتهكـة في الضحى وفي الظهيرة ، في الصحو والغيم والعاصفة والسكون . بكيت صامتاً . ووجهي تضربه الريح والمطر . جزعت على أخي القتيل ، وجزعت على أهلي القتلى ، وجزعت عـلى صحبي ، وأمّي ، وجزعت حتى على من قتل في تلك اللحظات ، ومن سوف يقتل ... والمطر يدقّ النوافـذ ، والأبواب ، يريـد أن يخترق

البيوت والمغلقات والأعماق ، يريد أن يجري أنهراً في الحنايا والخفايا ، مهدداً بالموت ، ومنقذاً من الموت من أحب ، من سوف ألد ... مؤذناً بحياة تضطرم وتصطخب وتتناسل سرّاً وعلانية ... أيها المطر ! أيها الفجر الأسود الذي لا ينبلج ! أيتها الساعات المحمّلة بالهدم والردم . بالانقاض والخرائب ، أيها الصباح المحشرج بسيول الدم التي ستدفق اليوم ، وغداً، وبعد غـد ، والسنة القادمة ، ومـا أنفكت تدفق عبر خمسين سنة من صراع ، وجراح ، في كل ساعـة من ساعاتك الثقيلات الباكيات ...

بعد أقل من عشرين سنة ، جاءوا إلى داري ببيت لحم ، قرعوا الباب. خبطوه بعنف ، والمطر يقرع ، ويخبط معهم ، ودخل ثلاثتهم عليّ وهم ينفضون عن معاطفهم البلل . وليد مسعود الفرحان ؟ نعم . تفضّل معنا . في هذا المطر ؟ آسفون لازعاجك : أتسكن هنـا دائماً ؟ يعني . يعني ماذا ؟ يعني هذه بلدتي ، مدينتي ، أرضي . طيب ، طيب ، طيب ، امش معنـا . أتسمحون بأن ألبس معطفي ؟ نعم . من يسكن معك ؟ لا أحـد . سنفتش البيت ... فتشوا الغرف . قلبوا الكراسي ، فتحوا الدواليب . وضعوا الأصفـاد في معصميّ . دفعوني نحو الباب . نزلنـا الدرج . كانت السيارة العسكرية عـلى مسافة عشرين متراً مـن مدخل الدار ، علينا ان نعبرها من خلال المطر . عبرناها ؛ وتبللنا جميعـاً . اركبوني في الحوض الخلفي بين اثنين منهـم ، وجلس الثالث قرب السائق . الطرق مهجورة . كانت البلدة تلبس المطر كـما تلبس الثكلى ثياب الحداد . رأيتها تتلألأ كجوهرة ، وتملأ اجواءها عصافير السنونو ، ورأيتها وزهر اللوز والمشمش يحتضن منازلها وتنطلق الزغاريد من شبابيكها، ورأيتها والثلج كثياب العرائس يملأ طرقـاتها وسطوحها ، ورأيتها يوم ٧ حزيران ومدافع الاسرائيليين تدكّ منازلها ، وتصرع اهلها ، ثم جاءوا بعد الظهر فاتحين محتلين . وفي اول امطار الخريف ، وبعد جداد الزيتون، تفصّدت أجواؤها دموعاً ، ورأيتها مجرّحة وأنا في سيارة الجيب، والأصفاد

في معصمي . صامتاً انظر الى الوادي والتلال البعيدة عبر الغلالات الجميلة الحزينة . ان كان لك أن تحيي بعذابي ، بموتي ، يا مدينتي ، فليعذبوني، ولأمت . من هم هؤلاء الغزاة الذين لا وجوه لهم ؟ أعرفهم ولا أعرفهم . رأيتهم في التواريخ التي شحنت دماغي . يأتون ، يهدمون ، يقتلون ، ثم يتهدمون ويتساقطون . ونزلت بنا السيارة وهي تختض وتطقطق نحو الموردة ، وأخذت تصعد في الطريق الملتوية مارة بدير مار الياس . كل حجر أعرفه ما زال هناك . وكل شجرة . ولكن أين الاراجيح ، أين بائعو الجرار الصغيرة ، أين المتعاركون الضاحكون حول بئر الماء ، أين بائعو الكباب والمعاليق والطحالات ، وروائح الشواء تماوج بين أشجار الزيتون ؟ أين زجاجات العرق ، والفتيات الجميلات ، ومغنو العتابا والميجانا ؟ أتبكين يا تلالي المسكينة ؟ هل أقفز من السيارة العسكرية الى حواكيرك ، وأنغرس في طينك ، وأصبح جزءاً من ترابك ، واشواكك وشقائقك ، وصعدنا . صعدنا الى باب الخليل ، وحجارة الأسوار الضخمة ، كالوحوش الرابضة ، تنتظر . تحت ضرب المطر ، تحت دق أحذية الجنود الغازية ، تنتظر . لا تبتسم . ولا تبكي . تنتظر . وبمحاذاة السور صعدنا ، ثم دخلنا « المسكوبية » — الكنيسة الروسية القديمة ما زالت هناك : لكنهم أخذوني في الاتجاه الآخر . وأنزلوني الى الزنزانة . ثم أخذوني الى غرفة فيها رجال أعرفهم دون ان اكون قد رأيتهم من قبل . متعبين ، شاحبين ، صامدين ، وجميلين . سمعت أصواتاً خليطة. صراخاً . أجساداً تجرجر على الأرض . وقابلت المحققين في تلك العملية البذيئة ، المبتذلة ، التي عمّت وجه الأرض ، ولا تنتهي . اسمك ، عمرك ، عنوانك ، ابوك ، املك ، وصدمة اللكمة على عينك تعميك للحظتين . ضربني صبري بالحجر على وجهي لأنني كسبت منه خمس بيضات ملونات يوم العيد الكبير ، ولكنه ضربني وهرب . هنا لا يهربون . يضربونك ، ويقفون على رأسك ، لأن يديك مقيدتان ، وشعبك مقيّد.

ما علاقتك بفتح ؟ أنت هاجرت الى بغـداد . أقمت في الخليج . في في بيروت . مـاذا تعمــل في بيت لحم ؟ من رأيت في الخليـل ؟ في بيت ساحور ؟ في نابلس ؟ في رام الله ؟ في البيرة ؟ لم أر أحداً سوى زوجتي . زوجتك حجة واهيــة . أبداً . كانت الزنزانة الرطبة لا تتسع لقامتي وقوفــاً . أغلقوا بابها ، ظلام تام ، حتى ولا ثقب في جدار ، أو ثقب لمفتاح . ولم يكن فيها إلاّ تنكة الغائط . آه لو أستطيع النوم ، لو أغيب عن الوعي . بعد ساعات ، صراخ وعويل أسمعها وانا في الزنزانة . وليد ، تذكّر طفولتك ، تذكّر أيام الدير ، أيام الحرب في ميلانو وروما ، أيام القدس ، تذكر الياس جثة مهشمة تحت الأنقاض ، وتلك الليلة الرائعة ، الرهيبة ، والمطر الدافق وسيارة الجيب « المصادرة » التي سقتها وهي مشحونة بالديناميت ، عبر منطقة ج . ثم منطقة ا ، ثم منطقة ب . وأنت بملابس الجندي الانكليزي ، وبقربك الجندي الانكليزي الآخر الذي كان هو أيضاً يريد الانتقام لجماعته . شتاء ١٩٤٨ ، وكأنها البارحـة ! عشرون سنة يا رجل ! ويسألونك من رأيت ؟ وماذا تعمل هنا ؟ المهمّ الاّ أنهار . يكفي أن ريمة انهارت ، تعيش حياة الموتــى في المصحّ . جروني من ذراعيّ وشعري ، ركلوني في الاليتين ، دفعوني إلى الغرفة الاخرى ، المليئة باقراني الذيــن لا اعرفهم ، ولكني اعرفهم جميعاً . خذ حذرك من شيمون ، يقولون . ونتهامس باسمائنا . طاهر ، عمر ، ياسر ، زهدي ... ويتجدد التحقيق . تهوي العصا على كتفي ، فترسل رجات كهربائية في بدني . ألقوني عـلى ظهري ، امسكوا بوجهي بأيد شرسة ، أعملوا أظفارهم واقحموا خرطوماً في فمي ، ملأوني بالمـاء ، ملأوني ملء القربة ، وقلت سأموت . يجب الاّ انهار ... ثم قلبوني على وجهي على البلاط القذر ، واندلق المـاء من فمي ، والقيء ... وتكرر التحقيق . اعطوني سيجارة ، وقدموا لي شاياً حاراً . وتضاحكوا معي هذه المرة كتبك معروفة لدينا ، قالوا . وحركاتك كذلك . وعضويتك

في فتح . ونريد أن نريحَك . من أنت ، بالضبط ؟ من رأيت ؟ من ، من ، من ... ثم العودة إلى الزنزانة والظلام الاسود ، فعودة إلى الغرفة الساطعة البذيئة . وكانت تلك الهجمة التي فوجئت بهـا ، حين لووا ذراعيّ خلفي ونزعـوا عني بنطلوني وامسك شيمون بغتة بخصيتيّ ، وجعل يحرق جلد عانتي بجمرة سيكاره الغليظ هنا ، وهنا ، وهنا ، ثم أطفأه على مهل على ذكري . صرخت . صرخت صراخ رجـل في السادسة والاربعين ، يشعر بأن في صدره شاباً عاتياً في السادسة والعشرين . كان العياط يخفف الالم وفجأة سألوني : اين طهبوب ؟ ومن طهبوب ؟ ألم تكن معه في عملية نسف شارع بـن سوميخ عام ١٩٤٨ ؟ لا ادري عن ماذا تتكلمون . إذن هـم يعرفون عن تلك الليلة الرائعة الماطرة قبل عشرين سنة ، ويذكرون طهبوب ؟ كأنهـم يقرأون دماغـي . ولكنني ادركت من اسئلتهم انهم غير متأكـدين من شيء . والاّ فلماذا هـذا التعذيب والجنون ؟ المهمّ الاّ انهـار . التحمّل والصمت حتى الموت . ولكن اين الموت ؟ الموت سهل لو جاء . الالم أرهب من الموت بكثير . ترى هل توقف المطر ؟ هل تعود الشمس فتدفيء المدينة مـن جديد ؟ ساقوني إلى الزنزانة . ما عدت اعرف شيئاً عن الزمن . يجرّونني مـن غرفة إلى غرفة . ورفاقي يتبدلون ، والمعذّبون يتبدلون – أم انني مـا عدت أميّز وجوههم ؟ والرطوبـة والجدران والارض الباردة تذكّرنـي بأمور غابرة غامضة . سأروي ذلك لمروان عندمـا أراه . إذا لم أمت . ترى ما الذي يفعله الآن في برمّانا ؟ أيقرأ دروسه ؟ أيلعب كرة السلة ؟ أنت بارع في كرة السلة ، ولذا جعلوك كابتن فريق المدرسة . مروان ، حبيبي ، اذكر اباك ، حافظ على اسمـه نقيّاً ، حتى لو قتلوه هنا كالكلب . المهمّ الاّ انهار . والرجال ينهارون . أنـا لست حديـداً ، ولكنني لن انهار . فجأة يملأ الزعيق الدنيا . صراخ أجش ، يتلوه زعيق نساء . ميجر شابير ، كيف يستطيع انسان أن يجمع هـذا القدر الفظيع

كله من الحقد في صدره ؟ فقال : « حقد ؟ هذا ليس حقداً . نحن نريد أن نريحك ، أن ننهي عذابك . لا تتصور نفسك طرزان . ستعترف ، عاجلاً أو آجلاً . هذه ورقة ، اكتب عليها عشرة اسطر مما نسألك عنه ، وتخلص من كل هذا . تفضل سيكارة . آ ، لا تريد أنه تدخن ؟ ترفض أن تكتب ؟ خذوه . » دائماً ، وابداً ، مرة بعد مرة : « خذوه ، فهّموه . دبّروه . اجعلوه ينطق . » وفي غرفة ذات شباك صغير في اعلى الجدار ، اخيراً ، يدفق ضوء رائع من سماء زرقاء تجزّئها القضبان الغليظة إلى مربعات . عشرة ، عشرين ؟ — كم رجلاً نحن ؟ ننام على البلاط الواحد ملتحماً بالآخر . ويتقطع الزمن إلى فترات بما يقذف الينا من حساء فاتر في علب من الصفيح ، وشيء يابس يسمونه خبزاً ، وسائل بارد يسمونه شاياً . وأهملوني بضعة أيام . ينادون اسماء متوالية بمكبرات الصوت ، يفتحون الباب فجأة ، وعلينا أن ننهض جميعاً — يوقفوننا على ارجلنا بالعصيّ ، وأنا اصبحت لا استطيع الوقوف الاّ بجهد قاتل . كل عضلة فيّ تئن . كل عظمة فيّ منفصلة عن الاخرى . ويأخذون واحداً منا أو اثنين كل مرة . والذي يأخذونه قد لا يعود . أو يعود مهشماً ، ممزق الثياب ، ملطخاً بالدم ، ويبقى طريحاً على البلاط في أنين مستمر . ويوم نادوا اسمي ورقمي واخذوني ، كانت غرفة التحقيق ملأى بهم : شيمون وشابير وآخرين كثيرين ، البعض جالس ، والبعض واقف . وادخلوا عليّ محمود كاملة ، ووجهه كوجه من قام من قبر ، وراح يمشي تائهاً ويداه مغلولتان خلفه . أتعرفه ؟ لا ! أتعرفه ؟ لا ! أتعرفه ؟ لا ! قابلونا الواحد بالآخر . كان محمود رائعاً . عيناه تقدحان في محجريهما العميقين ، رغم شحوبه المريع : لم يرفّ له رمش عند رؤيتي . فمه دام من الضرب . يا الله ! يجب الاّ انهار ! ومحمود هو أهمّ من أتصل به في المنطقة . صلب كحد السكين . ولمّا يبلغ الثلاثين . وهز شيمون برأسه لأحد جلاوزته . ففاجأني بكلمتين

قويتين في معدتي . أتعرفه ؟ لا . وتختلط الوقائع بالاحلام بالكوابيس . يختلط الوعي بالاغماء بالانين بالصراخ . وأجرجر جيئة وذهاباً . ووقت ثقيل كالرصاص . اسود كليل الموتى ، يمر . اشتهيت بغداد . اشتهيت بيتي اشتهيت الموسيقى اشتهيت وادي بيت لحم أبو ظبي بيروت شملان . مروان ! كان في مليئاً بالـدم . أمّاه ، أمّاه . أتبكين ؟ وأبـي ، أيبكي ؟ والملائكة . أتبكي ؟ والله ، أيبكي هو ايضاً ؟ وأوغسطين ، أيقرع صدره ويبكي ؟ ومونيكا تبكي ، والعذراء تبكي ؟ أيـام تمـر حتى الكوابيس غدت مبتذلة ، ترقّم التاريخ البربري .

أعطوني اوراقاً بالعبرية ، قالوا إنها الامر بابعادي . دفعوا بـي إلى سيارة عسكرية . كان الجنود الثلاثة والسائق صامتين . ودفق المطر من سماء شهباء كرصاص . أحذيتهم واحزمتهم ومسدساتهم تمـلأ السيار الصغيرة ، وأنا مضغوط بين اثنين صامتاً مثلهم ارقب المطر . تذمـرو فيما بينهم من هذا المطر ، والسفرة طويلة ، وقالوا : في الغور لـن يكون هناك مطر . وقال واحد منهم بلهجة عراقية : « بعد ساعتين . سنتركك . أتـذهب إلى بغداد ؟ » فنظرت إلى وجهه ، إلى عينيه ، كانتا حزينتين . حزينتين جـداً . هززت رأسي . وعند الجسر المهدم كانت هناك معاملات اخرى . قواي منهوكة، خائرة ، أكاد أعجز عن الوقوف على قدمي ، وانا في معطفي المعفّر الذي اصبح فضفاضاً عليّ . فقدت نصف وزني في شهرين . وكـان هناك جنود عرب ، ينظرون إليّ كأنني عائد من عالم الموتى ، كمحمود . ولكن مشهد العائدين من عالم الموتى لم يعد يدهش احداً . يتكرر كل يوم ألف مرة المهمّ أن ابقى واقفا ، الاّ انهار ، أن أبلغ مروان .

كنت محظوظاً حيث شقي الآخـرون ، ويشقون . أراد العدو رأسي لأنني ضربته اكـثر من مرة ، لأنني ساهمت في تنظيم ضربه مرة اثر

مرة . وكنت محظوظاً لأنني افلحت في مراوغته مرة اخرى ، لأن جسمي تفسخ عضواً عضواً ، وبقي ذهني متماسكاً تحت سيطرة ارادتي . ولكن لو تعرّض جسمي اليوم إلى مثل ذلك التفسيخ ثانية ، هل تتحمل رعبه الارادة وتجترح المعجزة ثانية ؟

خرجت غانماً الحياة باجمعها من جديد ، انشق الهواء البارد . ما اطيبه ! ما ألذه ! خرجت طفلا تجاه الحياة ، اتعكز جسدياً ، ألملم اوصالي بعضها إلى بعض ، واما ذهنيا ، وأما نفسياً ، فاركض في فيافي الأرض كالفهود ، كالغزلان . غير انني جوبهت بمسائل كان عليّ ، لكي افهمها ، أن اتعلم لها الالف باء من جديد . وأية ألف باء كانت تلك ، أشق من المسمارية والهيروغليفية ، حين رأيت بلادي التي أرضي من اجلها بعذابات الجحيم ، تسلّط تلك العذابات نفسها على كل من تقع عليه أيدي المتنفذين . من الخليج إلى المحيط سمعت صراخاً ، وسمعت بكاء ، وسمعت اصوات العصيّ والخراطيم البلاستيكية ، والمخبرون يملأون العواصم والقصبات ، يملأون الذرى والسفوح ، ورجال بملابس مدنية انيقة يروحون ويجيئون في سياراتهم كألف مكوك في ألف نول ، يسوقون إلى مراكز الظلام اناساً بالعشرات ، بالمئات ، يضيعون بهم في متاهات الاروقة والزنازين ، ليرتفع في الليل والنهار صوت السؤال والانكار والاعتراف ، صوت المطاط يهوي على عري الجسد ، لتتراكم التهم والاكاذيب في الاضابير ، وتمتلىء الافواه بالدم . كيف استطيع أن اتعلم ذلك ، واقبله جزءاً من الحياة ؟ مروان ، كلما سقطت الامطار ذكرتك ، وذكرت كل من أحب ، ذكرت طهبوب وبشير ومحمود ، وامتلأت كبراً وخيلاء ، وكلما سقطت الأمطار ذكرت هموم امي ، ذكرت تخبطاتها وأوجاعها ، وامتلأت حزناً وفجيعة .

- ٩ -

وصال رؤوف تكشف أوراقها

(١)

المعجزات . انهـا تهبط عليك من السماء كصرّة ملأى باللآلىء ، يسقطها في حضنك طير كبير ، جميل ، مجهول : ضحى يوم مجنون .

المعجزات هي هبات السماء هذه . فجأة ترى بين يديك روعة الوجود ، مجسّدة : روعة الكون الاشجار والأثمار والغابات والجبال والبحـار وشلالات الدنيا كلها . وفي لحظة عمقها دهور سحيقة تعرف كل شيء . وتنسى كل شيء . وتتركز اللذائذ كلها بعينيك ، بيديك ، بشفتيك .

عرفت وليد منذ سنوات . منذ ان كنت طالبة في الكلية . كنت اتصور انه يجدني جميلة محبوبة ، ولكنه يتجاهل . وكنت اتجاهل أنا ايضاً . كان في عالم لا تصلني به صلة ، اول الأمر . اراه وانا مع أخي ، او ابي ، او اختي . تحيّات وحديث ، وشيء من ضحك ، وفراق ، فنسيان . ومرت السنوات ، وبقي اهتمامي بوليد ، او اهتمامه بي ، امراً يتردد بين الواقع واللاواقع . كنت اتصور انه كلـما تعلق بأمرأة ثم ما عادت تهمّه وما عاد يهمّها ، ربّما خطرت انا بباله ، كومضـة من ومضات المستحيل . وأنا تشدني عاطفة مبهمة أخشى ان استوضحها حتى لنفسي .

في يوم من ايام تشرين الاول ، في صباح انحسرت عنه حدّة شمس

الصيف أخيراً ، والجهنميّات تلتهب ألواناً خارج النافذة . وأنا ما زلت أتناول الفطور ، أخذت دليل التلفون ، وبحثت فيه عن رقم وليد مسعود . ثم اخذت جرعة كبيرة من الشاي وأسرعت بعدها الى التلفون .

– « هلو ! »

– « هلو ! »

– « هل الدنيا رائعة عندك مثلما هي عندي هنا ؟ »

– « بل أروع . »

– « مستحيل ! »

– « من الذي يتكلم ؟ »

– « هل انت وليد ؟ »

– « نعم . وأنت ؟ »

– « كنت اتصورك أسرع من ذلك . حديثنا كله الليلة الماضية . هل نسيته ؟ »

– « وصال ؟ »

– « الحمد لله ! ولكن الحديث لم ينته إلى نتيجة أمس . »

– « في وسط ذلك الضجيج والموسيقى الصارخة . كيف ينتهي أي شيء إلى نتيجة ... اتريدين أن تسمعيني قصيدتك ؟ »

– « بالتلفون ؟ وأنت ربما لم تفطر بعد ؟ والشعر العظيم ، كما قلت أنت ، حدس نبوى . يا ويل الانبياء ! »

– « لا ، أنا أفطرت ، ومستعد لتلقي الحدس ، نبوياً كان أو غير نبوي . »

– « ولكنك لم تحدس حتى بالتي فتحت لك التلفون في الصباح الباكر ... هل أنت مشغول جداً ؟ »

– « هل كنت مصممة على هذه المخابرة منذ أمس ؟ »

– « طيلة الليل . لم أنم . ربما لأنني شربت كأساً من الويسكي

ارضاء لك .. وأنت تعلم انني لا أشرب ابداً . ثم شربت كأساً أخرى وأنت لا تدري . »

– « كأسان اثنتان منعتا عنك نوم الشعراء ؟ »

– « بل كلامك ، على الارجح . مـا الـذي ايضاً قلته أنت اتذكر ؟ »

– « هل قلت ما يمنع النوم عن أحد ؟ »

– « لا توارب . »

– « أخشى انني اكثرت من الشرب وقلت ما لا يحسن أن أقوله . »

– « ابداً . ابداً . سأذكّرك فيما بعد . هل انت مشغول هذا الصباح ؟ هل أستطيع ان أراك ؟ »

– « أشغال الدنيا كلّها فداك يا سيّدتي »

– « وليد ، انا جادة ! »

– « وانا كذلك جاد . »

– « اتستطيع اذن أن تمر بسيارتك على بيتنا بعد قليل ؟ »

– « على بيتكم ؟ الآن ؟ »

– « لا تخف على سمعتك ! »

– « هكذا ؟ فَلْنَرَ من هو الخائف . هل أنت حاضرة الآن ؟ »

– « أمهلني ربع ساعة . »

– « ربع ساعة ؟ الصباح الرائع لا يستمر الى الأبد ، كما تعرفين. »

– « ولكن أريد أن امشط شعري ، و ... »

– « طيب ، عشر دقائق . »

– « ستجدني بالباب . »

هكذا ، من غير مقدمات . او بعد مقدمات دامت بضع سنوات . وسهرة في بيت عامر – سهرة من تلك السهرات التي لا يجيد أحد غير عامر وزوجته اقامتها . بيت مليء بالتحف والكتب، وحديقة تتسع لألف

شخص ، ملأى بالنخيل والجهنميات وأحواض الورد . وقد قُسِّمت أشكالاً تحدّها جدران أقيمت هنا وهناك ، بارتفاعات متفاوتة ، بعضها أصمّ تنعكس عنه الأضواء ، وبعضها يحوي أقواساً رهيفة تؤدي إلى مماش تنق على جوانبها الضفادع ، أو تؤدي إلى جدران صمّاء مظلمة . متاهة المينوتور ، مصغرة ، معصرنة . وهي تعكس ذهن عامر عبد الحميد ، الكثير التلافيف والشعاب ، المتمتع دائماً بتضليل نفسه والآخرين ، والذي يستقر في عمق ما مظلم منه ، مينوتور يلتهم الناس والأفكار والاشياء ، ولا يشبع . ووليد يجتذب اناساً فيهم هذا التعقيد وهذه التلافيف — أو انهم هم الذين يجتذبونه . فبين المدعوين في الليلة السابقة شعرت أن هناك الكثيرين ، والكثيرات ، ممّن يريدون اقتناص هذه الضحية اللذيذة السهلة . ولكنني كنت مصممة على الا أفوّت الفرصة هذه المرة . الليلة رائعة ، المتاهة منتشرة ، ووليد لم يفلت من يدي الا إذا ثبت أني غبية ، عديمة السحر ، لم اتعلم بعد كيف أسوق الكلام إلى غاية في نفسي . وقد شعرت ، حين رأيته تحت أحد الأقواس والكأس بيده ، أن موجة ترفعني فجأة إلى علوّ شاهق ، مدوّخ . كان وحده ، للحظة ، قبل أن تحطّ الغربان . وصال ، هذه فرصتك . أخيراً ! أسرعت اليه فى خط مستقيم مباشر . وقلت له :

— « وحدك ! ضائع ؟ أم أنهم هجروك ؟ »

فقال مندهشاً :

— « نعم ؟ »

لم أخفف وطأة الهجوم المباغت ، فقلت :

— « ضائع ، أكيد ! »

وبكل بساطة ، قال :

— « لا . رحت وملأت كأسي من جديد . أأحضر لك كأساً ؟

ومع أني لا أشرب ، قلت :

— « نعم ، أرجوك . »

ورافقته الى مائدة قريبة مضاءة بالشموع ، وسألني :

— « ويسكي ؟ مع الثلج ؟ والماء ؟ »

وناولني الكأس التي صممت على شرب ما صبّه لي فيها ، ولو كان سما . وفي الحال اقترب منا آخرون وهم يتضاحكون ، ليصبّوا الشراب لأنفسهم ، فابتعدت بضحيتي ، عامدة ، الى ركن بعيد تحت نخلة كبيرة ، منخفضة السعف ، وأنا أقول (دون ان أتأكد انني أنطق كلاماً يحمل أي معنى) :

— « غريب ... يتصور الواحد منا أن الآخرين ضائعون ، ثم يتبين انه هو الضائع . أليس كذلك ، استاذ وليد ؟ أحياناً أسير مسافة أربعة أمتار ، وأتصور أنني قطعت اكبر صحراء في الدنيا . ما أجمل عذوق الرطب هذه . ما نوعها ؟ مكتوم ؟ انت لا تعرف الكثير عن التمر . كيف تعرف ان هذا مكتوم ؟ عامر أخبرك . لا شك . كرسي واحد فقط هنا ، وفي الحديقة مئات الكراسي . لحظة ، سأحضر كرسياً آخر . ستحضره انت ؟ شكراً . سأساعدك . أعني ، سأرافقك وانت تحضره . لي حديث طويل معك . هنا تحت القطوف الدانية ، كما يقولون . »

وخطرت ببالي في تلك اللحظة مريم العذراء ، والميلاد العجيب . هل أهز إليّ بجذع النخلة ؟ انا البتول التي سمّاني ابي بالوصال . وصاله هو بمن كان يحب ، زوجته الثانية . وكدت أقول لوليد : لم يمسني بشر ، عندما لمحت مريم الصفار تسير نحونا مسرعة : هذه المرأة الممشوقة الجسد ، المرسلة الشعر على الكتفين كستارة من ذهب . خفت منها تلك اللحظة . كرهتها . طعنتني الغيرة في خاصرتي حين قالت : وليد ، اين اختفيت ؟ ما زلنا بانتظارك . ثم التأمت خاصرتي حين أجابها : سآتي اليكم فيما بعد . وهو يعني : اذهبي عني . عندي من يشغلني عنك ،

وعنكم – هذه العذراء التي ستشرب الخمر من أجلي وحدي ...

قالت مريم : « هلو ، وصال . بماذا تشغلين وليد ؟ » وقبل ان تسمع جوابي ، استدارت وعادت من حيث أتت . وقلت :

– « امرأة رائعة . لماذا لا تعود الى جماعتك ؟ ولكن لم أذق بعد الكأس التي ملأتها لي . أنا لست بحاجة اليها ؟ ربما . لكنني أشعر انها ستعطيني قوة ما.. اضافة الى قوّتي ؟ انت دبلوماسي ، انا أعرف . من اين لي القوة ؟ انا باستمرار معرّضة لرياح تهب عليّ من حيث لا أدري وتقتلعني . اتعلم قصة الرجل الذي وقف امام الحاكم وقد كتب على جبينه « لا حظ لي » ، فنطق الحاكم بحكم عليه يؤيّده ... أشعر انني كتبت على جبيني كلمات من هذا القبيل . لا ، لا تضحك . أو بالأحرى - اضحك . اضحك ، أرجوك . ما لنا والحظ ؟ أسعد الناس تسأله ، فيقول : لا حظ لي . ليس هناك من هو قانع بما قسم له ، أو بما حقق . أنت مثلا : هل أنت سعيد ؟ » .

فقال : « إلى حدّ ما . »

– « إلى حدّ ما ؟ نعم ، أو لا ، هذا هو الجواب الأهم . »

– « اذن : نعم ، ولا . »

– « قد أعلم لماذا أنت سعيد، ولكنني لن أعلم لماذا أنت غير سعيد . »

– « القصة طويلة . »

– « شيء منها ، أرجوك ؟ »

خضّ الثلج في كأسه : « مصاعب ، آلام ، أزمات ... »

– « من يراك هنا وهناك ، أو يقرأ ما تكتب ، أو يسمع حديثك مع الناس ، يتصوّر انك دائماً مشرق ، متفائل . يعني : سعيد . »

– « رغم المصاعب والآلام والأزمات ؟ لعلني من النوع الذي يصر على التفاؤل ، ولو أنني أعتقد أن التفاؤل في معظم الأحوال حماقة وقصر

نظر . في الأيام الأخيرة ضعف اصراري . أشعر أن زحف الظلام حولي، عليّ ، يشتدّ يوماً بعد يوم . في الحياة قبح ، وعوز ، ومظالم — »

— « أرجوك ، قل لي شيئاً جديداً . »

— « ولكن فيها أيضاً روعات فجائيـة تنتشلنا ، ولو لحظات . إلى حيث تلتهب على حين غرّة نيران الفرح ، نيران اللذة . »

— « ولكنها تنطفيء بسرعة ... »

— « هذه اللحظات القليلة ، نتشبث بها . نشرب الروعة قطرة قطرة، كخمر نبخل بها حتى على أنفسنا لقلّة ما لدينا منها . تقولين إن الرياح تهب عليك من حيث لا تدرين ، وتقتلعك ؟ لا بأس . ربما كان لا بد لك من اقتلاع ، ولا بد لريح مـا من هبوب . بعض العواصف يحمل المطر الشافي العذب . انها لحظات الفرح ... »

فقلت :

— « وما الفائدة ؟ هذا المطر لا يكاد ينهمر ، حتى ينقطع ! »

— « لكي لا تغرقي ، يا وصال . »

— « وليد ... أتسمح لي أن أدعوك هكذا ؟ عرفتك منذ أكثر من سبع سنوات ، أفلا يحق لي أن اسميك باسمك ؟ وليد ، أنت ما زلت تعاملني كطفلة . وتتحدث إليّ كطفلة . ألا ترى أنني أستحق معاملـة أفضل ؟ أنا في السادسة والعشرين من عمري . أم أنك لا تدري ؟ »

— « أتصورك دائماً في العشرين . منــذ أن رأيتك في الهلال الأحمر تبيعين الثياب الفلسطينية المطرّزة بنقوش بيت لحم ، ورام الله . أتعلمين؟ أمي كانت ترتدي فساتين كتلك التي كنت تبيعينها ذلك اليوم . »

— « ولكنك نسيتني حالما اشتريت مني ذلك الفستان ... وكان عليّ أن اذكّرك ، كلما التقينـــا ، بأني أنا تلك التي باعتك فستانـاً أنت في غنى عنه . »

— « أبداً . ما نسيتك لحظة . »

— « أنت تجاملني ، كالعادة . »

— « أبداً . »

— « اعتراف خطير . لماذا لم تنسي ؟ »

— « امور كهذه معقدة ، ويصعب تحديد أسبابها . »

— « أرجوك . سبب ، سببان ؟ »

— « ماذا تريدينني أن أقول ؟ لأنك جميلة ؟ طيب . لأنك جميلة ، ولأن عينيك في لون العسل ، ويصعب نسيانهما . ولأن يديك جميلتان ، صغيرتان . ولأن ضحكتك ... »

— « لماذا لم تقل لي ذلك من قبل ؟ لماذا لم تكتب لي قصيدة ؟ »

— « وهل من واجبي أن أكتب قصيدة في كل من ألتقي من جميلات ؟ أنا أصلاً لا أعرف كيف يكتب شعر الغزل . »

— « هذا الويسكي صعد إلى رأسي . »

— « أبهذه السرعة ؟ »

— « نعم . هذه أول مرة في حياتي أشرب فيها مسكراً . أتظن أنني سأدوخ من أول كأس ؟ كنت أريد أن أسمعك قصيدة كتبتها أنا . ولكن لساني الآن لن يستقيم لتلاوتها . »

فضحك ، وخيل إليّ انه قال :

— « ألا تظنين أنني سأدوخ من أول قصيدة ؟ »

فقلت :

— « لا أريد أن أدوّخك . »

— « دوّخيني ... ولكن ، أنا لا أدوخ . أنا إنما أنتشي ، أو لا أنتشي . »

— « اذن ، لن تنتشي . الويسكي أفضل لك . »

— « من صوت النبوة ؟ قطعاً لا . »

واقترب مني وهمس :

— « هل أنت نبيّة — نبيّة ... صغيرة ؟ »

وتمنّيت في تلك اللحظة لو يأخذني بين ذراعيه ويقبّلني عـلى فمي . كنه ابتعد ثانية وأفرغ كأسه في فمه ، وأنا أقول :

— « لا نبيّة ، ولا شبه نبيّـة . متطفلـة فقط . على الشعر ، على ـنيا . حتّى عليك . »

— « لماذا اذن لم تتطفلي عليّ من قبل ؟ »

— « سأفعل ! »

— « اتفقنا ؟ »

— « يا ويلك مني ! أتضحك ؟ ألست تخاف من تهديدي ؟ ولكن أنا الخائفة . أتعلم ؟ حتّى هذه الليلة كنت أخـاف أن اقترب منك أكثر من اللازم . هل أنت مخيف ، حقاً ؟ »

استمر في ضحكه ، ولم يجب . فأكملت :

— « أعني انك تبدو مخيفاً . انني أقترب منك وكأنني أقترب من نار أخشى أن تمتد إلى ثيابي إذا لم أنتبـه . هل تسمع قصيدتي ؟ لا لست نبيّـة . ولا أريد أن أكون نبيّـــة . أنـا ستمنتالية ، لا أعرف كيف أستخدم عقلي لثلاث دقائق متواليات . »

وإذا هو يقاطعني بلهجة الجد ، قائلاً :

— « الحدس . الحدس هو المهم . الحدس النبويّ . »

وعلا صوت الموسيقى بشكل ضاجّ . فرفعت صوتي — وأنـــا أشعر بدوخة في رأسي ، وبارتخاء لذيذ في ذراعي :

— « أنا مليئة بالحدس . وأحدس الآن بأشياء لو حدّثتك عنها ... »

— « لا تخيفيني ، أرجوك . »

— « لِمَ لا ؟ »

— « لأنني غبيّ جداً تجاه هذه الامور . وخصوصاً تجاه حدس فتاة جميلة تشرب الويسكي لأول مرّة . »

— « استاذ وليد ، قلتها مرة أخرى ... »

— « ماذا ؟ »

— « أنني جميلة . »

— « أنت جميلة جداً . »

— « ها هم يعودون اليك . ليلتهموك . »

عادت مريم وبرفقتها جنان ، ورجل لا أعرف حتّى اسمه . ونهضت عن كرسي وانطلقت بين المدعوين ، قبل أن أتورط في قــول أو فعل أندم عليه . واستمرت الموسيقى في ضجيجها . وذهبت إلى مائدة الشراب ، وأخذت كأساً أخرى من الويسكي . ورأيت أخي ، وقلت له :

— « طارق ، هل هذه حفلة رائعة ، أم أنني واهمة ؟ »

فقال :

— « ما هذا ؟ أتشربين ؟ »

— « أليس فيك شيء من الشعر ؟ شيء من النبوة ؟ »

— « سكرت ، حبيبتي ! كفاك شرباً . »

— « لا يا حبيبي ، عد إلى زوجتك ، وامنعها هي عما تريد . »

والتفتّ إلى الخلف . ولكن وليد لم يكن هناك . في لحظتين ابتلعتــه المتاهة . وتمنيت لو أجلس على الأرض ، وأبكي كما لم أبك منذ سنين . وقررت أن أتصل به في الصباح التالي ، وليكن ما يكون .

كان الصباح هائلاً . قفزت مـن فراشي ، وكأنني أدخل في موجـة ترفعني ، مرة أخرى ، على متنها ، وأبقى هناك في القمة القلقة الرائعة . ولم اصدّق أن مخابرتي التلفونية ستحقق ما أريد بتلك السرعة . في أقل

من ربع ساعة كنت واقفة بالباب . وجـاء وليد بسيارته ، وصعدت إلى جانبه . وبقيت الموجة في تصاعدها . وانطلقنا نكمل حديث الليلة الماضية. كأنه لم يكن ثمة انقطاع . وعندمـــا قال : « اقرأي لي قصيدتك » . قلت :

— « ستبدو تافهة بعد هذا الحديث كله . »

— « اقرأيها . »

أخرجت الورقة من حقيبتي ، وقلت :

— « أتدري ؟ لا بد أنك الرجل الذي كنت أحلم به دائماً . »

التفت إليّ مشدوهاً ، ولم يقل شيئاً . وأكملت :

— « كطفلة ، كمراهقة ، كامرأة . أتدري ؟ »

— « اقرأي القصيدة . »

استدرت نحـــوه ، وانتبهت إلى يدي الممسكة بـالقصيدة وهي تنزل سحّاب بلوزي وشعرت أن نهدي الأيمن يخرج من الزحمة ، بحركة تلقائية مني ، نصف خروج . وعندما التفت إليّ ثانية ، فوجيء برؤية صدري نافراً ، عارياً ، وراء البلوز المفتوح . لم يقل شيئاً ، ولكنه أطال النظر ، ثم عاد بعينيه نحو الطريق ، منتبهاً لسياقته .

وقرأت القصيدة .

لم يلتفت إليّ حتى فرغت من القراءة . وانتظرت كلمة منـه . كان قد أصغى إليّ صامتاً ، لا يقاطعني ، مركزاً ذهنه على كلماتي ، أو على الطريق ، لست أدري . ثم نظر إليّ ، وانحدر بصره إلى صدري، وقال :

— « نهدك رائع . فنيّ . قبة صغيرة من ذهب . »

فاعتدلت بجلستي ، ورفعت السحّاب ، وقلت :

— « تعني أن قصيدتي ليست رائعة ، أليس كذلك ؟ »

— « قصيدتك ؟ أنا لم أسمع قصيدتك . سمعت صوتك . »

— « قصيدتي ، وليد لم تسمعها ! تلاوتي ، شطارتي ، نبوّتي — كلها راحت هدراً . »

— « اقرأيها مرة ثانية . »

— « أبداً ! »

— « ونهداك حاسران . »

— « أبداً . »

— « أرجوك . »

— « طيّب . شريطة أن تركز على كلماتي . »

— « طبعاً . »

وهل كان لي إلا أن أستجيب لطلبه ؟ كان النهار رائعاً ، جنونياً . كانت الموجة تعلو بي ، وتعلو ، وتعلو . ما كنت أتصور أنني أستطيع مثل هذه الجسارة ، مثل هذه الشيطنة . كان يسوق على غير هدى ، مبتعداً عن المدينة ، في طريقنا إلى الصحراء . « أمامنا الفلوجة ، فالرمادي ، فالصحراء ، » قال وليد . « ولكننا سنعود إلى الجهنميات وهي بعد في عنفوانها واحتراقها . للصحراء وقت آخر . هناك دائماً وقت للصحراء . اما الجهنميات ... »

— « تلتهب اليوم وتنطفىء غداً ؟ أبداً . لن نسمح لها بأن تنطفىء . سنشعلها . نؤججها . دائماً . دائماً . دائماً . وإلى الأبد ! »

ضحك وليد . قهقه . كأنه سمع أكبر نكتة في حياته .

— « إلى الأبد ؟ يا سيدتي يكفينا اليوم ما نحن فيه . مالك وللأبد؟ ما لنا وللأبدية ؟ »

— « لست أدري ، هكذا أشعر . »

— « لست تدرين ! كل كلمة تقولينها، تعقبينها بـ « لست أدري » .

وصال ، أنت أكبر عارفة . أنت عرّافة ، سيبيلا ، انكشفت لك حجب المستقبل . »

ـ « أخذت تضحك عليّ ؟ »

ـ « لا ، هذه قناعيّ . عيناك نافذتان . »

ـ « أدري ، هذه المرة . شرفتان ... »

ـ « لا ، لا ... أقصد انهما تنفذان إلى المجهول . ماذا ترين أيتها العرّافة ؟ »

فاستدرت نحوه بـأجمعي ، وقميصي مفتوح حتى الخصر ، ورفعت كفّي ، وشنّجْتُ أصابعي في وجهه ومثلّت ، بصوت عميق «رهيب» :

ـ « أرى حبّاً ... أرى عشقاً صاعقاً ... أرى وجهك تدميه القبلات ... أرى اناساً يغارون منك ، يحدّون لك السفافيد ... ووصال تحميك من مخالبهم ، بأسنانها ، بمخالبها ... »

قال :

ـ « اموت على اسنانك ، على مخالبك . »

وعندما اخذني الى منزله لم أخف شيئاً ، لم أخف احداً . دخلت بيته كأنني كنت موعودة بـه منذ يوم ولدت . وعلى القنفة ، قرب النافذة ، على مرأى من الجهنميات الحمراء ، أخذني بين ذراعيه . كان يتكلم . كنت اتكلم . ماذا قلت ؟ ماذا قال ؟ لا اذكر . ما قلناه بعد ذلك اذكره بوضوح شديد . باظافري حززت صدره . « لئلا تنسى ، » قلت له . فقال ان الجروح السطحية تلتئم في اسبوعين أو ثلاثة . فهددته بانني سأجعل الجروح أعمق من سطحية .

ولم أدر أنه هو الذي سيجرحني جراحاً لن تلتئم ، كجراح مسيحه الخمسة .

وفجأة وجدت انني أبحث عن كلمات ، غير التي أعرفهـا . كلمات

نقول أشياء جديدة ، نضرة ، تستعمق الجراح ، وتشفيها معاً . صرت اريد أن احدد أفكاري في صيغ ما خطرت ببالي من قبل .

تجربتي معه ، بالنسبة إلى تجاربي الاخرى ، هزت الارض تحت قدميّ . فتجاربي (وربما كنت في ذلك كغيري من الناس) تضعني عادة على مبعدة من هؤلاء الذين هم من التجربة نفسها : كنت اعي نفسي كشيء منفصل ، كشيء ينفعل بقوى خارجة عنه ولا يندمج فيها . اما مع وليد فقد جاءني ذلك الكشف الغريب بأنني أندمج ، أصير ، أتداخل ، وأعود وأنا غير ما كنته قبل ذلك . أحسست وهو يتكلم ويناقش ، يحاورني ويغازلني ، أنني نفذت إلى بواطن انسان آخر ، كأن أحداً سمح لي بدخول بيت كبير مظلم عجيب الغرف ، وبيدي شمعة ، أجول بين الاثاث والتحف ... عرفته من الداخل ، ادور في مداراته الذهنية ، في مداراته النفسية والعاطفية . جعلت أعرفه وأحبه ، واغار عليه . وساورني وهم ألح عليّ بأن وليد هو ... أنا . جعلت اعرفه واحبه كما اعرف وأحبّ نفسي . فاذا لم اره ، كنت في حديث مستمر معه — مع نفسي . ولان الحديث بيننا كان دائماً ذا مذاق لذيذ خاص (لا يغازلني الاّ والكلمات تدفق منه على جسدي ، حتى مسام جلدي كانت تصغي اليه ، وتهيج) ، كان لا بد لي أن أجد الكلمات الجديدة التي تحدد ما اريد أن اقول : وما اريد قوله كان احياناً مناقضاً لما يريد قوله هو ، أو مكملاً له ، أو بديلاً عنه . فكوني أنا هو ، أو هو أنا ، ليس معناه اننا على اتفاق سكوني : أنه يحمل المتناقضات ، ولا يستقر على مجرد اسود وأبيض ، وها أنا اغدو شبيهته . الحب جعلني مثله ، احمل المتناقضات ، وارفض القرار على فكرة تجريدية أخيرة .

هل هذا هو الذي جعلنا ضروريين الواحد للآخر ؟ لا انكر انني شعرت ، لمدة طويلة ، أن الالتحام فيما بيننا لم يكن مجرّد شهوة جسدية —

مع انه كان يشتهيني بعنف ، يذهلني كيف يستطيع الابقاء عليه . انما الذي كان بيننا هو شهوة الالتئام بعد الانفصام ، أو خوف الانفصام بعد أن تداخل النصفان واكتملا في واحد « الهي » (الالهي من كلماته . لم اكن اعلم تماماً ما الذي يقصد بها الا في مثل هذه الحالة .) قال إن علاقتنا تأكيد لفقرات يسردها افلاطون في احدى محاوراته . وقد قرأتها في « الوليمة » ، وضحكت . وضحك وليد لضحكي . قلت . « لم اقتنع . » فحملني عارية بين ذراعيه حول الغرفة ، وأنا اقاوم ، ثم حط بي على الأرض ، محاولا تنفيد نظرية افلاطون — أو اثباتها ، حسب هواه .

« كلمات . كلمات ، كلمات ... » همس في اذني ، من بين خصلات شعري . وقد وقف خلفي واحتواني بذراعيه . ثم ادارني لأواجهه ، وهو ينظر في عيني . « شكسبير ، ما امكره ! يجعل هاملت يقول ذلك . فيحسب الكثيرون أنه يعني : فراغ ، فراغ ، فراغ ... للبعض ، ربما . لعجزة اللسان ، لذوي الحصر في النطق ، للببغاوات . ولكن شكسبير أخو المتنبي ، وكلاهما رب الكلمات . انه في الواقع يريد من هاملت أن يصرخ في وجه ببغاوات الدنيا : كلمات ! كلمات ! كلمات ! اروع ما وهب الله الانسان ! تصوري لو أن رجلاً كالمتنبي أحبك : ما الذي كان يقوله والكلمات ملء فمه ، ملء يديه ، ينقيها ، ويصقلها ، ويلقي بها على كل ما في الحياة القاء الدرر — كتلك الدنانير ، الظلال التي تفر من البنان ، كما يقول ... الكلمات كل شيء . وفي النهاية من كل شيء لا تبقى الا الكلمات . وإذا لم تبق الكلمات ، لم يبق شيء . الفتنة ، الهوس ، القتل . كلها في الكلمات . البغضاء ، السأم ، الانتحار ، الليلة المقمرة ، الليلة المقضقضة ، الليلة التي ترفض أن تنتهي ، الليلة التي تذوب على الشفاه سكراً وقبلات : كلمات ... ، قد تكون الكلمات لا . لا .

ونعم نعم ، قد تكون مواء ، وهرهرة ، ولكن إذا أوتـي المرأة قدرة المتنبي ... ستقض الكلمات مضجعه : لا ألما ولوعة فحسب ، بـــل طرباً يمزق الجسد بلذته الشريرة . وصال ، هناك الابطال الصامتون ، وهناك الابطال الناطقون ، أنـــا أدري . هناك الخاسرون الصامتون ، وهناك الخاسرون الناطقون . الموتى بصمت والموتى بكلام . المفصحون بالاشارة ، والعاجـزون عـــن الافصاح حتّى بالالفاظ . أدري ذلك كله . ولكن الكلمات ... ذوو الكلـــمات يسوطون انفسهم بالحروف التي يدمنونها . يعشقون ذبذبات الحنجرة . والمحبّون إذا غاضت الكلمات على شفاههم ، ألن يغيض الحب معها ايضاً ؟ الكلمات هي كل شيء ... وسنجعل اولى هذه الكلمات اليوم ، الكلمة التي سأسميك منذ الآن بها : شهد ... »

ولفترة ، لعبنا معاً لعبة الكلمات ، لنتحايـل على تلك القسوة التي لا تطاق ، قسوة ألا نستطيع اللقاء كل يوم : اكتب له كل ليلة شيئاً ، ويكتب هو شيئاً لي ، وأمرّ بمنزله بسيارتـي (أتحايـل على الدنيا كلها لكي أمرّ بمنزله في ساعة ما) ، فأجده واقفـاً ببابـه الحديدي الكبير ، وكالمتآمرين ، اسلّمه رسالة ، ويسلمني رسالة ، وانطلق هاربة بكنزي .

« الآن نرى كمن ينظر في مرآة ، » كتبت له مرة (وهو يعرف عمن أقتبس) :

الآن نرى كمن ينظر في مرآةٍ
في الظلام ،
غير أننا فيما بعد سنرى
كمن ينظر وجهاً لوجهٍ
في وضح النهارِ .
هل الحب مرآتي وظلامي ،

أرى فيه وجهك مع وجهي
ليصبح يوماً وضح نهاري ؟

ولكن فيم سؤالي !
حسبي أن أرى بعينيّ
وجهكَ
ولو غمامةً في الظلامِ ،
ولو طيفاً في أعماق مرآتي
أو سراباً في وضح نهاري ،

لأدرك أن حبك هو مرآتي .
ظلمة ليلي ، وشمس نهاري ،
فأكفّ عن السؤال .

وكتبت له أيضاً ، في اليوم التالي :

لا الليل ولا النهار بحاجبٍ
وجهك عني
وكل ساعةِ خلوةٍ
ساحةُ صراعٍ مع خيبتي .
ألا تُحرم إلاّ عينيك عيناي ،
وشفتاي إلاّ شفتيك ؟
حتى مَ انتظاري ، فريسة أحلام
تتكرر كل ليلة
عن مكان دوماً مختلف

والقصة أبداً هي نفسها ؟
أعليّ ساعةَ ألقاك
أن أسرع بوضع قناعي
وأنت من وراء قناعك تعرف أنّي
من وراء قناعي لا أشتهي
إلا الوقوع على شفتيك
واحتواءك كلّك بين يديّ
كوردة ، كحفنتين من عطر ،
كجوهرة أخبئها
في قميصي ، بين نهديّ .

توقٌ سوى بالموت لن ينتهي .

وكتب اليّ (وأنا أعرف عمّن يقتبس)

ما خرجت قطّ امرأة
من أطراف ثوبٍ مثلُك ،
ببهاء كبهائك :
سيدتي ، أنا الصبح ،
أنا الندى ،
وأنت أنت الشجرة .

سيدتي ، في أرضنا
ما نبتت يوماً شجرة
بأغصان كذراعيك
أو فاكهة تتحدى كنهديك .

آنت انت الشجره
وأنا النهار أضيئيني
ببريق عينيك ،
أنا الريح أهبّ عليك
غادياً رائحاً أملأ الدنيا
بشذى من ذراعيك ونهديك .

من فستان امرأة
ما انسابت يوماً ركبتانِ
انسيابَ ركبتيك ،
وما حملت ساقان قدّا
كساقيك ، سيدتي
أنت أنت الشجرة
وأنا الشمس أنهال
من ناري عليك ،
وأنا الليل أخفيك أخيراً
كالسرّ في صدري
من غيرتي عليك .

وليد ، كيف عرفتك ، واحببتك ، وغضبت عليك ، وغرت ، وجننت ؛ وسهرت ألف ساعة أهذي بالكلمات لك ! وكنت أعلم ، كلما فعلت ذلك ، انك تفعل الشيء نفسه بالضبط . تجنّ وتغار ، ويجافيك النوم ، وتشيلك بحار من الكلمات وتحطك ، إلى أن يطلع الصبح ،والسهد قد كحّل عينك كما كحل عيني . « عينك الكحلاء تحييني » تقول لي ... وليد ، لا بد لي من الحديث الآن . عيني الكحلاء تبحث عنك . في

غرفك المتداخلة ، بين أثـاثك المتناثر ، بين أوراقك المكدّسة . ولِمَ لا أقول انني أبحث عنك هنا ، في دمي ، في دخيلة دخيلتي ، بين حرقاتي التي كنت تلهبهـا وتطفئها عـلى هواك ؟... فلأتحدث ... حديثي بجسدك لي ، فيجسدني أنا أيضاً من جديد .

خطاياك معي كثيرة،وليس أقلها أنك علمتني هذه الكلمة: « الجسد » وأنت أشدّ من عرفت في حياتي تعلقاً بأمور الروح ، بأمور الذهن،بأمور لا تمتّ للدنيا بشيء . أوقعتني هكذا في خطيئتك : أن تلهب الجسد ، ثم تبحث عن الجمر في الروح . ولكن الجسد كثيراً مـا يلتهب ، ولا يبقى للروح ، أو فيها ، إلا الرماد . كم أتمنى لو انك الآن أمامي لأسمع دفـاعك . توقعني في خطيئتك ، ثم لا تترك لي ولو شيئاً من الفضيلـة اللاحقة ، فضيلـة الجمر في الروح . ليس في عروقي الآن إلا رمـاد . أترى وأنت هناك ــ أين أنت ؟ أين ؟ لمـاذا لم تأخذني معك لتنهيني معك أيهـا القاسي الشرير ؟ أترى كيف أنني احاول النفخ في الرماد ، لعل فيـه جمرة أخيرة تائهة . ولكنني أكذب . أكذب عـلى نفسي . أكـذب لأن جسدي ، كلما تحدثت اليك ، يعـود فينتفض ويستوي . فلأتحدث اليك . لأغازلك . لأتهمك . لاخاصمك . أحبك حب المجانين، حبّ العواهر ، ولا أتزوجك . تقنعني بأنني أنـا أنت ، ثم ترسلني إلى بيتي مفصومة ، شظية من شظاياك ، لأقول للعالم إنني هنا في منزل أبي وأمي واخوتي انتظر شاباً يطلب يدي ويصبح جزءاً جديداً من حياتي . كأن ذلك أمر ممكن لمن أصبحت هي جزءاً منك . جزءاً لن ينسجم إلا مع شفتيك ويديك وصدرك . من الذي أبقى المستحيل مستحيلاً ؟ أأنـا برفضي المستمر أم أنت الغارق في مستحيلاتك ؟ أراوغ الناس من أجلك ، أسافر ، أعود ، أتحجج ، ألازم أبي ، أخطب وأفسخ الخطبة. ومروان كدت أعشقه من أجلك . لـه عيناك ويداك ، كنت أقول . وأقول إنه

أجمل منك . فتضحك . هـل كنت أنت جميلاً مثلـه في شبابك ؟ لا أظن . ولكن من قـال إنني أحببتك لأنك جميل ، أو قبيح ، أو طويل ، أو قصير ؟ غير أنني لا اريد الحديث في امور ساذجة كهذه . ولا أريد الحديث في سر إغرائك لي . وأنت أغويتني قبل سنين ، حين لم أكن أكثر من مراهقة ، وأنت لا تدري . اريد الحديث عن اقتلاعك لي : اقتلاعك لي من جذوري ، ومحاولتك أن تزرعني في أرضك . ثم بقيت مغروسة ، غير مزروعـة . أتلقى حرارة الشمس ومياه الأرض . ومع ذلك أبقى مقتلعة ، ملتفة على جذعك وأغصانك، وحياتي لا تتغذى بالشمس أو المياه بل بما أمتصه من نسغك أنت .

ولكنك سترفض هذه التهمة . ستقول انك أردتني لأنني أنا ما أنا ، وانك لم تقتلعني بل انمـا احتضنتني ، لتطلقني حينـاً لتعود فتحتويني ، فتطلقني ، فتحتويني . وللمرة الأخيرة أطلقتني — إذا كان لي آن اصدق قولك — ولم تنتظر عودتي لتحتويني للمرة الأخيرة . ولكنني هنـا أيضاً أكذب . أو أعتقد أنني أكذب . أنا التي لم أعد . أنا التي جهلي ونزقي خشيت أن أعود . ولما عدت ، لم أجدك . وعدتك ، وأخلفت . ولما عدلت أنـا ، كنت أنت قد ذهبت . كيف كنت أزعم إذن أنني أنـا أنت ، وأنا لم أعلم بمـا في ضميرك في اللحظات الأخيرة ؟ لن اصدق هواجس الحب بعد اليوم (كأن ثمة مجالاً للحب بعد اليوم !) . في مدينتي هـذه ، لن أرى إلا العيون التي تتوهج بالموت ، بالخديعـة ، بالموت ، بالخديعـة ، بالموت . هل تتوهج الخديعة في العيون ؛ وهل يتوهج الموت فيها ؟

حبيبي ، ما عدت أعرف الكلمات التي علمتنيها . في يومـين اثنين نسيت كل شيء . عندما علمت بمقتلك — هل فعلاً قتلوك . أم أنهـا شماتة الحدقدين والتافهين ؟ كيف أستطيع قول الذي لا يقال ؟ وها أنا

أقوله : قتلوك وجندلوك ، وتمنيت لو كنت ساعتئذ ملتفة حول خصرك ، وصدرك ، لأقيك من نفاذ الرصاص . وأقيك من الرضوض إذ رحت تتدحرج من صخرة الى صخرة ، لأقي وجهك من التشوّه ، ويبقى فمي على فمك درعاً لك ضد رصاص العالم كله . وفي يومين نسيت الكلام كله ، والعقل كله ، والمنطق كله . وعندما لبست سواداً اندهلت أمي . « على من تلبسين السواد ؟ » سألتني . « على الانسانية كلها » أجبت . قالت : « اذن لن ينتهي لبس السواد . احزان الناس لا تنتهي . » فقلت : « ألبس السواد على رجل معيّن . » فنظرت إليّ بحيرة ، وبارتياع : « رجل ؟ » « نعم ، ماما . رجل أحببته — منذ زمان . وسمعت أنه قد قُتل . » فتلفتت حولها لتتأكد من أن أحداً لم يسمعني . وقالت : « لا تكرري هذا الكلام . يكفينا ما نحن فيه . قومي وبدّلي ثيابك . » فقلت : « ألبس السواد على كل هؤلاء الشباب الفلسطينيين الذين يقتلون في عملياتهم الفدائية . ألا يحق لي ذلك ، ولو يومين أو ثلاثة ؟ » فاضطربت ، ونهضت ، وتركتني ، ولم تعد الى الموضوع ثانية .

ليس المهم أن تلبس المرأة السواد ، وأن تعاف نفسها الأكل ، وان تحرم النوم ، وأن ترى الكوابيس إذا غفت لحظة واحدة . المهم هو أن تبقي على عقلها ، على ارادتها ، على قدرتها على التصميم . التصميم على ماذا ؟ أنا في انزلاق عنيف مستمر ، كأنني أتزلج على ثلوج الألب ، منحدرة نحو هاوية فظيعة ، ولا استطيع التوقف . دائخة ، غاضبة ، حاقدة . ستقولَ لي ، كعادتك : « ترفّعي عن ذلك لا تحقدي ! لا تهبطي الى مستوى الآخرين ! » ما أصعب ذلك . ردّ الفعل الطبيعي عندي هو ان أرفع يدي باللكم ، وأرفع صوتي بالشتيمة . ولكنك لن ترضى بذلك . ستأخذني الى بيتك ، وتريني آخر لوحة عراقية اقتنيتها ، وأضع في المسجّلة كاسيتة أحبها ، وتغلق عليّ وعليك محارتك عن الدنيا

كلها ، وتنزع عني ثيابي قطعة قطعة – وتجعلني أهذي مع وتلتهمني جسداً ، وتميتني عشقاً ، لكي أحيا من جديد .

القصيدة التي قرأتهـــا لك في السيارة ذلك الصباح التشريني المعجز . مـــا الذي جعلني أقرأها ؟ ورحت تطالبني بقصيدة جديدة كل يوم . « أين الرموز ؟ » تقول . « أين الكنايات ؟ أين روعة الكون ؟ أين الجراح ؟ أين الفاجعة ، أين الفرح ، أين الفداء ، أين أين أين ؟... » تجتاحني كما يجتاح البحر حصاة على الشاطيء ، ثم تسأل : أين الصخور ؟ أين الغابـــات ؟ أين الملائكة ؟ رسمت لك صخوراً وغابات وملائكة . رسمت لك نساء ومدناً وزوابع : هكذا تصورت قصائدي . وأنت لا تقنع. ويوم علمت اني لم أكن الوحيدة في حياتك – على الأقل بعد ذلك الصباح التشريني المذهل – جننت .. ألهذا السبب تريد الكون كله ، تريد الصخور والغابات والملائكة والنساء والمدن والزوابع ؟ متى ، متى ستكتفي ؟ أبالموت وحده تكتفي ، بالموت الذي كنت دائماً أخشاه عليك ؟ جننت ولكنني رضيت باعترافك . كانت الأوراق التي تعطيني إياهـــا . كلما التقينا . صكوك غفران مسبقة . نثرك كان أجمل من قصائدي كلها ... ربما لأنني كنت في رسائلك المركز والمحور والمحيط . المسافـــة والمساحة . الطول والعرض والأرتفاع . أو لأنك كنت أنت فيها كذلك بالنسبة إليّ . وأي شيء تكتبه يغدو في الحال قناعة لي وايماناً ... إلى أن وضعت في يـدي اعترافك بوجود المرأة الأخرى التي كنت تتلهى بهـــا عني عندما انقطعت عن رؤيتك ، لأنني حسبت انني فعلاً ، أخيراً ، سأتزوج ، بكل حماقة المرأة المتروية التي تعرف أن لا بدّ لها من زواج رغم كل عشق وهيام .

قرأت اعترافك وأنا في البيت ، وتقطعت له أعصابي وشرايني ... اسمع كلماتك يا حبيبي القتيل . ولتمت جنان مرة ، ولتمت شهد ألف مرة :

« لم أكن أستطيع أن أراك ، فكنت أكتب اليك . كل يوم . بضعة

أسطر . وأحياناً بضع صفحات . كأنني أتحدث اليك . تغيرت الدنيا فجأة أمـــام ناظريّ . غدت رائعة على نحو لا يطاق . وغدت مريعة أيضاً ، عـــلى نحو لا يطاق إذا لم تكوني أنت هناك . كل شيء ينبـىء عنك ، يوحي بك . شهد ، أنت انهيت خمولي ، قصوري الذاتي . أنهيت خدري . ربما كان الأفضل ألا تنهي الخدر . فالألم في غيابه الآن يباغتني ويمزقني . مزقني أياماً . فإذا التقينا ، تمزقت فرحـاً ، لذة . ما أشهى قبلاتك ، ما أشهى فمك ولسانك . ثم أعود الى الدنيا الرائعة بك ، المريعة بفراغها منك . الوحدة التي كنت في السابق أنشدها أصبحت سجني . أخرج الى الناس كالمعتوه . أذهب الى جنان ، وأخونك معهـا . أخونك عامداً ، محاولاً ألا أذكرك . وأنت تملأين رأسي برؤياك . شهد ، حبك جاءني عقابـاً . جنان تتصور انني لها وحدها ، وهي لا تعلم انها لا تملك منّي سوى لحظات قلقي المجنون بسببك أنت . كانت تشك في أمري معك ، ولكنها تخشى أن تعرف الحقيقة ؛ فـــلا تلاحق السؤال حتّى الاعتراف الأخير . ولكن حبك كــــان عقابـي الذي أتمتع به ، وأغضب عليه ، وأخيراً أستزيد منه . ذات يوم قال لي جواد انه حالما ينهض في الصباح يقوم بتمارين رياضية تبقي على شباب جسمه . ثم سألني : « وأنت ؟ » قلت : « أنا حالما أفيق أفكر بالمرأة التي أحب ؛ هذه رياضتي الوحيدة . » ذلك ما كان يعطيني تلك الشهية اللعينة للحياة ، ويجعل الحياة تبدو ثمينة ، عزيزة ، تستحق التعب والتضحية والتشبث . شهد ، تعرفين كل ذلك . أذكره لأستعيد استسلاماتك اللذيذة ، لأستعيد ملمس بشرتك على يدي ، ملمس فخذيك وبطنك على وجهي ، لأستعيد همسك المحموم ، الراعب ، كأن سيفاً سيهوي على أعناقنا حالما ننتهي من العناق . الفضاءات العريضة كلها انكمشت ، إنغلقت ، علينا . لم يبق ثمة شمس ، وأشجار ، وطيور ، ورسوم ، وأناس ، تستحق منا النظر . لم يبق إلاّ وجهك الأجمل من الشمس ، وجسدك الأجمل من كل طير ومن كل رسم . وإذا ما تركتك ،

مكرهـــاً دائماً ، أتعثر عودة الى عالم فارغ منك ، وجدت الفضاءات العريضة كلها منكمشة ، مظلمة ، مغلقة . هذا كان العقاب : أن أحرم اللذائذ الأخرى كلها دفعة واحدة . ولولا إحساسي (وان لم أثق بـــه دائماً) بأن الشيء نفسه يحدث لك أيضاً ، وانك تشاركينني ما أنا فيه، لتمردت ، لطلبت نهايـة لحبـي ولو بالموت . ولكن التناقض بقي يسود أيامي . كل شيء رائع ، وكل شيء ينبـيء عنك ، كل شيء أشتهيه من أجلك . غير أن كل شيء مظلم عديم الطعم ، لأنك لست فيه .

« كانت جنان تستثار ، وأنـا أدفع بهـــا ، شامتاً من نفسي ، نحو القمم من متعتها ، وارقبهـــا وهي تتلوى ، وتصرخ ، واشمت أنـا من نفسي ، من حقدي على ذاتي ، من سخفي بأنني لا أكتفي بهذا العشق، لأنني من روعـة الحياة كلهـــا لا أرضى إلا بك أنت . أنت ، أنت ، أنت . شهد ، شهد . كان كلامي كله موجهاً اليك . بحثت عن الشق الآخر مني حتى وجدتك ، وأحسست عندئذ بهول انفصالك عني ، بأنني مشطور أعيش كيفما اتفق في انتظار التحام الشطر بالشطر ، الشق بالشق . بقيت في انتظار توحدي بك ، توحدي بتلك التي حكم عليها وعليّ ألا تتوحد بي إلا في لحظات من النشوة ، عميقة عمق البحار . سريعة سرعة الأعاصير الكاسحة . »

وليد ، كيف استطعت أن تذكر جنـــان ، حتى في محاولتك البرهان على حبي عن طريقهـــا ؟ نجحت ذلك اليوم في تمزيقي غيرة ، بعد أن مزقتني حبـاً . وأرغمتني عـــلى الركض عودة اليك . غيرة ، لا لشيء آخر . اردتك أن تتبتل ، أن تتعذب ، أن تُحرم عليك النساء بعدي . ورحت بشطرك المفصول عني تحاول استعادة شطري عن طريق جنان ! وقررت يومها ، وفي الحال ، وبتصميم عنيد ، ألا أتزوج ، لكي ابقيك لي أنا حتى لو لم أعد اليك . وعدت اليك . هل سألتك يوماً عن جنان؟

هل خاصمتك حولها ؟ امرأة غيري لكانت تهجرك حالما تعلم بوجود امرأة أخرى . مهما تكن الأعذار ، أما أنا ففعلت العكس ... عدت اليك . ولكن عدت وفي نفسي شك لم أكن أعرفــه من قبل . هل بقيت ترى جنان كلما غبت عنك ؟ طويت نفسي على شكوكي . وتظاهرت كــأن رسالتك لم تفضح سرّاً جديداً عليّ .

هل هربت من كل شيء في اللحظة الأخيرة ، للتخلص من حيرتك بيني وبين جنان ؟ ولكن هل يمكن ، هل يعقل ، هل أصدق ، أنك وضعتني يوماً في الميزان ازاء أيـة امرأة أخرى ، جنان أو غير جنان ؟ عدت إلى هذياني ! لماذا أجعل من نفسي مركزاً لمأساتك ، وأنا أعلم أن لمأساتك مركزاً كنت أتمنى لـو أنني لا أؤمن بوجوده . ملائكــة ملأى بالنقائص ارتجلت الكون ارتجــالاً شريراً على شاكلتها ، فجاء مليئــاً بالنقائص — كما قال أحد مؤلفيك الاغريق . وها أنا اليوم أقرّ له بذلك . جئت غريباً ، تحارب ، وبقيت غريباً . تحارب ، وعلى جبهات كثيرة ، في عالم مجبول بالنقائص . آه ! « ضائعٌ الوقتُ كلُّه الذي ليس بالحب نقضيه ... » ولكن الخسائر كانت كثيرة ، أيها الحبيب ، والذي ضاع لم يكن الوقت وحده . وعندما فقدت أنت مروان ، أدركت أنــا أنني أيضاً مثلك فقدت كل شيء . ومع ذلك بقي الكون عــلى نقائصه ، لم يتغير فيه شيء . جئت غريباً ، وذهبت غريباً ، وجعلتني أنا أيضاً غريبة في وسط أهلي وعشيرتي . وأنا وحدي تغيرت . جهنميات بيتنا تلتهب ، وأنا لا أفهم لماذا هي تلتهب . كأنها تحسب انهــا ستدفعني مرة أخرى لرفع سماعة التلفون لأضرب معك موعداً لقراءة قصائدي وجسدي يحرق حواسك كلهــا . المعجزات ! صرّة ملأى باللآلىء سقطت من السماء في حضني . أجل ! وها هي صرّة أخرى تسقط عــليّ من السماء ، ملأى بالعقارب .

(٢)

لم يكن سهلاً العثور على مروان في بيروت ، رغم ارشادات صديق وليد ، خالد أبو مطر . رافقني خالد أخيراً إلى مخيم صبرا، وبعد الأسئلة الكثيرة وجدنا مروان هناك . نظر إليّ مستغرباً : « ماذا تريدين ؟ » لم أعرف كيف أجيب . عيناه ، عينـاه الجميلتان ، كانتا عيني أبيـه — ولكن مع بريق أشد ، وقسوة لم تعرفها عينا وليد . أردت أن أتخيل أنني أرى وليد في ذلك الزي الخاكي المرقّش وتحت تلك الحطة الفدائية، وهـو يحمل الكلاشنكوف . ولكنني لم أر إلا مروان نفسه ، طويلاً ، غير مبتسم، رافضاً إلا عشيرته الجديدة في تلك المدينة المخيّم التي أحسست انها تعود بي إلى جوهر الأشياء المنسيّ .

قلت له : « أنا وصال رؤوف . جئت من بغداد ، ولي رسالة لك من والدك . »

أخذ الرسالة ، وقرأهـا ، ونحن واقفون على قارعة الطريق الضيق المزدحم بالناس ، وأنا أتأمل وجهه الفتيّ وشاربه الخفيف لا يكاد يبين على شفته . أخذنا ، أنا وخالد ، إلى مكتب صغير ، وجلسنا على مقاعد خشبية . وسألني عن أبيه . عرّفنا على زميلين له يرتديان زيـاً كزيّه . قدّموا لنـا شاياً . كان اللقاء صعبـاً . ولكن الحديث بقي مستمراً ، وتصاعدت فيـه الحرارة شيئاً فشيئاً . ذهبنـا في جولة في المخيّم وأخذ مروان يعرّفني على أناس كثيرين . وكانت بعض النسوة يقلن : « أهلاً وسهلاً بالعراقية ، أهلاً وسهلاً بالبغدادية . » وتخيلت أن أحداهن قد تكون أماً لوليد . لقينـا شباباً يعرفون بغداد ، وبعضهم درس فيهـا . وتمنّيت لو يقبلونني بينهم . وقلت لمروان : « علّمني ضرب النار . » ونظر إليّ ، وأنا في بنطلوني الضيق ، وقال : « حالما تقررين ذلك ! »

في ظهيرة اليوم التالي جاءني إلى الفندق ، وخرجنا للغداء في مطعم على البحر . قلت له – بعد أن غطى النادل المائدة بصحون المقبلات : « مروان ، أنت لا تعلم كم يحبك أبوك . ليس لـه في الدنيا غيرك . لماذا لا تأتي إلى بغداد ؟ »

لم تكن نظراته لتستقر في عيني أكثر من لحظة : يلتفت نحو البحر ، حيناً ، ولا يتكلم كثيراً ، ويكاد لا يأكل . « لا حاجة بي للذهاب إلى بغداد . حياتي هنا . في المخيم . عندنا مهام كثيرة . »

قلت : « اعتن بنفسك . »

فاندهش : « لماذا إذن التحقت بالجبهة ؟ ألكي أعتني بنفسي ؟ »

فاردت أن اقوله له : « اكمل دراستك الجامعية اولاً ، ثم عد إلى الجبهة » ، غير أنني ادركت أن كلاماً كذاك سيغضبه . أخرجت رزمة من أوراق النقد من حقيبتي ، وقدّمتها له ، وهمست : « هذه لك . ارسلها ابوك معي .

نظر اليها وهي في يدي كأنها حيوان غريب يخشى لمسه . « ما هذه ؟ »

– « مئتا دينار . قد تحتاج اليها . »

فهز رأسه ، قائلاً : « شكراً . لا أريدها . »

– « ارجوك ! »

– « لا أريدها . »

– « أرجوك ، خذها قبل أن يلتفت رواد المطعم الينا . »

– « لا . عندي ما يكفيني . وحياتك . »

– « غريب ! »

– « أبداً . لا أريد أية نقود . ماذا أفعل بها ؟ »

ـ « أف ! مروان . خذها بلا جدل ! »

ـ « أبداً . ارميها في البحر ، إن شئت . »

ـ « والله أن لم تأخذها ، رميتها في البحر ! اتظن أنني لـــن أفعل ذلك ؟ »

ـ « إرميها ! لتفرح بها الاسماك ! »

ـ « انك عيناً أبوك ! عنيد ... كلكم عنيدون ، انتم الفلسطينيين ! »

وأعدت الرزمة إلى حقيبتي . وفجأة سألته :

ـ « هل تعرف ما علاقتي بأبيك ؟ »

وبكل برود قال : « تحبينه ؟ » فأحسست بألم نافذ يشق احشائي ، وتمتمت : « أعبده ، أموت عليه . »

نظر إلي صامتاً ، وشعرت أن يده ترتجف ، اذ رفعها عبر المائـــده الصغيرة ، وحطّها على كتفي . « وأنـــا أحبه ، وأمي كانت تعبده . ولكن ... »

وعندها طفرت الدموع مـــن عينيّ ، واختنق صوتي : « ولكن ماذا ، ماذا ؟ »

سحب يده وقال متنهّداً : « كافح طيلة حياته ، وتعب ، ويرفض أن يكفّ . أتعتقدين أنك تستطيعين أن تعينيه على ... على أراحة نفسه ، على الأقل ؟ »

لم أفهم بالضبط ما الذي قصد . ولكنني قلت ، وصوتي مـــا زال مختنقاً : « يا ليت ، مروان ، يـــا ليت ... الحياة معقّدة ، وتطالبنا بالكثير دائماً . لو تعلم فقط أي رجل هو ! »

وأخرج منديلاً ناولني اياه . « إذن ساعديه . ساعديه . »

مسحت دمعي بمنديله ، ثم توقفت . « أساعده ، أنا ؟ »

— « أنه يصرّ على الاستمرار بالقتال . بيده . يطالب بأن يشاركوه في العمليات . الا تعرفين ؟ »

— « لن يدهشني ذلك منه . ولكنه لا يحدّثني بهـذه الأمور ... كتوم ، كتوم جداً . »

— « عندما كان هنا في الشتاء الماضي ، أثار الموضوع مع جماعته . ثم أثاره معي بشكل ضايقني جداً . العمليات يسبقها تدريب شاق . وهي تحتاج إلى شباب يستطيعون الركض ، والقفز ، والجوع ، والتحمل . وأبـي يتوهم أنه ما زال الفتى الذي كان قبل خمس وعشرين سنة . قلت له : إذا كنت تريـد الانتحار ، فابحث عـن وسيلة أخرى . فغضب لقولي ، وتشاجرنا ، وشتمني ، وعاد إلى بغداد ، ولم يكتب إليّ كلمة واحدة طيلة هذه الأشهر . الرسالة التي جئت بها هي اول رسالة يبعث بها إليّ منذ ذلك اليوم . وقد سمعت أنه أعاد اتصالاته بشأن القتال ... »

بقيت انظر إلى مروان ، وأتخيل وليد وهو يتكلم ، فقد كـان في صوت الابن نبرة قوية من صوت أبيه . « ولكن لماذا ترفض لأبيك ما أخترته أنت لنفسك ؟ »

وإذا وجهه يتّقد . « لأن دوري يختلف عن دوره . المرحلة تختلف . رجل في الخمسين لا يفيدنا في شيء وهو يحمل الآر . بـي . جي . إنه يفيدنا في التنظيم ، في التمويـل ، في ايجاد العلاقات الضرورية كخلفيّة للقتال . الا يكفيه ذلك ؟ ثم إنه كافح طويلاً ... »

لم أجب . وفي صمتنا انتبهت إلى البحر وهو يهدر حولنا ، ساطعاً . لا يهدأ . البحر ينتمي إلى مروان ، إلى وليد ، وأحسست في تلك اللحظة أنه ينتمي إليّ أنا ايضاً ، لأنني أردت لنفسي أن تنغمر في لجج منها . أي كفاح كافح أبـي ليعيّن وزيراً في الخمسينات ؟ أي فكر قدّم ، أي صراع عبّر عنه ، سوى الصراع مـع المرض منذ أن تزوج أمي ؟ أي

توق . أي شهوة ، أي حرقة ؟

نفضت هذه الخواطر عني لأركّز انتباهي في الهدير الأزرق الذي يحيط بوجه مروان . قلت : « والآن ، أراضٍ أنت عن أبيك ؟ »

أدهشه السؤال ، كأنه غير وارد . « أنا راض ؟ المهم عندي أن يرضى هو عني . هذا ما أريدك أن تساعديني فيه . الا ترين ؟ »

ناولته منديله ، مستضحكة . « ولكنك لا تتعاون معي ؟ »

— « كيف ؟ »

— « الا تعلم أن رفضك هذه النقود سيغضبه ثانية ؟ هيا ، مروان ، خذها . »

فتحت حقيبتي ، وهممت باخراج الرزمة مرة أخرى ، غير أنه سارع إلى دفعها بيده ، وسد الحقيبة عليها ، قائلاً : « مستحيل . قلت لك لا أريد نقوداً . »

نظرت اليه يائسة ، وسكت . وإذا هو يبتسم . رأيته فعلاً يبتسم . لأول مرة ! وانطلق صوتي من حنجرتي بملء حريته : « مروان ! ابتسمت ! »

فبدرت منه قهقهة قصيرة . « شو ، معجزة ؟ »

— « نعم . حياتي هذه الأيام مليئة بالمعجزات ، أتدري ؟ »

— « اشكري ربك اذن . »

— « أوه ، أنا اشكره كل يوم الف مرة ! والآن ، ما الذي ستطعمني في هذا المكان الجميل ؟ »

— « بيروت على حسابك . »

— « سمك بحري ، ما رأيك ؟ ما اسمه هنا . سلطان ابراهيم ؟ »

وجاء النادل ، وسجّل طلبنا . لاول مرة ناداني مروان باسمي قائلاً : « وصال ... »

— « نعم ؟ »

— « شعرك جميل . هل تجعلينه دائماً قصيراً ، هكذا ؟ »

— « مروان ، ادهشتني ! جعلت تراني ! »

— « شو ، معجزة ثانية ؟

— « في الواقع ، قصصت شعري هنا قبل يومين . أيعجبك ؟ »

— « جداً ... ويذكّرني — »

— « بماذا ؟ بمن ؟ باحدى صديقاتك ؟ »

— « بسيدة عراقية أخرى جاءت مرة لزيارتي مع أبي ، وأنا طالب في برمّانا ... قبل حوالي أربع سنوات . »

ودون أن آخذ الحذر سألته : « ما اسمها ؟ »

— « لا أذكر . ولكن شعرها كان طويلاً ، بشكل يلفت النظر . وجميلاً أيضاً . كنت في الرابعة عشرة من عمري . »

— « عراقية ؟ »

— « نعم ، عراقية خضراء العينين . أتعرفينها ؟ »

وهبط قلبي دفعة واحدة . « مريم ؟ مريم الصفار ؟ »

— « مريم ، نعم ! هذا كان اسمها ! »

— « جاءت لزيارتك مع أبيك ؟ »

— « نعم . أعتقد انهما التقيا صدفة في بيروت . »

قلت : « ربما . » وفكرت : بالتأكيد ، لا . مروان ، أتريد أن تذكّرني بأنني مجرد امرأة أخرى في حياة وليد ، ولكن ماذا يهمّني أية امرأة أحب ، أو أحبته ، قبل سنوات أربع طوال ؟ وقلت لمروان: « انها احدى معارفنا الكثيرات . وهي الآن أستاذة في جامعة بغداد . هل من سلام خاص اليها ؟ »

— « لا ، لا ... لا أظن انها تتذكرني . »

فضحكت وقلت ، وكأنني أسخر من نفسي : « لا أظن انها ستنسى أي شيء له علاقة بأبيك . »

رفع النادل المقبّلات،وجاء بالسمك وقلت : « هل لك صديقات هنا؟»

قطّب حاجبيه ، ثم استرخى وجهه ثانيـــة . « يعني ... البنات هنا كثيرات . حتى في المخيم . ولكني مشغول بأمور أهمّ . » صمت لحظة ثم أردف : « عندنا تدريب قاس ، عنيف ، أنا ومجموعتي . لا أصدّق متى سنعبر الحدود . والوضع في عمّان متوتر جداً ... »

قدحت عيناه بغضب مفاجىء ، ثم أدار وجهه مرة أخرى في اتجاه البحر ، وفكّاه منطبقتان بتصميم غريب . أردت أن أعيده إلى شيء من المرح ، فقلت :

— « مروان ، هذا السمك فاخر . »

فأدار وجهه نحوي ، والتصميم ما زال يملأ قسماته . « لك مني وعد ... »

— « وعد ؟ »

— « أن اطعمك ، يوماً من الايام ، سمكاً من بحيرة طبريّا ، وانا وانت وأبي جالسون على ضفتها . ولو بعد خمس سنوات . او عشر سنوات . موافقة ؟ »

— « موافقة جداً . وسأنتظر ... »

وعندها أخذ الشوكة والسكين بيديه . وفعلت مثله . وقلبي يخفق بألف عاطفة ، وأنا لا أعلم أأعجب به ، أم أخشى عليه ، هذا الفتى الذي أحسست بأنه يجعل البحار تهدر فوق رأسي .

كان الموج حولنا يتراكض فيضرب الصخور القريبة ، ويجعل من زرقته المندفعة بياضاً ضاحكـاً يتلاشى زبداً ، ليلحق به المزيد من موج يتراكض .

كتبت الى وليد بطاقات ورسائل كثيرة ، وعندما عدت الى بغداد في اوائل ايلول ، وجدت أنه كان قد غادرها . لم يكن « اختفاؤه » دون سابق انذار لأحد من اصدقائه امراً غريباً . لعله كعادته يتابع شؤونه في ابـي ظبي ، او لندن او بيروت نفسها ، هكذا يتكهنون . ولكنه هذه المرة كان في الأردن . عاد بعد قرابة شهرين منهكاً ، محطماً ، وتخلّى لي عن تكتّمه ـ أخيراً . قضيت صباحاً تشرينياً آخر في بيته ، وكان صباحاً قاتلاً . راح يروي لي أخبار المجزرة المجنونه البشعة ، التي قاوم فيها ، حاملاً كلاشنكوف لم يكن يحلم بأنه سيعرف كيف يطلق ناره . وغضبت انا بدوري عليه . « الا تفكّر بـي ابداً ؟ الا تعلم كم انا انانية فيك ؟ عندما تقارب الخمسين ... »

فانفجر بصرخة لم اسمع مثلها من انسان : « اخرسي ! اخرسي ! » وأطبق بكلتا يديه على وجهه ، واستدار نحو أقرب حائط . وانكفأ عليه بخوار أجش ، فظيع . تسمّرت مكاني . ارتعبت ، وانا ارقبه يضرب رأسه بالجدار ، وجسده يرتجّ ، وينتفض . وبدت غرفته كأنها تضيق عليه وعليّ ، كأن جدرانها ستنهال علينا معاً ، ثم أخذت تدور بـي دوراناً اريد ان اوقفه ولا استطيع . وارتميت على الارض أتشبث بها ، وزحفت نحوه وسقط وجهي على قدميه ، ووجدتني اختنق ، وانتحب ، انتحب ، ولا أفهم . وبعد دهر طويل ـ هل أغمي عليّ ؟ لست ادري ـ رأيته منهاراً عليّ ، مكوّماً فوقي .أخذت وجهه الشاحب المخضّب بين يديّ . وهمست : حتى اسمه بات صعباً علي ان انطق به من حنجرتي الكليلة . « وليد ... وليد ... » ووقع بين ذراعي ، والصق شفتيه بأذني . « ان كان يحق لي ان احبك وأنا أقارب الخمسين ، وأقاتل الدنيا من اجلك

وأنا اقارب الخمسين ، الا يحق لي ان أحب بلدي ، وأقاتل الدنيا من أجله حتى لو قاربت التسعين ؟ .. »

— « بلى ، بلى ... » وأضجعته قربي على الارض ، ووسّدت رأسه على صدري . ساعة ؟ ساعتين ؟ انقضى النهار ونحن أشبه بجثتين ، التفّتْ احداهما على الاخرى . العالم لا يفهم . ولن يفهم . ليس لي الا ان أرفض عالماً لا يفهمني . وليس لي أن انطوي على جراحي ، لا أحدّث بها احداً ، واستمر في رفضي . وانتمي الى الرافضين .

(٤)

من عادة أخي طارق في بعض أيام الجمعة ان يزورنا ، مستصحباً سميرة . واحياناً مستصحباً معها اولادهما الثلاثة . يأتي لأبي بأدوية من النماذج التي تقدمها المذاخر مجاناً للأطباء ، ويلعب معه الطاولة « داساً » او اثنين . ويتناقش معه في الأقانيم الثلاثة التي لا يشغل أبي غيرها : الحديقة (التي يمضي منذ ثورة ١٩٥٨ معظم وقته في العناية بها ، وهي ، على حد قوله ، الشيء الوحيد الذي تعلمه عن فولتير ، ويستجلب لها ، من اقطار شتى ، أنواع الأبصال والاوراد) ، صحته (التي يتصور دائماً أنها مهددة بأمراض من كل نوع ، وعلى طارق أن يثبت له العكس) ، ونشاطه السياسي منذ ثورة العشرين — وهو ابن ثمانية عشر عاماً — حتى آخر مرة استوزر فيها عام ١٩٥٧ ، وهي فترة يمنّي نفسه دائماً بكتابة مذكراته عنها . ولكنه في الصيف يذهب إلى لندن ، وفي الشتاء يجد ركبتيه لا تدفآن مهما فعل ، فلا يستطيع التركيز على شيء ، والربيع موسم التمتع بالحديقة ، والخريف يكاد لا يكفي لتقليم الجهنميات

وتهيئة الموسميات الشتائية . وهو لا يهوى الكتابة اصلاً ، ويفضل الكلام ، لأنه حينئذ يستطيع أن يسترسل في حكاياته ومواقفه البطولية ، ولا يطالبه أحد بالتدقيق أو التمحيص الذي يواجه به كلما وضع قلماً على ورقـة . ومع أن طارق يتهمه أحياناً ، دعابة ، بأنـه لم يخلص لزوجته الثانية الأولى ، ام طارق ، التي توفيت عام ١٩٣٩ ، بقدار اخلاصه لزوجته الثانية التي تزوجها وجسد أم طارق بعد لم يبرد في مثواه في مقبرة الامام الأعظم ، فإن أبـي ينكر ذلك ، ولكنه يعود فيعترف بأنه استعجل قليلاً بزواج أمي : « كانت فتاة رائعة الحسن ، وخشيت أن تضيع من يدي إن أنا تلكأت ... ثم ، مولانـا ، من كـان سيعنى بك أنت وفيصل ولمعان ، وكلكم اطفال ؟ »

لم نشعر قط ، أنا وطارق ، أننا لسنا اخوين شقيقين . فأنـا أوثره على جميع افراد اسرتنا ، باستثناء امـي وأبـي ، لأنه الوحيد الذي أجده دائماً يقيم جسراً مفتوحاً بينه وبيني . ولما كان يكبرني بحوالي ست عشرة سنة ، فقد ظل ينظر الي نظرة العطف والحماية ، عدا المحبة ، يدللني كأبـي ، ولكنه في الوقت نفسه يعترف بأنني لا أنصاع بسهولة لكل من قال لي كلمة حب . ومنذ أن تخرجت في العشرين من عمري ، وتوظفت في البنك العربي قبل تأميمه بسنة أو اثنتين (حيث رأيت وليد لأول مرة ، قبل أن يبدأ بمغامراته المالية الكبيرة في الخليج) ، جعلت اجد في النقاش مع طارق تحدياً فكرياً أتمتع به . ينصحني بدراسة المزيد مـن الاقتصاد ، وأنا أحدثه عن اهتمامي بالشعر ، واقرأ له قصائد يرفع لها يديه ، قائـلاً : « ألغاز ، الغاز ! الا يكفيني مرضاي وألغازهـم النفسية ؟ »

هكذا كانت تنقضي زيارات يوم الجمعة في معظمها ، إذا زارنا . وهو يكاد لا يزورنا في أي يوم آخر . غير أنه جاءنا ذات مساء غير الجمعة

بعد التاسعة ، عائداً من عيادته . لم يكن أبي في البيت ،وأردنا انا وامي أن نهيء له عشاء ، غير انه كـان في عجلة من أمـره . انفرد بي لحظة ، وقال : « اسمعي وصال . لنخرج معاً في سيارتي . لـدي موضوع احدثك فيه ، ولا اريد لأمك أن تسمعه . »

شعرتُ بالدم ينسحب من رأسي . « لماذا ؟ »

— « اسرعي . قضية مستعجلة . » ثم رفع صوته : « ماما ! أريد أن آخذ وصال إلى النادي . سميرة في انتظارنا . » وجرّني من يدي . وخرجت معه وبي هاجس بأنه ، اخيراً ، سيتحدث عن علاقتي بوليد .

ما كدنا نستقر في السيارة ، ونخرج بها إلى الشارع ، وأنا صامتة ملأى بهاجسي ، حتى قال ، وهو ينظر أمامه ، ويداه على السكان :

— « وصال ، أتعرفين ما الذي تفعلينه ؟ »

تجاهلت . « بخصوص ماذا ؟ »

— « أنت تعلمين . منذ مدة ، وأنا أتردد في مفاتحتك بالموضوع . »

— « طارق ، أي موضوع تقصد ؟ »

— « وليد ، من غيره ؟.. هل ترينه بكثرة ؟ »

— « بكثرة ؟ لا ... أراه كلما استطعت . »

— « لماذا ترينه ؟ »

— « لماذا !.. لماذا ترى أية امرأة رجلاً ؟ »

— « رائع ، وصال ! »

— « أهذه قضيتك المستعجلة ؟ متى اكتشفت اني التقي بوليد ؟ »

— « منذ زمن . »

— « لماذا اذن تثير الموضوع الآن فقط ؟ »

— « لأنني ما عدت أطيق الصمت . الكثير من أصدقائنا وصديقاتنا أصبحوا يعلمون بالأمر . »

— « مثلاً ؟ »

— « أتريدين استجوابي ؟ المهم انني ما عدت أتحمل الفكرة . »

كان عليّ أن أبدي شجاعتي كلهـا ، وصلابتي كلها . فقلت : « طارق ، أنت تعلم أنك أقرب الناس إليّ ، ربما أقرب إليّ حتى من أبي وأمي — »

فقاطعني : « ولذلك أثير الموضوع معك . أخشى عليك من الأذى، ألا تفهمين ؟ »

فاستمررت بما أردت أن أقول : « أكثير عليّ أن أتعلق برجل هو أصلاً أحد المقربين اليك منذ سنين طويلة ؟ ألم تحبه أنت كصديق ؟ »

— « ولكن ... فارق السن ، فارق الخلفية ... اوه .. الف فارق . وليد رجل معروف ، وأية علاقة معه تنفضح في الحال . »

— « أكثر من سنتين مرّت على علاقتنا ، إن كنت لا تعلم . »

— « أتظنين انك ستتزوجينه ؟ »

— « على الأرجح ، لا . »

— « اذن ما معنى انك — »

— « أحبّه . ألا يكفي ذلك ؟ »

— « طبعاً لا يكفي . تتحدثين كأنك ولدت أمس . اسمعي . يجب أن تقطعي علاقتك به . أنا أصلاً لا أراه كثيراً هذه الأيام، كما تعرفين . »

— « غير مهمّ ، بالنسبة إلي . »

لم يجب طارق . اتجـه بسيارتـه نحو الجسر المعلّق ، وعبرنـاه إلى الجادرية ، في اتجاه مبنى الجامعة . كانت الليلة رائقة جميلة ، حزينة ، كما هي ليالي نيسان ، وتمنيت لو أن رفيقي فيها كان وليد ، بكل أحزانه .

وفجأة قـال طارق ، وكأن الصمت الطويل استمرار لأفكـاره : « ألا تجدين وليد رجلاً غريباً ، غامضاً ، غير مفهوم ؟ »

— « ماذا تعني ؟ »

— « كل امرأة اتصل بها ... » والتفت بعينيه نحوي في الظلام ، وسكت .

— « نعم ؟ »

— « كل امرأة اتصل بها ، اصيبت بالجنون ، أو الهستيريا . لعلك لا تعلمين أنني عالجت زوجته قبل سنين طويلة .. في الـ ٥٧ ، على ما أذكر ... تعلمين انها جُنّت ... »

— « ريمه ؟ حدثني عنها . »

— « و ... مريم الصفار ، هل حدثك عنها ؟ »

— « لا . ولكنني أعرف عنها ما يكفي . »

— « لا ، أنت لا تعرفين شيئاً . عالجتها هي أيضاً ... أنقذتها من جنون وشيك . ما الذي تعرفين عن مثل هذه الامور ؟ أتريدين مني أن أرى اليوم الذي أعالجك فيه أنت أيضاً ؟ »

— « يوم أجنّ ، حبيبي طارق ، دعني في جنوني . أرجوك . ان كنت تحبني . فلا تتدخل بيني وبين هذا الرجل . ما الذي بقي له ؟ كتبه ؟ »

— « بقي له الكثير . فلا تحزني ! بقي له أمواله ، وبقي له أصدقاؤه . وأنت تعرفينهم . »

— « أجل . وبقي له أعداؤه . »

— « وبقيتْ له وصال رؤوف ... هنيئاً له بها ! »

قلت ببطء ، وكأنني أكشف له عن ناحية في نفسه يخفيها عني ، ولا يفلح : « طارق ! انك تغار ، تغار من وليد ! عجيب ! لماذا هذه الغيرة ، وهو لا ينافسك في شيء ؟ »

التفت إليّ بحدّة ، كأنه أراد أن يجيب بعصبية . غير أنه أحجم ، وعاد بعينيه الى الطريق .

ثم قال : أنتِ حرّة فيما تفعلين . أنذهب الى النادي ؟ »

لم يقل شيئاً بعد ذلك ، ولم يهدد بأي عنف . ولا أنا انفجرت بالغضب أو البكاء . تلك كانت مرحلة تخطيتها ، تركتها ورائي .

أو أنها كانت مرحلة في الغيب ستأتي ، وعما قريب .

(٥)

بعد اسبوعين أو ثلاثة زارنا طارق مستصحباً سميرة والأطفال ، وكان معه هذه المرة كاظم اسماعيل أيضاً ، ولم اكن قد رأيته منذ ان جاءنا يوماً ، حاملاً بؤس البشرية على كتفيه لأن سوسن عبد الهادي لم ترض به زوجاً لها ، رغم توسط عائلته وعائلتنا في الأمر . اعتذرت سوسن قائلة انها تحترمه كثيراً ، ولكنه يكبرها بسنين كثيرة ! ولا ريب عندي انها في الواقع أرادت أن تقول : قد يكون كاظم كاتباً على شيء من الأهمية ، ولكن ما الذي أنجز في حياته مما قد يجعل أية امرأة تهرع اليه ، حتى وان تكن أرملة – دع عنك أرملة فارعة القوام، تحيا حياتها حلمياً في لوحات مليئة بعشاقها الحقيقيين ؟ وليد ، من غيرك وغيري يفهم هذا كله ؟

لم أتحمس كثيراً لضيوفنا ، ولكنهم كانوا في مرح عائلي أصرّوا على اجتذابي اليه . أخذهم والدي الى الحديقة ليريهم آخر أوراده النادرة – ولا سيما تلك الوردة البنفسجية التي أفلح أخيراً في جعلها تنبت ، ومعها ثلاث أخريات « في روعة الفجر » . قال أبي ، فهو يحفظ عن ظهر قلب كل الكليشيهات المناسبة ، كغيره من أهل السياسة . وأعلن لهم جميعاً : « سأسميها وصال . وسأكتب عنها الى جمعية الأوراد في لندن .

سأجعل تهجئتها دبليو ، آي ، اس ، آ ، ل ، إي – على الطريقة الفرنسية . ما رأيك يا دكتور ؟ » فضحك طارق وقال : « رأي الدكتور من رأي أبيه . وهل يجرؤ أن يقول له لا ؟ »

وقال كاظم : « أبو طارق ، اريد ثلاث فسائل من شجرتك الرائعة ، منقار الطير . »

أجاب أبي : « تأخرت . كان يجب أن تخبرني في شباط الماضي . على كل ، سأحفظها لك حتى الخريف القادم . » ثم أضاف بخبث : « ونرجو في هذه الأثناء أن تكون قد وجدت لك ابنة حلال تناسبك – مالك وللفنانين والفنانات يا رجل ؟ »

وحين نظر إليّ كاظم نظرة فائضة ببؤسه العتيد ، هبطت معدتي . ووددت لو أصرخ بوجهه : أما تكفيني مأساتي يا غبي ! وعدت أدراجي إلى الداخل .

بعد الغداء انسحبت إلى غرفتي وإذا طارق يفتح الباب عليّ ، ويغلقه خلفه .

– « زعلانه عليّ ؟ تعالي ، هاتي بوسه . »
وقبلني على خدي ، كما كان يفعل أيام طفولتي .
وقف أمامي ، ونظر في عيني ، ثم همس : « ما أخباره ؟ »
فهززت رأسي ، ولم أجب .
– « زرناه أنا وكاظم قبل أيام ، هل أخبرك ؟ »
فهززت رأسي مرة أخرى .
واستمر : « متى سيسافر ؟ »
قلت : « بعد يومين أو ثلاثة . »
– « متى بالضبط ؟ »
– « يوم الأربعاء . بسيارته . »

— « صدق ؟ في نفس اليوم الذي سنسافر فيه أنا وكاظم ؟ »

فقلت : « غريب ! »

قال : « غريب . حقاً ! سنسافر إلى لبنان ثم اليونان . بسيارتي . اتأتين معنا ؟ »

فابتسمت بسخرية . « حالاً ! » ثم أضفت : « إذا التقيتما بوليد، إعتنيا به . »

فضحك طارق . « أمرك يا سيدتي ! بس اضحكي قليلاً ! ما زالت الدنيا بخير ، أتعرفين ؟ »

وفتح الباب وخرج .

- ١٠ -

مروان حديد يقتحم أم العين مع رفاقه

رامات يوسيف تكاد تكون على الحدود . وهي في الأصل قرية عربية تدعى أم العين،ا حتلّها الاسرائيليون عام ١٩٤٨ ، واخرجوا سكانها العرب وأبدلوا اسمها ، وحصّنوها ، تساندها في السنوات الاخيرة مدفعية ورشاشات وبضع مدرعات . وهي جبلية متوسطة الحجم ، تحيط بها بساتين الفاكهة ، وحول البساتين اشجار الزيتون ، وغابات السنديان المتصاعدة إلى قمة المرتفع الذي بنيت القرية على اواسط سفحه . درسنا موقعها على الخرائط التي لدينا يوماً بعد يوم ، وشرح لنا العم عزي وضعها الطبوغرافي ، فهو يعرفها معرفة جيدة ، لأنه من ابنائها الذين اضطروا إلى مغادرتها قبل ثلاث وعشرين سنة ، ايام كان شاباً في العشرينات من عمره .

كان قرار الجبهة أن نقتحم أم العين ، وذلك بتحرك مجموعات ثلاث : الاولى تهاجمها من السفح الشمالي الشرقي للجبل ، والثانية من السفح الشرقي حيث تبدأ غابات السنديان ، والثالثة من الناحية الجنوبية . وأنا احد افراد المجموعة الأخيرة ، التي عليها ، تجنباً للانكشاف ، أن تهبط وادياً صخرياً وعراً شائكاً ، ثم تصعد في اتجاه القرية .

تحركت مجموعتنا إلى منطقة العملية في الساعة العاشرة من ليلة مقمرة – سرنا على الاقدام على نسق فردي إلى المنطقة المحيطة بالهدف . كان عددنا بهذا المحور حوالي الأربعين . وقد تحركنا بفئات صغيرة تضم

الواحدة منها عشرة افــراد ، حاملين السلاح والذخيرة . أحدنا ، عبد الرحمن ، يحمل رشاشاً متوسطاً لاعطاء كثافة النيران ، وآخر ، جمال ، يحمل جعبة اسعاف إضافـة إلى رشاشه ، والجميع يحملون مــع السلاح كميات اضافية من الرصاص . أمـا أنـا فأحمل قاذفــاً صاروخياً واربعة صواريخ ، وبحزامي مسدس صغير اعطاني أياه أسامة ، ونحن في القاعدة ، لحماية نفسي إذا نفدت صواريخي ووجدتني اواجه الاعداء مباشرة .

في الحادية عشرة بلغنا الأمر ببدء العملية . سرنا ، فئة بعد اخرى ، بسكون لا يتخلله سوى صوت أحزمة البنادق والجعب وهي تتأرجح على أجسامنا . المسيرة طويلة نحو نقطة الانطلاق ، ثم اختراق القريـة . كان جانب الوادي شديد الانحدار ، نزلنـاه وضغط السلاح الثقيل الذي نحمله يدفعنا دفعاً إلى الأمام ، وامتلأت سيقان بنطلوناتنا بالأشواك . التففنا بعد ذلك صاعدين ، بين الصخور والأشجار ، وبلغنا مواقعنا ، وتوزعنا : فاتجهت كل جماعـــة بالاتجاه المحدد لهـا حسب الخطة الموضوعة ، لكي تتمركز أمام أهدافها الأولية مباشرة . أخذنـــا نتسلل بحذر ، وندنو ما نستطيع من أهدافنا دون أن ننكشف ، ريثما تصل قوات المحورين الآخرين إلى نقاط انطلاقها . تقدمنا منحنين ، ثم مقرفصين ، ثم زاحفين ، وإذ نحن نشرف على المباني الاولى المتباعدة على طرف القرية . وهناك مكثنا ننتظر اشارة الهجوم .

هذه عمليّتي الثالثة ، ولكنهـــا أكبر من العمليتين السابقتين ... أشعر بارتياح داخلي لم أتوقعـه . لست أشعر بخوف أو توتر – غريب ! ولا أشعر بذلك الحماس العصبي المرهق الذي كنت أتصور انـه يجب أن يسبق المعركة ، والذي انتابني في المرتين السابقتين . انظر إلى نفسي ، متئداً ، هادئاً ، من بعيد – وكأنني لست مستلقياً بحيطــة وتصميم بين أشجار الزيتون . قناعتي بما أفعل تملأني ، والليل الفلسطيني ساكن ، فيه قرصة

برد طيب ، ووراء الزيتون أرى النوّار مكوماً على أشجار التفاح وهو يلتمع فضياً أخضر بضوء القمر . رائحة التراب النديّ أتلذذ بها ، والسماء صافية لا يخفي القمر المتناقص كل نجومها . أسندت رأسي على سلاحي بطمأنينة ، وهمست لعبد الرحمن : « أبو عوف ، مرتاح ؟ » فشدّ يده على يدي ولم يجب .

جاءتنا اشارة الاقتحام . وكنا قد اتفقنا على ألا نتحرك فوراً ، بل نتريث قليلاً . اشتعل الليل دفعة واحدة ، وأنا مع عبد الرحمن في وهدة التراب التي اختفينا فيها ، ننتظر . وبي شعور متناقض بنفاد الصبر وركود الأعصاب ، في آن واحد . توالت الانفجارات ورشقات الرصاص ، وانشحن الجو ببريق الانفجارات والخطوط النارية . في هذه الأثناء كانت الجماعات التي إلى اليمين وإلى اليسار تنطلق ، وتطلق مزيجاً من الرصاص والصواريخ على الدشم والمواقع المواجهة لنا . ومرّت فترة لا أرى فيها سوى لمعان البارود الملتهب . والمندلع من فوهات البنادق ، وكلما أطلق صاروخ ، انطلق معه لهب قوي ينير الأشجار حتى الأفق . يتجه الصاروخ نحو الهدف وأراه مندفعاً كأنه نجمة حمراء ساطعة النور ، ما تلبث أن تخمد .

أهداف العدو تردّ بالمثل ، وتطلق نيران الرشاشات الثقيلة . تتطاير الخطوط النارية فوق رؤوسنا ، منبعثة من نقطة في أعلى السفح المشرف علينا ، وإذا رشاش آخر يطلق نيرانه من أمامنا ، وثالث يهدر بقذائفه ، لا من القرية نفسها ، بل من قمة جبلية نائية في الجنوب يرمي باتجاهنا عبر الوادي الكثيف المظلم . الرصاص الخطاط يتشابك في الفضاء ويرسم أشكالاً مذهلة بتقاطعاته ، أو عند اصطدامه بالصخور وانحرافه عن خط سيره ... السفح مليء بالنجوم البيضاء المتناثرة ، باصطدام الرصاص المنفجر عند آخر مداه ، أو بانفجاره في السماء فوقنا ليزيد من عدد النجوم فيها ...

وجاء دور جماعتي . ضربنا أولاً موقعاً مكوناً من أكياس الرمل كان أمامنا ، في الطابق الأسفل من مبنى حجري يتألف من ثلاثـة طوابق . وفي الحال أخذنا نتبادل النار مع كل نوافذ المبنى بطوابقه الثلاثـة ، إذ سلطت النار علينا . وفجأة انطلق رشاش بنيرانه السريعة من شباك منزل آخر كان على بعد قليل من يسارنا ، ولكن عـلى مستوى أخفض من المكان الذي نحن فيه . ولم يصب أحداً منا . والأرجح أن جندي العدو كان يطلق النار عشوائياً – ليرهبنـا ، ويشجع نفسه . قفز عبد الرحمن وجمال بعيداً عني . وقفز الآخرون كـل إلى طرف . ووضع عبد الرحمن رشاشه المتوسط بين رجليه ، وجعل يطلق النار بغزارة ، واستأنف جمال وجماعته اشغال مبنى الطوابق الثلاثـة ، بينما انتفضت أنـا وقذفت النافذة بأحد صواريخي . كان الوهج هائلاً . وسكت رشاش العدو في الحال ، فيما خرج من المنزل جنديـان يركضان هاربين . ولحق بهما أبو عوف برشاشه ، ورأيتهما يقعان أرضاً معاً .

ردة الفعل منّا سريعة . ويدهشني عدم اضطرابي لرصاص الأعداء ، ونحن منبطحون ، أو جالسون . أنظر إلى المشهد بوعي وبرود ، وألاحظ كيف يضيء لهيب الرشاش والقذيفـة الصاروخية البستان كلـه ، وكأن « الجل » مسرح ينيره البارود ، ونحن المتفرجون ، والأصوات الراعدة تمثل أدوارها .

قضينا على الموقع القريب بشيء من السرعة ، غير ان نيرانـاً غزيرة ستمرت في مختلف النواحي ، وأخذ هدير الانفجارات يتصاعد ويتكاثف ، وهي تقترب من مكاننا . وأدركنا أنه قصف معاد ، وأخذ عبد الرحمن ومهنّد يشتمان « عرض » القذائف ودينها وهي تنهال حولنا . أما أنـا فكنت صامتاً ، أرقب وأصغي . أحياناً أسمع صفير القذائف القادمة فوق ضوضاء المعركة ، وأحياناً لا أشعر بها إلا عند انفجارها ، فيأخذ عيني

وميضُها الخاطف ثم يجيئي خبطها المريع. وانتبهت الى صوت غريب يرافق انفجار القذائف – صوت كخشخشة الحشرات الكبيرة الطائرة ، وتبينت انه صوت الشظايا وهي تتناثر ، حاملة الموت ، والشظايا تتساقط حولي الآن ، بعد كل انفجار ، كأنها حبات زيتون تتساقط من الأغصان التي فوق رأسي .

:

اختلطت القذائف بالرصاص ، ولم يصمت الرشاش المدمدم عبر الوادي ، وبات يصدر عنه سيل احمر متواصل من النار ، بخط منحنٍ ، كأنه سيل من البول الأحمر . ثم ملأ الجوَّ صوتٌ جديد – صوت مولول ، تحدثه القذائف الضوئية التي أطلقها العدو لاثارة ساحة المعركة وتحديد أجسادنا في موقعنا . وإذا ما التهبت القذيفة كان صوتها يوشوش كصوت الفتيل المشتعل . في ضوء هذه الأقمار الوافدة ، انبطحت على الأرض وكيّفت جسدي ليتسق مع تموّج التراب ، وأنا في انتظـــار أمر جديد . نزعت جعبة الصواريخ عن ظهري ، ووضعتها هي وسلاحي تحت جسمي حمايـة للرؤوس المتفجرة من احتمال الاصابة والانفجار ، خدي الأيسر يلامس التراب ، والأيمن يلامس الحديد البارد .

في هذه الأثناء كانت الجماعة الي الى اليسار تتقدم حسب المقرر يقودها قائد وحدتنا أبو رائد . انسان جريء ، صلب ، مندفع بحب هائل للرجال الدين يأتمرون بكلمته ، وشديد العصبية معهم عنـــد وقوع أي خطأ . وجّهت القاذف ، وأطلقت صاروخاً على مسافة معينة أمامه . وانتظرتُ الجماعة قليلاً ، وأطلقتُ صاروخاً آخر . وقال عبد الرحمن : « انتهت القرية ! سندخلها الآن . » ومن بين الأشجار رحنا نركض واحـــداً واحداً نحو القرية المظلمة . اخترقت مجموعتنا . مجموعة أبو رائد ، المنازل وهي تطهّر الموقع تلو الآخر . واعترضنا قنّاص ، فاحتجب أبو رائـــد لحظة ، ثم سمعناه يطلق عليه النار بعنف ، وعاد الى الأنظار ثانية ملوحاً

لنا بالتقدم . وفي قلب القرية استولينا على مدفع رشاش ثقيل ، بادر اليه مهنّد ، وأداره على أحد المنازل وأطلق منه ناراً كثيفة ، وهو يضحك ويشتم بالتعاقب .

كانت الساعة الآن تقارب الرابعة صباحاً . مرّ قائد كل مجموعة على عناصره يتفقدهم وذخائرهم . عندنا بعض الجرحى . ولكنهم قادرون على المشي ، ولو بصعوبة ، فيما عدا اثنين يحملها الرفاق . وبدأنا بالتحرك للعودة من خلال الصخر والشوك ، وبنسق فردي ، كما جئنا . جعلت القذائف تنهمر من جديد من مواقع بعيدة – يصحبها رصاص قنّاصة يبحثون عنّا في الظلام – الذي اشتد كثافة بعد غياب القمر .

العودة ليست كالقدوم ... النزول شاق ، والصعود أشق . ولكن ذهني صاف . أن أدخل فلسطين مقاتلاً ! سأروي التفاصيل لأبي . حالما أصل إلى القاعدة ، سأرسل اليه خبراً في بغداد ، وأطلب اليه أن يقول لوصال « هذا أول الوفاء بالوعد . » ستفهم . ذهني صاف ، وجعبتي ترتطم بظهري ، بصاروخها الواحد المتبقي ... تشتعل قذيفة في الفضاء ، فينصبغ السفح المديد بالأبيض الفضي ، وتظهر ، للحظة خاطفة ، عشرات الأشكال السوداء وهي تتحرك – عشرات الظلال ، لأن القنبلة القادمة يأتينا نذيرها بصوتها المولول ، فيرتمي الجميع أرضاً خلف الصخور وبين الأعشاب .

وابتعدنا عن نقاط الالتحام الفعلي ، رغماً عن الوميض المتكرر والرصاص المتباعد . غير أنني أحسّ بالتعب لثقل حمولتي ، ويرهقني الانبطاح مرة ، والقفز مرة ، والسير منحنياً مرة أخرى . صممت على أن أرفع رأسي ، واستنشق الهواء الفلسطيني القرير الرطب ملء رئتي ، وسرت للحظتين منتصباً بطول قامتي ، غير مهتم بصفير الرصاص ، ساخراً من احتمال إصابتي ، كأنني بعد تلك التجربة حظيت بحصانة سحرية ضدّ رصاص

الأعداء جميعاً . وإذا أبو رائد يصيح من حيث لا أعلم : « انبطح يا وليد ! الدنيا كلها تراك ! »

انبطحت ، وكان عبد الرحمن دليلي ، فهو قد اشترك في عدة عمليات من قبل . وتذكرت قوله : « الموت أكبر حيّال .. يجب أن تخاتله بحيلة أكبر ، دائماً . » ونهضت بحذر شديد هذه المرة . يجب أن أعود إلى القاعدة ... وقطعنا مسافة من المنحدر الصخري ، ببطء عسير . حالما نعطف شمالاً سيحمينا التلّ .

وفجأة انبهرت عيناي ، وأطبق صوت يزن أطناناً على رأسي لا أدري ما هو . « مروان ! » سمعت أبو عوف يصيح . « مروان أصيب ! مروان ! » وامتلأ الفضاء العريض بوجه واحد هائل .

وصحت : « أبي ... أبي ... » ولم يسمعني أحد .

- ١١ -

ابراهيم الحاج نوفل ينبش

الكوامن حتى الفجر

أيا شجر الخابور ، يا شجر دجلة والفرات ، يا شجر أنهــار العالم
الطيبة . مالي اراك مورقاً ، كأنك لم تحزن على ــ لا ، لن تحزن يــا
شجر البشر لا يحزنون ، فكيف تحزن أنت ؟ ومن يقوى اليوم على
الحزن ؟ سأعلن الحداد بارتداء أزهــى الألوان . سأعلنه بشرب العرق
والويسكي ــ أيهما ميسر . وأورق يا شجر ، وتفجر بالفتاح ويا زهر

أفتقده كل ليلة . أذكره كل يوم ، أراه في كــل عين أبصر فيها
نظرة حب . معي هو في حوار مستمر . وفي خصام مستمر والخصام
معه اطيب من الانسجام مع أي انسان .

كنت اقول له : « حوارنا هــذا ، كم يكشف حقاً عن خفايانــا
الدفينة ؟ » فيقول : « قليلاً جداً . بل أنه يغطي على الكثير منها .
هل فينا الشجاعة الكافية للخوض في تفاصيلنا الداخلية كلها ؟ شهواتنا ،
آلامنا ، رعبنا ، فرحنا ، مــا نخشى ومــا نرجو ، تجاربنا الرائعة ،
تجاربنا المشينة ــ الا نبقيها في غياب ، كامــل أو جزئي ، لكيما نقول
أي شيء ؟ ماذا لو حاولت أن أقول كل شيء ، مــا أصعب ذلك .
هكذا كان يقول . وهو الذي مثلي ، يتمتع بالحديث اكثر مما يتمتع أي
رجل آخر بالعبث بأثداء النساء . اقول كل مرة انني سأحاول أن ارفع
ولو قشرة واحدة من القشرات الكثيرة التي تكسو ذاتي ، بل ذواتي ،

ولكن ما أكاد ارفع واحدة حتى أجدني أضع مكانها قشرة أخرة . ومع هذا ، فلأحاول .

وليد ، على نحو ما يذكرني بالاسكندر يوم حزم امره للحصول على سر الخلود . يدوّخون العالم ، هؤلاء الباطشون بالعالم (لشدة ما يحبونه !) ، ثم يطلبون الخلود . كلكامش فعل ذلك ايضاً : فعل ما فعل بأهل أوروك ، ثم كبر وعقل وحزم امره للحصول على سر الخلود ، ولمّا حصل على النبتة التي ستهبه اياه بعد الجهد والآلام ، أكلتها الحيّة ، وخُلّدت دونه . والاسكندر ، رغم ذهابه إلى بابل ، حيث لا بد أن أحدهم روى له قصة كلكامش ، لم يتّعظ .

امتطى فرسه ، مستردفاً عليها جارية تقوم بخدمته — هكذا تقول رواية أبي ، ولكننا نعلم أن هؤلاء الذين يدّوخون العالم لا يستطيعون البعد عن النساء ليلة واحدة ، فيدوخون هم بهن أخيراً . وكان ثمة الهة اغريقية ، أو بابلية — جونو ، مثلاً ، أو انانة ، أو عشتار — تهديه (أو تضلّله !) وهو يقطع الفيافي والقفار ، ويدهش لبطاح العراق التي لا حد لها ولا نهاية ، إلى أن بلغ بئراً تحرسها الافاعي ، فعلم أنه أدرك غايته . ماء الخلود ينبع من اعماق البئر ، فليقتل الافاعي وليشرب منها . فقالت له احدى الافاعي ، وقد عرفت ما دار في خلده : « عبثاً تقتلنا ، يا ذا القرنين . ولكن لك أن تملأ من الماء قربتك ، على الا تشرب منها هنا . لأنك إن حاولت ، لدغتك واحدة منا قبل أن يبلغ الماء شفتيك ... خذ القربة ، واذهب مسافة عشرة فراسخ ، تجد بستاناً جميلاً . علّق القربة على غصن شجرة ، ونم تحته إلى أن تستريح . ثم انهض ، واشرب وحدك ، على رسلك ، فتصبح من الخالدين ... »

ملأ الاسكندر قربته ، وحمّل القربة وراء الجارية ، وأسرع بحصانه إلى البستان الموعود . ولكن الحصان راح ينهب به الأرض ، ولا يصل .

وبقي على تلك الحال ساعات ، إلى أن شاهد أشجاراً من بعيد ، فاستبشر خيراً . وما كاد يصل اليها حتى كان التعب قد هدّه ، وترجّل وأمر الجارية بأن تعلّق القربة بأحد الأغصان ، وتحرسها ، وربط الحصان إلى شجرة ، وارتمى على العشب الاخضر في الظل الوارف ، وغرق في نوم عميق ... وإذا غراب أسود يحطّ على القربة ، على مرأى من الجارية ، وينقر القربة بمنقاره الحاد ، ويثقبها . واندلق منها الماء الثمين ، فرشفت الجارية منه مقداراً وهو ينصبّ على الأرض ، كما رشف الغراب منه حتى ارتوى .

وأيقظت الجارية الاسكندر من نومه ، فغضب لما رآه ، بعد ذلك التعب المضني كله ، وعندما قالت الجارية إن الغراب شرب من ماء الخلود ، وأنها هي أيضاً نالت شيئاً منه ، طار صوابه ، وضربها بسيفه ، فجدع أنفها ...

ولكنه رقّ لحالها ، فصنع لها أنفاً من طين ... وكانت نتيجة سعي الاسكندر أن الغراب هو الذي أصبح خالداً ! اما الجارية فما زالت ، والعهدة على الراوي ، على قيد الحياة حتى يومنا هذا – تلقي بنفسها على صدر أي رجل تراه نائماً ، فتكون كابوساً ثقيلاً تمنع عنه التنفس ، ظناً منها انه الاسكندر ، ولا تبارح صدره الا إذا هددها بجدع أنفها ... لأنها تخشى أن يعرف أحد أن انفها من طين .

وهذا كله يذكّرني بوليد ، مع الفارق بالطبع . سعى ما سعى ، وحقق ما حقق ، ليتمتع غراب هنا وغراب هنالك بما حقق ، ولا يحصل هو حتى على قبر يعرف أحد بالتأكيد أنه قبره . ولا أشك أنه ترك اكثر من امرأة تبحث عنه في الآخرين ، وتخشى أن يكتشف أحد أن انفها من طين ، ولكنها لا تكفّ عن البحث .

يجب الا أنجرف بالتشابيه إلى حيث لا أريد ، فأبتعد عن الحقائق ،

وأقول ما لم يخطر ببالي ان اقول ، كذلك الأمير الذي قال . ايها القاضي بقم — ثم حمله حب السجع إلى أن يردف : قد عزلناك فقم ، لأنه لم يجد كلمة أخرى يصوغها سجعاً . لا ، لن أعزل أحداً ، حباً في سجع أو رغبة في تقفية ، ولو انني اود لو اعزل الكثيرين ممن اراهم كل يوم ، وهم أقل براءة بكثير ، وأشد لؤماً وخيانة بكثير ، من قاضي قم المسكين . ولكن الله لم يجعلني أميراً ، ولم يقلدني سيفاً يمانياً ، بل دس في يدي زجاجة أطرب لصوتها عندما تدق رأسها بالكأس وتصب من جوفها النار الذهبية . وقال : ابراهيم ، انطق ! فرحت انطق ، وإذا لم تستنطقني الزجاجة العسجدية ، استنطقتني الذئاب البشرية — إن لم يكن كلاماً ، فصراخاً . انا أتوق إلى الصراخ توق السجين إلى الحرية . وقد رأيت سجناء كثيرين في زماني . في أبي غريب ، وغير أبي غريب . يقولون : حريتك بين يديك ! أقول : انها خارجة عني ، وراء جدران تحجبها . ولا تحجبها . كأن بيني وبينها زجاجاً مضبباً أريد تهشيمه لبلوغها ، لرؤيتها كما هي ، كما خلقها ربها ، لكنه زجاج لا تخترقه رصاص ولا تنال منه مطرقة .

في شبابي . كنت كل صيف أثير الجدل والشغب في البيت حول ضرورة سفري إلى أوربا ، لأنني في سفري أجد شيئاً من تلك الضوضاء التي أتحرق اليها . وكنت أعلم أن عند أبي . الحاج نوفل ابراهيم ، من المال ما يتكتم بشأنه حتى تجاه زوجته ، دع عنك اولاده . لمن يحفظ أبي هذا المال كله ، كنت أقول ، وهو — على الأقل في الظاهر — الحاج الزاهد في الدنيا ، المتطلع إلى الآخرة ؟ أبي لم ينقصه الدهاء يوماً طوال الاربعين عاماً التي قضاها في مكتبه التجاري في منطقة البنوك من شارع الرشيد . جعلني ادرس الاقتصاد ، وهو الذي ختم علم الاقتصاد دونما كتاب أو معلم . واستطاع أن يزوج أخواتي الأربع زواجاً « لائقاً » .

كل واحدة منهن ، نجلاء ونوال ونعوس ونضار ، تخرجت من كلية ، وتوظفت . ثم وجد لها أبي (أن لم تجد هي لنفسها) زوجاً على شيء من اليسر . وبقيت أنا ، أقرأ الكتب ، وأغازل اليسار (هكذا كانوا يقولون عني) ، وأمنّي نفسي بالثورة البروليتارية ، ولا أحرّك أصبعاً في عمل مجد ، كسلاً أو تمرداً . حتى في مكتب أبي ، وجدت العملية الاقتصادية المزعومة عملية آلية مملة رجوت أبي أن يعتقني منها . كان همّي الوحيد هو أن اكتب . حتى في الاقتصاد كتبت . وكتبت في النفط ، أيام كانت المطالبة بمشاركة العراق في عشرين بالمئة من رأسمال شركة النفط الانكليزية تعتبر مطلباً وطنياً عسير التحقيق يقتضي المثابرة والأصرار . ولما كان لا بد لي من عمل ، عملت معلّماً في ثانوية أهلية ، أعلّم الابجدية الانكليزية ، ومن خلالها : كلما استطعت ، نطقت كفراً في مواضيع اقتصادية وسياسية ، والكفر لم يغب امره يوماً عن ذوي المدرسة ، ولا ذوي السلطة .

وكان لي اصدقاء رسامون ، فانخرطت في حلقاتهم ، ووجدت أن لي ميولاً فنية مكبوتة ، كما كانوا يقولون ، فاطلقت فيها قلمي . أخذت اكتب عن الفن . وفي الخمسينات (ولماذا لا اقول : حتى اليوم ؟) إذا لم تجد ما تكتب عنه ، كان لك دائماً أن تكتب عن الفن ، وما من أحد يخطر له أن يسألك : ما هي مؤهلاتك التي ، يا سيدي ، جعلتك تنصّب نفسك قاضياً على الفنانين ؟ مؤهلاتي أنا كانت عشقي لما تراه العين ، وصداقاتي مع الرسامين ، وقدرتي على تحريك قلمي في أي اتجاه أريد . وكلما جئت إلى البيت ، ومعي جواد حسني ، أو كاظم اسماعيل ، حاملاً صورة زيتية أخرى أعلقها على حائط غرفتي ، تأفف أبي من هذا العبث ، وأخذني جانباً وقال : إذا بقيت على هذه الحال فنهايتك السجن ، أو الشماعيّة . متى ستصبح آدمياً ؟ » فأضحك في وجهه ، وأقول :

— « بابا ، ما يخالف . أريد عشرة دنانير . »

— « عشرة ؟ لماذا ؟ »

— « ثمن اللوحة . »

— « عشرة دنانير ؟ هل جننت ؟ لن اشتريها بعشرة فلوس . »

— « عشرة دنانير ، بابا . سأقنعك فيما بعد . »

— « لا حول ولا قوة الا بالله ... »

أما في اول الصيف ، فكان لا بد من إثارة الشغب، ورفع الصوت بالشجار . وكنت أعلم أن ابي ، مهما يُعرض عن امدادي بالمال اولاً، سيفكّ الكيس أخيراً ، ويقذف على المنضدة بمئة او مئتي دينار — نقداً، دائماً . فألتقطها وأركض الى المصرف ، وقد هيأت جواز سفري مسبقاً، لأحولها الى صكوك مسافرين .

وهكذا تعرّفت على وليد مسعود — في مطلع الخمسينات ، وفي البنك العربي بالذات ، الذي كان أبي يتعامل معه . كان التعارف سهلاً وسريعاً ، لأن وليد كان يعرف اسمي ، وأنا أعرف اسمه ، مما تنشره الصحف . نحن جيل الوثبة ، كنت اقول . ولو ان وليد لم يكن قد جاء الى بغداد في أوائل ١٩٤٨ ، بل جاء بعد ذلك بسنة . لم يرنا أيا الوثبة ، التي كانت فاتحة الحياة الحقيقية : السياسة (كما كنا نفهمها أيامئذ) ، الكتابة ، الفن ، التوقيف ، الرؤية الطوباوية الهائلة . كنا نكتب في الصحافة المحلية ، ونسرّب مقالاتنا الى لبنان ومصر ، أنا ، وكاظم ، وجواد ، ووليد ، وآخرون . بعد مظاهرات عام ١٩٥٦ أوقفنا جميعاً . وكنا في الموقف في السراي لا نزال نردد ما نحفظ من أبيات الجواهري :

فالوَعْيُ بغيٌ والتحرّر سُبَّةٌ والهمس جرمٌ والكلام حرامُ
ومدافع عما يدين مخرّبٌ ومطالبٌ بحقوقه هدّامُ

وفي تلك المرة ، أبعد وليد الى الحدود الاردنية . أخذوه من مكتبه الى سيارة الشرطة . ولما لم يكن يحمل أوراقه ، رفضت السلطات الأردنية السماح له بالعبور ، فأعيد الى الرطبة ، ثم أعـادوه الى الصحراء ، ثم اعيد الى الرطبة ، لعبوا به لعب الكرة ، وبنو الحلال في بغداد يسعون من أجله – كلنا كنا نسعى ، وزوجته ريمة تكاد تنهار أعصابها خوفاً عليه ، الى ان وافقت السلطات على عودته ، بكفالة تاجر مسجـل في غرفة التجارة ، ووضعه تحت المراقبـة لسنة ، الى آخر تلك الأساليب المشهورة .

كان كتابه «الانسان والحضارة» في المطبعة ببيروت أيامئذ . فنصحناه عند عودته بالتريث في نشره ، غير أنه أصرّ على إصداره ، وجاء الينا الكتاب في نهاية السنة ، وأثار اللغط ، وهاجمه كاظم اسماعيـل هجوماً بعيداً عن المنطق مستهدفاً شخص كاتبه . غير أنه عاد ، بعد ذلك ببضعة أشهر ، فكتب عنه مجدداً ما أرضانا جميعاً . ولم نعلم أكان ذلك عن قناعة منه جاءته بعد إعادة النظر في الكتاب ، أم رتقاً لصداقة جعـل نسجها يتمزّق بينه وبين وليد ، بل بينه وبيني في فترة عسيرة من حياتنا . هل كانت الكلمة حقاً على ذلك القدر العجيب من الأهمية ؟

قبل ذلك بسنوات ، يوم جاءني وليد من وراء منضدة ، يهيء لي معاملة التحويل الخارجي – في أوائل صيف ١٩٥١ ، أكاد أجزم – لفت نظري شيء ما في مظهره ، ترك أثره في نفسي . ضمور وجهه ؟ سعة عينيه ؟ طول شعره ؟ من الصعب أن أحدّد . بدا لي أشبه بالنسّاك : شيء رهباني فيه يجعله يبتعد عنك ويقترب منك في آن واحد . ولم أدهش حين علمت بعد ذلك ، بأنه ترهب فعلاً في صباه . كان قادراً على بذل الجهد ، والتركيز ، والحزم ، والضحك ، والحب ، كلها معاً . يعمل من أجل نفسه ، ومن أجلك في الوقت عينه ، ويوحي بطاقة خزينة فيه

لا تستنفد . وأحياناً ينفّرك باصراره على ضرورة الانصاف ، على استعمال العقل ، على العزم عن حب ، لا عن حقد – كما كان يقول . هذه مثاليات أقدّرها في غيري ، ولكنني لست أريدها لنفسي قطعاً . أنا إذا أحببت أردت أن التهم حبيبي ، وإذا حقدت أردت أن احطم وأهشم ، لا عقل ، ولا انصاف ، ولا ما يحزنون . ولكن وليد كان وليد : إذا حاججته في نفسه ، ضحك ، وانصرف الى موضوع آخر .

يوم التقيته ، كما قلت ، كان يقدّم امتحاناً في الاقتصاد لجامعة لندن ، كطالب مراسل . كانت كتبه على المنضدة ، مع أكداس الحوالات والرسائل والصكوك . بدأ الدراسة قبل ذلك ببضع سنوات في القدس ، ولكن نزوحه من مدينته ، ومجيئه الى بغداد ، وهو لا يحمل ، كما قال ، إلا الثياب التي على ظهره ، أخّرا دراسته بعض الشيء . ويبدو أنه انخرط لفترة قصيرة عام ٤٨ في جيش الانقاذ بدمشق ، الى أن سُرّح الجيش . وصمّم على أن تكون بغداد منطلقاً جديداً – له ، ولكل فلسطيني ، بل لكل عربي . ولتكن بداية النصف الثاني من القرن ، أول الثورة العربية الحقيقية ... وأول الثورة ، هو أن تكون لك رؤية جديدة – في كل شيء ، من الاقتصاد حتى الشعر – مبنية على معرفة حقيقية . كل شيء ترفضه ، يجب أن تعرف ما هو بالضبط ، لكي تتوصل الى معرفة البديل . وهدف الرؤية ، في النهاية ، بعد كل نظرية سياسية واقتصادية وفنية ، بعد كل صراع ، ونضال ، هو أن تحقق انساناً أمثل ، انساناً حراً ، انساناً له أن يقتنع ، وله أن يعارض ، وله أن يرفض . انسان كهذا ، هو الذي في النهاية ، سيجدد الأمة ، سيعيد ميلادها ثانية ، لتساهم في تقدم البشرية . هذا طبعاً تبسيط شديد للكلام الكثير الذي لم ينقطع بيننا . غير اني كنت أرى أن وليد ، باندفاعه النظري ، وبعدم اعتناقه مذهباً فكرياً ، كالماركسية مثلاً ، يعينه في تسيير اندفاعه في وجهات متصاعدة متكاملة ، كان يفرض على نفسه الدوران في دوائر ،

قد تكون لولبية في صعودها نحو غاية نبيلة ، غير انها لا تتيح له المنسرح الكامل لكل قـواه . كان أشبه بطير كبير الجناحين ، يحلّق في قاعـة كبيرة — فيضرب أخيراً سقفهـا ، ولا يستطيع الانفكاك إلى الأجـواء التي وراءها .

أما هو فكان يرى غير ذلك . كان يرى أن انتماءه الفكري لا تحده حدود موضوعة ، وأن اعتناق المذهبية مسبقاً ، هو الانقفاص في قاعة كبيرة ، عوضاً عن التحليق في الأجواء التي لا تخوم لها . وهذا في التحليل الأخير . هو سرّ المأساة في حيـاة وليد مسعود . أراد أن يكون قديساً في عالم من الفجور ، منظّراً متفرداً في عالم من الأحزاب ، عقائدياً غير عقائدي ، وفي عالم من التزمّت الدغماوي . أراد أن يتكلم برموز حسب ان لها معانيها بين الناس ، ونسي انها غير الرموز التي يحملونها كالرُّقى حول أعناقهم . ودهش ان الذين فهموه ، في خاتمة المطاف ، لم يكونوا إلا قلّة من الناس — ولعلها القلّة التي أحبت فكره لأنها أحبته لشخصه. لشيء ما فيه يشعّ من عينيه ويديه وصوته .

كانت ريمة ، قبل أن تنهار كليّـاً ذلك العام المشؤوم ، في قلق دائم عليه . تتشبّث به ، وتتشاجر معه ، وتخشى كلما خرج أن يضلّ طريق العودة إلى البيت . ويا ويله إذا تأخّر عن مواعيده : تخرج إلى الشارع ، وتذرعه جيئة وذهابـاً في انتظاره ، وتخابر أصدقاءه واحداً واحداً لتسأل عنه . وأكثر من مرة اتصلت بمركز الشرطة المجاور تقول لهم إنه ضاع ، وهلا خرجوا يبحثون عنـه ، كأنه طفل في الخامسة من عمره ! ولذا كانت أيـام توقيفه وإبعاده أيام رعب لهـا ، هزتّهـا هزاً عنيفـاً ، وزعزعت عقلها .

كانت امرأة هائلة ، نحبها جميعاً ، وأنا أودّها بوجه خاص . يظهر أنني أعجب بالنساء اللواتي فيهن مسّ من الجنون : العيون الزائغة ، الشعر

المرسل كالشظايا ، الضحكة الهوجاء ، مع الايحاء بالقدرة العملاقة على التمتع بالحب ، بالجنس . جاء بها من القدس في خريف عام ١٩٥١ - بعد أن تعرفت أنا عليه بفترة قصيرة - وأوجدت له بيتاً أنيقاً قرب ساحة عنترة يستطيع استقبال أصدقائه فيه ، بعد أن قضى سنتين أو ثلاثاً يلتقي بهم في المقاهي بشارع أبي نواس وفنادق شارع الرشيد المتهرئة ، والغرف الأشد تهرؤاً عند بعض العائلات في البتاوين . فجأة ، كان وليد شيئاً جديداً - اجتماعياً ، وهو أصلاً كثير المعارف والأصدقاء . أما نفسياً ، اما انسانياً ، فإنه لم يتغير قط حتى يومه الأخير . وكانت ريمة ، على عكس ما توقعنا من خلفيتها التي وصفها لنا ، انبساطية ، مرحة ، تحب الجدل والمناقشة ، وتوحي ، فيما تقول ، بتوتر عاطفي يجعلها في حركة مستمرة . تتباهى بوليد لدرجة احراجه أحياناً ، وتقبل على الحياة باندفاع وحرارة . وإلى هذا كله ، كان فيها كبرياء رهيبة ، يخشى الواحد أن يمسها ، فتنفجر في غضب لا تحاول اخفاءه . إذا كرهت أحداً ، عاملته بجفاء صريح ليعرف شعورها نحوه . كنت أعجب بها ، وأخشاها ، معاً . وفجأة ، انكفأت على ذاتها . انغلقت . انغلقت دون الناس جميعاً ، حتى وليد . حتى طفلها مروان الذي كانت تعشقه ، لم تعد تهتم به . وكانت النهاية المحزنة .

أذكر هذا عن ريمة بعد هذه السنين كلها لأكثر من سبب . بعضها يخصني ، وبعضها يخص وليد . انا ، كما قلت ، وكما أستمر في القول ، أحب هذا الضرب من النساء : يقبضن على كل شيء ، ثم يفلت من قبضتهن كل شيء . في السنوات الأخيرة اعجبت بتلك المرأة الأخرى التي أرى فيها شيئاً من جنون - مريم الصفار . هذا الهوج الطاغي في المرأة ، الذي يجعل من حياتها فوضى ، من علاقاتها فوضى ، من سياقتها السيارة فوضى ، من كتاباتها فوضى ، يستخرج الفوضوي من أعماقي ، يستخرج القرد النزق ، الكلب الكلب ، الذي ما عدت أستطيع اسكاته في .

فأشرب ، لأؤكد على جنون العالم الأجرب الخائن الذي أعيش فيه . يوم علمتَ بأن ريمة أختي إلى مستشفى المجاذيب ، بكيت بخوار كالثور . هؤلاء البلهاء كلهم حولي ، هؤلاء الذين لا يستحقون أكثر من أن يقيّدوا بالسلاسل في سرداب مارستان من خلق القرون المظلمة ، يملأون الأرض أصواتاً وبذاءة وقبحاً ، وتلك المخلوقة الجميلة التي تجلجل ضحكتها كجرس من أجراس الجنّة ،من بين شفتين توحيان بمذاق الفستق الأخضر ، يُلقى بها في مصح إلى الأبد — لا ، غير صحيح . الطبيعة ظالمة ، مجرمة . الكون لا يعرف المنطق . سأظل أرفضه ، وأرفض أي انسجام معه . ولعل هذا هو السبب في أنني لم أتزوج حتى الآن . المهووسات الرائعات لا يقعن بيدي . يخشين لساني ، غضبي ، وهنّ لو يعلمن فقط أن هذا اللسانَ وهذا الغضب لن يستهدفا إلا الآخرين دونهن ! ولكن ، ولو تبقّى لي يوم واحد من الحياة ، سأتزوج مريم . سأترك هؤلاء النسوة اللواتي ملئت أردافهن الكبيرة وعطرهن الرخيص وكركراتهن الفجة . وأبي ، رحمه الله ، سيغفر لي حينئذ . بل سيفرح حين يرى وارثه الذكر الوحيد يتزوج من امرأة « متعلمة ، وغنية ، وابنة عائلة » — واستاذة في الجامعة . ولعلنا حينئذ سنصلح العالم أيضاً — بعد فوات الأوان .

أي شيطان أعور يستحثني على هذا الكلام كله ؟ لعله نفس الشيطان الذي أطلعني مرة على أمر لم يدهشني ، بقدر ما زوّد جنونياتي بحجج اضافية . يوم قبلت الوظيفة لفترة قصيرة ثم هجرتها إلى الأبد . وكان ذلكَ باغراء من هشام الصفار ، قبيل طلاقه من مريم العزيزة ، الخاتونة . دعاني إلى اجتماع المدراء في دائرته ، التي عينت فيها خبيراً بالتجارة الخارجية ، لبحث قضية أخلاقية خطيرة : فقد تبين أن لأحد الموظفين الكبار علاقة جنسية — أو هكذا قيل ، بعد التحري ، الخ — بفتاة شابة كانت موظفة لديه . كان السيد هشام في الاجتماع المغلق قاسياً جداً على

كل من تسوّل لـه نفسه العبث بالأخلاق ، قائلاً بعصبيـة : « هؤلاء الخارجون على تقاليد هذا الشعب . الداعون إلى الاباحيـة ، المستغلون سذاجة الفتيات » ، إلى آخر المعزوفة . « يجب معاملتهم بأقصى الشدة . يجب سن القوانين لتغريمهم . واقالتهم ، وسجنهم . لاجتثـاث جرائم الفساد من المجتمع .. » عال . جيد جداً . ولكنني أعرف مـا حدث مساء ذلك اليوم بالذات . شكراً لشيطاني الأعور .

ذهب السيد هشام إلى البيت ، بعد أن تناول غداءه في النادي مع أحد زملائه ، وأخذ غفوة قصيرة . وها أنـا أتصوره ينهض ، ويستحم . ثم يذهب رأساً إلى المطبخ ، ويتأكد من أن الثلاجة تحوي مـا يريد من طعام للمساء . وبعدها أخرج مكعّبات الثلج من الثلاجة ووضعها في سطلة الثلج الفضية ، وفي غرفـة النوم جعل زجاجـة الويسكي والكأسين على منضدة تواليت زوجته . لقد أرسل زوجته إلى لبنان ، فهي بحاجة إلى الراحة ، مريم العزيزة المسكينة . وأرسل ابنته الصغيرة عند جدتها لتعنى بها أثناء غياب أمها . وابنته تتمتع بالاقامة مع جدتها ، ولا شك ...

توجه نحو التلفون ، وأدار القرص ، وهمس : « الطقس طيب . » فأجابه صوت نسائي : « ولكنه حار قليلاً . » وبعد نصف ساعة ـ كان الظلام قد جعل يخيّم على المدينة ـ دخلت كراج البيت سيارة فولكسواغن ، توقفت خلف سيارته . وخرج صاحبنا اليها مسرعاً ، وأغلق باب الكراج وسدّه بالمزلاج . وأخذ بيد المرأة النازلة من السيارة ، واقتادها الى المنزل « ما هذا ! أطلت انتظاري ! الا تنتهي اجتماعاتكم ؟ » قالت المرأة الجميلة ، وهي تتثنى وتتكسر ، وتقع بين ذراعيه .

في غرفة النوم ، أراها الكاميرا الجديدة التي سيهديها إياها . انها « بولارويد » ، تلتقط صوراً ملوّنة ، وتظهرها في الحال . « هائلة ! كالمسجّل . يسجّل ما تريدين ويسمعك إياه فوراً . العلم هائل ... »

وأخذت تتعرّى ، قطعة قطعة ، وهـــو يلتقط لها صورة بعد أخرى ، ويريها إياها . رائعة ! هكذا ... استديري قليلاً ... ارفعي نهديك ... نشّطي حلمتيك ... رائع ! جق ! شوفي ! فخذيك ... ردفيك ... جق ... استلقي على المخدة . خذي هذه المرآة بيدك ... احلمي ... ربة العشق أنت ... جق ! ويسكي ؟.. دعيني أصبّه في سرّتك ، ليسيل بين أدغال غاباتِ الحب ... لأشرب منه ... المسجّل طبعاً شغّال . هذه تنهداتك الحارة ، المثيرة ... اسمعي ...

قالت ، وساقها العارية مرفوعة في الهواء ، والكأس تلامس شفتيها: « تصور لو ان زوجتك ترى هذه الصور ، وتسمع هذا التسجيل ! .. ها ها ! » فقال : « أرجوك ، لا تفسدي عليّ متعتي ... »

في صباح اليوم التالي ، استؤنف الاجتماع لاتخاذ قرار أخير ، وكان السيد هشام قاسياً جداً مرة اخرى . وملأ أسماعنا بحكمـــة الأجيال : « الفساد يستشري في بدن المجتمع . لا بد من قانون صريح يعالج ذلك. الاسرة في خطر من مثل هؤلاء الفاسدين الذين يجعلون من الفجور بديلا لسنن الحياة القويمة ... » وفي عصر ذلك اليوم ، ذلك اليوم بالضبط ، كانت ربة العشق نفسها في منزلي ، تروي لي ما حدث لهـــا مع هشام في اليوم السابق ، وأروي لها ما قال لنا عن سنن الفضيلة . وطلبت الي أن التقط لها صوراً بالكاميرا اياها . لكنني صوّرتها بكامل ملابسها ... رفضت ان أكون نسخة من هشام .

في أشهر ثلاثة أو أربعة ، تمّ الطلاق بين هشام ومريم ، في جو قاتم من التهم المتبادلة التي بلغت آذان الأصدقاء ، رغم كـــل تكتّم . ولا أنكر انني سمعت البعض يتهامس أيضاً باسم وليـد مسعود . (ان كان حقاً قد أحب مريم ، فحسناً فعل ! انه مثلي ، يعشق المهاويس .) وأنا كذلك لم يطل مقامي في الوظيفة في دائرة هشام — ولو ان استقالتي

كانت لأسباب أخرى : لقد اكتشفت ان الوظيفة بالنسبة إليّ مضيعة للوقت ، فضلاً عن انها مهانة للانسان في معظم الأحيان . وجدت أنها العبودية الجديدة : استرقاق منظّم منذ أيام البابليين والفراعنة . وفي اتساع مستمر ، لأسياد صغارهم انفسهم مسترقّون لأسياد لهم . في هذا الرق تُقَنَّن لكل عبد حصته الهزيلة من العيش ، ويطرقع السوط فوق رأسه كل يوم في شكل أوامر وعقوبات تتكدّس على المناضد المتهافتة في الغرف المكتظة . ويتحايل العبيد كيفما استطاعوا على الأوامر والعقوبات الى ان يتحرروا بعد عشرين ، ثلاثين سنة ، بالاحالة على التقاعد . وتأتي حريتهم هذه وقد فقدوا كل ما يؤهلهم للتمتع بها ، بعد ان ضيعوا العمر وراء المناضد التافهة ولا يعرفون ماذا يفعلون بحريتهم ، فيصابون بحنين الى رقّهم القديم . والحنين رق آخر . لا ، فضلت مكتبي الذي خلّفه لي أبي بعد وفاته ، رغم تقلّص الكثير من أعماله . وبقيت لفترة على صلتي القديمة بهشام ، عن طريق ربّة العشق اياها سعدية علوان . ولا أشك قطعاً في أنها لم تحرم صديقي من التمتع بأخبارها معي ... كلّهم خونة ، كلهم .

« هلموا الى المناحات ومباهج الاسواق وملتقى الباعة والشراة ! كأس أخرى ، وتتضح الأمور أكثر . الليل خمر والنهار أمر . الليل عرس ، والنهار مأتم . من فاتحة لفاتحة . والبقاء في حياتكم . البقاء في حياتكم : البقاء ... كنت أتكلم عن ريمة وانهيارها ، ومأساة وليد ، وعشقي لكل امرأة تشذ عن منطق البشر . وأذكر حكاية ذلك السياسي الشهير الذي ذهب الى حفل صامت ، وجلس على أحد الكراسي المصطفة ، ورفع كفّيه وقرأ الفاتحة ، فاندهش حين نخره جليسه المجاور ، فالتفت اليه وقال : « والله نسيت . قل لي ، أمأتم أم عرس ؟ » أجابه : « باك ، عرس ! » ولم يتحرّج السياسي العجوز ، وهمس : « ماكو فرق : »

وشرب كأس الشربت التي قدمت له . لا ، ماكو فرق . هلمّوا الى المناحات ومباهج الأسواق وملتقى الباعة والشراة . المهم أن تتحرّكوا .

كان انهيار ريمة نهوضاً مذهلاً لوليد . بقي يُعنى بعلاجها ، في المصح ببيت لحم ، ولكنه أخذ يعيش ليومه بنزق لا فرق فيه بين اليأس والأمل ، بين العرس والمأتم . اتضح له ان ريمة لن تتحسن : انها في سبات عقلي مطلق . وسباتها وراء جدران المستشفى اطلق مارداً عربيداً في وليد : وما هي الا سنوات حتى كان يتجوّل بأعماله ، وافكاره ، بين بغداد ، واقطار الخليج ، وأقطار العالم . بداوة فطرية كانت دفينة في دمه انطلقت من كل اسار . كيف كان يستطيع الكتابة ، رغم اعماله وتحرّكاته تلك جميعاً ؟ بقي مستقرّه في بغداد ، بين اصحابه الكثيرين . ادهشني أنه لم يذهب إلى بيروت للاستقرار فيها ، كغيره من الفلسطينيين اللامعين . « ضربت لي جذوراً في هذه المدينة التي لا يعرف روعتها الا من أدمن عليها . أبتعد عنها كل مرة بلهفة ، واعود اليها كل مرة بلهفة . وأريد لأبني مروان ، إلى أن نعود إلى فلسطين ، أن يقيم فيها . » ومن قال له إن بغداد ستخلص له اكثر مما اخلصت إليّ انا ؟ ولكنه يقول اقوالاً كهذه : « المهم أن تحب الآخرين ، لا أن يحبّوك . » عجيب ! في أي زمان تعيش يا وليد ؟ إذا لم يحبوني ، قلبت الدنيا على رؤوسهم وأدرت لهم دبري . كلهم خونة .

هيا ، كأساً أخرى . انهم يتقولون : ما هذه الاموال التي تحققها يا وليد أنت وزملاؤك ؟ لماذا لا تبقون لتعفنوا في المخيّمات ، بل تسمحون لانفسكم أن تتمركزوا في العواصم العربية ، وتمارسوا اعمالاً كبيرة تثير حسد الناس ، وتنسيكم واجبكم الاوحد تجاه بلدكم السليب ؟ لماذا لا تحاربون بايديكم العزلاء الحروب التي تحجم عنها الدول العربية بجيوشها ؟ وطبعاً ، حالما تتحركون ، سيضربونكم على رؤوسكم وينسفون الأرض

تحت اقدامكم . يعلمون انكم القوة التفجّرية الرهيبة التي تنتظر الساعة المؤاتية . يعلمون انكم الوحيدون الذين لا تنسون ، وأن العالم العربي بدونكم لن يتحرّك شبراً إلى الامام . المشلولون المتحجرون يريدون منكم الشلل ، والتحجّر . يريدون للبركان أن يبلع نيرانه ويدفن في احشائه حممه ...

كنت اقول له الكثير من هذا في تلك الأيام ، ولم يخطىء حدسي . جاءت اواخر الستينات بالدليل الملموس ، وكذلك اوائل السبعينات . فوليد انما هو ذلك الفلسطيني الرافض ، الرائد ، الباني ، الموحّد (إذا كان لامتي أن تتوحد) ، العالم ، المهندس ، التكنولوجي ، المجدّد ، المحرّك للضمير العربي بعنف . وليد ، كما عرفته ، كان يرفض القيام بدور لا يتقنه . ودوره الاهم هو تغذية الروح الجديدة المبنية على العلم ، على الحرية ، على الحب ، على التمرّد على السلفية -- تحقيقاً للثورة العربية كلها . والثورة لديه ليست مجرد تغيير طبقي في نظام الحكم ، أو مجرد وضع اليسار مكان اليمين ، أو بالعكس . الثورة لديه هي وضع العربي في خضم العالم الكبير ، واثبات قدرته على الصمود من جهة ، وعلى العطاء من جهة . إذا لم استقرىء حياة وليد على هذا النحو ، فانني لن أفهمه . سأبقى اناقشه ، واخاصمه ، وأحاجّهُ ، ولكنني أعلم أنه واحد من هؤلاء المنفيين ، الذين من مواقع منفاهم يزعزعون العالم العربي ليعيد النظر في كل ما صنع وفكّر ، ويملأون العالم ذكرا لاسم العربي ، مهما تكن النعوت التي يطلقها عليه الاعداء ، الذين تركبهم العقد النفسية تجاهه .

اينما كان هناك بروز في علم ، أو مال ، أو فكر ، أو ادب ، أو تجديد ، وجدت ذلك الفلسطيني المنفي : تراه فاعلاً ، محرّضاً ، منظّراً ، محققاً لكل ما هو مختلف . اينما كان هناك عمل جريء ينتهي إلى التضحية

بالذات ، وجدت الفلسطيني . فلا عجب أن يميل عليّ رجل ككاظم اسماعيل ويهمس في اذني : « الفلسطيني خطر . خطر .... » انهم من الخلف يأتونك يا وليد ، وأنت لا تجزع ، ولا تستدير ، ولا تنسى .

هلموا إلى المناحات ومباهج الاسواق . لأنني ما عدت اعلم إن كنت متفائلاً أم متشائماً . الخمر تفرز بعض الامور في الذهن اشدّ الفرز ، وتدمج بعضها الآخر اشد الدّمج . لا اذكر من قال إن التقدم ، حين يكون تفاؤلياً ، يعد دائماً بضرب من الخروج من التاريخ كما نعرفه : بضرب من الانطلاق إلى صعيد آخر من الحياة . اشعر احياناً اننا بدأنا بذلك الخروج من التاريخ كما نعرفه . كل شيء في تغيرّ . شكراً لجبلي المتمرد . أي صعيد نسعى اليه ؟ ربما كان الجواب يوماً عند وليد . يوم اعتقله الصهاينة في بيت لحم بعد هزيمة حزيران وعذبوه ، ثم قذفوا به عبر النهر . أي صعيد كان يتصور اننا نسعى اليه ؟

ما حلّت مصيبة برجل مثله ، الاّ وخرج منها اقوى واصلب . فالصعيد الذي يمّم وجهه شطره يومئذ كان في اعلى القمة . ولو أنه كان يعرج ، ويسعل ، ويده ترتعش حين يشعل سيكارته . اما انا فبصقت على العالم . ومنذ ذلك اليوم ، أظل ارى احلاماً اجدني فيها أبصق على العالم . انهض في الصباح ولا أريد أن احدّث احداً ، واخشى أن ارى احداً فاضطر إلى الكلام ، فألجأ إلى الحديقة ، واسقي الثيّل والأزهار ، وأجد انني اتكلم معها كلاماً عذباً — أو انها هي التي تخاطبني بأعذب الكلام . يقولون انني اصبحت كارهاً للبشر . ولم لا ؟ هل من يستحق الحب — اللهم الا مريم ، واثنين أو ثلاثة آخرين ؟ إنني أخرج من التاريخ نحو صعيد لا أفهمه .

وأعود إلى ذلك الكاتب الفلورنسي القديم الذي ترجم لي وليد يوماً عبارة من كتاباته المذهلة بتفاؤلها ، فاعطيتها لخالد الخطاط لكي يخطها

على رقعة بالكوفي ، وعلقتها بالمكتبة ، وأتأمل فيها من جديد .

« قال الله للانسان : وحدك انت لا يقيدك رابط ، إلا إذا اتخذته أنت بالارادة التي وهبناك إياها . في مركز الدنيا وضعتك ليسهل عليك أن تتلفت حولك وترى كل ما فيها . لقد صنعتك مخلوقاً ، لا أرضياً ولا سماوياً . لا فانياً ولا خالداً ، لكي تكون خالق نفسك ، وتختار أي شكل تتخذه لنفسك .. » — بيكو ديلاّ ميراندولا .

لكم أردت أن أصدق ذلك ! لكم أردت أن أكون خالق نفسي ، أتلفّت حولي من مركز الدنيا لأرى ما فيها ! ولكم كتبت مدفوعاً بذلك، ولكم تكلمت ، ورحلت ، وأحببت ، وكرهت ، وشربت ، وأنا أتلفت حولي وأرى — أرى كل شيء ، رافضاً كل قيد ، موجهاً ارادتي ضد كل رابط — معطياً نفسي التبرير في تحليل نفسي من أي شيء لا ينسجم مع مشيئتي . لوليد علاقة بذلك ، ولا ريب ، باصراره على ذلك التحرر الداخلي الذي كنت أعتقد أنه المولد الحقيقي لطاقته المذهلة. بعد سنين طويلة من الانتماءات الفكرية والسياسية ، وجدتني أسير على هديه ، أو ما تصورت أنه هديه ، دون أن أقرّ له صراحة بذلك ، ودون أن تهمني اشاراته الى القديس أوغسطين — الذي لم أستطع أن أتتبع في كتاباته الصعبة منطقَهُ في أن تلاشيه في ارادة الله منحه حرية يقصر عنها العقل . ولكن النتيجة التي بلغتها كانت بالضبط عكس النتيجة التي بلغها وليد : فأنا لم أحقق في النهاية إلا أن أرى في الناس الشرّ ، والخسّة ، والذل ، دون أن أقتنع يوماً بمبرّراتهم لها .

ومع هذا كله ، لم أستطع أن أعزل نفسي عن الناس كل العزل . يموت الديك وعينه على المزبلة . في المزبلة البشرية إغراء لي لا أستطيع مقاومته ، في حين أن وليد ، مهما قال وكيفما تصرّف ، استطاع في الآونة الأخيرة من حياته أن ينقطع عن الناس ، حتى قبل مصرع ابنه في عملية فدائية ، تمنى وليد لو أنه هو الذي قُتل فيها . الانسان ليس

حديداً . فقبل ذلك بأشهر وجدته يعزل نفسه عن الناس بقدر ما يتمكن، ولكن حين جاءة النعي المشؤوم رأيته يتهدّم ، ولا يطيق رؤية الناس — فيما عدا بضعة من صحبه المقربين ، يصغي اليهم ، ولا يتكلم .

أما أنا ، فقد رأيت من الحياة كل ما يجب أن يبعدني عن المزابل البشرية ، ولم أزد إلا نقراً وبحثاً فيها . وكلما نقرت ، وبحثت ، ارتفع النتن . وشربت المزيد . ويقولون عنّي : كاره البشر ! لا ، أعشقهم لسواد عيونهم . أعشق الصعاليك والقردة والأقزام وهم يكشفون عن عوراتهم ويتباهون بها ، كأن الله خلقهم ، وكسر القالب ! ووليد يعرف ذلك : نقيضي ، وناصحي ، والمحتار في أمري . ولتسمع ذلك مريم . العاجية الجسد ، المجنّنة العينين ، الرائعة الصدغين . سارقتي من سوسن عبد الهادي ، وهي لا تدري . وسوسن ، لبضعة أشهر ، كانت واحتي الظليلة في بوادي السأم والغضب .

سألتني نوال : « هل تعرف سوسن عبد الهادي ؟ »

قلت : « الرسامة ؟ التقيت بها مرة أو مرتين في بيت عامر عبد الحميد . أليست هي زوجة المهندس علاء الدين صبري ؟ »

قالت : « بالضبط . وهو الذي خطط لنا بيتنا الجديد . مات قبل مدة ، أتعرف ؟ »

قلت مندهشاً : « علاء مات ؟ ولكنه شاب — من عمري،ربما . »

— « قام من فراشه في الصباح ، وذهب إلى الحمام ، وسقط على الأرض . وبعد ساعتين كان قد أسلم الروح . »

تأسفت جداً فقد كان مهندساً موهوباً . وقلت : « مسكينة زوجته . أن تترمل وهي شابة ... »

تبين انها احدى صديقات نوال . ونوال أقرب اخواتي إلى نفسي ، وهي تصغرني ببضع سنوات ، وكانت في صباهـا تنظر إليّ كـأنني منقذ الناس من الضلال ، وترجع إليّ كلما تصعبت في دروسها ، أو كلما أرادت مساعدة تخشى أن تطلبها من أبـي أو أمّي . تقرأ ما أكتب ، وتتساءل عن أصدقائي ، وتحذّرني – عندما كبرتُ قليلاً – من التورط في أمور (تقصد سياسية ، بالطبع) قـد تجرّ بـي إلى الأذى . وفيما بعد ، كلما لحق بـي الأذى ، كانت أسرع من في الأسرة إلى اسعافي والعناية بـي . أردت لهـا زواجاً من أحد أصدقائي . ولكن أبـي كان أقوى منّي ، ورتب لها زواجاً من أحد أقربائنا . ولم تمانع هي . فقلت لهـا قبل عقد القران بيوم أو يومين : « إذا وجدت حياتك تشقى يوماً مع وهّاب ، لا تركضي إليّ طلباً للنجدة ، فاهمـة ؟ » فانفجرت بالبكاء ، والقت رأسها على كتفي . فقلت : « طيب ، طيب . اركضي إليّ ... تزوجيه . وأرجو أن أراك كل يوم تركضين إليّ . » فاستمرت بالبكاء ، إلى أن سئمت الموقف ، وقلت : « وافقت ، حبيبتي ، وافقت . أتمنى لكما السعادة معاً . » والغريب ، انهـا سعدت بزواجها ، على عكس مـا توقعت . يبدو أنها لم تكن إلا « على قدّه » ، وان وهاب أدرى بها مني .

« سوسن ، حياتها بائسة ، » قالت نوال .

– « يجب ألا تبخلي عليهـا بوقتك . لا أنت فقط ، بل وهـاب أيضاً . » ثم خطر لي خاطر أفزعني لحظـة ، ثم أضحكني . « أرجو انك لا تريدين مني أن أتزوجها ؟ »

– « أنت لا تكفّ عن مزاحك . اقترحت عليك في الماضي خمسين فتاة ، ورفضت . ولن اقترح أحداً عليك مرة أخرى . »

– « اذن بلغيها تحياتي . »

– « هل رأيت رسومها ؟ »

ــ « مرة أو مرتين . لا بأس بها ــ إذا اعتبرناها امرأة نادرة في ساحة مزدحمة بالرجال . »

ــ « ابراهيم ، أنت لا تهتم بصديقاتي . اريد منك خدمة، ها حبيبي؟ »

ــ « تدللي . أي شيء ، ما دام الزواج خارج الموضوع . »

ــ « لا ، أنا جادة . سآخذك إلى بيتها ، لترى رسومها الجديدة . وإذا راقت لك ــ »

ــ « أعرف الباقي ، نوال . تريدينني أن أكتب عنها . أليس كذلك؟ هل هي التي طلبت ذلك ؟ »

ــ « بصراحة ، نعم . »

ــ « وماذا يقول الناس عن ابراهيم الحاج نوفل ، وهو يكتب عن سوسن عبد الهادي بعد وفاة زوجها ؟ »

ــ « ومتى كنت تأبه لأقوال الناس ؟ لا تداهرني ، أرجوك ، فدوة . »

دون رغبة مني ، وافقت على الذهاب مع نوال الى بيت سوسن . ذهبنا عصر يوم كثير الألوان ، ووجدناها وهي تلبس السواد في انتظارنا ، مع صديقة أخرى لها ــ جنان الثامر . وتأكيداً على الأصول الاجتماعية ، كان هناك أيضاً أخوها الأصغر ــ نسيت اسمه . رحت أتفرج على رسومها الزيتية ، فجعلت تثير فيّ اهتماماً متصاعداً . كانت كبيرة ، من الحجم الذي طالبت أنا الرسامين به سنين طوالاً . انثوية على نحو لم أعيّنه أول الأمر ، ثم جعلت أتبين تفاصيله . وتمعنت في عيني سوسن ، كأنني أبحث عن صلة خفية بينها وبين رسومها . ونوال وجنان تتمعنان في اللوحات برفقتي ، تصغيان الى تعليقاتي الحذرة ، وتشجعانني على المزيد .

« ست سوسن ، » قلت ، « هؤلاء الأشخاص ، كلهم أنت . الأطفال ، والمراهقات ، والعاريات الممتطيات الافراس بين صخور البحر ، والوجوه المجزأة المتداخلة ــ كلها أنت ... أنت في حالة حلم مستمر . »

قالت وهي تقدم لي فنجان الشاي : « أهذا ما ستكتبه اذن عني — ان كتبت ، استاذ ابراهيم ؟ »

تناولت الفنجان ، ولم أجب . لم اشأ أن التزم على عجل بوعد كهذا. ونظرت في عينيها ، وضحكت .

هل كانت ثيابها السوداء مع عدم استعمالها أي « تواليت » بسبب حدادها ، هي التي تؤكد على شحوب وجهها الشمعي ، ولحمية شفتيها الناضجتين ، وسواد عينيها — اللتين لم تحجم عن توسيعها بخطوط الكحل؟ كان وجهها نظيفاً مشعّاً ، أقرب الى وجه طفل يتوهج عافية ، منه الى وجه امرأة توحي بجاذبية جنسية . وشعرها الأسود المشدود في « كعكة » خلف رأسها يضيف الى نقاوة مظهرها ، ونصوع عنقها . لا ، لم تكن بريئة بالقدر الذي يبدو على محيّاها — وصورها ، إذ أرسل البصر فيها. أشبه بقنابل موقوتة ملفوفة بأوراق مزوقة . وقررت أن أكتب عنها . سواء أكان قراري عن ضعف ازاءها في تلك الساعة ، أم عن اهتمام حقيقي بلوحاتها .

كنّا كلانا مهيأين للعبة ، ومتهيبين منها . أردت أن أرى رسومها عدة مرات ، فرحّبت بي ، مع وجود الآخرين في الزيارات الاولى ، ثم جعلنا نلتقي وحدنا . واستمرت علاقتنا سنة أو أقل ، راجعت نفسي فيها بشأن الفن ودوره في الحياة مراجعة دقيقة .

كنت أقول لسوسن : « الفن يشير إلى تحرر الانسان في ساعات ابداعه ، ليعطي مذاق الحرية للآخرين إلى الأبد . رسومك دليل واحد ، دليل على محاولتك التحرر . عندما أتحدث عن الفن ، أنا لا أتحدث عن رسومك وحدها ، أو عن الرسم فقط . أقصد بالفن كل ابداع، بالصورة أو الكلمة . كتاباتي ، وكتابات كل شاعر أو روائي سحقت كيانه حمّى الخلق . كلنا عبيد ، وكلنا نريد أن نتحرر . وأن نهب الآخرين ما نحظى

به في لحظات النشوة الأليمة الهائلة . » فتقول ، وهي تركز نظراتها القلقة الخارقة في عينيّ : « أنت وحدك عرفت سري . وحدك يا ابراهيم . التحرر – اني أخشى أن ألفظ الكلمة . ولكنني انفذ مدلولها كل لحظة أمسك فيها بالريشة ، وأقف أمام لوحة فارغة . اللوحة جنّتي الموعودة . وتحقيق الصورة هي دخولي جنّتي كل مرة من جديد . أدخلها هاربة ، لاجئة ملتاعة ، متمتعة بلذة كلذة الحبّ ، بخوف كخوف الموت . ابراهيم ، أتفهمني ؟ وما يتحقق في النهاية قد لا يوحي بذلك ، لأنني ربما فشلت فيه . المهم هو المتاهة المدوخة التي أمشي فيها وأمشي ، كأنني شربت عشر زجاجات من الخمر . »

كتبتُ عن رسوم سوسن عبد الهادي مقالاً طويلاً ، مليئاً باللف والدوران ، مليئاً بشكوكي وتساؤلاتي ، وكلما كتبت في الصباح فقرة جديدة ، توقفت لأرى : هل اضطرب حكمي الجمالي ، وادراكي النقدي ، بحلاوة الشفتين اللتين امتصصتهما كالمجنون في المساء السابق ؟ ساعات العشق لم تكن كثيرة ، ولكنها كانت عنيفة كل مرّة ، وكل مرّة تقول لي سوسن : « ابراهيم ، كيف تستطيع كل هذه السيطرة على نفسك؟ » فأقول : « سيطرة ؟ » فتقول : « نعم . ألا ترى كيف أجنّ أنا ، وأتحطم بين يديك ؟ وأنت العنيف في كل ما تكتب وتقول ، تصبح الفيلسوف المنطقي ، العاقل ، تعطي بمقدار ، ووو ... أوه .. ابراهيم ... »

تلك الواحة الخضراء الريّانة – كادت تعيدني إلى العقل ، والحب . والعمل من أجل مستقبل يدّعي الجميع انهم يحلمون به . (واهمون . مزيّفون !) المزبلة البشرية كدت أنساها . أحسست بأنني عدت وغدوت جزءاً من عملية الخلق التي كنا أنا ووليد والآخرون نتحدث عنها دائماً على انها عملية خلاص الانسان . كان وليد قد بقي في الأرض المحتلة بعد هزيمة حزيران ، وعندما بدأت اهتمامي بسوسن ، لم نكن نعرف

ما الذي حدث له . وكان لنا في الفن تشخين للجراح ، وبلسم لها معاً وكذلك في الكتابات التي لم أنشر منهـــا إلاّ القليل . « الفن ضروري للانسان » تقول سوسن . « يعيد به التأمل في كونه وكيانه ، في وجده ووجوده . أرجوك ، ابراهيم ، علّمني كيف أتحدث عـــن لوحاتي . دراستك التي سأنشرها في دليل المعرض ستعطي النقّاد ما يتحدثون به . وتسهل عليهم الكتابة . أمـا أنا فيجب أن أقول غير الذي كتبته أنت . ألا تعتقد ؟ »

مسكينة سوسن . لم تقم المعرض الذي كانت تعمل على تهيئة لوحاته إلا بعد ذلك بمدة طويلة . ربما أنقذت نفسها بالرسم من آلام الترمـــل والوحشة ، ولكنني في أشهري معها لم أكن راضياً عن انتاجها كـــل الرضا ، فيدفعها ذلك الى المزيد من العمل . كان انتاجها غزيراً ، ترسم كل يوم في الليل كما في النهار ، الى أن أحسست يوماً أن رسمها قد نضج ، أخذت تضع في الصور الكثير من الاشارات الخفية الى علاقتنا — بل كانت لا تترك صورة إلا وتضع فيها رمزاً ما ، له مدلول جنسي ، يعرفه كلانا ، ويتصل بتجربتنا الخاصة . كنت أريد من رسومها ما أريده من كتاباتي أنا — لو كتبت شيئاً ذا قيمة — أو ما كنت أراه في كتابات وليد في السنين الماضية : مجابهة الانسان للعـــالم ، على نهجه الخاص . المجابهة . الغلبة . تأكيد الرؤيـــة الفذة . التجلّي الميتافيزيقي عبر المادة الحياتية ... « مشكلتك يا سوسن ، انك ذكية ، وبارعة ، وجميلة ، ولكن التجربة لم تأكل لحمك بعد بمـا يكفي . أنت تحلمين بالتجربة . كنت تحلمين بها طيلة أيام صباك ، وزواجك ، وبقيت تحلمين بهـــا . ربما لأنك امرأة ، وامرأة شرقية فوق ذلك . فبقيت رؤيتك بعيدة عن المزبلة البشريـة . بقيت رؤيتك زخرفية . بديعة ، لكنها هامشية . هـل أنا أطالبك بما لا يحق لي أن أطالب به امرأة ؟ ربما . ولكن تحمّليني

كما تتحملين شربي ونزواتي ، قبل أن ينقضّ المجتمع عليك ، متجاهلاً عبقريتك الفنية كلهـا ... أريد مراجعة الماضي كله – ماضي الانسانية ؛ منذ أن كان الانسان يقتل الوحوش بيده ، ويرقص بعد ذلك لالهه الغاشم رقصة يدوّم بها الليل والنجوم ، الى أن يقع على الأرض مغشياً عليـــه من التعب ... أريد الماضي موجوداً في الحاضر – لا ، لست أعني مجرّد تراث يا سوسن ، بل ما هو أعمق وأبعد وأهم – الأزمان كلها وهي تدفع الذهن بين مجاهيل الوعي واللاوعي ... متاهات الماضي في اتساع مستمر ، ونحن أصحابها كلها ، نحملها معنا ونحن نهيم على أوجهنا في فضاءات الزمن الداخلية ... لا ، لست أهذي . فضاءات الزمن التي تحملها كـل ثانية تمرّ على خلايانا الجسدية ... سوسن ... كما في لحظات عريك على جسدي ... تنفتح أبواب وعي عجيبة . ندخلها ، الواحد تلو الآخر . ثم ننظر الى الخلف – فلا نرى جدراناً ، ولا أبواباً ... هل عن الحب أتحدث ، أم عن الفن ، أم عن ماذا ؟ ولحظة أخرج ، وأسمع بابك ينصفق خلفي ، تتسع الدنيا اتساعاً لا يصدّقه عقلي ... الى ان أرى فجأة أمامي : المزبلة البشرية . »

لماذا كان يروق لي تلك الأيام أن أتصوّر سوسن بعيدة عن المعرفـــة المرّة . الجارحـة ؟ لماذا كان يروق لي ان أتصور ان المرأة التي أحبها خرجت للتوّ من حمام بلوري ، نقيـــة من أوضار المستنقعات والأسن ؛ ولم يبق في ذاكرتها مكان إلاّ للجمال (الكاذب السخيف) الى آخره . الى آخره؟ أمست لقاءاتنا صعبة ، وحذرة ، ومليئة بالحرج ؛ ولا تفي بحاجتي المتصاعدة الى لمس ذلك الجوهر الأنثوي اللاهب الخفيّ وراء شفتي سوسن ، وعينيها ، وصوتها . ويوم « فكّت » حزنهـا ، ولبست بلوزة صفراء تبرز استدارتي نهديها بعنف ، وبنطلوناً أحمر يبرز استدارتي ردفيها بعنف ، وأرسلت شعرهـا الى الكتفين بسواد كثيف ملتمع ، ورنّت ضحكتها في

أذنيّ رنين صنج صيني : ذلك اليوم أدركت ان ابراهيم الحاج نوفل . غبيّ أحمق ، لا يفقه مـن الحياة شيئاً . مخدوع ، دعيّ ، وضحية . لو قتلتني سوسن ذلك اليوم ، لقلت لها : اقتليني ثانية . اقتليني ثلاث ورباع . دخلت السياسة وخرجت منها صفر الدين . دخلت الاقتصاد وخرجت منه صفر اليدين . دخلت الفن وخرجت منه صفر اليدين . ودخلت الحب ، ولم أشته منه إلا القتل ، إلا ان أموت ، وانتهي : في عـالم كله خونة . وكيف أستطيع العيش بدون كأس أخرى ، وأخرى ، وأخرى ؟

قلت لها : « سوسن ، اقتليني . اقتليني كما أنت وحدك تعرفين كيف يكون قتلي . . »

نظرت إليّ من وراء خصل شعرها المتساقطة على وجههـا ، وعيناها السوداوان تقدحان كعيني نمرة ، وأنزلت راحتيها ببطء على جانبي ردفيها على البنطلون الأحمر ، ومررتهما نحو وسطها حتى التقتـا ، وأنـا واقف أمامها ، أتلذذ بكل حركة منها ، وهي صامتة مصممة . تقدمت نحوي ثم فكت حزامها الجلدي العريض ، ودفعتني إلى الجلوس على كرسي كان ورائي . وجلست هي على ركبتي تواجهني ، منفرجة الساقين .

فصحت : « سلّمت ! الزواج ! الزواج ! »

وفكرت : ما أسهله حلالاً للعقد !

ولكن سوسن لم تقل شيئاً . فقط ضحكت . ضحكت . ضحكت . وعطرها يملأ رأسي بقرع الصنوج .

في تلك الأثناء كان وليد قد عاد ، يحمل مآسي الدنيا في عينيه وعلى منكبيه ، وهو يجالد : ويريد البقـاء ، واستمرار الصراع . يذهب . ويعود . يروح ويجيء بين عواصم الدنيا . وأراه في داره ، في دارنا ، في دار عامر عبد الحميد ، في دار جواد حسني . وحدثته — بشيء من التردد — عن سوسن ، وإذا هو يعرفهـا منذ سنوات ، ويعرف زوجها

علاء . وقال انه كان دائماً يعتقد أنها موهوبة ، ولكن زوجها كان يغار من مواهبها ويقلل من شأنها . « حالما تنطلق – إذا استطاعت بمعجزة ما أن تنطلق – فانها ستحقق طموحاً فنياً لا تعرف حتى هي ، ربما ، مبلغ شدته في نفسها ، » قال وليد . وكانت صديقتها جنان تدافع عنها وعن حاجتها إلى شيء من الاستقرار النفسي لكيما تستطيع الانصراف إلى عملها بملء طاقتها . وبعد أن سافرت جنان إلى انكلترة مع أمها ، وعادت ، أدهشها العدد الهائل الذي تراكم من لوحات صديقتها ، وراحت تقلبها واحدة واحدة ، وهي لا تصدق عينيها . وكم مرة قالت لي : « لقد كسرت لها الطوق أخيراً ، يا ابراهيم .فالى أين الآن ؟ »

وأتت سوسن ذات مساء إلى أحدى حفلات عشاء عامر عبد الحميد بخمس لوحات كبيرة علقتها زوجته آن الواحدة قرب الأخرى على جدار واحد في غرفة الضيوف الكبيرة (بعد أن أنزلت اللوحات الأخرى التي كان عامر يقتنيها بانتقاء ودراية) ، فكانت حديث الجميع في تلك الليلة التي بدت كأنها تطلق سوسن في فضاءات حياة لم تألفها . وكانت هناك في تلك الليلة ، من جديد ، مريم الصفار ، وقد عادت من دراستها من جامعة ساسيكس . ومـا أن صافحتها لأقول لها « الحمد لله على السلامة » ، حتى حدست حدساً قوياً مزعجاً أن هذه المرأة ، إذا لم أنتبه ، ستزعزع كياني وتشوش علي حياتي ، ولتكن هناك ألف سوسن ... كانت سوسن في الأشهر الماضية تحدثني عن مريم حديثاً لا ينقطع . تقرأ لي رسائلها ، وتطلعني على الرسائل التي تكتبها اليها . وطالما كررت لها أنني معجب بالثائرات اللواتي كمريم . فتقول لي : « مـا الذي تعرفه أنت عن مريم ؟ أسرارها عندي ... انها أروع ممـا تتصور بكثير . » فاضحك قائلاً : « اقتنعت يا سيدتي ، اقتنعت . أأكتب اليهـا رسالة اعجاب ؟ » فتقول : « سأكتب اليها عنك ، أنا . » وقد كتبت اليها

عنّي بالفعل ، وجاءت الردود تتساءل بشأني : هل عقلت ؟ هل كتبت جديداً ؟ هل قلت شيئاً رائعاً يستحق التسجيل ؟

عندما صافحتها،أوحى إليّ ملمس راحتها وضغطها الرفيق بأناملها على يدي ، أشبه ببرقية تبلغني اياها بالشيفرة ، انها تعرف عني كل شيء . وتعرف انني سأكون عجينة بين يديها حالما تقرر هي ذلك وفجأة أردت أن أدير لها ظهري ، لكي لا أرى عينيها ، لكي لا أرى قوامها ، لكي أتمكن من رفض ذلك الهاجس الصاخب فيّ . ولجأت في الحال إلى وليد الذي كان منخرطاً في حديث جاد مع عـامر وجواد حسني حول شؤون الخليج . وجاءت الينا سوسن ، وجنـان ، وانصرفت مريم إلى الآخرين الكثيرين الذين راحوا يعانقونها ويقبلونها ويحمدون الله على سلامة عودتها . ثم يعاودون النظر إلى اللوحات ، وينـادون : سوسن ! تعالي ! إحكي! منذ متى غيّرت أسلوبك هكذا ؟ رحم الله علاء ، لو كان حيّـاً ليرى كيف انك الخ ، الخ .

عصر اليوم التالي جاءتني نوال على غير توقع ، بمفردها . كنت للتو قد أفقت من النوم ، فرجوتها أن تنتظر في المكتبة ريثما آخذ دوشاً سريعاً . ولمـا ذهبت اليها أخيراً ، وطلبت اليها أن ننتقل إلى غرفـة الجلوس ، قالت : « لا ، لا حاجـة . هذه غرفتي الصميمـة . كتب جديدة ؟ ولوحات جديدة ؟ مكومة في كل مكان ! ولا تسمح لأحد بأن يرتّب لك امورك . »

— « ربما تحقق ذلك ، غصباً عني . ها نوال ؟ »

— « يظهر انك لا تسمع لغط الناس . »

— « لغط الناس ؟ »

— « عنك ، وعن سوسن . »

— « نوال . هذا صنع يديك . أتأسفين على ما بدأت ؟ »

— « أنا أعزّ سوسن أكثر مما تتصور . »

– « لتعرف كم تحبينها . وهي تحبك كثيراً أيضاً . »

– « ولكنني جعلت أسمع أقاويل مزعجة جداً . »

– « فهمنا يا ستي ! سنتزوج ، ونفضّ المشاكل . »

– « يقولون إن سوسن كانت لها علاقة – أقصد قبل وفاة علاء – علاقة مع .. »

– « نوال ، إلى متى هذا السخف ؟ »

– « اسمع أولاً . كان لها علاقة مع عامر عبد الحميد . »

– « كذب ! لا اصدق ! مجرد صداقة بين العائلتين . »

– « وكان لها علاقة مع صديقك وليد . »

– « مع وليد ؟ ومع من أيضاً ؟ »

– « وانّها يسرت له الأمور مع مريم الصفار ، زوجة هشام ، قبل أكثر من سنتين : قبل طلاقها . »

– « مـا هذا الحديث الأجوف ؟ أرجوك ، نوال ، كلام النساء لا آخر له . ثم كيف كانت لهـا علاقة مع وليد ، ثم تفضلت ويسّرت له الأمور ، كما تقولين ، مع صديقتها أيضاً ؟ »

– « من أين لي أن أدري ؟ »

– « لا تصدقي كل شيء تسمعينه في هذه المدينة . »

– « المهم ، ابراهيم ، هو أنني صرت أخشى على تورّطك معها . »

– « هل يتقولون عني أنا أيضاً ؟ »

– « وماذا تظن ؟ هل سيوفرونك لمناسبة خاصة ؟ »

– « أنا جادّ باهتمامي بها ، نوال . »

– « أرجوك ان تتروّى قليلاً . »

– « البادىء أظلم . »

— « انا طلبت منك ان تكتب مقالاً عن رسومها ، لا أن تتورط مع أرملة شابة مهيّأة لاغراء أي رجل أعزب — أو غير أعزب . والغريب انني لم أسمع أياً من هذه الحكايات من قبل . »

— « نوال ، انها صديقتك ، تذكري . ثم أنا رجل بلغت الثانية والأربعين من العمر ، ولست بحاجة الى نصائح من أختي الصغرى ، ولو انها اختي المفضلة ، الحبّابة ... جاسم ! أحضر الشاي ! »

— « بس وهاب دوّخني . »

— « آ ، اذن هذه الحكايات من السيد وهاب ؟ ومن أين جاءته كلها ؟ »

— « من هشام . »

— « صديقكم المحترم ! اسمعي يا حبيبتي . حذاء سوسن القديم أشرف من رأس هشام . وحذاء مريم القديم — »

— « بس ، بس ! لست أدري لماذا أتدخل في شؤونك . »

— « لأنك تحبينني . »

— « لأنني لا أريد لأخي الوحيد إلا أروع ما في الدنيا . أروع ما في الحياة ، بما في ذلك الزواج . »

— « اذن لا تصغي الى صديقكم الموتور . بل قاطعوه . »

— « أف ... هاك الشاي . »

— « عندي كعكة في الثلاجة . »

— « من شغل سوسن ؟ »

— « نوال »

— « اني امزح . لا أجرؤ ان آكل كعكة . ألا تراني سمنت في الشهرين الأخيرين ؟ »

— « وسوف تسمنين بعد ... جاسم ! أحضر الكعكة التي في الثلاجة ! »

— « آخ منك ، برهومي . لا فائدة ترجى معك . على كل ، أنت تعلم أنني أحب سوسن . ولكنني قلقة . قلقة جداً . أتدري انها لم تلمّح إليّ يوماً بأن بينكما شيئاً ؟ شلون كتمان ! ولكن — اسمع آخر ما عندي . قوِّ أعصابك ، واسمع . »

— « الفضيحة الأخيرة ؟ الفضيحة التي ستنهي كل الفضائح ؟ »

— « اسمع . ما عليّ . لا بد أن سوسن بئر عميقة ، وأنا لا أدري . »

— « كلّي آذان . قوليها وفضيني . »

— « يقولون إن سوسن لها علاقة بكاظم اسماعيل . أتعرف ذلك ؟ »

— « ها ها ! لم يبق إلا كاظم من أصدقائي . »

— « خذ مني كذباً . هذا ما سمعته . أتريد الصدق ؟ لم أسمع شيئاً عنك أنت مع سوسن إلا منك أنت . ربمـا لأنني أختك ، فلا يذكرك أحد بسوء أمامي . أما كاظم ، فيقولون انه سيتزوجها . وأنت تحسب أنك أنت الذي ستتزوجها ! هل ذكرت لها الزواج فعلاً ؟ »

— « كاظم ؟ غريب ! التقينا ثلاثتنا معاً ، هذا صحيح . ولكن لم يخطر ببالي — »

— « هاك ، حبيبي ، استكاناً آخر . »

— « نوال . كل ما قلته كلام فارغ . أتدرين ؟ »

— « إن شاء الله ! »

— « أخبريني ، أتعرفين مريم ؟ »

— « زوجة هشام السابقـة ؟ طبعـاً يا غبي . أنت دائماً تنسى أن هشام كان ولا يزال من أقدم أصدقاء وهّـاب . ولكننا لا نرى مريم كثيراً هذه الأيام . »

— « كانت مسافرة ، وقد عادت . »

— « ويعني ؟ ألا تعرفها أنت ؟ »

— « أعرفها . ولكن أودّ أن أراها أكثر . »

— « من أرملة إلى مطلّقة ! ثم ماذا يا ابراهيم ! »

— « امرأة هائلة . »

— « ذكية . ذكية جداً ، ولكن مطشرة ، مشوشة . يدهشني أنها استطاعت أن تكمل دراستها . وسوسن تحبهـا كثيراً . إذا قررت أنت الزواج من سوسن ، فلا بد أنك ستراها كثيراً »

— « ساعدني الله ! »

— « شوف ، عيوني . أخرج هؤلاء النساء من ذهنك . على الأقل ، لو فكرت بجنان الثامر — فهي غير متزوجة — »

— « لا ، لا ، أرجوك ، نوال . جنان ليست من فصيلتي . »

— « سوسن ومريم اذن هما من فصيلتك ؟ طيّب ، اسمع . أتعرف وصال رؤوف ؟ أخت الدكتور طارق ؟ »

— « من ؟ آ ، أعرفها ، أعرفها . التقيت بها عـدة مرات . فتاة جميلة . ولكنها صغيرة ، صغيرة جداً . »

— « ماذا تعني بصغيرة ؟ عمرها أكثر من خمس وعشرين سنة — إذا لم تقارب الثلاثين . »

— « لا ، لا ... وصال تذكّرني بجنّية صغـيرة ضائعـة . نوال ، قضينا هذا العمر معاً ، وأنت لا تعرفين ذوقي في النساء . »

— « طيّب ، طيّب . بس تروّ ، هـــا ؟ الصداقة شيء والزواج شيء آخر . »

— « هل من نصائح أخرى ؟ ولكن كـل نصيحة بقطعة كعكة — مكوّمة بالكريم . »

— « والله لو تسمع مني ، لرضيت ان آكـل هذه الكعكة كلها ، ولأسمن كالدبّة ! آه لو شافت عيني ، بس !.. »

آه لو شافت عيني ! يا نسل الافاعي ! زجاجة اخرى ، كالعروس ... لذكراك يـــا ابا مروان سأشرب ، إلى أن يشيب الرأس كله ، ويشيب الصحب كلهم ، وتشيب اجمل الفتيات . مــا زلت في مركز الدنيا ، اتلفت حولي ، وارى الغربـــان تنقر القرب ، قربة بعد قربة . وتسفح المياه علّها تحظى منه بقطرتين . ما رأيت شريراً الا ّ ووجدتـه يريد أن يعيش إلى الابد . فلنملأ القرب بولا . لنملأها أسناً ، علقما ، سمّاً زعافاً . وليشرب منها الخونة ما وسعهم الشرب . كلهم خونـة . وتلك بالضبط كانت حصة كاظم من القربة الموهومة ... لم يتزوج سوسن — خطبها ، الخ ، ولا ادري بالضبط ما الذي حدث ، لأنني لم اشأ أن ادري ، ولم اسأله ، ولم اسأل سوسن ، ولم اسأل احداً . انما المهم أن النتيجة كانت قطيعة اخرى بين كاظم والآخرين ، ومرارة اخرى تسري إلى كتاباتــه المتمرمرة اصلاً . اما أنا فلم اعد إلى ذكر كلمة « زواج » مع سوسن بعد ذلك اليوم الـــذي رأيتها « تفلت » فيه حزنها . ولعلها ادركت ، بحساسيتها المرهفة كفنانـة ، أنني إذا وجدت عاطفة تستبدّ بـي ، وتقلق نومي ، أعددت العدة للتراجع عنها بكل احترام . والذي أخبرني بـــه نوال ، على تفاصيله الخاطئة في معظمها ، بـــدلاً من أن يشحذ في نفسي همّة المتحدّي ، انما هيأ لي المنعطف الـــذي كنت في انتظاره ، والـــذي كنت ولا ريب سأبلغه واسير فيه اخيراً حتّى لو لم يكن هناك لسوسن عشّاق ، أو خطّاب ، آخرون . ومريم كانت منعطفاً رائعاً ، اشبه بمن يسير بأرض جبلية وعرة ، ثم يصادفه ممر جانـبي يدخله فيقع فجأة على واد أخضر عميق ، تلتمع فيه الفواكه على الأشجار ، وتتساقط فيه المياه بين الصخور ... آه ، أنا الخائن . أنا الذي قلت إن سوسن واحتي ، وجعلت منها بعد نصف ساعة طريقــاً وعرة في جبل . وأنا لا جبلاً أبقيت في حياتي ، ولا وادياً . هل كنت اهرب مـــن النساء لاصطدم بالنساء ، وربمـا كـما كان يفعل وليد — أو يخيّل إليّ أنــه

يفعل ؟ كم امرأة عرف في حياته ، قبل ريمة ، ثم ، وعلى وجه أخص ، بعدها ؟ كنت اشعر أن في اعماقه شيئاً يرفض تسليمه لأية امرأة : وحالما تبلغ العاطفة فيه نقطة الاحتدام ، يخشى على ذلك الذي في اعماقه من الاحتراق ، فيصدّ الحبيبة عن نفسه . وقاية ، أو حفاظاً ، كأنه يتحكم بتجربة داخلية يرفض التخلّي عن سيطرته عليها . وما الذي كان يبقى للنساء بعد ذلك منه ؟ أحبّ مكتوم ، أم حقد ظاهره عدم المبالاة ، وباطنه لهيب يأكل نفسه ؟

الليل طويل . لم اكن اتصور أنني سأتمكن من أن أرقبه وهو يتحرك كقطار يصغر ويسرع ، ولا ينتهي ، أو كحية من حيّات الاسكندر ، تسعى ، ولكنها دوما امامي . أعود متخبّطاً في ظلام ماطر على الارصفة الطينية ، أعود إلى حيث مراكز الشرطة ، والسجون الاشبه بمدن النمل . أخالف قواعد المرور ، وأدفع الغرامات . والمدارس القديمة المعتمة ، بضوضائها المستمرة وأنفاسها الفاسدة وحماساتها الضائعة ، ما زالت هناك تملأ المشهد المتسع دوماً — المنقبض دوما (لا مشهد الوادي الذي هو العزيزة الفاتنة السارقة المنقذة مريم) . أعود إلى حيث تساوت القرعاء وام الشعر ، إلى كل حفلة كعزيمة الحصيني واللقلق ، إلى حيث العصفور يضحك على اللقلق ، حيث إذا طلعت من يد الحرامي وقعت بيد فتّاح الفال . واهل السوق يقفون على رأسك ، والابتسامة من تحت الشوارب الكثة تقول لك : « تريد ارنب خذ ارنب ، تريد غزال خذ ارنب . » ولكنني عقلت ، وتبت . والليل طويل . وما زلت اشتهي الا أخيّب ابي وهو في قبره ، فأضيف إلى ما أورثني من مال ولو دينارين — أو الاّ اضيع مما اورثني اكثر من نصفه ، ثلاثة ارباعه ...

لست ادري ماذا يريدون مني — اخواتي وازواجهن . إذا بعت ارضاً ، فأنما ابيع ارضاً هي ملكي ، حلالي . لتبدأ احتجاجاتهم عندما أغشّ

وأدلّس وأبيع أراضيهم وبيوتهم هم وأنفق اثمانها في شوارع لندن وبرلين وباريس . كم مرة في لندن مشيت مع المتظاهرين ، وأنا لا يهمني بالضبط ما الذي يتظاهرون بشأنه . انهم ضد شيء ما قائم ، وأنا ضد كل شيء قائم . فلأُضفْ صيحتي إلى صيحاتهم . ولكنهم في لندن لا يصيحون كما كنا نصيح في مظاهراتنا ببغداد في الازمان الماضية . لو رضي بي الفدائيون ، لكنت معهم كلما ارادوا اختطاف طائرة . ولكنهم يقولون إنني متقدم في السن ! ولا يصدقون أنني في أيار ١٩٦٨ ، اذ كنت في باريس احاول أن اكمل صفقة تجارية ، رحت اشارك الطلبة في مظاهراتهم الكاسحة الجنونية — وكتبت إلى سوسن رسالة كل يوم عن القصائد الجدارية ، والهجوم على الواجهات الفخمة ، وقلب السيارات وحرقها في بوليفار سان ميشيل ... ابراهيم الحاج نوفل ، يا ابا المشاكل ، يا عاشق الازمات ، يا قصبة مكسورة ، يا جداراً مائلاً ، يا مطالباً متعباً بالحرية . ولكنني لم اكتب إلى سوسن عن الثائرة ، بولاند ، ذات العشرين عاماً ، التي كانت تلبس قميص الجينز مفتوحاً على نهدين ثائرين ، وتتكلم بفصاحة روبسبير مطالبة بقطع رؤوس الخونة كلهم ، وكيف أخذتني في المساء إلى غرفتها الصغيرة في الطابق الثامن من عمارة في مونمارتر صعدنا درجاتها كلها ، لأن لا مصعد فيها ، غرفة ليس فيها الا فراش مضطرب ، ومنضدة محملة بالكتب والمجلات والملصقات ، وأخذتني بين فخذيها طيلة ساعات الليل ، ثم انكفأت على صدري ، حتى اشرقت الشمس وقالت ، وفمها على عنقي : « آه الشمس لا تستحيْ . انها تداعب ردفيّ ! » فقلت وفمي يغمغم في شعرها : « وماذا تنتظرين منها أن تفعل وقد كشفت عن ردفيك لها ؟ » « أوه ، لا تقرصني ! قرصك يوجع ! » ونزلنا إلى مقهى عتيق في العمارة . وشربنا كافيه اوليه ، وأكلنا كرواسانت وخبزاً محلّى ، وهي تتحدث عن بارون هوصمان الذي قبل مئة سنة لم يترك بتخطيطه بوليفاراً في باريس الا وقطعه بشوارع اخرى — منقّطة

بمراكز للشرطة بالطبع – للقضاء على أي تمرد ... قالت « السلطة تعرف كيف تديم نفسها ، أو هكذا هي تتوهم . » وكان ذلك آخر ما رأيت من الثائرة الحسناء ، وعدت إلى بغداد ، دون أن اكمل صفقتي التجارية . (اكملتها في بغداد فيما بعد ، وحققت لي ربحاً لم أكن أتوقعه . بركات بولاند ، وهي لا تدري !)

الليل لا يرحم . أنه لا يتحرك ، ولكنه يطير . كليل العشاق وأنا استطرد لأن حياتي كلها استطرادات ، ثم أفاجأ بالشمس كشمطاء عوراء تحدق فيّ بعينها الواحدة ، وتقهقه قهقهتها الشنيعة وهي تقول : « ابراهيم افندي ، يوم آخر ! » لا بأس ، لا بأس . في الزجاجة بقية بعد ، وفي الليل هزيع آخر بعد . كلهم خونة ، محددو الساعات ، وواضعو التقاويم ، ومستقرئو الفلك ، والعرافون بما لا يعرف . شيء واحد أعرف يا وليد . لا مقولة سقراط ، بل مقولة اخرى : وهي أنك جئت وذهبت ، وكأنك لا جئت ولا ذهبت ، غير أن الليالي التي قضيتها معك في هذه الغرفة ، ها هي متحجرة على الجدران ، أراها ، اسمعها ، وكأنها تماثيل صغيرة ، كلها يذرف دمعاً – انها تغرقني بطوفان دمعها ، بضوضاء نحيبها .

ولكنك أدرى مني بأن هذه كلها كنايات للشعراء ، تجسد الحقيقة وتمحقها معاً . لا ، أنت لست هنا ، ولا الليالي تتشبث على جدراني . أنت زوبعة في دماغي ، وصوتك أحمله في صوتي ، وأنا اسأل اسئلة من ذلك النوع الذي تعرف : أي رجل يطلب منه ابنه خبزاً فيعطيه حجراً ؟ أو يطلب منه سمكة ، فيعطيه أفعى ؟ طلبنا الخبز والسمكة ، فأعطونا الحجر والافعى . وغضبت أنت أخيراً ، رغم كل حبك ورصانتك : أمر ما وقع فكان القشة التي قصمت ظهر الجمل . من حزيران ٦٧ إلى ايلول ٧٠ إلى آذار ٧١ ، حين قدم مروان دمه الفتيّ قرباناً لقضيتك .

ولا اذكر التواريخ السابقة ، وما اكثرها ! غضبت وحزنت ، وما يئست . أم انك يئست ايضاً ؟ لن اصدّق ، لن أصدّق انك تلاشيت كسراب في البادية ، تعبيراً عن موقفك الاخير . لأنني أعرفـك جيداً . زوبعتك تستمر في أدمغة كثيرة ، لا دماغي وحده . وهل لي أن أناقض نفسي — وما أكثر ما ناقضت نفسي ، فلم لا أناقض نفسي فيك مرة اخرى — فأقول اني احس بك جالساً على هذا الكرسي ؛ أمامي ، والكأس بيدك ترشف منها رشفات صغيرة ، جبراً لخاطري ، لأنك لا تريد أن تشرب : بل تريد أن تتحدث ، وتريد أن تسمعني أتلو تلاواتي الفاجرة ، التي يجب أن تحرّك فعلاً ما ، في مكان ما ، في يوم ما .

ولكنني أعرف — دون أن تقولها أنت — أن على هالحمّص ما يصير عيد . وأراني في الصباح ، في مكتبي استقبل رجلاً يخاطبني هكذا ، بعد أن احترمته وقدمت له استكان الشاي : « شوف ، استاذ . أنت تعرفني : أنا رجل بسيط ، صريح ، احب البسطاء والصريحين . » فأهز رأسي موافقاً . ويكمل : « وانا أودّك واحترمك وأريد خاطرك . » فأقول : « شكراً . شكراً ... » ويردف : « وإذا لم أزرك لمدة طويلة وبختني ضميري وقلت لنفسي : متى ستزور الاستاذ في مكتبه ثانية ؟ اسألني : لماذا ؟ لأنني لا اتمتع بحديثك فحسب ، بل لأنني — واقولها بصراحة ، لا أمامك فقط ، بل على رؤوس الاشهاد — لأنني استفيد علماً وثقافة من حديثك . » فأكرر بخجل : « شكراً ، شكراً ... » ويستمر : « يا أخي ، ما أقلّ المثقفين الحقيقيين الذين نلتقي بهم هـذه الأيام ، ونتلذذ بسماع كلامهم . في الواقع ، المشكلة — » وعندها أتوقع اكتشافاً خطيراً ، ويبطيء صاحبي قليلاً في ايقاعه ، تأكيداً : « المشكلة ، هي هذا النفاق . يمدحونك لوجهك ، ولكن حالما تدير لهم ظهرك ، رأف الله بحالك ! وأنت تعرفني جيداً ، استاذ . » أنا في الواقع اكاد لا أعرفه ،

ولكن يبدو أنني سأبدأ بمعرفته جيداً ، حين يستمر وأنا ساكت : « تعرفني ، أنا لا أحب النفاق ولا المنافقين . ولا أحب اغتياب الناس ، ولا الحديث عنهم وراء ظهورهم . عيب ، والله عيب . هذا ... ما اسمه ... فلان ــ تعرفه أنت فلان الفلانـي ، ولد طيّب . لا بأس به . يظهر لطيفاً أول الأمر . ولكن ما الفائدة ؟ له لسان كلسان الحيّة . بل دقق النظر فيه ، تجده يشبه الحيّة . الحيّة الصفراء . ولو لم يكن صديقـي لهان الامر . ولكن الانسان ، يا استاذ ، أدرى باصدقائه من غيرهم . وأنا أعرف كل جيئاته وروحاته ، وأعرف من أين تمتلىء جيوبه ، ولن يستطيع أن يخدعني بمظاهره ... » ماذا تقول لخنزير كهذا ، وهو يتحدث عن احد اصدقائك ، أو احد معارفك ، على هذا النحو ؟ تتشنج يدي لكي تمتد إلى الاستكان الذي على منضدتي وتقذفه بوجهه . غير أنني أقول له : « يبدو أنك قادم من المزبلة البشرية ، يا استاذ ، تمام ؟ » فلا يدرك بالضبط أنني أهنته ، ولو أنه يشتبه في ذلك قليلاً ، فيضحك ضحكة « صفراء » ، وتند من بين اسنانه كلمة « تمام . هأ هأ . تمام . »

وكل يوم على هذا المنوال ، مضروباً بعشرة . وهلموا إلى المناحات ومباهج الاسواق وملتقى الباعة والشراة ! مع هكذا باعة وهكذا شراة ، لكي يقال إنني أقوم بعمل ناجح يحفظ ماء الوجه ، ويُبقي لي القدرة على الاحتفاظ بجاسم ، وبسيارتي القديمة ، وهـــذا الشراب ... بيتنا في الاعظمية ، المشرف على النهر ، سأبيعه قريباً : اسعار البيوت في ارتفاع ، وحسابـي المصرفي في انخفاض ، فليلتق الباعـــة والشراة ... لعلني بينهم ألقى نور عيني الحبيبة ، التي ما زالت تحزّ في نفسها قصتي مع سوسن ــ أجزم اليوم أن سوسن كلما انجزت لوحة تبدّى لها عاشق في زيّ مشترٍ قرأ كتاباتـي عنها ، وأعادها همساً في أذنيها .

بعد اختفاء وليد ببضعة أشهر أتتني سوسن بمفاجأة غريبة . تلفنت إليّ

بعد انقطاع طويل لتخبرني أنها قررت أن تهديني احدى لوحاتها . كان معرضها في الشهر السابق ناجحاً ، فقد باعت معظم الصور ، وظهرت عنه عدة مقالات ، بعضها يمدح وبعضها يتحرّش ، وبعضها يثن بالغيرة ، وبعضها مبطن بسوء النيّة ، وبعضها مرصوف بما يشبه لغة النقد ، بمازج بين السياسة والفن على نحو تحسبه جاداً ، وإذا هو قطعة أخرى من ذلك الهذيان الدعيّ الذي امتلأت به السوق هذه الايام ، مـــن قلة الحيل .. وكانت دراستي المنشورة في الدليل هي المتكأ ، للمادحين والقادحين معاً . ولم لا ؟

فلما أخبرتني سوسن أنها ستهديني احدى لوحاتها . ورفضت أن تحدّد اللوحة التي قالت إنها ستأتي بها إلى داري ، توقعت أن تكون ، بالطبع ، احدى اللوحات التي عرضت ولكن لم تبع . وبعد ساعتين كانت سوسن بالباب ، تفتح صندوق سيارتها لتخرج صورة قلبت ظهرها إليّ لكي لا أراها ، إلى أن دخلت البيت . ثم قالت بلهجة تكاد تكون « رسمية » ، وشعرها مشدود كالعادة عبر صدغيها وفوق اذنيها في ضفيرتين مجدولتين خلف رأسها : « مع امتناني العميق ! »

واذا هي صورة شخصية لوليد مسعود . كانت قد بدأتها منذ سنوات ، ولم تنجزها . غير انهـا بعد اختفائه عادت اليها ، وببضع ضربات من ريشتها الحاذقة أوجدت صورة من اقوى ما رسمت ، مستعملة ، على طريقتها ، اقل الالوان ، فجاءت مزيجاً من تخطيط وتلوين ، وفيها شيء من اسلوب اندريا مانتنيا ، رسام النهضة الايطـــالي ، الذي كان وليد مولعاً به ، لما فيه من صلابة الصخر وحسّه . وكان قد أهدى سوسن ، والله أعلم متى وبأية مناسبة ، كتاباً ضخماً مليئاً برسومه، درستها بامعان، وحاولت ان تستوحي اسلوبها — على طريقتها الخاصة .

فرحت بالصورة جداً ، وهتفت : « هـــائلة ! » وعانقت سوسن

قبل ان تدرك ردة فعلي ، وقبّلتها قبلة كبيرة على خدها . كان بارداً . أملس ، كالرخام . وأدهشني أنني أحسست كأنني اقبّل اختي ، لا امرأة حسبتها يوماً عشيقتي ! وتأملت الصورة ثانية ، وسألت : « أين أعلّقها ؟ » قالت : « في المكتبة . انها أجمل غرفة في بيتك . »

وفي الحال أحضرتُ مطرقة ومسماراً ، وعيّنا المكان الممكن الوحيد لتعليق لوحة — فالكتب تكاد تكسو الجدران كلها — وعلّقناها . واتفقت معها على دعوتها مع بعض الأصدقاء الى العشاء عندي بعد يومين او ثلاثة. وخطر لي خاطر لذيذ : « اريد أن أدعو أيضاً صديقتك مريم — فهي لم تزرنا من قبل أبداً . »

فقالت : « أعرف اعجابك القديم بها . سأخبرها ... على كل سجل رقم تلفونها ، واتصل أنت بها مباشرة . » وأعطتني الرقم .

وهكذا ، بعد بضعة أيام، جاءت مريم بصحبة سوسن للعشاء عندي ، كما جاء عامر عبد الحميد وزوجته آن ، وجواد حسني وزوجته هالة . ودار الحديث من جديد حول وليد ، لأن مكانه كان حقاً خالياً ، ولان كلا منا ، بعد العشاء ، حين انتقلنا الى المكتبة ، كان ينظر الى صورته الزيتية فيشعر انه بيننا مرة أخرى . بل ان جواد وقف أمام اللوحة . يتقرّاها بدقة الناقد الفني (مما لم أكن أعهده فيه من قبل) ، وردّد : « رائعة ، رائعة ! » اكثر من مرة . فشدّ ذلك الفنانة الى المعجب بها ، وسألته : « هل رأيت معرضي الأخير ، دكتور جواد ؟ »

لم أسمع جوابه ، وهو يمسك بغليونه الضخم بين أسنانه ، ويشعله ، ويطلق سحب الدخان ، لأنني انصرفت بهمي الأكبر نحو مريم . غير انهما بقيا يتحدثان وحدهما لبضع دقائق ، بينما أخذ كل منا له مقعداً . ثم عادا الينا . وتصورت هالة تتنفس الصعداء لعودة زوجها العالم الوقور من تطوّحه الطائش ، ولو لدقيقتين أو ثلاث ، في مدارج تزدحم

بالمجاهيل ، الى وقار الاستاذ الكبير المتمسّك بالعقل والمبتعد عن المخاطر.

جاء جاسم بفناجين القهوة ودار بها علينا ، مع الكؤوس الكبيرة التي جعل يصبّ فيها الكونياك واحدة واحدة . وعندها نهضت مريم وبحركة من رأسها دفعت شعرها السابل عن وجهها الى كتفيها ، والكأس الجميلة بيدها كوردة من الجنّة ، وتقدمت من رف يحمل عدداً من كتب وليد مسعود ، صُفّت كلها معاً وراحت تمر بأصبعها عليها وتعدها : « واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ... لم أكن أعلم انه كتب هذه الكتب كلها . هل قرأتها يا ابراهيم ؟ »

— « كلها ، وناقشته في كل واحد منها وهو يكتبه . »

— « وأنت يا عامر ؟ »

— « قرأت معظمها . انها تنضح بشخصيته التي كنت اعرفها جيداً ، فأكاد احزر ما في الكتاب قبل ان اقرأه . أفضلهـــا في نظري « المفرد والمتعدد والمطلق » . هل قرأته ؟

— « نعم . قد يكون أنضج كتبـــه . ولكنني فضلت عليه كتابه « البئر » ، الذي يتحدث فيه عن طفولته ، على نَحْوٍ لم أعرف بالضبط هل هو سيرة ذاتية ، أم محاولة روائية . »

فقال جواد : « انه جزء من سيرته الذاتية . حثثته طويلاً عـــلى كتابته . غير أنه كان قد أصبح لديه ثبات على طفولته . يدور حولها ، ويتوقف عندها ، ويكاد لا يتخطاها . »

— « هل قرأت كتبه كلها ؟ »

— « طبعاً ، مريم . وأنا الآن أعيد النظر فيها ثانية. أريد ان أصل الى نتيجة . على الأقل . حسماً للاشكال مع زوجـــتي . فهي تقول : اكتب كتابك عنه ، وخلّصني ! »

استضحكت هالة ، ووضعت ساقاً على ساق ، وقالت : « أريد من

جواد أن ينتهي من هذا الموضوع ، لكي يستطيع التفكير في شيء آخر غير وليد ، رحمه الله . »

فدهشت مريم وسألتها : « رحمه الله ؟ لماذا ؟ أتظنين أنه مات ؟ »

وكانت الدهشة هذه المرة من نصيب هالة : « ألم يمت ؟ اذن أين ذهب ؟ »

وكان هذا كافياً لاستئناف الجدل العتيد : أين ذهب ؟ لم تستطع مريم أن تؤكد أنه حيّ ، إلا أن حدسها ، قالت ، يوحي بأنه حيّ ، بمعنى ما لا تستطيع تفسيره ، وأضافت : « كما هو في هذه الصورة . »

فهتفت سوسن بفرح : « نحن متفقـــان ! أردت أن تكون الصورة تأكيداً مني على حياته – دائماً . »

ونظرت مريم إليّ بعينيها الخضراوين الواسعتين (مريم ، إذا لم أتزوجك هذه السنة ، فلتأكلني كلاب الطرقات !) وقالت : « ابراهيم ، أنت بحكم أشغالك وصداقاتك تعرف الكثير من الفلسطينيين . هل تعتقد أن وليد كان فلسطينياً نموذجياً ؟ »

وقبل أن أجيب ، استدركت ، وهي تهز رأسها لتدفع شعرها جانباً عن خدها الأيمن : « العفو ! سؤالي سخيف . ليس هناك مـــن هو نموذجي ، ولا سيا عندمـــا يكون شخصاً غير عادي ، كوليد . ولكن الذي أتساءل حوله هو : « هل أثار وليد ما أثار من اهتمام ، من حب وربمـــا من كراهية ، بسبب كونـــه فلسطينياً ، ولكون الفلسطيني يشغل حيّزاً خاصاً من الضمير العربي اليوم ؟ بالنسبة إليّ ، فإن جوابي هو : قطعاً ، لا . »

وخطر لي ، كما لا بد خطر لجواد وعامر ، انها كامرأة متهمة سابقاً بحبه ، لا شك انهـــا تجده مهمّـاً لأسباب أخرى ، تتعلق بشخصهـــا .

غير أن جواد أصر على أن خلفية وليد ، مولداً وقضية ، جزء هـام من الموضوع .

لم تأبه مريم كثيراً للجواب ، وقالت : « هذا صحيح ، ولكن إلى حد ما فقط . المهم أن وليد أيضاً شيء آخر — شيء فذّ ، مختلف عن الناس ، مغاير لكل أحد . هنـاك الأيديولوجي ، الجماهيري ، الـذي يريد ، ويستطيع ، أن يكون في القلب من المعمعة ، ويريد للعالم كلـه أن يعرف ذلك ، لأنه من حقه . ووليد لم يكن ذلك . قطعـاً . على الأقل لا كما عرفتـه أنـا . هناك الرجل الفاعل ، « الاكتيفيست » ، المستعد لالقاء القنابل وكتابة المناشير السرية ، وحبك المصائد للعدو، دون أن يهتم بأن يعرف العالم عنه ذلك . ووليد كان فيـه الكثير من ذلك : لا يقول عنه شيئاً ، ولا يجعل منه حجة لبقائه . انـه جزء تلقائي من كيانه — أو ناحية واحدة من كيانه : وذلك لأن لبقائه حجة اضافية ، تغذّي الناحية الأخرى من كيانه ، وهي أيضاً تلقائية وجوهرية . وهنـا مزيّـة هذا الرجل الذي غادركم دون أن يودع أحداً منكم كما ينبغي . فإزاء هذا الفاعل ، القلق ، المتسائل ، هناك المتأمل ، الزاهد ، البعيد في قرارته عن الجموع ، المغلّف بطوايـا الأفكار والأحلام . هل كان هذان المستويان في حياته متناقضين ؟ من يدري ؟ مصيبتنا أننا لا نعرف الكثير عن حياته . ماذا تقول ، دكتور جواد ؟ »

أجاب : « أنت محقة . لا أظننـا نعرف الكثير عن حياتـه — أقصد الكثير الخالي من الخطأ والوهم . ولو أن من حقنـا أن نستنبط الكثير من كتبه . »

كانت مريم في تلك اللحظات متجليـة ، ومصممة على ايضاح أمر يبدو أنـه شغلها كثيراً ، ولا تتمكن من ايضاحه كليـاً قالت وهي ما زالت واقفة بجانب الكتب ، ويمناها تعبث بهـا : « والحقائق نفسها

زئبقية في أكثر الأحيان . ووليد وجد نفسه يسلك طرقاً زئبقية . طرقاً زَلِقة ، مثلنا جميعاً – بل أكثر منا جميعاً – متجهاً نحو غايات معقدة غير واضحة . كانت خليطاً عجيباً من السياسة واللاهوت . ولعله فوجيء بأنها تتهافت بين يديه ، واحدة واحدة ...

انتصب غامر على قدميه ، وأخذ نفساً من سيكارته . وسار نحو الصورة الزيتية التي على الجدار ، وركّز عينيه فيها . ثم قال . وهو ما زال يقابلها : « لنا أن نشرّق أو نغرّب في حديثنا عنه . ولكن وليد ، كما أراه الآن ، إنما كان شاعراً يريد أن ينظم القصيدة الرائعة الواحدة التي – التي لا يمكن أن تُنظَم ... حياته ، آراؤه ، نهايته ، أجزاء من تلك القصيدة التي استحالت عليه ، وها انت يا مريم ، وأنا ، وأنتم جميعاً ، نحاول أن نروي عنه الأبيات القليلة المتناثرة التي نذكرها ، كما كان يفعل رواة الشعراء في الجاهلية ... ولو استطعنا أن نجمعها ، ونبرمجها ، ونضعها في الكومبيوتر ... » واستدار نحونا .

فقلت ، مفصحاً أخيراً عن الفكرة التي أخذت تلح علي : « لكان الجواب أن وليد مسعود اختُطف ، رغماً عنه ، وعندما قاوم ، قتلوه . »

صمت قصير . ثم مريم ، بصوت يكاد يكون همساً خائفاً : « ومن يختطفه ؟ »

قلت : « هناك احتمالان . الأول : العدو ، أو عملاء العدو . والثاني : أعداء شخصيون مدفوعون بدوافع خاصة . »

فهزت رأسها : « ولكن كيف ، كيف ؟ » وتركت مكانها وجلست في الكرسي الجلدي أمامي .

وقالت آن بالانكليزية : « ارجوك ، تكلم على مهل لكي أفهمك . »

قلت : « هذا ما أتصوره قد حدث : بعد ان غادر وليد الرطبة ، واتجه في طريقه غرباً ، نحو الحدود الأردنية السورية ، أدركته سيارة .

ربما كانت هذه السيارة تستقصي أثره منذ أن غادر بغداد . المهم ، ان أصحاب هذه السيارة ، بشكل ما ، جعلوه ينتحي جانباً ويتوقف بسيارته ، وبحجة ما ، طلبوا اليه النزول ، ربما مدّعين بأنهم بحاجة الى مساعدة منه لسيارتهم . ووليد ، كما نعرف ، لم يكن ليتردد في الذهاب مع أحد لمساعدته ، مهما شقّ عليه الأمر . يدفعونه الى داخل سيارتهم ، ويخدّرونه، وينطلقون ، تاركين سيارته على قارعة الطريق بكل ما فيها . ونحن نعلم انها بالفعل وجدت كذلك ، بالضبط مليئة بأمتعته ، حتى المسجّل فيها كان مفتوحاً . في « أبو الشامات » ، يأخذون جواز سفره من جيبه ، ويجرون معاملته مع معاملتهم . وكلما أفاق خدّروه مرة أخرى ، ولو نصف تخدير ، بحيث يكون أشبه بالصاحي ، ولكنه عاجز عن التفكير ؛ وتتكرر العملية عند الحدود السورية اللبنانية . يبدو أنهم أرادوا اختطافه الى بيروت . أرادوا اقتلاع سرّ ما منه ، فهم يريدونه حيّاً . أو أن عملاء آخرين للعدو يريدونه حيّاً في بيروت ... »

فقالت مريم : « ولكن الشائعات زعمت انهم وجدوه مقتولاً بين الصخور في ظهر البيدر . أو انهم وجدوا رجلاً يعتقدون أنه وليد مسعود. هل من المعقول أن يأخذوه كل هذه الطريق الطويلة المهجورة ليقتلوه على مشارف بيروت ؟ »

قلت : « طبعاً لا . ولكن يخيّل إليّ أن وليد ، والسيارة تصعد به الجبل ، بعد عبور شتوره بمدة قصيرة ، أفاق ، وربما أبدى انه سيتعاون مع المختطفين إذا لم يؤذوه . وكلما ارتفعت السيارة اشتدّ صحوه بهواء الجبل ، وفجأة ، عند أحد المنعطفات العليا قبل بلوغهم صوفر ، فتح باب السيارة ، أو استطاع فتح بابها ، وطفر الى الخارج . أو ربما دفع المختطف الذي بجانبه عبر الباب المفتوح ، قاذفاً به ، الى الطريق ... »

وهنا مدّ جواد يده إلى ذراعي يوقفني ، وهو ينفث حلقة بديعة من

دخان الغليون من فمه ، وقال : « ابراهيم ، هل أنت تعيد قصته مع كاظم اسماعيل ؟ »

قلت : « ماذا تقصد ؟ أية قصة ؟ »

قال : « قصة وقعت قبل حوالي خمس عشرة سنة ... لا بأس . أكمل ، أكمل . العفو . »

قلت : « نحن نعلم أن وليد ، عضلياً ، كان قوياً جداً . ولكن أحد المختطفين – ربما سائق السيارة ، إذا كانوا اثنين فقط – حين توقفت السيارة عند هذا الحادث ، أتصوره ينطلق خارجاً منها ويمسك بوليد ، فيتعاركون ، وقبل أن يلفتوا أنظار راكبي السيارات القادمة . أو لأنهم خافوا أن يغلبوا على أمرهم ، أطلقوا النار عليه ، وحملوه وقذفوه بين الصخور . أو انه هو الذي هرب قافزاً إلى المنحدر ، فرموه بالنار . لأن الجثة التي اكتشفت قيل انها كانت مثقبة بالرصاص . ومشوهة الوجه ... وأنا اؤكد لو أن واحداً منّا يراجع سجلات المسافرين في ذلك النهار ، والليل الذي أعقبه ، في أبو الشامات ، ثم في الجديدة ، ثم في المصنع ، لوجد حتماً اسم وليد مسعود . فاذا دقق في الأسماء التي تتكرر معه في نقاط الحدود الثلاث ... »

فقاطعتني هالة ضاحكة : « رواية بوليسية ممتعة ! »

ولكنّ عامر كان جاداً : « الفكرة هائلة . إلا أن أسماء المسافرين العابرين من هذه النقاط تكون عادة بالمئات . وأكثرها يتكرر . لأن معظمهم مسافرون من الرطبة إلى بيروت عبر هذه النقاط بالذات . ولكن الفكرة هائلة . وممكنة . ممكنة جداً ... سؤال واحد ، يا ابراهيم . لماذا يختطفون وليد ، في رأيك ؟ »

فقلت : « لأنه كان بالتأكيد عضواً نشيطاً في منظمة فدائية وأنا أعرف ذلك . قبل ذلك بعدة أعوام ، اعتقلوه ببيت لحم ثم أبعدوه من

الضفة الغربية ، وكان له نشاط يعود إلى ما قبل ١٩٤٨ . »

دفعت مريم شعرها المسترسل عن وجهها ، وقالت : « هذا صحيح . كلنا نعرف ذلك الآن . »

قلت : « هذا ، إذا كان المختطفون من عملاء العدو . أمّا إذا كانوا أعداء ، أو غرماء لوليد ، ينفذون خطة لغرض في أنفسهم ، فإن وليد لم يكن ينقصه الأعداء – مهما يكن السبب . »

فقالت مريم : « قد تبدو قصتك مقنعة ، ولكنني لا اصدّقها . آسفة يا ابراهيم . لا اصدق كلمة واحدة منها . »

فنظرت في عينيها الجميلتين . « طبعاً . لأنك تصرّين على أنه ما زال حياً . »

– « جداً ! »

يا لهذه المخلوقة الرائعة الصعبة ! أما زالت تحبّه ، على طريقتها ؟ فلنجتمع ، في الأقل ، على ذلك الحب كلانا !

أردفت مريم : « كلكم تعرفونه معرفة جيدة ، ومع هذا تتوصلون إلى نتيجة لا يمكن أن تنسجم مع ما تعرفونه عنه . حتى الشريط الذي سمعناه قبل أيام في داركم ، يا عامر ، إذا لم يكن تركيبة ، أو خدعة من شيطان ماكر ، فإنه لا يوحي إلا بعكس ما ترون . »

قال عامر : « الشريط ؟ إذا أردت رأيي الصريح ، فإني جعلت أشعر انه يدل على جنون وليد عندما سجّله . وفي هذا انا أتفق مع طارق رؤوف ، ولا يهمّني أعقدة الأم أو غير عقدة الأم ظاهرة فيه : الجنون أظهر . »

قلت : « أهذا اذن ما يعتقده الآن طارق ؟ ألم يكن هو – وكذلك كاظم – آخر من رآه ؟ ولكن لا طارق ولا كاظم قال انه لمح جنوناً

على وليد عندما رأياه في الرطبة . كان يبدو ضاـ ، هكذا يقولان . وأنا أصلاً ، حتى الآن ، لم أفرغ من دهشتي من انهما التقيا به هناك، في تلك الليلة بالذات ... »

وهنا انفجرت ضحكة غريبة من فم عامر : « لن يبقى إلا أن تقول انهما هما اللذان اختطفاه ! »

تقصدت ألا أجيب ، وجواد يقول : « مستحيل ، مستحيل ! »

قلت : « حتى لو كانت هناك دوافع لا نعرفها ؟ »

وبادرتني عندها مريم بنظرة خضراء ، نافذة ، زاجرة : « ابراهيم ! أخذت تهذي ! أي دوافع يمكن أن تكون هناك ؟ وكلهم أصدقاء ... أوه . سيأخذنا الوهم في متاهات رهيبة ، إن لم ننتبه . »

قامت واتجهت نحو الكتب . وأخذت تقرأ العناوين بصوت مرتفع . وكتبي لم تُرتَّب يوماً وفق أي تصنيف : تختلط العربية منها بالانكليزية، ولا يعرف أحد مكان أي كتاب في المكتبة كلها إلاّ أنا . قرأت مريم مزيجاً من العناوين ، ثم ادارت ظهرها اليها ، وقالت ، موجهة الكلام إليّ (عليّ بالمزيد ، أيتها الحبيبة !) : المرء حصيلة ثقافته . أتوافق ؟ »

استغربت سؤالها . ولكنني أجبت : « أوافق . »

— « أي أن فكر المرء هو حصيلة ما يقرأه ، وما يغذي معارفه ، ويشحن تأملاته ؟ »

— « صحّ »

— « قياساً على كتبك هذه . ثقافتك التي أنت حصيلتها . لا صلة لها بالطبقة ، ولا بالأرض ... اذن انت لا صلة لك — »

– « كفى ! كفى ! سيأخذني وهمك في متاهات رهيبة ان لم أنتبه، كما قلت . ستجعلينني بعد لحظتين من أهل المرّيخ – أنا الذي لم أستطع يوماً أن أقشط طين دجلة عن قدميّ ... »

وضحك الجميع ، وكان أصخبهم ضحكاً سوسن : « جاءك أخيراً من لا تقدر عليه ! »

تريثت مريم الى أن خفّ الضجيج ، ثم قالت : « كنا هذا الصباح في جدل حول هذا مع بعض الأساتذة . المقولة تزداد رواجاً يوماً بعد يوم ، لأنها تلذّ للجهاة ، وهم والحمد لله في ازدياد يوماً بعد يوم . المقولة مبنية على ما يبدو في الظاهر أنه سيرورة منطقية : المرء حصيلة ثقافته . وبما ان الثقافة مصدرها اليوم الكتب الغربية ، أو الجامعة بمناهجها العلمية التي مصدرها الحقيقي هو أيضاً الغرب ، اذن فالمثقف حصيلة غربية – أي أنه ، لا صلة لفكره في أعماقه بطبقته وأرضه ، الخ . »

فقاطعها جواد : « وإذا كان مثقفاً ثقافة عربية دينية تقليدية ؟ »

أجبته أنا : « سيقولون ، ولا ريب ، انه هو أيضاً حصيلة رجعية ، حصيلة فكر سلفي مثالي يستنكف عن الطبقة والأرض ... »

قالت هالة : « والنتيجة اذن ؟ »

فأجابت مريم بدهاء : « نتيجة هذا المنطق ان الثقافة هي تقطيع لصلات الانسان بطبقته وأرضه . أي انها نوع من الخيانة . أي ان كتبك هذه، يا ابراهيم الحاج نوفل ، ايها المفكر ، الناقد ، الغاضب ، ما هي إلاّ وباء خياني ! »

فصحت : « لنحرقها اذن ! » ورفعت كأسي : « ولنشرب نخب المحرقة الكبرى القادمة ، يوم يصبح اللامثقفون الوطنيين الوحيدين ! »

ضحك عامر ، ورفع كأسه وأخذ جرعة كبيرة ، ثم مسح شفتيه

بلسانه : « أنتم الذين تعيشون بالقلم والكتاب ، لكم فعلاً أن تخافوا هذا . »

فنفخ جواد الدخان من غليونه : « هراء ، عامر ، هراء . »

فاسترسل عامر : « ما عليّ إلا أن أنبهكم . كلام كهذا كثيراً ما كان يثار بيني وبين وليد ، كلما أراد نشر كتاب جديد . كنت أقول : أنتم الذين تصرّون على أن تعيشوا بالكلمة ، عليكم أن تتحسّبوا . أما أنا ، ففي مأمن من ذلك كله . »

قال جواد : « لأنك لا تكتب ؟ »

— « بالضبط . أنا لا أكتب ، لا أعبّر عن آرائي على ورق . أنتم تناطحون أرباب الجهل ، وقد يحرقون يوماً كتبكم ، ولعلهم يحرقونكم أنتم أيضاً على أكوام منها . أما أنا فأراوغهم . أنا أعمل فقط . أعمل باستمرار . وأرتب علاقات عمل . ابني عمارات . اقيم مباني حكم ، مباني برلمانات — زائفة أو غير زائفة ، لا يهمني . اخطط مزارع لتفريخ الدجاج ، أو تناسل الأبقار . أقيم بالمئات مباني المدارس التي قد تتباهى يوماً بأنها ترفض كتب الحضارة لأنها لم تكتبها هي . وفي هذه الأثناء : تتدفق النقود عليّ من كل ناحية . وبهذه النقود أتمتع كما تشاء لي ثقافتي ، ولتكن حصيلة ثقافات الشياطين كلها — دون أن أتحدث عنها لأحد . على طريقتي الباطنية ! ولن يتعرّض لي ناقد ، لأن النقاد مشغولون عني بكم . أنتم أهل القلم والكلمة ، وهم أصلاً لا يفهمون معنى حقيقاً لما أبنيه أو ما أقيمه . أما أنتم ، فكان الله بعونكم . ستكونون الكفَرة الجدد ! وككل الكفرة ، سيطردونكم ويشرّدونكم ، ويحرقونكم ، وجيوبكم خاوية خواء بطونكم ؟ شهداء الحضارة ، كما كان يقول وليد؟ لا شك . ما اختلفنا . ولكن ما نفع الشهيد لنفسه ، وقد حُرم ما كان به يتغنّى ؟ ها ! ها ! ها ! ها ! »

قمت وصببت له كأساً أخرى من الكونياك ، قائلاً : « ما كنت أتصورك متشائماً الى هذ الحد ! »

أخذ الكأس من يدي ، « متشائم ؟ أنا ؟ العياذ بالله ! » واستدار نحو جواد . « هل أنا متشائم يا جواد ؟ أنا لا أعرف معنى لهذه الكلمة ، سوى ما أسمعه من الناس — فلا أفهم ماذا يقصدون ، بالضبط . »

فوجهت سؤالي إلى زوجته بالانكليزية : « آن ، ألا تعتقدين أن عامر متشائم ؟ »

فأجابت : « لا أظن . عامر ، فيتاليست ، قدري . يؤمن بكل شيء . »

ولم تستطع مريم ضبط نفسها . « تقصدين ، لا يؤمن بأي شيء . »

فضحكت آن : « هل من فرق ؟ »

وردّت مريم مع كركرة بديعة من الحلق : « أبداً ، ما من فرق . رغم كل ما قد يقوله جواد ، أو ابراهيم . »

وقمت لأملأ الكأس لمريم ، لكنها أبعدت كأسها شاكرة، وأنا أقول : « أنا تعلمت درسي منذ زمان . صديقنا كاظم اسماعيل ، بالحاح من وليد ، جميع مقالاته تحت عنوان « وقت للتحدّي » — أعتقد أنه حوّر العبارة عن أبيات للشاعر اليوت . ولما ألحّ عليّ وليد بأن أجمع مقالاتي أنا أيضاً في كتاب ، قلت له : وما حاجة المجتمع إلى كتاب آخر لن يقرأه ؟ فقال : ولكن الذئاب بحاجة إلى فريسة ! أنبقيها تتضور جوعاً ؟ أسألكم بالله ! يريدني فريسة ! فقلت له : ألهذا السبب رحت تحث كاظم على نشر كتابه ؟ فضحك ، ثم قال : ألا ترى أن الأحداث غدت من الضخامة ، بحيث قزّمت كل مواهبنا ازاءها ؟ فواجعنا ما عادت قابلة للكلمة . سحقت الكلمات كلّها ...

ولذا ، يا عامر ، سأقتدي بك . »

فانبرت إليّ سوسن : « أنت تقتدي بعامر -يا ابراهيم ؟ أنت الذي لا تستطيع أن تكفّ عن الكلمات لحظة واحدة ؟ لا أصدقك ! »

مصيبتي أن سوسن ، مهما ابتعدت عنها ، تثير جزءاً خفياً ، مظلماً في أعماقي . فقلت : « نعم سوسن . لن أكتب بعد اليوم . ولكن سأسجل ما أريد قوله على كاسيتات . فليسمع من عنده الصبر والجلد . أما أن أملأ الصفحات لتكون تحت يد كل عاهر يتستّر على عهره على حسابي — لا ... »

فقالت سوسن : « الرسم أسلم . »

ولكن جواد تناول زجاجة الكونياك ليصب منها في كأسه ، وهو يقول : « لا الذئاب ولا غير الذئاب ستثنيني عن الكتاب الذي أكتبه ! »

وخرج عامر عن صمته ، كعادته ، ليكفر : « يا جماعة ، والله لا أزال أعتقد أنكم لو تتعلمون الغناء ... أو هزّ البطن ... »

قلت : « فات الأوان ، فات الأوان . »

وترجمنا لزوجة عامر خلاصة ما قلناه ، وضحكنا جميعاً . وبدا أن سوسن تزداد فتنة كلما تقدم الليل . وازداد الكل بهجة وحبوراً . وكلما تقدمت الحيرة بنا ازداد اليقين .

كنت أحذر الإسراف في ما أشرب لكي أبقي على وعيي ومنطقي ازاء مريم ، لأنني صممت على مفاتحتها بما يعتلج في صدري والذي قد يفضحني يوماً على غير ما أشتهي . ولذا حين نهضوا جميعاً ليخرجوا الى سياراتهم ، ورافقتهم الى الطريق لأودعهم واحداً واحداً ، أخذت مريم جانباً من ذراعها برفق خلف سيارتها لكي لا تسمعني سوسن . وهمست لها :

— « مريم ، أتتزوجينني ؟ »

لم تندهش الظالمة ولو لثانية واحدة . بل ضحكت ضحكتها الآسرة ، وربتت على خدّي كأنني طفلها المحبب ، وكوّرت شفتيها نحوي بقبلة موهومة ، وبحلاوة لاذعة قالت : « في يوم آخر يا ابراهيم ، في يوم آخر ! تصبح على خير ! »

تصبحون على خير ، جميعاً ، تصبحون على خير !

لقد طلع الفجر .

الفجر ؟ انها عوراء البارحة ، الشمس ! وهذه ثلاث كاسيتات قد امتلأت بصوتي . من له الصبر والجلد ، فليسمعها . والله لن أخطّ منها كلمة واحدة على الورق .

(١٢)

د. جواد حسني يعد بالمزيد

بعد أن يقول الاشخاص ما يقولونه ، بعد أن يبرزوا عن تصميم أو غير تصميم ما يبرزونه ، ويخفون عن تصميم أو غير تصميم ما يخفونه ، يبقى لنا أن نتساءل : عمّن هم في الحقيقة يتحدثون ؟ عن رجل شغل في وقت ما عواطفهم وأذهانهم ، أم عن انفسهم ، عـن اوهامهم واحباطاتهم واشكالات حياتهم؟ هلّ هم المرآة وهو الوجه الذي يطل من أعماقها ، أم أنه هو المرآة ووجوههم تتصاعد من اعماقها كما ربما هم انفسهم لا يعرفونها ؟

تتنامى الاحداث دونما وقفة كما تتنامى الفسائل في ارض سديمية تتعاقب عليها الامطار والشموس ، فتكبر وتتداخل وتتكاثف ، وإذا هي غابة لا تخترق الاّ في مواضع . الاشجار والادغال سامقة ، يلتف بعضها عـلى بعض ، والبحث سير عسير من خلالهـا . ولا نكاد نشق طريقنا إلى الطرف الآخر من هذا العالم المكتظّ حتى ندرك اننا ، من هذا الاتساع كله ، لم نستضيء الاّ بفسحة هنا واخرى هناك ، وما طريقنا الا طريق التيه . نتفحص الافـق ، نتلفت ذات اليمين وذات الشمال ، نعود القهقرى ، نستدير مرة اخرى ، نتمعن في المعـالم والرموز ، نستقرىء الآثار : انها غابة من براءة وطيش ، من ايمان وخديعة ، من فعل ولا فعل ، من قاتل ومقتول — العدو مـن امامكم ، البحر من ورائكم ،

ونحن إذ نخترقها حيثما يتسنى اختراقها ، نحملها ايضاً معنا ، في اصوات حناجرنا ، في احلام ليلنا ونهارنا نأكل منها في خبزنـا ونشرب منها في مائنا .

وأنا ، إلى ذلك ، لم اخض في بحر الاوراق التي تملأ مكتبي بهديرها الصامت . من الغابة إلى البحر ! السفر في كليهما ، كالسفر داخل المرايا ، مثير ، ومليء بالشراك . ولئن كنت لاكثر من سنة حملت معي الغابة ، فانني الآن احمل البحر ايضاً . لا أنام الاّ وانا مر ق ، في ساعة متأخرة ، وهالة تحذرني من التعود على حبوب النوم . غير انها لا تعلم أن سعيي في العودة بالمركّبات إلى اولياتها ، ومضاهاة الجزء بالجزء ، وتحديد الفجوات ، والتفتيش عن الضائعات التي قد تملأها ، وكشف الثنايا المتواشجة بدلائلها الشحيحة الظاهرة ، والنفاذ اخيراً إلى تلك المنطقة السحيقة المحكمة السدّ في الداخل ، حيث تفعل الدوافع دؤوبة كما يفعل النحل دؤوباً في خلاياه — هذه كلها قد باتت ادماني الخفي الذي هو لذتي الحقيقية ، والذي أعجز عن التواصل به مع أحد ، كلما دخلت مكتبي بمفردي ، وأغلقت بابها عليّ دون عائلتي ، دون اصدقائي ، دون الناس كلهم . يتوحّد الكون في غرفة صغيرة ، مكتظة اكتظاظ الغابة ، مائجة موج البحر ، وأتوحد أنا فيه . فاتّقد وانقذف وأتهاوى في فضاءات مدومة كقطعة من الشمس انتشرت عنها ، وتطوحت في فضاءات كون مجهول راعب ، رائع . ولا استطيع أن افصح عن شيء مـن ذلك الاّ بعبارة عاجزة هنا ، وعبارة أعجز هناك .

ولكن الذي لا بد منه في النهاية هو أن أضع شيئاً من ذلك كله ، مهما ضؤل ، في كلمات . ومتى كانت الكلمات نثاراً من عصف ، مـن لهيب ، نشوة ، كتلك التي تأتيني في غيبوبات تتقاذفني ، تحطّمني لتعيد تركيبي من جديد ، فتحطمني مرة اخرى ، لتركّبني بعدها ، إلى مـا

لا نهاية ؟ لو كنت موسيقياً ، لهان الامر عليّ نسبياً . ولكن ليس لي من عدة الا الكلمات .

وهل كان ذلك كله بسبب من تأملي في حياة وليد مسعود ؟ ألست مغالياً فيما اذهب اليه ؟ منطقياً ، ربما أنا مغال . اما واقعياً ، حياتياً ، فلا احسبني كذلك . ومتى كانت حياتي أو حياة أي انسان أعرفه ، منطقية الا في الاجزاء الاقل أهمية منها ؟

في الاشهر الاخيرة تحققت امور معينة ، ولن أجازف بالرأي فيما إذا كانت بعضاً من المنطق أو اللامنطق في حياة الذين أعرفهم . فلنقل انها خليط من هذا وذاك .

كان ابراهيم الحاج نوفل قد أطلق لحيته زمناً ، فطالت جداً ، حتى غدا بسببها يشبه الغورو الهندي ، يوحي بقوى نفسية خارقة تتبدى في عينيه الساطعتين وسط وجه اختفى معظمه بشعر كث امتزج البياض بالسواد فيه بفوضى هيولية . وفجأة حلق لحيته ، وبان وجهه مستديراً عادياً ، مسلوباً من كل قوة . بعدها أطلق شاربه زمناً ، وحفّه ، ولما وجد انه أضاف إلى وجهه « حلاوة مائعة » ، حلقه . ثم عاد وأطلقه ثانية ، وجعله يتهدل على شفتيه العليا ، وانزله على جانبي فمه حتى ذقنه ، فبان جهماً ، صارماً ، حتى الضحكة منه تبدو جهمة وصارمة . وهو إذ يحمل هذا الوجه الجديد ، تزوج سوسن عبد الهادي . بعد ليلة صاخبة في بيتنا ، حدثني فيها عن شقائه بصدد مريم الصفار ، في المساء التالي بالضبط كنت أحد الشاهدين على عقد قرانه على سوسن بنت عبد الهادي محمد ، الثيّب ، إلى آخره ، إلى آخره .

وبعد يومين أو ثلاثة كنّا أنا و ... مريم نفسها في المطار الدولي ، نودع العروسين الذاهبين إلى روما فلندن . قطعاً لن احاول أن اصف مشاعر مريم أو مشاعر ابراهيم أو مشاعر سوسن ، في تلك اللحظات ،

وهذا يقبّل تلك ، وتلك تقبل هذه . على رصيف المطار . كانت سوسن تبكي ، رأيت عينيهـا مليئتين بالدموع . وكذلك مريم – هـي ايضاً كانت عيناها فائضتين . ابراهيم كان يضحك ضحكاً غريباً . وقـال . دونما سياق : « تصوروا لو انني فجأة اصطدمت بوليد في إحدى طرقات روما ؟ ها ، جواد ؟ » قلت : « محتمل جداً » واردفت مغيراً الموضوع : « اعتن بسوسن ، دلّلها . » فقال : « من اجلها سنذهب إلى فلورنسا . وسنبحث عن رسوم اندريا مانتينيا . » فصحّحته سوسن : « وإلى البندقية ، وبادوا ومانتوا وميلانو ... » كانت نضرة ، ريّانة ، ودموعها لم تزدها الاّ نضارة وريّاً – الفاكهة الندية التي اراد ابراهيم التلويح بها أمام أنفي، ثم اقتطفها لنفسه !

اما مريم فقد حبست دموعها بسرعة . توارى العروسان بين جموع المسافرين ، والتفتت مريم إليّ وقالت : « أفضل ما فعل ابراهيم في حياته أنه تزوج سوسن . »

فقلت بشيء من المكر : « ارجو أن يكون افضل ما فعلت سوسن ايضاً أنها تزوجت ابراهيم . »

تمتمت مريم : « سنرى ، سنرى . » وتلفتت حولها .

سألتها : « أين سيارتك ؟ »

– « عاطلة في البيت . جئت بسيارة أجرة . »

– « تفضلي معي ، اذن . »

وسرنا في اتجاه سيارتي ، صامتين ، وانـا محرج بعض الشيء . في السيارة بدت مريم متوترة ، رغم محاولتها بان توحي إليّ بانها تخلصت من عبء كان يرهقها . قلت وانا اسرع في الطريق الطويـل الخالي : « والآن ، عودة إلى الدوامة نفسها . »

أزجت إليّ نظرة طويلة صامتة ، أحسست بها دون أن التفت التفاتة

كاملة . واخيراً قالت : « هل أنت ايضاً في الدوامة ؟ »

قلت مازحاً ، وأنا اضغط على زر المسجّلة ، فينطلق صوت فيروز في موشح بديع : « إلى حد ما ، إلى حد ما . » ثم اضفت ، يدفعني دافع عجزتُ عن وقفه : « حدثني ابراهيم الكثير عنك . »

— « هه ؟ »

— « تعرفين ابراهيم . فهو لا يستطيع أن يمسك لسانه عن دواخله . »

— « ماذا اقول أنا اذن ؟ »

— « عن ابراهيم ؟ »

— « عن ... اوه ، عن كل شيء . الحياة مرهقة يا جواد . ماذا تريد مني هذه الحياة ؟ لماذا لا نقف عند نقطة رائعة منها ، وعندها نكفّ عن السير إلى الابد ؟ »

كان صوت فيروز مثيراً للشجن ، للحنين ، للذّة . قلت : « اتعرفين قصة الحلاّج مع الموسيقى ؟ »

— « لا . »

— « يقال إن احد مريدي الحلاّج سمع صوت الناي قادماً من بعيد . فسأل استاذه : ما ذلك الصوت يا مولاي ؟ فاجاب الحلاّج : أنه صوت الشيطان وهو ينوح على دمار العالم الذي يتمنى لو يستطيع انقاذة . والشيطان ينوح ، قال الحلاّج ، لأن كل شيء إلى زوال ، وهو يودّ لو يعيد الحياة إلى كل شيء مضى ... ولكن البقاء ليس الاّ لله وحده . »

— « إذن ، جواد ، اعتبرني من بنات الشيطان ، انوح على دمار عالم لا استطيع انقاذه . واحاول أن اعيد الحياة اليه كل يوم . مثل هذه المسجّلة . تضغط على الزر فتعيد الحياة إلى هذه الانغام اللذيذة كلها »

فضحكت : « مريم ، أنتِ بوسعك أن تسجّلي نغماً جديداً كل يوم . »

فرفعت كفها على عينها دهشة ، ثم دستها في شعرها المتطاير حول وجهها : « أأنت ايضاً يا جواد ! وأنت النائح الآخر على دمار العالم ، تكتب كتاباً عن رجل كان ، ثم مضى ! »

صدرت عني تنهدة عميقة وأنا أقول : « كلنا من نفس العشيرة . فيما يبدو . »

ولمحتها تلقي بظهرها على ظهر المقعد باسترخاء تام ، وتتكيء بكوعها الأيمن على نافذة السيارة المفتوحة : « تجربة واحدة عميقة تلغي المستقبل كله ... سأخبرك يوماً بكل شيء . »

في هذه الاثناء كادت القطيعة تصبح تامة بين ابراهيم وكاظم اسماعيل ، بعد صداقة طويلة جداً ، ومضطربة جداً . ولولا أن السنين لطفت الكثير من حدة كاظم القديمة في غضباته ، لربما وجد ابراهيم نفسه يواجه صديقاً ينقلب عليه لا باللفظ فقط ، بل بالضرب . فقد سمع كاظم (على الارجح من عامر عبد الحميد) التأويل المشين بحقه وحق طارق ، الذي اوحى به ابراهيم اكثر من مرة ، للقاء الصدفة بينهما وبين وليد في الرطبة عشية اختفائه ، وجاءني هائجاً على نحو لم اكن اتصور أن له قبلاً بمثله

« أيجعل مني هذا السكير المهووس مختطفاً ، وقاتلاً لرجل كانت لي معه علاقة أخوة لسنوات طوال ؟ ... » هكذا انفجر في بيتنا . وانا أحاول أن اخفف عنه . « لم أنم لحظة واحدة أمس . لا والله . كيف يستطيع أن يتهمني ولو ضمناً بعمل حقير كهذا ؟ حتى لو خطرت له الفكرة الحمقاء في ساعة مخمورة ، لكان شرفه يقتضي أن يقتلها في دخيلته حالاً ... ما الذي كان بيني وبين وليد حتى تذهب به الظنون مذهباً كهذا ؟ حتى اعتداء وليد علي في تلك الليلة الماطرة — اتذكرها يا

جواد ؟ – قبل سنوات وسنوات – ألم أغفره له ؟ ألم اكتب عنه مقالاً سيبقى من افضل ما كتب عنه تلك الأيام ؟ أم أن ابراهيم تزعزع من اساسه بتعلقه بسوسن ، هذه المسكينة المخدوعة بذوي اللحى ، وتصور أنني انافسه فيها ؟ يا أخي ... متى نافست احداً في امرأة ؟ ما هذا التشنيع ، ما هذه الحقارة ؟ ... »

واستمر على هذه المشاكلة ساعة أو اكثر

كان بؤسه لا يوصف . كان بؤساً معقداً رأيته في تلك اللحظات كمن يطارَد حتى اللهاث الاخير ، ثم يسقط وفي حلقه صيحة اليأس الاخيرة . قبل ذلك ببضعة أيام كان قد نزل إلى السوق كتابه الجديد « وقت للتحدّي » الذي جمع فيه مجموعة مقالات اختارها من خير ما كتب في الاعوام الاخيرة ، وهو كتابه الثاني (أصدر الاول في اواسط الخمسينات) . وإذا إحدى المجلات اللبنانية تنقد عمله الذي اعتبره خلاصة لأهم افكار حياته ، نقداً ساخراً ، موجعاً ، بتوقيع غير معروف ، وأقسم كاظم أن صاحبه ليس الاّ ابراهيم الحاج نوفل متنكراً وراء اسم مستعار . لم اذكر له ، طبعاً ، أن ذلك التجريح أعاد إلى ذهني تهجّمه هو على كل كتاب وليد مسعود قبل خمس عشرة سنة . بل أكدّتُ له أن كتابه مهم ، وسيلقى تحبيذاً ، وستكتب فيه دراسات منصفة وجادّة ، وتبرز دوره الرائد في الكثير من قضايا الادب ، والثقافة ، الخ . واكدت له في الوقت نفسه أن ابراهيم لم يكن يعني كل ما يتصور كاظم أنه يعنيه ، وأن هذه العاصفة سوف تتبدد قريباً ، ولا يبقى الاّ الجوهر القديم – جوهر العلاقة الاصلية الحميمة ... إلى آخر ما هناك مما استطعت أن اتذرع به تجاه بؤسه ، وسخطه .

ثم قلت : « كاظم ، فاجأتني بكل هذا ، ولم تدع لي المجال لكي اهنئك . »

وانفرجت شفتاه عن اسنانه بما يشبه التكشيرة اكثر من الابتسام .

— « أسمعت الخبر اذن ؟ »

— « قرأته في الجريدة هذا الصباح ... اخيراً ، أصبحت مديـ
عاماً ! »

— « نعم ، بعد خراب البصرة . »

— « انه تقدير لجهودك ، مهما جاء متأخراً . »

— « صدور كتابي أهمّ »

— « هكذا أنت ، دائماً ! لا ترضى عن شيء ! »

— « أرجو الاّ يشاغب كتابي على وظيفتي الآن ... ولكن عليّ الا أجانب الحق . إن يكن لتعييني الجديدة اية قيمة ، فهي أنه جاء ، لاول مرة في حياتي ، مؤقتاً توقيتاً جيّداً . »

— « مع ماذا ؟ »

— « مع زواجي . »

قالها بأقل ما يستطيع المرء من إثارة ، أو فرح . بل قالها بمزيج م الحزن والتفكّه . اما انا فذهلت . « زواجك ؟ متى بمن ؟ ؟ ما ها التكتّم على رفيقك القديم يا كاظم ؟ أمن وراء ظهري رحت ... »

بقي ينظر اليّ بمزيج حزنه وتفكهه ، ولا يجيب ، كأنما بؤسه يجـ الا يتزحزح عن صدره .

— « تكلم يا رجل ! من هي المحظوظة السعيدة ، المنكوبة ؟ »

وتحولت التكشيرة بغتة الى ضحكة من الحلق . « المنكوبة يا جواد جنان . جنان الثامر . »

— « هائل ! انت هائل ! لمــاذا لم تفعلها من قبل ؟ ولو انـ سأصارحك : لم أكن اعتقد ان بينكما أي شبه ... »

– « وهل الشبه ضروري ؟ »

فقلت متفلسفاً : « لا ، الحب هو المهم . »

– « وهل الحب ضروري ؟ »

– لا تشخّنها يا كاظم ! طبعاً الحب ضروري . ألم تحبها ؟ ألا تحبها ؟ »

– « الآن أحبها ، نعم . »

– « جنان مـلأى بالحيوية . ستعيد لك شبابك يا كاظم ، فكفاك بؤساً . »

– « كل شيء يتوقف على جنان . »

– « وعليك أنت . اجعل لنفسك قدوة من ابراهيم ، عدوك الحميم ! »

– « لا تذكر اسمه امامي ، ارجوك . »

– « طيب ، طيب . ألن تطلب اليّ أن أكون احد شهود القران ؟ »

– « طبعاً ، جواد . وهل لي غنى عنك ؟ »

نهضت ، وناديت هالة ، أزفّ اليهـا النبأ . فأطلقت من حنجرتها الصافية هلهولة بديعة تعلمتها عن امها . ثم قالت : « الحمد لله ! أقنعتك سميرة أخيراً ! »

غير أنه اجاب : « هذه المرة كان عليّ أنا ان أقنـع سميرة ! بالله يا هالة ، هلاّ اعطيتني درساً أو درسين في فهم أسرار النساء ؟ »

فقهقهتْ عالياً ، « ماذا ، اتظنني خائنة لجنسي ؟ »

اما انا فصحت : « سنشرب عليها يا جماعة ! نخب زواجك ونخب اسرار النساء ! »

منطق ؟ لا منطق ؟ خليط من الاثنين ، تتقبله مرغمـاً أو راضياً عندما تعرف الحقائق ، والخلفيات ، والنوازع .

ولكنني كلما أردت العودة الى المحور الحقيقي لكل هـذه الأحداث (ماذا كان وليد ليقول لو علم بهذا الزواج ؟ عاقتني القضايا الجانبية . واني لأذكر هذه الساعة قول ذلك الكاتب الذي مات شاباً من العشق : « أعظم السحرة هو ذاك الذي يكـون مستعداً لأن يَرْقى نفسه بالسحر الى حدّ يعتبر عنده مخلوقات خياله اطيافاً لها ارادتها الذاتية . أليس من الممكن ان تكون هذه حالتنا ؟ » هل رَقيْتُ نفسي في الاتجاه الآخر، حتى جعلت أرى الاناس الحقيقيين الذين أعاشرهم كل يوم وكأنهم تحولوا الى أطياف من خلق خيالي، فلا أفرّق بين اراداتهم الذاتية وإرادتي أنا؟ أليس من الممكن ان تكون هذه حالتي ؟

بعد زواج كاظم بأيام قلائل قررت إقامة حفلة عشاء كبيرة في دارنا على شرفه ، دعوت اليها ، فيمن دعوت ، عـامر عبد الحميد وآن ، وطارق وسميرة ، ووصال .

وصال ، حين دعوتها تلفونياً ، أجابتني دون تردد بأنها تعتذر عن المجيء ، دون ذكر أي سبب . غير أنها يوم الحفلة ، قبل موعدهـا بساعة او اثنتين ، ونحن في غمرة اللمسات الأخيرة من تهيئتها، خابرتنا، ولاحظت زوجتي بشيء من الدهشة ان وصال طلبت الحديث اليّ أنا

— « هل بامكاني أن آتي لحفلتكم هذا المساء ؟ »

— « طبعاً ، طبعاً . ستتشرف . انت أصلاً مدعوة منذ اليوم الأول.»

— « ولكن ، دكتور جواد ، هل تعتقد أنه سيتاح لي ان أتحدث اليك على انفراد ؟ »

— « لم لا ؟ »

— « شكراً . »

— « هل تعرفين اين منزلنا في حي الجامعة ؟ »

– « سأجيء برفقة طارق ، لكي لا أضيع . »

جاءت ، ولكنها كانت ضائعة بين المدعوين الكثار . ولأن بيتنا صغير ، لم أتمكن من الانفراد بها ، غير أنني استطعت أن اهمس لها في غفلة من الآخرين : « لم لا تأتين الينا في يوم آخر ؟ »

ولم تضيع وقتاً كثيراً . تلفنت بعد يومين اثنين تستأذن المجيء عصراً، فرحبت بها . وقلت لهالة : « وصال رؤوف تريد مراجعتي بأمر يهمها . وسنجلس في المكتبة وحدنا . »

لم يرق لها ما قلت ، وهزّت عطفها وهي تقول : « آه ، هؤلاء الشابات المسكينات ! مشاكلهن لا تنتهي ! لا بأس ، على ان تعطيني تقريراً مفصلاً فيما بعد . »

جاءت وصال بسيارتها الصغيرة ، وهي تلبس بنطلوناً من الجينز الأزرق ، وقميصاً أسود مفتوحاً عند العنق ، يكشف عن قلادة ذهبية ناعمة يتوسطها قرآن من الذهب . أول ما نطقت به ، حالما أغلقت باب المكتبة ، وأنا بعد لم استقر إزاءها على الطرف الآخر من القنفة ، كان « وليد حي ! وليد حيّ يرزق ! »

– « متأكدة ؟ »

– « مئة بالمئة . »

تريثت قليلاً . أردت أن يهدأ اضطرابها . يداها الصغيرتان كانتا ترتجفان . أشعلت لها سيكارة وتبينت ان شفتها ، وراء حمرتها، جافتان. فسألتها : « هل رأيته ؟ »

– « طبعاً لا . انه في الأرض المحتلة باسم آخر . ربما بشكل آخر. ولا أظن احداً يعرف أين هو بالضبط . »

– « كيف عرفت ذلك ؟ لماذا لا يرسل خبراً الى أحد، بطريقةما ؟ »

— « هذه مصيبتي ، دكتور جواد . وأنا اريد اللحاق به . »

كدت أقفز من مقعدي « ماذا ؟ تلحقين به ؟ »

— « نعم ، نعم . اذا كان يسكن كهفاً ، سكنت الكهف معه.. »

— « وصال ، هذه خيالات رائعة . رومانتيكيات . ولكن ألا ترين أن المسألة كلها ، اذا كان وليد حقاً على قيـد الحياة ، مسألة رفض كامل . مسألة انكار للذات ، مسألة ... »

راحت تضرب بمجموع يدها على ركبتهـا ، حيث ازرق البنطلون أخذ يضرب الى البياض . « أدري ، أدري . فعلها يوماً في صغره ، فلم يفعلها اليوم في كبره . ولكنه في صغره لم يكن له من يريده — »

— « كانت هناك أمه ، اخوته ، أبوه المهاجر . »

— « دكتور جواد ، الا تعلم أن المرء لا يحقّق ذاته الاّ عندما ينفصل عن امه وأبيه واخوته ؟ »

وخطر لي أنها ما زالت تعيش في كنف أمها وابيها واخوتها . ولعلها أدركت مـا خطر لي ، بـل كدت ارى ذلك في اضطراب عينيها الواسعتين . غير انها ، بعد وقفة قصيرة مرتبكة ، استمرت : « وليد يريد أن يقاتل ، على طريقته . فلأكن معه . اقاتل إلى جانبه . »

— « ولكنك تقفزين إلى نتائج لا اعلم إن كان لديك مـا يبررها . كيف عرفت انه حيّ ، وفي فلسطين ؟ أنت لم تجيبيني بعد . »

أتتنا هالة بالقهوة ، و « اعتذرت » عن الجلوس معنا بأنها مشغولة بطبخ العشاء ، وخرجت بعد أن ألقت عليّ نظرة عجلى تقول : ما بها ؟

وراحت وصال في كلام كثير غير متماسك ، تصف فيه كيف اتصلت في عمّان بعيسى ناصر ، وفي بيروت بخالد أبو مطر ، وأسامـة حماد ،

وعبد الرحمن الناظر ، ووو ... اسماء عديدة لا اذكرها ، وكيف انهم كادوا يجمعون على استنتاج واحد ، وهو أن وليد اختفى عـن قصد ليضلل ملاحقيه ، لكي يستطيع أن يتحرك بحرية خلف خطوط العدو . « إنه يريد أن ينتقم لمقتل مروان . على طريقته ، على طريقته المجنونة العنيدة . ويوم يشعر بانه قد شفى غليله ، سيعود . سترى يا جواد . سيعود . حدست يوماً بانه قُتل . كنت أراه رؤيـة العين والرصاص ينصبّ في جسده ، وهو يتلوى ، ويتدحرج ، والرصاص يلاحقه . ولكنني الآن أحدس بأنه قهر الموت . لا تبتسم ، دكتور جواد . لست مجنونة ، ولا ساذجة إلى الحد الذي قد تتصور . انا احدس الآن بأنـه حيّ ، يذكركم جميعاً ، ويضحك . يذكرني ، ويضحك ، ثم يبكي . لأنه يعلم كم بكيت من أجله ... »

•

اردت ان انادي زوجتي لتدخل علينا وتؤكد لي أنني لست أحلم . فقدت سيطرتي على حواسي : إما انني في غيبوبة من الهلوسة ، ووصال استخرجتها برقية ساحر من بين أوراقي وكتبي – أو أن هـذه الحسناء الحسناء الشابة الشقية هي التي اشتدت بها الهلوسة حتى تمكنت من اقحامي في وهمها . أخذت أقتنع بقناعتها ، توفرت الأدلة أم لم تتوفر . ارضاء لرغبتها ، بل ربما ارضاء لرغبتي أنا . لم لا يكون وليد حيّـاً ؟ لمَ لا يعود ناسكاً في كهف ، أو مسافراً باسم غريب ، أو راهبـاً في دير ايطالي أو غير ايطالي – أحد تلك الأديرة الكثيرة التي طالما حدثني عنها؟ هناك ألف طريقة يعود بهـا الطائر الى وكره . ومن هناك ينطلق الى الفعل ، مهما يكن ، مع زملاء له كثيرين . فلتمطر السماء ماء ، فلتمطر السماء ناراً : انها لن ترهب رجلاً عبَر الماء ولم يغرق ، عبَر النار ولم

يحترق . أو انه ما عاد يرهبه أن يغرق أو يحترق . لم يعد كائناً حقيقياً، ربما حتى لنفسه : أما لوصال ، أما لشهد ، أما لعابرة الفرات على صهوة خيالها الفاجع ، فإنه الحقيقة الوحيدة المؤمنة عبر المسافات ، المنادية عبر الفلوات والوديان والجبال . وعلى صهوة خيالها الفاجع حملتني معها لحظات مذهلة . قلت : « كل شيء ممكن بخصوص هذا الرجل . كل شيء ممكن . . »

أخذت وجنتاها تحمرّان على نحو عجيب ، حتى خيّل إليّ انني أرى الدم وهو ينتشر وراء أهابها الشفاف ، كأن وردة بيضاء جعلت تتحول أمام عينيّ الى وردة بلون الشفق . كان وجهها أشبه بوردة كبيرة ، مستحيلة ، وشفتاها المنفرجتان المشدوهتان هما القلب اللاهب منها . ومن خلال لهاثهما قالت :

— « أنت معي اذن ، أنت معي !

لم أعرف ماذا أقول . جرفني السيل المتهاوي ، ولكنني فتحت عيني بشدة ، فتحتهما بشدة عضلية ، مقاوماً السقوط ، متشبثاً بواقع ما أراه أمامي من أثاث الغرفة ، من الكتب ، من الحديقة التي أراها خلال النافذة . ولم أفلح . بقيت على متن السيل المنطلق وفق مشيئته الداخلية ، مشيئة هذه الفتاة التي سلمت إرادتها لقوى زوبعية لا يتحكم بها إلاّ منطقها الخفيّ الخاص .

وكررت وصال : « أنت معي ، أنت معي ! لا تقل شيئاً أرجوك ! »

وفجأة وقفتُ على قدميّ . مسّني رعب خاطف ، رعب لعله لم يدم أكثر من ثانيتين اثنتين ، إذ شعرت أن ظلاّ كبيراً يهوي عليّ أشبه بجناحين أسودين ضخمين يحطان فوق رأسي ثم يرتفعان ويتلاشيان عبر

سقف الغرفة ، عبر سماء الحديقة . ووجدتني لغير ما سبب أفتح النافذة ، كأنني أستنجد بمنقذ قد يأتيني من الخارج . وعندما استدرت ، رأيت وصال ترقبني مشدوهة بعينين رائعتين ، وشفتين منفرجتين ، ونهداها يرتفعان وينخفضان بايقاع لهاث وئيد عميق .

« أنا معك ! » قلت . « ما كنت أتصور أن هناك من يعرف وليد مثلي . ولكنني كنت مخطئاً . أنت تعرفينه أكثر مني ، وأحسن مني ، وأعمق منّي ... »

بقيت ترقبني ووضعها لا يتغير ، وكأنها لم تسمعني . ركزت انتباهي في وجهها المشعّ وسط شعرها الفاحم ، في شكلها القوطي الرابض في طرف من المقعد ، في قميصها الأسود المفتوح العنق ، في القرآن الذي على صدرها ، في ذراعيها الذهبيتين العاريتين ، في حقيبتها الجلدية البيضاء، في بنطلونها الأزرق ، في حذائها الأحمر الكاشف عن أصابع قدميها ... ماذا تريد هذه المخلوقة الجميلة ، بعينيها العسليتين الكحيلتين ، من رجل ضمها يوماً إلى قلبه ، ثم وضعها عنه كما وضع عنه كل شيء آخر اقتناه أو أحبه ؟ وفجأة عاودني ذلك الخاطر القديم : لماذا لم يحدثني عنها وليد ؟ ما أكثر الناس والامور التي لم يحدثني عنها !

لحظات من وهج نوراني مذهل ، ثم انطفأ كل شيء ...

قدمت لها سيكارة ، وأشعلتها لها . عدت إلى مكاني ازاءها،واشعلت غليوني . التقطت حقيبتها بحزم ، وفتحتها . ثم رفعتها باتجاهي . « هنا أوراق كثيرة قد تهمّك . إذا أردت الاطلاع عليها يوماً ... »

قلت : « شكراً ، شكراً . »

وأخرجت عدة رزم من الأوراق المطوية ، ومجموعة كبيرة من أوراق زرقاء صغيرة متناسقة . « احفظها عندك . عدني إلا تقرأها — لمدة

طويلة . وإذا طلبت اليك يوماً أن تعيدها إليّ ...

— « فهمت ، وصال ، فهمت . لن أمسها إلا يــوم يكون لذلك ضرورة . »

رفعت إليّ عينيها الكحيلتين بنظرة امتنان عجيبة ثم أطفأت سيكارتها في المنفضة ، ونهضت . فناديت هالــة لتأتي وتودّعها . فأتت ، وهي تقول : « ما هذا يا وصال ! ألن تبقى للعشاء ؟ مــا هذه العجلة ! والله سأزعل . »

فضحكت وصال . « في المرة القادمة سأكون اجتماعية أكثر مما كنت اليوم ... وسأبقى للعشاء . لا شك أنه لذيذ ! »

ورافقناها أنا وزوجتي إلى سيارتها .

كانت تلك آخر مرة رأيناها فيهــا . بعد أيام ركبت الطــائرة إلى بيروت ، ولم تعد . ولم ادهش . بل كنت أتوقع ذلك : لقـد التحقت بجبهة فدائية . وجاءتني منها رسالة تذكر الجبهة التي التحقت بهـا . وأنا الآن في انتظار المزيد من أخبارها . وهل أقول ، وربما أخبار وليد ؟

ها أنا اليوم قد جمّعت أوراقي وهيــأت ملاحظاتي . وسأبدأ جاداً بدراستي . ترى هل سأبلغ نتيجة قطعية بشأن وليد ؟ هل ثمة نتيجة قطعية في أي حدث في الحياة ، دع عنك حياة إنسان كاملة ؟ عليّ أن أغربل الحقائق والمعطيات ، عليّ أن أعزل عنها التضليلات والتخرصات والأوهام ، عليّ أن أبلغ نهاية ليس فيها إلا أقل ما يمكن من التناقض . ولكنني ، حرصاً على مسؤولية الباحث ، لن أفعل ذلك . حتى التخرصات والأوهام حول رجلٍ ما لها أهميتها : وإلا فلماذا اختلقت ، ومن أين جــاءت ؟ هل الوقائع دائماً مادية ومحسوسة ومعقلنة ؟ أليس ثمــة في بعض الناس

قوة لا تعللها هذه الوقائع لأنها فيض ينابيع لا يحددهـــا تشريح ، أو فعل ، أو مكان ؟ القرائن لا تنسجم دائماً ، والتناقض قـــد يظهر في أدق الأجزاء . ولكن من قال إن أجزاء الحياة تتماسك منطقيـــاً وتناغمياً فيما بينها ؟ وحينما كانت الحياة صراعاً مستمراً ، وتحدياً مستمراً ، وحباً مستمراً — وهذه كلها تحتّم خلق العلاقات التي تتضارب فيما بينها — كان حاصل الأجزاء معـــاً أكثر من مجرد مجموعهـــا بكثير . وهل كان وليد إلا حاصل حياته وحياة المحيطين به ، حاصل زمانه الخاص وزماننا العام ، في وقت واحد ؟ وأي زمان كان كلاهما ، زمانه وزماننا !

فلأعد إلى الغابة . ولأعد إلى البحر .

الفهرس

البحث عن وليد مسعود